

Ingarden, Roman, *The Litterary Work of Art: An investigation on the border line of ontology, logic and theory of literature*, Evanston, Northwestern University Press, 1931.

Iser, Wolfgang, *L'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique*, trad. Evelyne Sznycer, Bruxelles, Mardaga, 1985.

Jauss, Hans Robert, *Pour une esthétique de la réception*, Paris, Gallimard, 1978.

Mukarowsky, Jan, *Structure, sign, and Function: Selected Essay by Jan Mukarowky (Yale Russian and East European studies)*, traduit par John Burbank et Peter Steiner, New Haven and London, Yale University Press, 1978.

Mukarowsky, Jan, *The Word and verbal art: Selected Essay by Jan Mukarowky*, traduit par John Burbank et Peter Steiner, New Haven and London, Yale University Press, 1977.

Todorov, Tzvetan, *Théorie de la littérature, textes des formalistes russes*, Paris, Seuil, 1965.

وبالرغم مما يثيره مفهوم البياض واللاتحديد من انتقادات، فإن هذا المفهوم، وخاصة على مستواه الإجرائي، يفتح آفاقاً واسعة بالنسبة لرصد وتحديد طبيعة تلك العملية التي يقوم بها القارئ، وهي البناء⁴⁷.

وفي الأخير، نشير إلى أن نظرية ايزر حول فعل القراءة والوقع الجمالي تقدم نفسها، على أساس أنها مجرد منهج جزئي قابل لأن يكتمل بمناهج ونظريات أخرى.

المراجع

بارت، رولان، درس السيميولوجيا، ت. عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، 1986. بنحدو، رشيد، «العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر»، مجلة عالم الفكر، ع. 1-2، 1994، ص. 471-495.

دريدا، جاك، الكتابة والاختلاف، ت. كاظم جهاد، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط. 2، 2000. ديكان، كريستيان، «حوار مع جاك دريدا»، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع. 18-19، 1982، ص. 252-256. طليمات، عبد العزيز، «فعل القراءة بناء المعنى وبناء الذات»، ضمن أحمد بوحسن (تنسيق)، نظرية التلقي، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1993، ص. 149-165. الغدامي، عبد الله، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط. 1، 1999.

هولاب روبرت س، نظرية التلقي -مقدمة نقدية-، ت. خالد التوزاني، الجبيلي الكدية، منشورات علامات، المحمدية، مطبعة المتقي برينتر، 1999.

Barthes, Roland, *S/Z, essai*, Paris, Seuil, 1970.

Barthes, Roland, *Le plaisir du texte*, Paris, Seuil, coll. Points, 1982.

Barthes, Roland, *Le bruissement de la langue*, Paris, Seuil, 1984.

Derrida, Jacques, *De la grammatologie*, Paris, Minuit, 1967.

Gadamer, Hans Georg, *Vérité et méthode, les grandes lignes d'une herméneutique philosophique*, Paris, Seuil, 1976.

Gadamer, Hans Georg, *Truth and method*, trans. Garrett Barden et John Cumming, New York, Continuum, 1975.

Ingarden, Roman, *The Cognition of the Literary Work of Art*, trans. Ruth Ann Crowley and Kenneth R. Olson, Evanston, Northwestern University Press, 1973 [1937].

⁴⁷ عبد العزيز طليمات، «فعل القراءة وبناء المعنى وبناء الذات»، ضمن أحمد بوحسن (تنسيق)، نظرية التلقي، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1993، ص. 158.

ويؤكد ايزر أنه لا يجب الاعتقاد أن هذه الاستراتيجيات تمثل كل شيء بالنسبة لترباط النص والتحامه، إنها تكتفي فقط بتقديم بعض إمكانيات الالتحام للقارئ⁴¹. فالنص يجب أن يظل مفتوحاً أمام إمكانية الفهم والتأويل، وإلا فتلك الاستراتيجيات بضبطها لكل شيء ستشل خيال القارئ⁴². إن معنى النص، لا يمكن أن يبنى إلا وفق استراتيجيات محددة أثناء التقائها بسجل النص؛ مما يضمن تسلسل الإطارات الأمامية والخلفية في تفاعلها مع بنية التيمة والأفق، وكل هذا، يدخل القارئ في عملية طويلة ومعقدة من الاختيار والإقصاء والتغيير والتحويل.

- بنية البياضات أو مواقع اللاتحديد⁴³ *les blancs et lieux d'indétermination* مفهوم البياض أو اللاتحديد هو مفهوم ظاهري استمدته ايزر من نظرية انكاردن، ويعني به ملأ الفراغات والبياضات التي تظهر في النص من طرف القارئ. غير أن الشيء الذي يتكون منه البياض بالضبط لم يتم تعريفه، عن قصد، من طرف ايزر، حيث يقول «إنني متفق مع الرأي القائل بأن اللاتحديد مقولة غير مميزة (غير محددة) على الإطلاق وهو بالتالي، وفي أحسن الأحوال، نظرية كلية للتواصل. لكن تعريفه ربما يبعده عن كونه مفهوماً كلياً، يحدد عملية التواصل⁴⁴». ونفس الشيء ينطبق على الوحدة التواصلية التي تتحكم في اللاتحديد، ألا وهي الفراغ أو البياض. إن وظيفة اللاتحديد هي الربط بين أجزاء النص المختلفة، وتكون النتيجة هي البياض الذي يجب على القارئ أن يملأه كي يربط بين الأجزاء المنفصلة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- الانفصالات *Les disjonctions* الموجودة في النص، والتي تثير فضول القارئ وتحفزه على التفكير والتخيل، فيعمل على ملء الفراغ والبياض الذي تطرحه هذه الانفصالات.
- النفيية *La négativité* أو طاقة النفي *Potentiel de négation* عندما يرفض القارئ بعض ما يقدمه النص كحقائق وأفكار، يحدث توتر بين النص والقارئ. ومن هنا تبدأ عملية متبادلة للإسقاط⁴⁵، حيث تؤدي إما إلى حالة تطابق دون حدوث أي صراع أو تغيير، أو تفضي إلى حالة عكسية، وهكذا إلى حين تحقق وضعية مشتركة⁴⁶.

⁴¹ *Ibid.*, p. 162.

⁴² *Ibid.*, p. 163.

⁴³ *Ibid.*, p. 318.

⁴⁴ روبرت س. هولاب، مرجع سابق، ص. 85.

⁴⁵ نفس المرجع، ص. 296.

⁴⁶ نفس المرجع، ص. 296.

ويشير إيزر إلى هذه الأعراف بوصفها سجلا للنص، أي المجال المألوف الذي يلتقي فيه النص والقارئ من أجل الشروع في التواصل. فمن خلال سجل النص يمكن إعادة تنظيم الأعراف الاجتماعية والثقافية، وكذا التقاليد الأدبية التي يعيد القارئ تقييم وظيفتها في الحياة الواقعية. ومن هنا يمكن أن يفهم النص كرد فعل للانساق الفكرية التي اختارها وأدمجها في سجله، ذلك أن الأدب يقدم إمكانات سبق أن أقصاها النسق السائد، مما يساعد القراء على رؤية ما لم يستطيعوا رؤيته عادة خلال المسار العادي في الحياة اليومية. وهكذا يكون للسجل وظيفة مزدوجة في نموذج إيزر، يعيد سجل النص صياغة الخطاطات المألوفة لتشكل أرضية لعملية التواصل، ويقدم إطارا عاما لتنظيم إرسالية ومعنى النص.

- استراتيجيات النص *Stratégies du texte* يطلق إيزر مصطلح استراتيجيات النص على البنية التي تقوم بوظيفة تنظيم العناصر المضمونية التي يحتوي عليها سجل النص. فهي تشمل «البنية المحيطة»³⁸ للنص وأفعال الفهم، وإثارة الفهم في ذهن القارئ. كما لا ينبغي إدراك هذه الاستراتيجيات كتخطيط شامل للنص، لأنه في هذه الحالة لن يكون للقارئ أي دور تنظيمي يقوم به. ولا ينبغي اعتبارها، كذلك، كتقنيات سردية تقليدية، وأدوات بلاغية، لأن هذه الأدوات ليست سوى ظواهر سطحية للنص، حسب رأي إيزر، وإنما المقصود بالاستراتيجيات هو البنيات التي تشكل أساس هذه التقنيات السطحية، بحيث تسمح هذه الاستراتيجيات بربط عناصر السجل فيما بينها. وكذلك ضبط العلاقة بين السياق المرجعي للسجل، وبين القارئ المدعو لتحقيق النسق التعادلي.³⁹

- بنية الإطارات *Structure des plans*. بما أن الوظيفة الأساسية للاستراتيجيات هي بناء الانزياح أو تخريب المألوف، فإن إيزر يطرح بنيتين: بنية الإطارات الأمامية *l'avant-plan* والإطارات الخلفية *l'arrière-plan*، ثم بنية التيمة والأفق *le thème et l'horizon*. ففي الوقت الذي تسمح فيه بنية الإطارات ب بروز بعض العناصر واختفاء أخرى في السياق العام للنص، فإن هذه البنية توجه إدراكات القارئ وهي المسؤولة عن معنى العمل الأدبي.

أما بنية التيمة والأفق فتعمل على انتقاء منظور من بين منظورات متعددة في النص، كمنظور السارد، ومنظور الشخصيات ومنظور الفعل أو الحكمة ومنظور القارئ المتخيل.⁴⁰ وعندما يهتم القارئ بإحدى هذه المنظورات، فسيكون موقفه مشروطا بالأفق الذي تأسس من القراءة السابقة ومن المنظورات الأخرى. وهكذا، يخلق التوتر بين التيمة والأفق آلية تتحكم في الإدراك بالرغم من كون المعنى النهائي للنص يتجاوز حتما كل منظور فردي.

³⁸ *Ibid.*, p. 163.

³⁹ *Ibid.*, p. 161-162.

⁴⁰ *Ibid.*, p. 180.

إن ايزر يرفض التفريق بين معنى ودلالة النص، بل يتحدث عن بناء المعنى وإنتاجه. فبالنسبة له ليس الأهم هو المعنى أو الدلالة في حد ذاتهما، بل ما يتولد عنهما، أو بالأحرى ما ينبثق أثناء عملية القراءة من أثر أو وقع جمالي بتنوع مصادره وأشكاله. إن المعنى عند ايزر هو الذي يبنى بمساهمة القارئ، وعبر فعل القراءة باعتبارها عملية تفاعلية أي تواصلية بالأساس. كما نجد ايزر ينطلق من مبدأ ظاهراتي يوجه أغلب آرائه حول فعل القراءة وهو مبدأ التحقق Concrétisation الذي يحدد هوية بناء معنى النص. فالنص ليس هو المعنى بل هو وسيط، أما المعنى فيتولد من خلال التحقق أي أثناء تدخل القارئ والتقاءه بالنص، حيث تبدأ عملية تخلق المعنى وتكونه أي ما يسميه ايزر بالموقع الافتراضي Lieu virtuel ويعني به نقطة بداية تحقق المعنى وخروجه من حالة الكمون إلى حالة الوجود بالفعل.

من خلال هذا التصور وضع ايزر مجموعة من الآليات والميكانيزمات لبناء المعنى، وأهمها: سجل النص واستراتيجيات النص، وهما مفهومان مرتبطان بالنص. بالإضافة إلى بنية الإطارات وبنية البياضات ومواقع اللاتحديد، وهما يرتبطان بالقارئ أي بتحقيق القراءة. ولا يمكن تصور تحقق هذين الأخيرين دون الأولين، والعكس صحيح، إذ يبقى التفاعل Interaction هو الضابط لعملية القراءة برمتها:

- سجل النص Le repertoire du texte، إن سجل النص يحيل على كل ما هو سابق عن النص (نصوص سابقة) وخارج عنه (كأوضاع اجتماعية وتاريخية وثقافية). إن تكون سجل النص يمر عبر عملية طويلة ومعقدة يتم فيها تقديم عناصر دلالية معينة وتأخير أو إقصاء عناصر أخرى. وهكذا فإن النص لا يحيل على ما هو مهمين أو سائد، وإنما على ما هو مفترض أي على أفق النسق نفسه³⁴.

والمعنى في النص لا يكون جاهزاً، وإنما يتحدد من خلال تلك الصيرورة التي تلعب فيها القراءة دوراً أساسياً. إن ما يميز علاقة القارئ بالنص هو غياب وضعية مشتركة وإطار مرجعي جاهز³⁵، وبالرغم من كون «النص التخيلي يحتوي على عناصر متعارف أو متواطئ عليها بين القارئ والنص، فإن صلاحية منظومة التراكم العرفية تجد نفسها موضع نقاش حاد³⁶». ذلك أن النص لا يقدم لنا سوى جزءاً من الواقع فقط، ويقوم بتنظيم أعرافه لكي تصبح موضوع تأملنا، حيث تنزع هذه الأعراف Les conventions من سياقاتها الاجتماعية، وتحرم من وظيفتها التنظيمية، فتصبح مواضيع قابلة للفحص في حد ذاتها³⁷.

³⁴ Ibid., p. 133.

³⁵ Ibid., p. 225.

³⁶ Ibid., p. 121.

³⁷ Ibid., p. 113.

يقترن بمصطلحات أخرى كأفق التوقعات وأفق التجربة، وأفق البنية، وتغيير الأفق، وأفق الشروط المادية. ويظهر أن يابوس يعتمد على بديهة القارئ في فهم مصطلح أفق الانتظار الذي يحيل، حسب يابوس، على نسق تداوي (ذاتي) من الإحالات أم مجموعة ذهنية يمكن أن يتقدم بها شخص افتراضي تجاه أي نص كان³⁰.

ولتجنب السقوط في النزعة الذاتية المفرطة، وتجاوز التجاوبات القرائية يتوسل يابوس بالنسق السيميائي عند ستامبل Stempel وباللسانيات النصية، يقول يابوس:

لا يكون المسار النفسي في تلقي نص ما، بأي حال من الأحوال، وخاصة في الأفق الأولي للتجربة الجمالية إلا سلسلة اعتباطية من الانطباعات الذاتية فحسب، بل هو إنجاز التعليمات المعنية في مسار إدراك موجه يمكن فهمه طبقاً للحوافز المكونة له، وكذا العلامات المثيرة، هذه العلامات يمكن وصفها أيضاً من خلال اللسانيات النصية³¹.

2.3.3. فعل القراءة والوقع الجمالي: فولف كانغ ايزر Wolfgang Iser

لقد كان لعمل فولف كانغ ايزر *L'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique* الذي نشره سنة 1976³²، أثر كبير في النقد الألماني، حيث أصبح ايزر، شأنه شأن يابوس، من أكبر منظري النقد الألماني، وأحد أكبر فرسان مدرسة كونسطانس. وإذا كان يابوس قد اتجه منذ البداية نحو تلق تاريخي في بعده الجمالي والتأويلي، فإن ايزر قد انطلق في نظريته للقراءة والتلقي، من الاتجاهات التأويلية للنقد الجديد ونظرية السرد، متأثراً بظاهرية رومان انكاردن، بحيث تبنى عدداً كبيراً من مفاهيمه المحورية. اهتم ايزر بالنص الفردي وعلاقته بقارئه³³. وبالرغم من كونه لا يقصي العناصر الاجتماعية والتاريخية، فإن هذه العناصر تخضع بوضوح لاعتبارات نصية مفصلة أو تندمج فيها.

وبخلاف الطرح التقليدي الذي كان يروم توضيح المعنى الخفي في النص وتفسيره، فإن هاجس ايزر يتمثل في البحث عن كيفية إنتاج المعنى، وطريقة تقديمه للقارئ في النص. وإنتاج المعنى هو نتيجة لتفاعل بين النص والقارئ. ومن هذا المنطلق، فإن ايزر يؤسس نموذجاً في القراءة على ثلاثة عناصر متداخلة ومتفاعلة هي: النص - القارئ - وتفاعلها.

³⁰ نفس المرجع، ص. 57.

³¹ نفس المرجع، ص. 58.

³² Wolfgang Iser, *op. cit.*

³³ القارئ الضمني عند ايزر ليس بالقارئ العادي، ويعتبره شرطاً نصياً وعملية لإنتاج المعنى المحتمل كذلك، انظر: *Ibid.*, p. 60-76.

ويوظف ياوس لهذا الغرض مفهومين أساسيين هما مفهوم أفق الانتظار ومفهوم الأسطوغرافيا أو التاريخية. ويقصد بهذه الأخيرة دراسة الأحداث الأدبية في علاقتها بالأوضاع التاريخية والجمالية والفنية، وتطور تلقي هذه الظواهر الأدبية عبر التاريخ. وذلك من خلال تتبع تيار أو مدرسة أو جنس أدبي واحد أو نص طليعي ليقيس مدى ارتباطه على مستوى الداخل- الأدبي بالمعايير الفنية التي أسستها نصوص سابقة من نفس النوع والخصيصة. ويقيس على مستوى الخارج- الأدبي مدى ارتباطه بانتظارات الجمهور الاجتماعية والفنية والأخلاقية، حيث تختلف ظروف استقبال العمل الفني من جيل لآخر، بل من شخص لآخر حسب سياقات التلقي. إن منهجية ياوس في تاريخية القراءة والتلقي تتأسس على مراحل ثلاث:

- المرحلة التعااقبية *Diachronique* تهتم بالمنعطفات والتمفصلات الكبرى في تاريخ الأدب، أي بالأعمال الأساسية التي حققت انزياحا جماليا كدون كيشوط لسرفانتس، ومدام بوفاري لفلوبير وغيرهما.

- المرحلة التزامنية *Synchronique* تهتم بتتبع عمل محدد في الزمن، ومراقبة أنظمة تسلسل الأعمال الأدبية الجديدة عبر التاريخ. فتطور الجنس الأدبي، مثلا، يتطلب دراسة نظامه أو نسقه ومقارنته مع أنظمة الأجناس الأخرى، قصد الوقوف على العلاقات الموجودة بينه وبينها لمعرفة الثابت والمتحول في هذه الأنظمة.

- العلاقة بين التطور الذاتي للأدب وتطور التاريخ العام²⁷، كدور الأدب، مثلا، في تغيير الحس الاجتماعي أو العكس، فسيرورة التاريخ كما يرى ياوس لا يؤثر فيها إلا الأعمال الكبرى التي تحقق انزياحا على مستوى الإدراك في الشكل والوظيفة.

وهما أن جمهور القراء ليس معزولا عن المجال الاجتماعي، فإن قراءته تدمج في سيرورة التواصل بين الماضي والحاضر، وتصبح هذه القراءة وظيفة وأداة لمعرفة التحولات التي أثرت وتوثر في السلوك الاجتماعي الذي يوظف هذا التواصل²⁸. وبهذه الوظيفة التواصلية بين العمل وقارئه، وبتحققها عبر التاريخ المتطور للقراء، نستطيع أن نقف على المعايير الجمالية في العمل وربطها بالإبداع الاجتماعي.

أما مفهوم أفق الانتظار الذي يعد مفهوما محوريا في نظرية ياوس، لم يوجد من فراغ؛ بل كان متداولاً في الأوساط الفلسفية الألمانية؛ استعمله كادير وهوسورل وهایدغر. فالمصطلح لم يكن جديداً تماماً²⁹، ومع ذلك، هناك غموض يكتنف تعريف ياوس لهذا المصطلح خاصة عندما

²⁷ *Ibid.*, p. 63.

²⁸ *Ibid.*, p. 257.

²⁹ روبرت س هولاب، مرجع سابق، ص. 56.

3.3. القراءة الجمالية: مدرسة كونسطانس

1.3.3. جمالية القراءة أو التلقي Esthétique de la reception

إنها النظرية التي طورها هانس روبرت ياوس Hans Robert Jauss، أحد أقطاب مدرسة كونسطانس الألمانية، تهتم بالقارئ أو المتلقي بصفته مكوناً أساسياً ضمن مكونات النص، لا يمكن تجاهل دوره الفاعل في فهم العملية الإبداعية. إن اندراج النص في مقام تواصلية يعتبر من أهم النقاط التي يراهن عليها هذا الاتجاه. فالنص لا يعد نصاً إلا في علاقته بوعي القارئ، سواء أكان معطى نصياً من خلال القارئ الضمني²³ Lecteur implicite، أو معطى تاريخياً من خلال القارئ التاريخي الذي يتلقى النصوص مباشرة، ويحققها عبر التاريخ. لذلك ركزت جماليات التلقي بحثها في أنواع القراءات المختلفة والمتتالية تاريخياً، والتي انكبت طوال فترات من الزمن على دراسة نص معين، وقد رصدت لهذه العملية مفهومين دقيقاً هو مفهوم أفق الانتظار.

والواقع أن ياوس يدين بالكثير للشكلانية الروسية والبنوية التشيكية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، حيث انطلقت مساهمة ياوس من خلال حوار مع الأدبيات الماركسية والشكلانية والهرمنيوطيقية قصد بناء تلق تاريخي للنص الأدبي، وكذا الاهتمام بالقارئ كواقعة تاريخية. يرى ياوس أن الأدبيات الماركسية والشكلانية لم تعر أي اهتمام للقارئ والمتلقي بالرغم من دوره المؤثر في تلقي الخطاب الأدبي جمالياً واجتماعياً²⁴. فالماركسية تلحقه بالمؤلف، وتكتفي بالبحث عن أصله الاجتماعي فتدمجه بذلك، في الأصول الاجتماعية للإنتاج الأدبي، بينما تستعمله الشكلانية كموضوع للإدراك الجمالي، لتجعله، بذلك، بنية محايدة للنص²⁵. ولتجاوز هذا القصور يؤكد ياوس على أهمية إدماج القارئ في العملية الإبداعية لأنه مصدر من مصادر المعرفة التاريخية والجمالية. ومن خلاله يدمج العمل في الاستمرارية الدينامية للتجربة الأدبية، بحيث يتم مرور التلقي أو القراءة من مرحلة إلى أخرى، ومن جيل لآخر ليشكل تاريخاً²⁶. وكذلك على المستوى الجمالي فتعدد القراءة من جيل إلى جيل ينتج حكماً جمالياً يغتني باستمرار.

²³ القارئ الضمني: هو أكمل تصور للقارئ في ذهن الكاتب. ويسمى أيضاً القارئ المؤمّل لأنه يتغلب على كل العوائق والعقبات التي تحول دون فهم النص. انظر: Wolfgang Iser, *l'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique*, trad. Evelyne Sznycer, Bruxelles, Pierre Mardaga, 1985, p. 60.

²⁴ Hans Robert Jauss, *Pour une esthétique de la réception*, trad. Claude Maillard, Paris, Gallimard, 1978, p. 44.

²⁵ *Ibid.*, p. 44.

²⁶ *Ibid.*, p. 45.

- مفهوم الاختلاف الذي هو عبارة عن فعالية حرة غير مقيدة، لا تعود لا إلى التاريخ ولا إلى البنية «إنه الإزاحة التي تصبح بواسطتها اللغة أو العلامة، أو أي نظام مرجعي عام ذي ميزة تاريخية، عبارة عن بنية من الاختلافات»²¹. إن الاختلاف يوجد في اللغة ليكون أول الشروط لظهور المعنى.

- مفهوم الانتشار والتبعثر La dissémination إن معنى النص منتشر ومبعثر فيه، وبالتالي لا يمكن الإمساك به، فهو لعب حر لا متناه لأكبر عدد ممكن من الدوال التي تحدث أثر الدلالة فقط.

- مفهوم الملحق، وهو كل ما من شأنه أن يقلب نظام ما ينضاف إليه، أو يحل محله أحيانا فيتحوّل الملحق انطلاقاً من لعبة تبادل الأدوار إلى مركز، والمركز إلى هامش.

- مفهوم الحضور والغياب، فالحضور هو الدال، والغياب هو المدلول ذلك الغامض الملتبس، وعملية التفكير هي ركض خلف المعنى الغائب لوقوعه خارج أسوار الحضور. وأثناء هذه العملية يمكن أن ينزلق المدلول ليتحول إلى دال فيصبح الحضور والغياب واجهة لتبادل الأدوار.

- مفهوم الأثر وهو «إمحاء الشيء وبقاؤه محفوظاً في الباقي من علاماته. وهو ما يشير ويحوّ في الوقت نفسه أي ما لا يكون حاضراً أبداً»²².

- مفهوم السياق، ويقصد به مجموع النصوص والعلامات المتحركة حول الأثر أو النص وورائه، فدريدا لا يضع حدوداً بين النصوص لأنه يعتبرها جزءاً من السياق في بناء الأثر.

هذا بالإضافة إلى مفاهيم أخرى كمفهوم التمرکز حول العقل Logocentrisme كسلطة أولى لتحديد الأفكار والمعاني بوصفها حضوراً لا متناهياً، ومحاولة دريدا تحطيم ودحض هذا الزعم. ثم مفهوم الكراماتولوجيا Grammatologie أو علم الكتابة الذي ينتقد فيه دريدا تمركز الكلام بوصفه إطاراً للحضور والهوية والوحدة والبداهة، على حساب الكتابة بوصفها إطاراً للغياب والاختلاف والنقد والتباين، معتبراً الكتابة هي أصل كل الأنشطة الثقافية الإنسانية.

من خلال هذه القراءة التفكيكية، استطاع دريدا أن يقوض أسس ومظاهر التمرکز المنطقي عند الغرب، رافضاً كل تقاليد القراءة الكلاسيكية. وهذا الرفض يعود إلى كون تيار التفكير يقوم على الشك المطلق في كل شيء، إلى درجة أنه يعتبر كل قراءة هي بالضرورة إساءة قراءة.

²¹ جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ت. كاظم جهاد، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط. 2، 2000، ص. 28.

²² نفس المرجع، ص. 33.

ثانية، إلى تقويض ما تصل إليه من نتائج في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معاني تتناقض مع ما يصرح به. ويقوم مشروع هذه القراءة على تقويض وقلب كل ما كان سائداً في الميتافيزيقيا الغربية سواء اقترن ذلك بالمعنى الأصلي أو الحقيقة الثابتة أو المعرفة العلمية المطلقة أو الهوية والوعي والذات المتمركزة حول ثنائيات ضدية عدائية يتأسس عليها الفكر الغربي الكلاسيكي كثنائية الروح/ الجسد، العقل/ العاطفة، الذات/ الآخر، الرجل/ المرأة، المشافهة/ الكتابة... وباختصار تقويض كل الأسس التي يقوم عليها الخطاب الفلسفي الغربي، يقول دريدا «ينبغي أن تتحرر القراءة ذاتها، من مقولات التاريخ الكلاسيكية، ليس فقط من مقولات تاريخ الأفكار وتاريخ الأدب، بل أيضاً، وربما فوق كل شيء من مقولات تاريخ الفلسفة»¹⁹. ومن خلال هذا المنظور، فقد تفاعل جاك دريدا مع نصوص القبلانية وأفلاطون وأرسطو وروسو وجدلية هيغل، مروراً بالفلسفة الماركسية وفلسفة نيتش وهایدغر وظاهراتية هوسرل ولا وعي فرويد... لقد فتحت هذه القراءات الفلسفية الباب على مصراعيه أمام فكرة الاختلاف والتجاوز والتحول والتفكيك المستمر لحقل الدلالات والمعاني. فتعامل دريدا مع نصوص هؤلاء باعتبارها نصوصاً غير متجانسة تكمن داخلها قوى عمل، هي في نفس الوقت قوى تفكيك للنص، فدرس قوة الفجوات والهوامش داخل هذه النصوص، فضلاً عن الأشكال والاستطرادات والتوقيفات والغموض والبياضات، إلخ. وبناء عليه، فإن استراتيجية دريدا في القراءة تنبني على الوقوف على هذه العناصر المذكورة بمعنى الاستقرار والتموضع في البنية غير المتجانسة للنص والعثور على توترات وتناقضات داخلية يقرأ النص من خلالها نفسه. وهذا يقود إلى تخصيب مستمر للمدلول بحسب تعدد قراءات الدال، وبالتالي فإن تنازع القراءات فيما بينها للخطاب يفضي إلى متوالية لا نهائية من المدلولات لا يمكن لأحدها أن يستأثر بالاهتمام دون الآخر لأن لا وجود للأصل والمركز في قراءة دريدا «إن التفكيك هو حركة بنيانية وضد البنيانية في الآن نفسه، فنحن نفكك بناءً أو حادثاً مصطنعاً، نبرز بنياته، أضلاعه أو هيكله كما قلت، ولكن نفك في آن معاً البنية التي لا تفسر شيئاً. فهي ليست مركزاً، ولا مبدأً ولا قوة»²⁰. وهكذا تتحاشى القراءة التفكيكية المركز أو البؤرة المحورية للنص لتبحث في الهوامش والحواشي وتجعلها مؤقتاً قوة مركزية. في حين تصبح البؤرة المحورية للنص هامشاً أو ملحقا Supplément.

ويقترح دريدا مجموعة من المفاهيم والمصطلحات الأساسية التي تنظم وتوجه استراتيجية القراءة والتأويل:

¹⁹ Jacques Derrida, *De la grammatologie*, Paris, Minui, 1967.

أورده روبرت س. هولاب، مرجع سابق، ص. 144.

²⁰ كريستيان ديكان، «حوار مع جاك دريدا»، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع. 18-19، 1982، ص. 254.

بين القارئ والنص، إذن، علاقة اشتها متبادل. ولكن أي النصوص تمنح القارئ متعة؟ إنه ذلك النص الذي يثير فيه الإحساس بالضياح ويربكه ويزعزع قيمه التاريخية والثقافية والنفسية، ويؤزم علاقته باللغة¹⁴. إنه نص الحداثة الذي يختار قارئه «بواسطة نظام خاص من الإشارات الخفية، والأحاييل الانتقائية. أي اللغة والإحالات والمقروئية [...]»¹⁵.

ويضع رولان بارت نمذجة لقراءة اللذة أو المتعة مستعيرا مصطلحاته من التحليل النفسي، وذلك في ربط غريب بين عصاب القارئ وهلوسة النص:

- القارئ المهووس، الذي يتلذذ بإنتاج خطاب مواز للنص ميتا-خطاب Métadiscours أي خطاب الناقد واللغوي والسيميائي.

- القارئ الهستيري، الذي ينقذف في دوامة النص واللغة التي لا قرار لها ولا حقيقة.

- القارئ الذهاني (البارانوياكي) الذي ينتج على هامش القراءة نصا هذيانيا.

- القارئ المتيّم (الفيتيشي) الذي يتلذذ بمناطق معينة في جسد النص¹⁶.

ولكي تحقق هذه النمذجة، أي نمذجة قراءة اللذة، أهدافها يجب على الكتابة أن تصرف في مستقبلها بحيث تعوض ولادة القارئ موت المؤلف، ويطالب القارئ بأحقّيته في إنتاج النص¹⁷، فتصبح القراءة حينذاك إعادة كتابة للنص لا استهلاكاً مجانياً له. وبهذا المعنى، تكون القراءة مثل الكتابة إنتاجاً. فالقراءة بترتيبها لنسق الأشكال المشغلة في الكتابة، هي التي تصنع للنص دلالاته بل إحدى دلالاته الممكنة. وهذا ما يفسر تنافي العمل الأدبي مع الوضوح والمقروئية Lisibilité. لأنهما يعملان على تعطيل طاقة القراءة والإنتاج لدى القارئ. وكما أن النص متعدد Pluriel لا حدود لدلالاته ومعانيه، فإن القارئ كذلك متعدد ولا حدود لقراءاته وتأويلاته «هذا الأنا الذي يقترب من النص هو ذاته تعدد لنصوص أخرى، سنن وشفرات لا محدودة أو بدقة أكثر ضاع أصلها»¹⁸.

2.3. القراءة التفكيكية

القراءة التفكيكية أو التقويضية Déconstruction عند جاك دريدا Jacques Derrida هي قراءة تسعى أولاً إلى دراسة النص لإثبات معانيه الصريحة والمعلنة، ثم تسعى، في مرحلة

¹⁴ نفس المرجع، ص. 486.

¹⁵ Roland Barthes, *le plaisir du texte*, Paris, Seuil, Coll. Points, 1982, p. 25-26.

¹⁶ رشيد بنحدو، المرجع السابق، ص. 486.

¹⁷ Roland Barthes, *le bruissement de la langue*, op. cit., p. 67.

¹⁸ Roland Barthes, *S/Z. Essai*, Paris, Seuil, 1970, p. 16.

الأفق الذي استمدته من ظاهراتية هوسورل بوصفه مفهوماً أساسياً في تحديد تصوره لفكرة الوضعية «إن الأفق يصف تموضعنا في العالم، ولكن لا يجب أن نعتبره وجهة نظر ثابتة أو مغلفة، بل إنه شيء ما نتحرك في إطاره وهو يتحرك معنا»¹¹، ويمكن أيضاً أن نعرف هذا الأفق، بالإحالة على الأفكار المسبقة التي نحملها معنا في أية لحظة. فيحصل ما يسميه كادامير انصهار أفق الفرد بالأفق التاريخي.

3. اتجاهات ونظريات القراءة

ظهرت منذ بضعة عقود، عدة تصورات ومدارس ونظريات حاولت دراسة مفهوم القراءة، فوضعت لأجل ذلك، مجموعة من المفاهيم والمصطلحات والأدوات الإجرائية والمنهجية لتحليل وتفكيك عملية القراءة. غير أن هذه المدارس والاتجاهات، إذا كانت تتفق حول ضرورة إيجاد مفهوم جديد لقراءة وتلقي الأعمال الأدبية، فإنها تختلف من حيث الخلفيات والمنطلقات الفلسفية والمفاهيم والتصورات النظرية، فتعددت، بذلك، وتشعبت مفاهيم وتعريفات القراءة حتى أضحت عدد أنماط القراءة يضاهي عدد أنماط القراء أنفسهم. ونظراً لكثرة المنظرين وتعدد القراءات وأنواع القراء، سنكتفي بالإشارة إلى أهم الدراسات التي خلفت ردود أفعال متباينة.

1.3. قراءة اللذة

دعا رولان بارت Roland Barthes إلى ضرورة الاهتمام بالقراءة ومنحها موقعا بارزا في مجال الدراسات الأدبية، حيث تسأل «هل بإمكاننا، وبكل هدوء وتعقل، أن نطمح إلى علم القراءة إلى سيميولوجيا القراءة ؟»¹². إن موضوع القراءة عند رولان بارت يقتزن بمفهوم اللذة أو الرغبة، حيث يميز بين ثلاثة أنواع للرغبة تثير القارئ وهي :

- أن يدخل القارئ مع النص في علاقة افتنان، فيفتن ببعض كلماته ويتلذذ ببعض «مناطقه»¹³.
- أن يجذب القارئ إلى الأمام على امتداد النص بفعل قوة خفية ضاغطة، وكلما تقدمت القراءة يستنزف النص، وفي استنزافه تكمن اللذة.
- أن تؤدي القراءة إلى الرغبة في إعادة كتابة النص.

¹¹ Ibid., p. 217 .

¹² Roland Barthes, « Sur la lecture », dans *le bruissement de la langue*, Essais critiques, Paris, Seuil, 1984, p. 27.

¹³ رشيد بنحدو، «العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر»، عالم الفكر، ع.1-2، 1994، ص. 465.

ويتكون من بعدين: بعد يحدد القيمة الجمالية للعمل، ويحتوي على أربع طبقات⁸ : طبقة معجمية صوتية وإيقاعية؛ طبقة الوحدات الدلالية؛ الموضوعات الممثلة؛ ومظاهر خطاطية تجسد الموضوعات. وبعد زمني يحتوي على متوالية الجمل والفقرات والفصول التي يشتمل عليها العمل الأدبي. ويشكل مجموع الطبقات والأبعاد، هيكلًا وبنية خطاطية غير تامة تحتوي على فراغات يتممها القارئ، خاصة في الطبقة الثالثة والرابعة. وتطرح الموضوعات الممثلة في العمل الأدبي، مواقع أو أماكن لا تحديد بمعنى أن هذه الموضوعات تحتوي على عناصر محددة، لكنها في نفس الوقت، تحتفظ لنفسها بدرجة من اللاتحديد، فتسقط عن قصد عناصر دلالية، وعلى القارئ أن يكتشفها. ويتطلب ملأ مواقع اللاتحديد إبداعًا ومهارة ووضوحًا للرؤية من طرف القارئ.

بالإضافة إلى مفهوم اللاتحديد، يطرح انكاردن مفهوم التحقق *Concrétisation* الذي يعد من المرتكزات التي تقوم عليها نظرية القراءة والتلقي. فأثناء عملية القراءة، يحصل تفاعل معرفي بين القارئ والنص، إذا كانت القراءة تتسم بالكفاءة، فإنها تقوم بتحيين جزء هام من الوحدات الدلالية، وذلك بملاء الفراغات لكي يصبح النص قابلاً للفهم. وغالبًا ما يحيل انكاردن على هذا النشاط باعتباره تحققًا يقوم به القارئ لملاء مواقع اللاتحديد. وأثناء التحقق يجد القارئ ذواتهم، ويمارسون خبراتهم الشخصية؛ وبالتالي، لا يوجد هناك تحققان متماثلان بشكل دقيق، حتى عندما يكونان نتاجين لنفس القارئ.

هناك منظر آخر كان له تأثير كبير في نظرية القراءة والتلقي، وهو هانس جورج كادامير، وذلك من خلال مفهومين محوريين هما: مفهوم التاريخ الفعلي، ومفهوم الأفق اللذين وظفهما كادامير في إطار نظريته حول علم التأويل أو الهرمنيوطيقا كما يتبدى في كتابه *Truth and method*⁹. فالتفكير الهرمنيوطيقي الصحيح، في نظره، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار تاريخيته الخاصة. ولا يكون علم التأويل علمًا حقيقيًا إلا إذا برهن على فاعلية التاريخ داخل إطار الفهم ذاته. ويسمي كادامير هذا النموذج من علم التأويل التاريخ الفعلي؛ إنه وعي جديد، وعي التاريخ الفعلي الذي يمكن أن يعترف بما يقع مسبقًا عندما نلتقي بالماضي، فيجعلنا واعين بالواقع أو بعبارات كادامير «واعين بالوضعية الهرمنيوطيقية»¹⁰. ولكي يوضح ذلك، يتبنى كادامير مفهوم

⁸ روبرت س. هولاب، نظرية التلقي - مقدمة نقدية - ت. خالد التوزاني، الجليلي الكدية، منشورات علامات، المحمدية، مطبعة المتقي، 1999، ص. 27.

⁹ Hans-Georg Gadamer, *Truth and Method*, trans. Garrett Barden, John Cumming, New York, continuum, 1975.

¹⁰ *Ibid.*, p. 268.

بالأداة وبوظيفتها ضمن عملية التطور الأدبي كعنصر يسد الفراغ بين النص والقارئ، خاصة وأن التغيرات في الفن تحدث نتيجة لرفض الأساليب الأدبية المعاصرة ممهدة بذلك، لفكرة استبدال الأنساق عند ثينيانوف Tynianov. كما أن مفهوم التغريب كأداة عند شكولوفسكي Shklovsky هو صياغة أولية لأحد مكونات عملية القراءة.

أما إضافات مدرسة براغ⁵ التي استفادت منها نظرية القراءة والتلقي، فتتجلى في أعمال يان موكاروفسكي Mukarovsky وفيلكس فوديسكا Vodicka الأول من خلال تصويره للفن كنسق دينامي دال. فكل عمل فردي هو بنية مستقلة، لكنها بنية لها إحالات على ما سبقها. وهكذا فالبنيات ليست مستقلة عن التاريخ، بل هي مرتبطة بتسلسل زمني، وأهم خصائص هذه البنيات كونها تشغل كعلامات أو أنساق دلالية. والعمل الفني، بهذا المعنى، هو دليل أو علامة مركبة أي «حدث سيميائي»⁶ يتوسط بين الفنان والمخاطب (الجمهور، المجتمع والقارئ). إن موكاروفسكي يؤكد على الطبيعة الاجتماعية للدليل والمتلقي معا، باعتبار العمل الفني دليلا اجتماعيا، وباعتبار متلقيه عضوا في جماعة. لقد امتدت أيضا مساهمة موكاروفسكي في طرح الإشكالية الموجهة نحو القارئ إلى ميدان ما نسميه الآن «علم اجتماع الأدب والفن». إن تقويم الأعمال الفنية، والوظيفة الفنية ذاتها في مجتمع معين، لا يمكن فصلها عن الشروط التي ينتج فيها الفن، وعن إمكانيات التوزيع، وعن مجموعة من العوامل المتعلقة بشروط السوق.

أما مساهمة فوديسكا فتتجلى في صياغته لبعض الإشكاليات التي طرحها موكاروفسكي والمرتبطة بمظاهر التلقي، مع التأكيد على أن بنية العمل الفني بأكمله تتخذ طابعا جديدا عندما تتغير ظروف العمل التي تشمل الزمان والمكان والشروط الاجتماعية.

وبالنسبة لرومان انكاردن، فإن أثره في نظرية القراءة والتلقي، يتجلى من خلال عمليتين⁷، سمحا لمنظري التلقي بألمانيا خاصة أن يدركوا، بشكل أكثر وضوحا، اهتمام انكاردن بالعلاقة بين النص والقارئ. ينطلق انكاردن من خلفية فلسفية استمدتها من ظاهراتية هوسرل Husserl حيث يعتبر العمل الأدبي موضوعا قصديا محضا غير مستقل وغير محدد، يعتمد على فعل الوعي،

⁵ Jan Mukarowsky, *The Word and Verbal Art: Selected Essays by Jan Mukarowsky*, 1977; *Structure, Sign, and Function: Selected Essays by Jan Mukarovsky...*, 1978, traduits par John Burbank et Peter Steiner, New Haven and London, Yale University Press.

⁶ Jan Mukarowsky, « Art as a Semiotic Fact », dans *The Word and Verbal Art...*, op. cit.

⁷ Roman Ingarden, *The Literary Work of Art: An Investigation on the Borderlines of ontology, Logic, and theory of literature*, trans. George Grabowicz, Evanston, Northwestern University Press, 1973 [1931]. *The Cognition of the Literary Work of Art*, trans. Ruth Ann Crowley and Kenneth R. Olson, Evanston, Northwestern University Press, 1973 [بالولونية 1937].

ثم جاءت مرحلة ثالثة أصبح فيها للقارئ سلطة يتقاسمها مع النص، بل قد يتجاوزه في بعض الأحيان، طالما أن النص بدون قراءة يبقى مجرد إمكانية تفتقر إلى التحقق. فالقارئ هو الذي يحيي النص ويمنحه القوة والجدة والحاضر والمستقبل، وهو الفضاء الذي ترسم فيه كل الاقتباسات التي تتألف منها الكتابة. والقارئ «إنسان لا تاريخ له ولا حياة شخصية ولا نفسية، إنه ليس إلا ذلك الذي يجمع فيما بين الآثار التي تتألف منها الكتابة [...]»². لقد انتقل الفكر الأدبي والنقدي إلى التمحور حول القارئ بدل المؤلف «فانكسرت مركزية المعنى ومركزية الذات الأولى التي تحتكر المعنى. وصار المعنى مبعثراً على وجه النص ينتظر قارئاً ما لكي يلتقط مفرداته الأولى، وينظم منها شجرة دلالية»³.

2. روافد وإرهاصات نظرية القراءة والتلقي

إن الاهتمام بالقارئ والمتلقي ليس جديداً بالمرة، إذ يمكن أن نعتبر كتاب فن الشعر لأرسطو أول عمل يلعب فيه تجاوب الجمهور دوراً أساسياً، وذلك من خلال مفهوم التطهير بوصفه مقولة محورية للتجربة الجمالية. كما يمكن اعتبار التراث البلاغي بأكمله، سواء عند الغرب أو العرب، وعلاقته بالشعر، إرهابات أولية لتفاعل الباث بالمتلقي من خلال عملية التأثير والتأثر. لكن يمكن القول إن هناك نظريات وأبحاث رائدة ساهمت في نضج وبلورة نظرية القراءة والتلقي وهي: الشكلانية الروسية، وبنوية مدرسة براغ، وظاهراتية رومان انكاردن Ingarden، وعلم التأويل عند هانس جورج كادمر Gadamer وعلم اجتماع الأدب. وتعود أهمية هذه الاتجاهات إلى كونها أثرت بشكل واضح في تصورات وأطروحات نظرية القراءة والتلقي، كما ساعدت على إيجاد الحلول اللازمة للدراسة الأدبية من خلال إعادة تركيز الانتباه على علاقة النص بالقارئ.

فالشكلانية الروسية⁴، بالرغم من كونها قد اقترنت بالبنوية والنقد الحديث، إلا أن صلتها بالتلقي وبالقارئ تبدو واضحة من خلال توسيع مفهوم الشكل، ليشمل الإدراك الجمالي الذي يعتبر قطب الرّحى في عملية التلقي. فالقارئ المحلل حسب الشكلانيين يجب أن ينطلق من القوانين العامة للإدراك، بمعنى اكتشاف المبادئ الموجهة لتحليل وتقويم الأعمال الفنية. فيصبح القارئ المدرك حينئذ هو المؤهل لتحديد الخاصية الفنية لعمل ما، ووسيلته في ذلك هي الأداة كتقنية رئيسة في التحليل تدرك بها الموضوعات. وبما أن موضوع البحث الأدبي هو الأدبية La littérature أي الخاصية التي تجعل من عمل ما موضوعاً أدبياً، فإن مفهوم الأدبية يتحدد

² نفس المرجع، ص. 87.

³ عبد الله الغدامي، تأييث القصيدة والقارئ المختلف، الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط. 1.

1999، ص. 103.

⁴ Tzvetan Todorov, *Théorie de la littérature, textes des formalistes russes*, Paris, Seuil, 1965.

مستفيدة من مختلف العلوم والمعارف المتاحة: تاريخ اللغة، تاريخ الأدیان، علم الأساطير، علم النفس، المنطق، اللسانيات والسيميولوجيا وإلخ.

ونشير منذ البداية إلى أن مفهوم القراءة الذي سنعالجه في هذه الدراسة، لا يعني، إطلاقاً، ذلك الفعل البسيط الذي نقوم به من خلال مسح النص بصرياً ومطالعة الخطوط السوداء بالعين على الورق. ولا نقصد به، كذلك، شرح النص وتفسير كلماته، واستخراج معانيه المباشرة. وإنما الغرض هو وضع بناء للقراءة يوازي في نسقه وتشكله بناء النص، كما تبلور في العقود الأخيرة مع النظريات الحديثة حول سيميائيات القراءة وجمالية التلقي، والتفكيك، ونقد تجاوب القارئ...

1. النظرية الأدبية والقراءة

عرف تاريخ الأدب والنقد ثلاث مراحل كبرى محددة ومؤسسة لتصورات وثوابت وهيكل النظرية الأدبية عبر التاريخ :

مرحلة أولى هيمنت فيها سلطة المؤلف والكاتب باعتبارهما محور العملية الإبداعية والنقدية، فأضحى العمل الأدبي مجرد صورة وانعكاس ومرآة تعكس حياة المؤلف النفسية والاجتماعية والإيديولوجية. وقد رسخت الاتجاهات النقدية التقليدية هذا المعطى من خلال تتبع سيرة المؤلف، والبحث في السياقات والأوضاع والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي أفرزت العمل الأدبي وصاحبه. فأصبح النص مجرد وثيقة أو عرض لمجموعة من الشواهد، وتحول النقد من دراسة الأدب إلى دراسة الأديب وسيرته، والناقد إلى مؤرخ وعالم نفس واجتماع. وظل الاعتقاد الذي يحصر عملية القراءة في شرح الكلمات، وتفسير المعنى الذي يقصده الكاتب مسيطراً أو مهيمناً على فكر النقد لفترة طويلة.

أما المرحلة الثانية، فقد شهدت حضوراً قوياً للنص وللدراسات والمقاربات النصية. وكانت قولاً رولان بارت «إن الكتابة لا يمكن أن تنفتح على المستقبل إلا بقلب الأسطورة التي تدعمها: فميلاد القارئ رهين مموت المؤلف»¹ منطلقاً لتحول عميق أدى إلى سقوط سلطة المؤلف ومركزيته، وانتقالها إلى سلطة ومركزية النص. وهكذا قامت الاتجاهات الأسنسية والأسلوبية والشكلية والبنوية بمنح أهمية كبرى للنص واعتبرته بنية محايثة structure immanente مغلقة تحيل على ذاتها. فعزلت النص عن سياقاته التاريخية والاجتماعية والنفسية، ووضعت حاجزاً قوياً بينه وبين صاحبه وبيئته وزمن خلقه وولادته. فأضحى النص يعيش حالة عزلة ويتم كبريين.

¹ رولان بارت، درس السيميولوجيا، ت. عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1986، ص. 87.

نظريات واتجاهات القراءة من المعرفة إلى التأويل

محسن اعمار
جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: من المؤكد أن نظرية القراءة والتلقي لا تنفصل عن الإطار المعرفي العام لمختلف العلوم، ما دامت تندرج بشكل مباشر أو غير مباشر، في الاستمرارية المعرفية للتصورات الهيمنوطقية والأدبية واللسانية والسميائية. مما يستدعي توضيح السياق العلمي العام الذي ظهرت فيه نظرية القراءة والتلقي، مع إجلاء عناصر التكامل والاختلاف. لذا قمنا بمعالجة العلاقة التي تجمع النقد الأدبي بنظرية القراءة والتلقي. وبذلك حاولنا الوقوف عند أعمال الرواد الذين ساهموا في إثراء النظرية. كما عملنا على مقارنة بعض النظريات التي اتخذت من مفهوم القراءة والتلقي أساسا لأبحاثها ودراساتها.

كلمات مفاتيح: نظرية القراءة؛ التأويلية؛ السيميائيات؛ التفكيك؛ جمالية التلقي؛ الوقع الجمالي

Résumé : La théorie de la lecture et de la réception n'échappe point à l'épistémè générale des sciences, elle s'inscrit directement ou indirectement dans le prolongement des traditions herméneutique, littéraire, linguistique et sémiotique, ce qui nécessite d'explicitier ce contexte scientifique, en dévoilant des points de rencontre et de rupture. Pour ce faire, nous traitons le rapport qu'entretient la critique littéraire avec la théorie de la lecture et de la réception. Ensuite, nous évaluons l'importance des travaux des pionniers. Enfin, nous essayons d'analyser quelques théories de la lecture.

Mots-clés : théorie de la lecture; herméneutique; sémiotique; déconstruction; esthétique de la réception; effet esthétique

يعتبر فعل القراءة من القضايا المطروحة بإلحاح على الساحة الأدبية راهنا، هذا الفعل الذي شكل عمق أبحاث رولان بارت Barthes وجاك دريدا Derrida وهانس روبر يابوس Jauss وفوفكانخ ايزر Iser وستاني فيش Fish وامبرطو إيكو Eco وميكائيل ريفاتير Riffaterre وغيرهم كثير، ينطلق في إطار نظرية عامة للقراءة والتلقي، من مبدأ وضع منهج منظم ومتجانس لكل أنماط الممارسة القرائية بدءا بتفكيك الحروف، وانتهاء بمشاكل الفهم والتأويل والتلقي

وترتبط درجة هذا التدبير بقدرة المدرس على تحمل عناء البحث عن روافد التعلم كالبحث في مضمون القدرة المشرفة على التعلم اللغوي ومكوناتها والنموذج الممثل لها، فكلما كان المدرس على اطلاع واسع على الأعمال اللسانية ذات الصلة باللغة كلما تيسر له الإلمام بمختلف قضايا اللغة وتيسر له الإسهام في بناء مشروع اللسانيات البيداغوجية. ونأمل أن تنهض أبحاث جادة لاختبار البرنامج الحاسوبي Computer program الذي يحاكي ما يجري في ذهن المتكلم أثناء عملية التعلم اللغوي بوصفها عملية لها صلة وطيدة بكيفية إنتاج الكلام وفهم الكلام.

المراجع

- البوشيخي، عز الدين، التواصل اللغوي مقارنة لسانية وظيفية، بيروت- لبنان، 2012.
- البوشيخي، عز الدين، «نحو استثمار اللسانيات في تعليم اللغة العربية» ضمن عبد العزيز العماري (منسق)، اللسانيات و تعليم اللغة العربية وتعلمها، مكناس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، س. الندوات، ع. 14، 2002.
- الهاشمي، محمد، «اللسانيات وبيداغوجيا تعليم اللغات اللغة العربية نموذجاً»، رسالة جامعية مرقونة، مكناس، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011.
- Chomsky, Naom, *Knowledge of language*, New York: Praeger, 1986.
- Chomsky, Naom, *Reflections on Language*, New York, Pantheon Books, 1975.
- Dik, Simon, *The Theory of Functional Grammar. Part 1: The structure of the Clause*, Second revised edition, Berlin, ed. Kees Hengeveld, Mouton de Gruyter, 1997a.
- Dik, Simon, *The Theory of Functional Grammar. Part 2: Complex and Derived Constructions*, Berlin, ed. Kees Hengeveld, Mouton de Gruyter, 1997b.
- Dik Simon, *The Theory of Functional Grammar, Part 1: The structure of the clause*, York, Dordrecht, Foris, 1989.
- Dik, Simon, *Functional Grammar*, Amsterdam: North-Holland, 1978.
- Mackey, William Francis, *Language didactics and applied linguistics*, Québec, CIRB, Presses de l'Université Laval, 1968.
- Saussure, Ferdinand (de), *Cours de linguistique générale*, éd. critique préparée par Tullio de Mauro, Grande bibliothèque, Payot, 1995.
- Spolsky, Bernard et Hult, Francis M. (dir.), *The Handbook of Educational Linguistics*, Blackwell Publishing, USA, 2008.

كذلك، في تعلم خصائص الخطاب المتناسك والهادف إلى النمو الفكري للمتعلم، وفي تنمية ملكته اللغوية، بمهارتها من استماع وكلام وقراءة وكتابة. كما أن مكونات القدرة التواصلية تعمل بشكل جيد كلما لقيت محفزاً فتشتغل طاقة المتعلم التخيلية، ضمن الطاقات الأخرى، مثلاً كلما لقيت محيطاً محفزاً لها، وكلما كان هذا المحيط اللغوي غنياً بهتوت اللغة ذات الصلة بالطاقة التخيلية، سواء سمعها أو اطلع عليها، إلا ويكون المتعلم متقناً للتواصل باللغة المجازية والاستعارية، وكل ما تختص في إنتاجه وتأويله الطاقة التخيلية. وكلما كان المتعلم منحدراً من وسط اجتماعي ميسور الحال إلا وتشتغل طاقته المنطقية بشكل فائق قد تفوق نظيرتها لمتعلم آخر.

ويمكن إجمال حسيلة البحث في هذا العمل كما يلي:

- يتميز مجال تعليم اللغات بكونه مجالاً ينفتح على العديد من المجالات المعرفية الأخرى، ويتميز بمساهمته في تطوير هذه المجالات، بوصفه ميداناً لاختبار الافتراضات بفحصها ومحصها ومحصها.

- تتميز اللسانيات بكونها المجال العلمي القيادي للعلوم الإنسانية بصفة عامة ولمجال تعليم اللغات بصفة أخص، ومن مظاهر علاقة اللسانيات بيداغوجيا اللغات استفادتها من الافتراض اللساني القاضي بأن اكتساب اللغة يتم بفضل القدرة التواصلية communicative competence التي تساعد على تعلم القواعد النحوية، وكذا القواعد التداولية التي تربط بين العبارات اللغوية وبين الأهداف التواصلية، بالإضافة إلى القواعد الاجتماعية والثقافية الخاصة، وكذلك قواعد إدراك حركات الجسم وتقاسم الفضاء أثناء التواصل اللغوي.

- إن مجال بيداغوجيا اللغات مجال لاختبار خبرة اللسانيات، ذلك أنه مجال لفحص افتراضات النظرية اللسانية في الشق المتعلق بما يجري في مستوى الذهن البشري من عمليات ذهنية حال اكتساب الطفل اللغة، وما راكمته من أبحاث حول دور الطاقات الفطرية النوعية التي تجعل هذا الاكتساب ممكناً.

- لنتائج البحث في المعجم الذهني لمستعمل اللغة الطبيعية: طبيعته وخصائصه ومكوناته أهمية عظمى في بناء تصور علمي حول كيفية بناء منهاج تعليم اللغة العربية للناطقين بها وبغيرها.

خاتمة

كان الهدف من هذه الدراسة أن نبرز أهمية المعرفة اللسانية في بيداغوجيا تعليم اللغات، ذلك أن هذا الصنف من المعرفة المستقاة من الدرس اللساني الحديث تمكن المشرّف على تعليم لغة من اللغات من التدبير الجيد لمختلف الوضعيات التعليمية.

ثقافية غطية).

نفترض أن للطاقة الاجتماعية إسهاما فعالا في بناء هذه الكفاية بالنظر إلى الدور الذي تنهض به عملية التواصل، فبفضل ذات الطاقة يهتدي المتعلم إلى أن هذه العملية مرتبطة بعوامل، منها:

- وضع المخاطب الاجتماعي بالنسبة إلى المتكلم.
- الأوضاع المقامية التي يتمتع بها المتواصلون.
- تأرجح الأوضاع المقامية بين الاحترام وعدم الاحترام.
- تأرجح الأوضاع المقامية بين المتواصلين بين أقصى درجات الاحترام وأدناها.

وللطاقة الإدراكية دور في بناء هذه الكفاية باعتبارها الطاقة التي تشرف على إدراك المعلومات الموجودة في محيط الطفل بوسائل الإدراك من لمس وشم وسمع وبصر وذوق. ومحتوى هذا الافتراض أن القواعد الاجتماعية والثقافية الخاصة وقواعد إدراك حركات الجسم وتقاسم الفضاء يتم تثبيتها بالطاقة الإدراكية. ذلك أن المتعلم يهتدي بفضل الطاقة الإدراكية مثلا إلى تأويل أمط الإشارات التي تتواضع المجتمعات البشرية عليها في عملية التواصل. من قبيل هذه الإشارات إشارات التحية كالتحية بظهر راحة اليد باعتبارها تحية تميز المجتمع المغربي، والتحية بالأنف باعتبارها إشارة تميز غيره. وإشارة الرفض والتحذير وغيرها من الإشارات الجسدية المصاحبة للكلام. ويمكن بيان كيفية بناء الكفاية الثقافية بتحليل التفاعل الآتي:

02) أ- ما هذه الصورة؟

ب- هذه صورة لصومعة حسان.

من خلال هذا التفاعل الكلامي يتبين أن المتعلم أحال على الصورة باستعمال اسم الإشارة، وذلك بفضل القالب الإدراكي وتحديد قوالب حاسة البصر الذي ساعد على تأويل إشارة المخاطب.

وإذا كانت تنمية الرصيد الثقافي للمتعلم وتوسيع دائرة إحساساته وتصوراتهِ وترسيخ هويته الوطنية وانفتاحه على الثقافة الإنسانية تساهم فيه وبنصيب وافر الطاقة الإدراكية، فإن الطاقة المعرفية تضطلع بمهمة تخزين المعلومات الواردة من الطاقة الإدراكية ليتم استرجاعها كلما دعت الضرورة. من قبيل هذه المعلومات أن صومعة حسان من المآثر الثقافية التي تزر بها الثقافة الوطنية المغربية، وهي سمة تسم العاصمة الإدارية للمملكة...

عموما، إن بناء الكفاية التواصلية والكفاية الثقافية يتحقق بعمل الطاقات المكونة لقدرة المتكلم التواصلية وفق تنظيم محكم، بموجبه تعمل كل طاقة من الجهة التي تعنيها، وتتفاعل مع نظيرتها وفق ما تبيحه مبادئ القالبية. لذلك نؤكد على الدور الفعال الذي تلعبه في مجال تعليم اللغات عامة، وتعليم العربية الفصيحة خاصة للناطقين بها وبغيرها، ويتحدد دورها،

في المجال التربوي تبنى مكونات القدرة التواصلية.

لنتأمل التفاعل اللغوي الآتي:

(01) أ- كم يُفرحني أن نساهم في بيئة سليمة يا أستاذي.

ب- يسعدنا ذلك جميعاً .

يتبين من (أ) أن المتكلم يدعو المخاطب إلى الإسهام في سلامة البيئة ونظافتها، وأن المخاطب قام استجابة لطلب المتكلم ببناء عالم ذهني ممكن، تصور فيه سعادته بمحيط تسوده بيئة سليمة. كما يتبين أن المخاطب صاغ عبارته (ب) طبقاً لما يقتضيه موقعه الاجتماعي الذي يعتبر أعلى من موقع المتكلم. ونفترض أن التواصل بين المتخاطبين تحقق بفضل مكونات القدرة التواصلية التي تشرف على العديد من المهام، كما يلي:

يهتدي المتعلم بطاقته المعرفية إلى أن الحفاظ على البيئة أمر ضروري، وأن الكائنات البشرية يجب أن تشارك في هذه العملية، وأنها ستجني ثمارها منها، وكل هذه المعلومات تشغل الطاقة المعرفية بتخزينها وباسترجاعها كلما اقتضى الأمر ذلك. ويهتدي المتعلم بفضل الطاقة الاجتماعية إلى معرفة كيفية القول تبعاً لموقع المخاطب الاجتماعي، حيث يجب عليه في حالة ما إذا كان من يكلمه أعلى منه درجة في السلم الاجتماعي أن يخاطبه بأدب مناسب وهذا ما يُفسر استعمال عبارة «يا أستاذي». وبفضل الطاقة التخيلية تمكن المخاطب من بناء عالم ممكن، عالم تسوده بيئة نظيفة.

وبفضل الطاقة المنطقية يستطيع أن يتصور ما ستؤول إليه أوضاع البيئة في حالة إهمالها من قبل الإنسان... وهي معلومات جديدة يتم استخلاصها من معلومات معطاة متمثلة في تدمير البيئة وهلاكها.

وبفضل الطاقة اللغوية تم بناء العبارة اللغوية السابقة وفق ضوابط القواعد النحوية العربية: الصوتية والتركيبية والدلالية والتداولية، وفق ضوابط استعمالها في المقام التواصلية الذي طلب فيه من المتعلم الحديث عن أوضاع البيئة.

إذا كان بناء الكفاية التواصلية يتم بإسهام مكونات القدرة التواصلية، فكيف تُبنى الكفايات الأخرى؟ بعض من عناصر الإجابة سنوردها متحدّثين عن الكيفية التي تُبنى بها الكفاية الثقافية، مفترضين أن هذا الصنف من الكفاية تساهم فيه بنصيب وافر الطاقة الإدراكية.

معلوم أن الثقافة منها ما هو مشترك بين جميع البشر (المكونات الثقافية المشتركة)، ومنها ما هو خاص بثقافة أمة من الأمم، ومنها ما هو خاص بمجتمع أو بعشيرة محددة (مكونات

الافتراض بتحليل عينة من المعطيات اللغوية.

وتتحدد الطاقة التخيلية بوصفها «الطاقة التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من اختلاق صور افتراضية تنتمي إلى أحد العوالم الممكنة، ومن بناء وقائع متخيلة تنتمي إلى أحد العوالم الخيالية لتحقيق أهداف تواصلية محددة»⁷.

وقد أوضحنا في عمل سابق لنا⁸ الإمكانات التي يمكن أن تتيحها النظرية اللسانية في مختلف مجالات الحياة المهنية، وهي إمكانات ترتبط بالمهام التي يمكن أن تضطلع بها مكونات القدرة التواصلية في الفضاء البيداغوجي. وتبين أن كل طاقة من هذه الطاقات، تنشغل بمهمة محددة في الفضاء البيداغوجي:

وينبع من التحديد، يمكن القول إن الطاقة الإدراكية هي الطاقة الأولى التي تنشغل بإدراك المعلومات الموجودة في محيط الطفل بواسطة وسائل الإدراك من لمس وشم وسمع وبصر وذوق، ثم تنشغل الطاقة المعرفية بتخزين تلك المعلومات الواردة من الطاقة الإدراكية وتنظيمها، ثم تنشغل الطاقة اللغوية بتثبيت القواعد الصوتية والتركيبية والدلالية والتداولية واستعمالها في فهم العبارات اللغوية التي يستقبلها الطفل في مقامات تواصلية معينة. ثم تنشغل الطاقة الاجتماعية بتثبيت القواعد الاجتماعية والثقافية التي تضبط العلاقات بين المتخاطبين. ثم تنشغل الطاقة المنطقية باستخلاص معلومات جديدة انطلاقاً من المعلومات المتوفرة، وإغناء القاعدة المعرفية بها. ثم تنشغل الطاقة التخيلية ببناء عوالم ممكنة وأخرى خيالية واستعمالها في إنتاج العبارات اللغوية وفهمها⁹.

4. أهمية مفهوم القدرة التواصلية في الفضاء البيداغوجي

ولإبراز قيمة مفهوم القدرة التواصلية في تأمين العملية التواصلية والنهوض بها، سنعمل على تحليل عينات من العبارات اللغوية، انطلاقاً من الإجابة عن السؤالين التاليين:

- ما المهام التي يشرف عليها مفهوم القدرة التواصلية في الفضاء البيداغوجي؟
- ما طبيعة العلاقة القائمة بين هذه القدرة وبين الكفاية التواصلية في المجال التعليمي؟

نستهدف من السؤال الأول بيان أن عملية إنتاج الخطاب اللغوي وفهمه عمل ذهني يقوم به المتعلم جملةً، ونستهدف من خلال الإجابة عن السؤال الثاني بيان أن الكفاية التواصلية

⁷ عزالدين البوشيخي، «قدرة المتكلم التواصلية وإشكال بناء الأنحاء» أطروحة جامعية، مرقونة، كلية

الآداب، مكناس، المغرب، 1998

⁸ للمزيد من التفاصيل يمكن الاطلاع على عمل صاحب هذا المقال بعنوان «اللسانيات وبيداغوجيا تعليم اللغات، اللغة العربية نموذجاً»، رسالة جامعية مرقونة لنيل الدكتوراه، مكناس، كلية الآداب، 2011.

⁹ عزالدين البوشيخي، «تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من منظور وظيفي»،

الاطلاع في 2016/3/13 ، <http://uqu.edu.sa/page/ar/148722>

- إن الإحاطة بمفهوم الملكة اللغوية ومضمونها تمكن من معرفة طبيعة القدرة التواصلية التي تُشرف على العملية التربوية بوصفها نشاطا ذهنيا.

ونظرا لأهمية هذا المفهوم، سنعمل على توضيحه كما ورد في أدبيات اللسانية الحديثة. وتعد نظرية النحو الوظيفي، كنظرية لسانية حديثة قائمة على أساس تداولي، من ضمن النظريات التي راكمت تجربة متميزة في البحث في مسار مفهوم القدرة التواصلية وفي بناء نموذج لساني يمثل لهذه القدرة.

وفي سياق تحديد هذا المفهوم، خلص سيمون ديك Simon Dik إلى أن القدرة التواصلية تتكون من عدد من الطاقات، وهي⁶:

- الطاقة اللغوية التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من أن ينتج العبارات اللغوية ويؤولها إنتاجا وتأويلا صحيحين مهما اتسمت به هذه العبارات من تعقيد بنيوي، وأيا كانت الأوضاع التواصلية التي تم فيها إنتاجها.

- الطاقة المعرفية التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من بناء قاعدة معرفية منظمة، واستعمالها عن طريق صياغة معارفه في صور لغوية مناسبة، وإغنائها عن طريق استخلاص المعلومات من العبارات اللغوية التي يستقبلها.

- الطاقة المنطقية التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من استخلاص معلومات جديدة من معلومات قديمة أو معطاة بواسطة إجراء قواعد استدلالية تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطقي الاحتمالي.

- الطاقة الإدراكية التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من إدراك العالم الخارجي بواسطة وسائل الإدراك البشري من سمع وبصر ولمس وشم وذوق، واكتساب معارف يستعملها في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها، واستعمال حركات الجسد وتأويلها أثناء عملية التواصل.

- الطاقة الاجتماعية التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من إنتاج عبارات لغوية وتأويلها بما يتناسب مع أوضاع المخاطبين الاجتماعية وظروفهم العامة.

وإغناء للبحث اللساني ولمفهوم القدرة التواصلية، ظهرت أعمال قيمة استدلت على ورود طاقة سادسة تنضاف إلى الطاقات السابقة؛ وتتمثل في الطاقة التخيلية. وقد تم دعم هذا

⁶ Simon Dik, *Functional Grammar*, Amsterdam, North-Holland, 1978; *The Theory of Functional Grammar. Part 1, The structure of the Clause*, Second revised edition, Berlin, Edited by Kees Hengeveld, Mouton de Gruyter, 1997a; *The Theory of Functional Grammar, Part 2, Complex and Derived Constructions*, Berlin, Edited by Kees Hengeveld, Mouton de Gruyter, 1997b.

التي يمكن أن تقدم أجوبة للإشكالات التي يواجهونها وهم يمارسون مهامهم التربوية، من هذه المجالات علم النفس التربوي والبيداغوجيا وغيرهما. وتعد اللسانيات من ضمن المجالات التي لها إمكانات تؤهلها للنهوض بتعليم اللغات، والاستجابة لحاجات المشرفين على العملية التربوية، شرط الوعي المسبق بأن تطبيق المعرفة اللسانية العلمية يتم وفق اقتضاءات النقل اليداكتيكي.

وتحتل اللسانيات بجملة من المعارف العلمية التي نرى أن المدرس في حاجة إليها، ونذكر حصرا منها: تمثل مفهوم اللغة تمثلا سليما؛ تمثل مفهوم الملكة اللغوية ومضمونها.

ويتسنى للمدرس أن يتمثل مفهوم اللغة تمثلا سليما بالعودة، على الأقل، إلى الأعمال اللسانية المعنية بالبحث في اللغة وفي مفهومها، يقول دي سوسور، رائد اللسانيات البنوية الحديثة، في هذا الموضوع «اللسان هو مجموع العادات اللغوية التي تمكن المتكلم من الفهم والإفهام، ولا يمكن قيامه إلا بوجود جماعة لغوية متكلمة، فطبيعة اللسان الاجتماعية هي إحدى خصائصه الداخلية»⁴.

وبالتركيز على الوظيفة التي تؤديها اللغة داخل الحياة الاجتماعية، يتسنى للمدرس أن يجعل المتعلم في موضع من يعبر عن أفكاره ومشاعره وعواطفه بواسطة اللغة بدقة وطلاقة داخل جماعة لغوية.

وبالعودة إلى الأبحاث اللسانية المعنية بالبحث في كيفية حدوث الاكتساب اللغوي يهتدي المدرس كذلك إلى أن الطفل يمتلك جهازا فطريا يؤهله لاكتساب لغة محيطه، ويتم ذلك بتفاعل محدود مع هذا المحيط، وهذا الجهاز الذهني هو الملكة اللغوية⁵.

ما يمكن استخلاصه في هذا المحور هو بناء تصور عام حول مفهوم التعلم اللغوي وكيفية حدوثه، قوام هذا التصور نذكره في ما يلي:

- ترتبط كفاية المدرس المهنية في أحسن درجة بالإحاطة بجملة من المفاهيم، كمفهوم اللغة ومفهوم وظيفة اللغة، ومفهوم الملكة اللغوية، ولا شك أن هذه المفاهيم واردة في أمهات كتب البحث اللساني المعاصر، وعلى المدرس ومن يصاحبه في عمله التربوي أن يتحملا عناء البحث والتنقيب.

⁴ Ferdinand de Saussure, *Cours de linguistique générale*, éd. critique préparée par Tullio de Mauro, Grande bibliothèque, Paris, Payot, 1995, p. 112.

⁵ Noam Chomsky, *Knowledge of Language*, New York, Praeger, 1986.

تفسيرية لطبيعة العقل البشري ومكوناته. ويعد مفهوم الملكة اللغوية المسؤول عن إنتاج اللغة وفهمها واستعمالها لبلوغ أهداف تواصلية محددة جزءا من الملكات التي يتشكل منها الذهن البشري.

2. اللسانيات وبيداغوجيا تعليم اللغات

لعله غدا مسلما به الإقرار بأهمية الاستثمار في مجال العلم بمختلف تخصصاته، لأن هذا الصنف من الاستثمار يؤهل الإنسان إلى تحصيل العلم وممارسته ونشره. واللسانيات بوصفها مجالا معرفيا يعنى بالبحث في خصائص اللغات الطبيعية وصفا وتفسيرا جديرة بالاستثمار، لأنها استطاعت أن تخرج من دائرة العلوم الإنسانية وتحقق تطورا هائلا في المنهاج والتصور أفضت إلى أن صارت معرفة من المعارف العلمية الصارمة المنهاج كالرياضيات والفيزياء والطبيعات.

وبالنظر إلى الإنجازات الإستمولوجية التي حققتها اللسانيات، والمتمثلة في استحداثها لعلوم جديدة كاللسانيات الحاسوبية واللسانيات البيولوجية واللسانيات العصبية، واللسانيات السريرية، فإنه ليس مقبولا علميا وحضاريا أن يكون هناك فاصل بين ما يتم تحقيقه من نتائج في مجال اللسانيات بفروعها وبين المجالات التي يمكن أن تُطبق فيها نتائجها وتستثمر.

في حال التفاعل الذي يمكن أن يحصل بين اللسانيات ومجال تعليم اللغات، يمكن للسانيات أن تساهم في دعم المجال بالنتائج المحرزة في البحث عن طبيعة الملكة اللغوية ومضمونها. وهذه المعطيات تتيح تفسير ظاهرة التعلم اللغوي، وتتيح إقامة نظرية كنظرية التعلم التي تستند إلى الأبحاث المنجزة حول الدماغ بوصفها نظرية قائمة على معرفة بنية الذهن البشري وطبيعته ووظائفه.

وتتيح معرفة الملكة اللغوية إقامة تفسير ذهني لما يجري في الذهن البشري من عمليات حال إنتاج اللغة وفهم اللغة وهي عمليات لها علاقة بالكيفية التي تتم بها عملية تخزين المعلومات في الذاكرة واسترجاعها، ولها علاقة بطبيعة الذكاء البشري بوصفه نسقا من القدرات العقلية كالتحليل والتفكير المجرد وإتقان اللغات وسرعة التعلم. ولاشك أن هذه القضايا شكلت مدار البحث اللساني المعاصر، وقد صاغت اللسانيات افتراضات عنها متفاعلة مع عدة نظريات كنظرية علوم الأعصاب وعلوم وظائف الأعصاب ونظرية الكيمياء والطب.

3. اللسانيات وحاجات المدرس المعرفية

لقد أثبتت عدد من الأبحاث أن تطوير الكفايات المهنية للمدرسين وإحداث تغيير في مسارهم المهني، يرتبط، من ضمن ما يرتبط به، بقدرتهم على الاطلاع على مختلف المجالات العلمية

1. تحديد مفاهيمي

1.1. اللسانيات التعليمية

يتوارد هذا المفهوم مع العديد من المفاهيم، كمفهوم تعليم اللغات ومفهوم الدراسة العلمية لتعليم اللغة الأجنبية¹. وتعود بوادر ظهور المفهوم إلى أعمال اللساني برنار صبولسكي Bernard Spolsky في إطار مشروعه العلمي الساعي إلى إرساء مرتكزات اللسانيات التطبيقية، حيث عمل على تحديد مجال اللسانيات التعليمية وموضوعها وعلاقتها بما يجاورها من المجالات كاللسانيات التطبيقية بوصفها المجال الذي يحتضنها².

لذلك، تعد اللسانيات التعليمية فرعاً من فروع اللسانيات التطبيقية، ويعنى هذا الفرع اللساني متفاعلاً مع عدد من التخصصات الأخرى بمقاربة مختلف الإشكالات التي تثيرها القضية اللغوية في المجال التعليمي. وقد حدد برنار صبولسكي نطاق اهتمامات اللسانيات التعليمية في المجالات الآتية:

- البحث في كيفية اكتساب المتعلمين مهارات على استعمال اللغة لأغراض تواصلية محددة.
- البحث في طرق تعليم اللغة الأولى أو الثانية.
- البحث في سبل النهوض بالمهارات اللغوية: الاستماع والمحادثة والكتابة.

2.1. مفهوم القدرة التواصلية

يدل هذا المفهوم في اللسانيات النظرية ذات الطابع التفسيري على القدرة التواصلية، التي تمكن المتكلم من التفاعل الاجتماعي بواسطة اللغة، وبناء عليه، فإن دراسة النسق اللغوي ينبغي أن يتم داخل إطار الاستعمال اللغوي على الرغم من الإقرار بتمايز النسق عن الاستعمال³. ويندرج البحث في مضمون المملكة التواصلية في إطار مشروع لساني يسعى إلى إقامة نظرية

¹ ورد استعمال المفهوم للدلالة على اللسانيات التعليمية في كتاب:

William Francis Mackey, *Language didactics and applied linguistics*, Québec, PUL, 1968.

انظر مزيداً من التفاصيل في:

Bernard Spolsky et Francis M. Hult (dir), *The Handbook of Educational Linguistics*, Blackwell Publishing, USA, 2008.

² اللسانيات التعليمية موضوع من الموضوعات الكبرى لتخصص اللسانيات التطبيقية، انظر مزيداً من التفاصيل حول عناوين الموضوعات الكبرى لهذا التخصص على الموقع الإلكتروني للجمعية الدولية لللسانيات التطبيقية: <http://www.aal.org> / وقد تم الاطلاع عليه: 16-10-2016.

³ Noam Chomsky, *Reflections on Language*, New York, Pantheon Booke, 1975.

مفهوم القدرة التواصلية في اللسانيات التعليمية

محمد الهاشمي

جامعة محمد بن عبد الله، فاس، المغرب

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى: استعراض دلالة مفهوم القدرة التواصلية في نظرية النحو الوظيفي (ديك، 1989)؛ بيان أهمية استثمار المفهوم في مجال التعليم؛ استكشاف إمكانات المفهوم في تحقيق تكامل المعرفة بين اللسانيات وما تعالق معها من علوم المعرفة، وبين مجال تعليم اللغات؛

كلمات - مفاتيح: قدرة؛ تواصل؛ نحو وظيفي؛ تعليم

Résumé : L'objet de cette étude est de : présenter la définition du terme « compétence communicative » dans la grammaire fonctionnelle (GF) (Dik, 1989) ; découvrir l'importance de l'investissement du terme dans l'espace éducatif ; explorer le potentiel du terme dans la réalisation de l'interdisciplinarité, entre la linguistique cognitive et le domaine de l'enseignement des langues.

Mots-clés : compétence; communication; grammaire fonctionnelle; enseignement

شكل واقع تعليم اللغات في المشهد التربوي محوراً رئيساً للنقاش في عدد غير قليل من الملتقيات العلمية، وخلصت معظم الأعمال التي تناولته، من ضمن ما خلصت إليه، إلى ضعف مستوى المتعلمين في اللغات عامة، ويكاد يكون تعليم اللغة العربية الفصحى أكثر ضعفا مقارنة مع اللغات الأجنبية الأخرى.

تندرج هذه الدراسة في إطار الأعمال المعنية بالبحث في سبل النهوض بتعليم اللغات عامة، وتسعى في سياق الدعوة المتواصلة لتطبيق اللسانيات في مختلف المجالات التي تتيح إمكان تطبيقها، إلى استثمار حصيلة البحث اللساني المعاصر في بيداغوجيا تعليم اللغات. ومن ثمة سنستغل على النظرية اللسانية التي وضع أسسها اللساني الهولندي سيمون ديك Dik Simon بهدف استكشاف ما تتيحه من إمكانات تطبيقية لتعليم اللغة العربية المعيار، من خلال التطرق للمحاور الآتية: تحديد مفاهيمي؛ اللسانيات وبيداغوجيا تعليم اللغات؛ اللسانيات وحاجات المدرسين المعرفية؛ أهمية مفهوم القدرة التواصلية في الفضاء البيداغوجي.

- الخويسكي، زين كامل، المهارات اللغوية: الاستماع/ والتحدث/ والقراءة/ والكتابة وعوامل تنمية المهارات اللغوية عند العرب وغيرهم، دار المعرفة الجامعية، 2008.
- دحمان، صخرة، «أثر تعليم اللغات الأجنبية في اللغة العربية (أثر اللغة الفرنسية - الجزائر أمودجا)»، مجلة اللغة والأدب، مجلة أكاديمية محكمة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2، ع. 22، جويلية 2014.
- دحمان، صخرة، «الإعداد لتعليم مهارات اللغة الأربعة: الاستماع - التعبير - القراءة - الكتابة وتعلمها في المرحلة التحضيرية»، رسالة دكتوراه في تخصص تعليمية اللغة العربية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2، 2013.
- دحمان، صخرة، «ظواهر الاحتكاك اللغوي»، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 1999.
- سبيني، سيرجيو، التربية اللغوية للطفل، ت. فوزي عيسى، عبد الفتاح حسن، دار الفكر العربي، 2001.
- طاهرة، أحمد الطحان، مهارات الاستماع والتحدث في الطفولة المبكرة، الأردن، دار الفكر، ط. 2، 2008.
- طعيمة، رشدي أحمد وآخرون، المفاهيم اللغوية عند الأطفال: أسسها، مهاراتها، تدريسها، تقويمها، عمان - الأردن، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط. 2، 2009.
- عبد الباري عصر، حسني، قضايا في تعليم اللغة العربية وتدريسها، الإسكندرية، المكتب العربي الحديث، 1999.
- مجموعات البحث في النشاط المدرسي G.R.A.P.S، الدليل المنهجي للتعليم ما قبل المدرسي، الجزائر، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 1996.
- مدكور، علي أحمد، تدريس فنون اللغة العربية، القاهرة، دار الفكر العربي، 2000.
- المعتوق، أحمد محمد، الحصيلة اللغوية أهميتها - مصادرها - وسائل تنميتها، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997.
- معوض أحمد، نازلي، التعريب والقومية في المغرب العربي، بيروت - لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 1986.
- مليطان، عبد الله، «المؤسسة الإعلامية ولغة التواصل العربي البث الفضائي... بين الواقع والآفاق»، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، ع. 3، تيزي وزو، الجزائر، جامعة مولود معمري، 2011.
- هير، جودي، ت. وتك. مركز إيمان للتعليم المبكر، العمل مع الأطفال الصغار، عمان - الأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، ط. 1، 2006.

Pendaux, Michèle, *Les activités d'apprentissage en classe de langue*, Paris, Hachette, 1998.

نتائج الأبحاث والدراسات النفسية، والسيكولسانية، واللسانية والتعليمية الحديثة. ووضع طرائق تعليم حديثة تسير التغيرات الحاصلة في المجتمع والعالم، وتوظف التطور التقني في مجال تعليم اللغة العربية. والتخلي عن الطرائق التقليدية التي أثبت الواقع التعليمي قصورها. ذلك أن وضع أرضية سليمة لإعداد متعلمي مرحلة ما قبل المدرسة يفرض معرفة جملة من الخصائص أهمها:

- خصائص المحيط اللغوي العام ومحيط المؤسسات التعليمية.
- خصائص طفل مرحلة ما قبل التمدرس.
- مطالب النمو المعرفي واللغوي في هذه السن.
- خصائص اللغة العربية وعلاقتها باللغات واللهجات الموجودة في المجتمع.
- إعادة النظر في برنامج المرحلة التحضيرية، والتركيز على مهارة الاستماع المهمة إهمالا يكاد يكون تاما.
- كما يفرض الإعداد الجيد لطفل مرحلة ما قبل التمدرس انتقاء المربين وفق معايير خاصة، تحترمها كل دول العالم، وخاصة تلك المعايير المتعلقة بالجانب اللغوي؛ حيث يؤخذ بعين الاعتبار حب المهنة والمستويين اللغوي والمعرفي، ومسايرة المربين والمعلمين لكل ما هو جديد في مجال الإعداد لتعليم أطفال ما قبل المدرسة.

مراجع

- الأوراعي، محمد، اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، بيروت - لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط. 1، 2010.
- الأوراعي، محمد، التعداد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، الرباط، منشورات كلية الآداب، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، المغرب، ط. 1، 2002.
- براون، دوجلاس، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ت. عبده الراجحي، علي علي أحمد شعبان، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (د.ت).
- بوتردين، يحي، «تعليمية النص القرآني في إطار التكوين الجامعي المتخصص في اللغة العربية وآدابها»، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2006.
- الحاج صالح، عبد الرحمن، «العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة»، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، ع. 3، - تيزي وزو، الجزائر، جامعة مولود معمري، 2011.
- حليم، سعيد، المرجع في كيفية التدريس، س. المنظومة التربوية في المغرب، فاس، أنفو - برانت، ط. 1، 2009.

التّخاطب العفوي بالخفّة الكاملة³⁶. لذلك لا بد من إعادة النّظر في المستوى الأدائي العفوي للغة العربية الفصحى لكي تكون لغة تخاطب، بالنظر في ما خلفه العلماء الأوائل ومن هذا حذوهم من وصف دقيق للعربية ولكلّ مستويات أدائها.

5. تصويبات ونتائج

ونصل في الأخير إلى جملة من النّتائج نذكر أهمها فيما يلي:

- أنّ غياب سياسة لغوية واضحة تخص تعليم العربية ونشرها والتراجع عن مبدأ التعريب في المجتمع في كلّ مجالات الحياة، قد أسهم إسهاماً واضحاً في الاهتمام باللغة الفرنسية واللغات الأجنبية (الانجليزية). وقد أدى إلى عدم تحقيق الأهداف المرجوة من الإعداد لتعليم اللغة العربية في مرحلة ما قبل التّمدرس.

- أنّ غياب سياسة لغوية تخص مرحلة ما قبل التّمدرس، قد أسهم إسهاماً كبيراً في الفوضى الحاصلة في مؤسسات التربية التحضيرية التي تفتقد لكثير من الشروط والضوابط التي تضبط الممارسات اللغوية داخلها. وهو ما جعل بعضاً منها يختار اللغة الفرنسية إلى جانب العربية، وجعل بعضها الآخر يختار اللغة الفرنسية لغة ناقلة للمعارف كما يحصل في بعض رياض الأطفال الخاصّة.

- عدم وعي الأسرة والمجتمع بأهمية الجانب اللغوي أدى إلى استعمال مستوى لغوي هجين لا يفي بأغراض المتكلّمين وحاجاتهم التعبيرية.

- انتقال هذا المستوى اللغوي الهجين إلى مؤسسات التّعليم عامّة ومؤسسات التربية التحضيرية خاصّة. وبدل أن تؤثر المدرسة والروضة في المجتمع تأثّرت هي به وبيّض ممارساته اللغوية التي لا تضيف للمتعلّم شيئاً في تعلّم اللغة ومهاراتها الأربعة.

- أنّ عوائق تعلّم مهارة الاستماع في مؤسسات التربية والتعليم أكثر من مساعدات هذا التعلّم؛ ذلك أنّ الاستماع يحتاج إلى دربة وتطوير واستراتيجيات.

- غياب طرائق ملائمة لتعليم مهارة الاستماع، بسبب إهمال الاستماع وعدم اعتباره أساس كل المهارات اللغوية.

- إغفال الوسائل والسندات المساعدة على التدرّب على الاستماع، وأهمها إلغاء المسرح والسرد القصصي من قبل عدد من المربين. ولذلك لا بد من إعادة النّظر في طرائق الإعداد لتعليم مهارات اللغة الأربع في مرحلة ما قبل التّمدرس واختيار أحسن الاستراتيجيات، والأخذ بعين الاعتبار

³⁶ المرجع نفسه، ص. 237.

السري والتّعليمي، وكذا المحيط اللغوي العام: الشارع، وسائل الإعلام السمعية - البصرية... هو محيط غير مهيا لتعلّم مهارة الاستماع التي تفرض سماع لغة سليمة واضحة، كما أنّه محيط غير مُشجّع على هذا التعلّم، ذلك لأنّه محيط لا يستعمل العربية السليمة. وإن كنا لا نستطيع أن نتكلّم عن استعمال الفصحى في الأسرة بحكم انتشار العاميات أو الأمازيغيات، وسيطرتهما على الممارسات اللغوية اليومية؛ فإنّ الحديث عن هذا الاستعمال ممكن ومطلوب، في الوقت نفسه، في المؤسسات التّعليمية ووسائل الإعلام بحكم تميّزهما بضرورة تلبية الاحتياجات العلمية والثقافية للمتعلّمين الصغار والكبار والمواطنين بشكل عام. ولا يمكن أن يتحقّق ذلك إلّا إذا أصبحت المدرسة ووسائل الإعلام موجّهين لا موجّهين؛ ذلك أنّ «بعض الداعين إلى استعمال العامية في البث الفضائي يعلّون ذلك بأنّ الواقع يفرض هذا الاستعمال فالجمهور الذي تخاطبه هذه القنوات يضم شرائح أمية وشبه أمية، أبجديا ومعرفيا وثقافيا، وهو ما جعل العربية الفصيحة تشكّل حائلا اصطلاحيا، وتواصلها لا يمكن تخطيه إلّا باللجوء إلى العاميات التي تضيف على العملية الاتصالية للإعلام المسموع والمرئي وضوحا وحميمية»³⁴. والواقع يثبت يوما بعد يوم أنّ استعمال العامية لم يحقق لنا أبدا الارتقاء والتطوّر الإعلامي؛ لأنّ العامية محدودة بحدود جغرافية معيّنة، أما الفصحى فهي اللغة المعبرة عن هموم الأمة ومشكلاتها؛ لأنّها لا حدود لها. وكما يقول عبد الرّحمان الحاج صالح:

أنّ الطفل لا يتعلّم في المدرسة لغة الأم أبدا (كما يزعم بعضهم). فالذي يتعلّمه هو لغة الثقافة التي لها كتابة أي المعيار الذي أقامه النحويون واللغويون. ومن يدعو في زماننا إلى تعليم العامية بدلا من الفصحى يريد أن يحوّل العامية إلى لغة ثقافة، فإن تحقّق ذلك فسرعان ما تظهر لغة عامية أخرى غيرها تقوم مقام العامية الأولى التي تحوّلت إلى لغة الثقافة لحاجة النّاس إلى العفوية فلا تبقى الأولى بذلك لغة الأم³⁵!

إنّ المشكلات التي يعانها الطفل العربي بشكل عام والطفل الجزائري بشكل خاص ليست راجعة إلى اللغة الفصحى في حد ذاتها؛ وإنّما هي راجعة إلى أسباب خارجة عنها ولگنها محيطة بها، كما أنّها راجعة إلى اعتقادات خاطئة يرتكبها المثقّفون بالدرجة الأولى. فالفصحى المستعملة اليوم تنقصها العفوية والخفّة في الأداء. كما أنّ «الخطأ الكبير الذي يرتكبه أكثر المثقّفين بهذا الصدد هو الاعتقاد بأنّ هذه العربية التي يتعلّمها التلاميذ الصّغار في المدارس هي تلك العربية التي تكلم بها العرب في زمان الفصاحة والسليقة. وهذا مستحيل لاتصاف لغة

³⁴ عبد الله مليطان، «المؤسسة الإعلامية ولغة التواصل العربي البث الفضائي... بين الواقع والآفاق»، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، ع. 3، جامعة مولود معمري - تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص. 50.

³⁵ عبد الرّحمان الحاج صالح، «العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة»، المرجع نفسه، ص. 237.

مهارة الاستماع وتنميتها، والتي تركز على حصيلة لغوية غنية وصحيحة من مفردات وصيغ وتراكيب وأساليب، وهو ما يجعل هذه الوسائل تسهم إسهاما فعّالا في تمكين أهل اللغة «من بناء صرح حضاري أصيل وثابت»³¹ إذا تمّ اختيار المذيعين والصحفيين ومعدّي البرامج وفق معيار أساسي وهو امتلاك لغة سليمة وطلاقة تعبيرية تناسب الأسماع والأذواق.

وبذلك، فإنّ ما يمكن أن يمتلكه المتلقي الصغير عن طريق مشاهداته لمختلف البرامج التّلفزيونية، خاصّة إذا لم تكن هناك رقابة والدّية لهذه المشاهدات، والوضع كما هو عليه في أغلب قنواتنا من استخدام هزيل لمستويات اللغة العربية، لا يؤدي أبداً إلى اكتساب الفصحى وتعلّم مهارات اللغة بشكل عام ومهارة الاستماع بشكل خاص. ويمكن الاستفادة من بعض البرامج العربية الموجهة للأطفال في اختيار الرّصيد اللغوي، كبرنامج «افتح يا سمسم» الذي لاقى إقبالا كبيرا «حتى أن العاملين في حقل ثقافة الطفل لم يجتمعوا على جودة برنامج تلفازي للأطفال كاجتماعهم على جودة افتح يا سمسم»³². وبما أنّ الطفل الجزائري أصبح منفتحاً على قنوات عربية مختلفة وقنوات أخرى غير عربية، فهو معرّض للاستلاب اللغوي فيما يشاهده. ويبدو أنّ هناك تراجعاً كبيراً في الاهتمام بالجانب اللغوي في برامج الأطفال الناطقة بالعربية، حيث أصبح عدد منها يُنتج بالعاميات أو يُترجم إلى العاميات كما يحصل مع العامية المصرية التي أنتج بها وترجم إليها أكثر من برنامج. فضلا عن أنّ أغلب الأفلام والتمثيلات والمسرحيات تُنتج بالعاميات الضيّقة والمحدودة بحدود بلدانها على الرّغم من انتشار بعضها لكثرة إنتاجها كما حصل مع اللهجتين المصرية والسورية اللتين تخطتا حدود بلديهما. والملاحظ للأفلام المبدلجة في أيامنا، يدرك قلّة العناية بالفصحى. فبعد أن كانت دبلجة هذه الأفلام تتم بالعربية الفصحى، أصبحت تتم بالعاميات العربية المحلية: كالسّورية، والعراقية، والمغربية... مما يدل على عدم وجود استراتيجية عربية موحّدة تخص الثقافة والإعلام بشكل عام واللغة بشكل خاص. وفضلاً عنّا قلنا، يمكن اعتبار ما يروج في المجتمع من أفكار سلبية حول العربية وآدابها وتشجيع تعلم اللغات الأجنبية على حساب العربية، والصراع الفكري الدائر بين طوائف المجتمع أحد أهمّ العوائق التي تعيق الاهتمام بالعربية ومهاراتها؛ ذلك أنّ «تقهقر استعمال الفصحى في المدرسة ووسائل الإعلام بسبب التّراجع عن مبدأ التعريب في الجامعة والإدارات والمؤسسات الاقتصادية والتّجارية. هو ما أدى إلى نقص الدافع لدى المتعلّمين في إتقان الفصحى، فضلا عن عدم وجود ذلك الرابط الروحي الذي يربط بين الفرد المتعلّم ولغته، وهو ما نلاحظه من استهجان لهذه اللّغة الجميلة في أوساط أغلب النّاشئة»³³. وعليه، يمكن القول إنّ المحيط اللغوي

³¹ المرجع نفسه، ص. 89.

³² المرجع نفسه، ص. 102.

³³ صحرة دحمان، «أثر تعليم اللغات الأجنبية في اللغة العربية (أثر اللغة الفرنسية - الجزائر أمّوذجاً)»، مجلّة اللغة والأدب، مجلّة أكاديمية محكّمة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2، ع. 22، جويلية 2014، ص. 93.

تعرفها من قبل. كما أنَّ لغات أخرى استفادت من الإنتاج العلمي العربي ونُقلت مصطلحات كثيرة من العربية إلى لغات أخرى. غير أنَّ انتقال العربية من عصور الازدهار إلى عصور الانحطاط جعل أهلها يعانون من مشكلات لغوية لا حصر لها، بسبب تعرُّص الدول العربية إلى الاستعمار بنوعيه السَّياسي والثقافي. وكانت الجزائر من بين أكثر الدول تعرُّصاً لمحاربة التَّعليم عامَّةً والعربية خاصَّةً، لأنَّ العربية هي عنوان الشخصية والهوية العربية والإسلامية بوجه عام والهوية والشخصية الجزائرية بوجه خاص. وقد استطاع الاستعمار الفرنسي «مناوراته الإدارية واللغوية، أن يحدث تشوّهات غائرة في البنيان الاجتماعي والنَّفسي [في مؤسسات المجتمع الجزائري وهياكله]»²⁹. ومع مرور الوقت انقادت عدد كبير من أبناء الجزائر الذين تنكَّروا للغتهم واختاروا لغات غيرهم لتكون وعاء أفكارهم وناقل معارفهم وعلومهم. وليس أدل على ذلك من أنَّ تسمع متكلمين عرب أو أمازيغ، ودون حاجة ماسة إلى لغة أخرى، قد اختاروا لمحاوراتهم اليومية اللغة الفرنسية. وتعتبر هذه الممارسات اللغوية - وإن كانت بعض هذه الممارسات لها تفسيرات اجتماعية ونفسية أو لها علاقة باستراتيجيات المتكلم - انعكاساً لسياستين في مرحلتين مختلفتين: الأولى مرحلة الاستعمار التي دامت قرناً واثنتين وثلثين سنة، والثانية مرحلة ما بعد الاستعمار وهي سياسة أسهمت إسهاماً كبيراً في ترسيخ استعمال الفرنسية في مجالات مختلفة: الاقتصاد - الإعلام - المال والأعمال... وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً في استعمال اللغة العربية وانتشارها على الرُّغم من أنَّها اللغة الوطنية واللغة الرِّسمية. وتعتبر واجهات المحلَّات والمؤسسات المكتوبة بفرنسية صحيحة وعربية مشوّهة في كثير من الأحيان علامة دالة على مستوى الانتشار والإقبال لدى أفراد المجتمع، حتى إنك عندما تتجول في شوارع المدن الكبرى لا تجد - في الغالب - أخطاء في كتابة اللغة الفرنسية ولكن نصيب الأخطاء في العربية كبير وخطير. وليس ذلك، فحسب، بل إنَّ التَّشويه مسَّ العربية الفصحى في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة التي لم يعد يغلب على أكثرها استعمال الفصحى. وأصبح استخدام لغة غير واضحة المعالم في عدد من الحصص أمر شائع.

ويوما بعد يوم تسهم هذه الوسائل - ما عدا بعض الحصص الجادة - في استعمال لغة هزيلة تؤثر سلباً في أسماع المتلقين الكبار منهم والصغار؛ ذلك أنَّ هذه الوسائل تصل إلى «الداني والقاصي والغني والفقير والقادر والعاجز، ويأنس إليها الكبير والصغير، الأعمى والبصير، القارئ والأمي، بل لا يكاد يكون لأحد في يومنا الحاضر عنها أو عن بعضها غنى ولا على هجرانها طاقة، ولرُّمَّا حلَّ بعض منها بين طائفة من النَّاس محلَّ العشير أو القرين الذي لا يكاد يفارق أو يبتعد»³⁰. إنَّ سوء استعمال وسائل الإعلام والاتصال في الجانب اللغوي يعدُّ من العوائق التي تعيق اكتساب

²⁹ أحمد نازلي معوّض، التَّعريب والقومية في المغرب العربي، بيروت - لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 1986، ص. 156.

³⁰ أحمد محمَّد المعنتوق، مرجع سابق، ص. 88.

نستنتج من خلال ما عالجناه في هذا المبحث أنّ المحيط التعليمي محيط معطل لتعلّم مهارة الاستماع، وحين نتحدّث عن هذا المحيط المعطل لتعلّم الفصحى ومهاراتها:

لإد أن نشير إلى مستويات الأداء اللغوي التي تشيع على ألسنة أغلب المربين، خاصّة ذلك المستوى الذي يغلب عليه المزج اللغوي بين العربية والفرنسية، فننحوّل من ممارسة العربية إلى خليط أو هجين لغوي يؤثر سلباً في مستوى أداء الطفل ولغته الشّفوية التعبيرية التي تتأثّر حتّى بهذه الممارسة اللغوية، التي وإنّ تسامحنا بحدوثها خارج أسوار المدارس، فإنّ السّماح بحدوثها داخل الصفوف هو ما أدى وسيؤدّي إلى تفاقم أزمّتنا اللغوية²⁶.

إنّ هذا المستوى وغيره من المستويات الهزيلة الأخرى، يتنافى ومفهومي الفصاحة والبلاغة. فإذا كان المفهوم الأوّل من صفات القول الذي يرتبط بالبنية الصوتية للغة التي تُسمع، وكان المفهوم الثّاني من صفات الكلام الذي يتعلّق بالبنية الدلالية التي تنتج عن فهم البنية الأولى، وجب اختيار العبارات المناسبة حتّى يحصل فهمها وإنتاجها بشكل جيّد. وعليه يصبح المتعلّم فصيحاً:

إذا غادر طور العجز أولاً على تخلص حاسّة سمعه لبعض المفردات المتقاربة من بعض، [وتخلّصه من هذا الهجين]، وثانياً على إصدار جهاز نطقه لنطاق اللغة من أحيازها الاعتيادية، ثمّ انتقل إلى طور القدرة على إحكام نطاق العربية سماعاً ونطقاً. ويتحوّل بليغاً إذا صار متمكناً من القواعد اللازمة لنظم المعاني على قدر الافتقار للتعبير عنها بأنسب تركيب وقولها بأفصح لسان²⁷.

وتجب الإشارة إلى أنّ المتعلّمين الصغار «يتأثّرون بطرق مباشرة وغير مباشرة بطلاقة مدرسيهم ويكتسبون منها عن طريق التّأثّر أو التّقليد والمحاكاة ... ما يرتقي بقدراتهم اللغوية، وربّما كان اكتسابهم مما لديه من مهارات ومفردات لغوية أكثر من استفادتهم من المقررات الدراسية²⁸».

4. عوائق المحيط العام

إذا كان ازدهار الأمم مشروط بارتقاء لغاتها ومسايرتها لكلّ جديد، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد اختار العربية لتكون لسان أقدس كتاب على وجه الأرض هو القرآن الكريم. وقد استطاعت العربية أن تعبّر عن أدق المعاني والأفكار في شتى العلوم والمعارف، ولم يلاق متكلّموها مشكلات عبر عصور متتالية من الزّمن، ذلك أنّ العربية كانت مسيطرة لكلّ جديد آن ذاك. وقد أسهمت حركة الترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية في عصور نهضتها في إفادتها بمصطلحات لم تكن

²⁶ صحرة دحمان، «الإعداد لتعليم مهارات اللغة...»، مرجع سابق، ص. 275.

²⁷ محمّد الأوراعي، اللسانيات النّسبية وتعليم اللغة العربية، بيروت - لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط. 1، 2010، ص. 76.

²⁸ أحمد محمّد المعتوق، الحصيلة اللغوية أهميتها - مصادرها - مصادرها - وسائل تنميتها، س. عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997، ص. 172.

- تدريب الأطفال على الاستمتاع بتعلّم الأحاديث والقرآن الكريم وبعض الأشعار التي تناسب سنّهم وفهمهم، عن طريق تشجيعهم وخلق جو مرح ومريح يركّز على التنافس. وذلك باستغلال خصائص الطفل كحبّه للإطراء، والتحفيز ببعض الجوائز والهدايا، حتى ولو كانت بطاقة استحسان، لأنّه يفتخر بتقدير ذاته واحترامها.
- ضرورة إثراء برنامج ما قبل المدرسة بمنهج الصوتيات لمساعدة الأطفال على كيفية الشّناظر بين الصوت والحرف الكتابي، وقد أشارت الدراسة التي قام بها Richgels Donald²³ إلى هذه الضرورة.

وفضلاً عمّا قلناه، فإنّ امتلاك المربين لطرائق الإعداد لتعليم اللغة واستراتيجيات هذا الإعداد والتّعليم هي التي تسهم إسهاماً كبيراً في نجاح المربي في تدريب الأطفال على استخدام سماعهم بطريقة إيجابية؛ ذلك أنّ أحد غايات التّعليم في مرحلة ما قبل التّمدرس هو تكوين مستمع جيّد قادر على توظيف ما يسمعه توظيفاً ملائماً لحاجاته الآنية والمستقبلية. وكما قال دوجلاس براون:

إنّ أية طريقة مهما تكن جذابة، ومهما تبدو مفيدة لك، فإنّ أفضل طريقة هي تلك التي تستخلصها أنت بصياغتك الشخصية، واختيارك، ومراجعتك لها. وبديهي أنّك لا تستطيع أن تعلّم تعليماً سليماً فعلاً دون فهم الأوضاع النّظرية المتنوعة، فذلك هو الأساس الذي يمكنك أن تختار عليه ما تراه من طرق، وما لم يكن هذا الأساس في نظرتك، فإنّك سوف تصبح منقاداً لطريقة واحدة من التّفكير، بل تصبح دمية دون تحكّم ذاتي²⁴.

ولا يمكن أن يتحقّق شيء مما نقوله ونحن نغفل أهميّة مرحلة ما قبل التّمدرس، وأهميّة وضع أسس لاختيار المربين؛ ذلك أنّ القضاء على الفوضى الحاصلة في الميدان ضرورة ملحة تفرضها متغيّرات العصر وشروط النّهضة التي تشترط وجود تعليم متطوّر في جميع مراحله. كما أنّ إدراك المربين ووعيهم الكامل بأهميّة العلاقة بين الاستماع والتّعبير لدى الأطفال مهم جدّاً، لأنّ الهدف الأساس من تعليم الاستماع ليس تنمية مهارة الاستماع فحسب، بل التدرّب على التّعبير الجيّد، وحسن اختيار الكلمات المناسبة للمعاني المقصودة، وهذا ما أشارت إليه دراسة طاهرة أحمد الطحان «الهدف الأساس من خلال برنامج الاستماع [هو تدريب الطفل] على التّحدّث الجيّد بأسلوب معبّر في سياق لغوي صحيح يستطيع من خلاله أن يعبّر عن متطلباته بشكل واضح، ومفهوم للآخرين، ومناسب للموقف الذي يريد التّعبير عنه لغوياً ووجدانياً²⁵».

²³ أحمد الطحان طاهرة، مهارات الاستماع والتّحدّث في الطفولة المبكّرة، الأردن، دار الفكر، ط. 2، 2008، ص. 20.

²⁴ دوجلاس براون، أسس تعلّم اللغة وتعليمها، ت. عبده الراجحي، علي علي أحمد شعبان، بيروت، دار النّهضة العربيّة للطباعة والنّشر، (د.ت)، ص. 34.

²⁵ أحمد الطحان طاهرة، مرجع سابق، ص. 60.

التعليمية بشكل خاص؛ قد أسهم إسهاما قويا في جعل المحيط التعليمي عائقا من عوائق تعلّم مهارة الاستماع. فعدم توفير متكلّم جيّد يؤدي إلى عدم تكوين مستمع جيّد. وعلى الرّغم من أنّ مهارة الاستماع هي أكثر المهارات التي تلائم صغار الأطفال، وهي الأساس الأول الذي ينبغي أن يوجه له المخطّطون عنايتهم في وضع مواقف التّعليم بوجه عام ومواقف الاستماع بوجه خاص، إلّا أنّ الاستماع هو أكثر مهارات اللغة إهمالا في مناهجنا المدرسية، فهو:

أمر يدعو إلى الدهشة ويؤدي إلى ضرر بالغ، فالمهارة في الاستماع تتصل اتصالا وثيقا بالكفاءة في عدد من الميادين الأكاديمية. أمّا بالنسبة لبعض الأطفال خاصّة أطفال المراحل الأولى، والأطفال الضعاف في القراءة يمثّل الاستماع بالنسبة لهم أهم وسيلة للتّحصيل، إذ إنّ المستمع وليس المتحدث هو الموجه الأول للعملية التعليمية... ومما يؤكّد ضرورة الانتباه لتعليم الاستماع والعناية به أن أصبح الاستماع الآن جزءا أساسيا في معظم برامج تعليم اللغة في الدول المتقدّمة²².

وانطلاقا من هذه الأهمية يمكننا تحديد جملة من المقاصد والأهداف التي ينبغي تحقيقها من تعليم مهارة الاستماع للأطفال:

- تنمية قدرة الاستماع الهادف والمتجاوب، بتشجيع الأطفال على متابعة الكلام المسموع باهتمام شديد.
- تنمية القدرة على اكتساب المعارف وتحصيلها من خلال الاستماع.
- تنمية القدرة على التّحاور والمشاركة في الأحاديث بإثارة مواضيع يحبّها الأطفال.
- تنمية قدرة الأطفال على تمييز مواضع النّبر والتّنغيم في الكلام المسموع.
- تدريب الأطفال على الاستماع والحديث، بجعلهم يشاركون في حوارات مختلفة توافق سنّهم.
- تدريب الأطفال على فهم الكلمات من خلال السّياق، سواء لتعليم بعض المترادفات أو بعض الأضداد، أو المعاني بوجه عام (يمكن الاستعانة بالقصص أو الأناشيد أو المسرح والتمثيل).
- تدريب الأطفال على تركيز الانتباه، ومنه تنمية القدرة على التّذكر والاستيعاب، ذلك أنّ عددا كبيرا من المتعلّمين في مراحل التّعليم المختلفة يعانون مشكلة فقدان التّركيز؛ لأنّهم لم يتدربوا منذ سن مبكرة على هذه المهارة. ويمكن تفسير بعض مظاهر النسيان الذي يصيب المتعلّمين، بفقدان القدرة على تركيز الانتباه، والتّشتت الذي يحصل في أذهانهم أثناء التّعليم. ومن أمثلة ذلك أنّ بعض الأطفال لا يستطيعون الاحتفاظ بأبسط التّفاصيل، فيتعدّر عليهم استرجاع أبسط الكلمات والمعلومات، كتاريخ اليوم، أو إعادة بعض جزئيات القصة.

²² رشدي أحمد طعيمة وآخرون، المفاهيم اللغوية عند الأطفال: أسسها، مهاراتها، تدريسها، تقويمها، عمان - الأردن، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط.2، 2009، ص.275 وما بعدها.

من هذين الشكّلين خصائصه التي تميّزه عن الآخر، ومواقفه التي يُستعمل فيها²⁰. وعليه يمكن تحديد المهارات الأساسية²¹ ونشاطات الاستماع في مرحلة ما قبل التّمدّس في الجدول الآتي:

المهارة	النّشاطات
مراعاة آداب الاستماع	يحسن المستمع - الطفل الجلوس ويتوجّه بالنّظر إلى المتحدّث.
	يستمع بانتباه، خاصّة إذا كانت طريقة المتكلّم مشوّقة.
فهم المسموع	يفهم الطفل المعنى العام للكلام المسموع أو النّص المقروء.
	يفرّق بين الشّخصيات الموجودة في القصص ويسند إليها أدوارها.
	كما يمكنه الربط بين تلك الشخصيات والأحداث.
	يمكنه الإجابة عن الأسئلة التي تبدأ بأدوات استفهام: من، أين، متى، كم
تحليل المسموع	يمكنه معرفة الفرق بين السلوكيات الإيجابية والسلوكيات السّلبية.
	يمكنه إعادة ما استمع إليه بطريقته الخاصّة، مع نسيان بعض التفاصيل.
الرّبط بين المثير السّمعي والمثير البصري	يمكنه الرّبط بين الكلمات والصور الممثّلة لها.
	يمكنه الربط بين الكلمات والصور التي تبدأ بنفس الحرف.
	يمكنه إعادة ترتيب الأحداث المسموعة من خلال الصور.
التّمييز السّمعي	يمكنه التّمييز بين أصوات الحروف المتشابهة في بداية الكلمات المسموعة ونهايتها.
	يمكنه التّمييز بين الأصوات المختلفة في البيئة.
	يمكنه التّمييز بين الأصوات اللّغوية، إلّا بعضها.

- غياب برنامج خاص بتنمية مهارة الاستماع، حيث تعطى الأهمية لنشاطي الكتابة والرياضيات على حساب باقي الأنشطة. وتُلغى - في الغالب - حصّة التّعبير التي تسهم بشكل واضح في تدريب الأطفال على الكلام وحسن الاستماع إلى ما يدور من كلام في الصف. وذلك راجع إلى عدم اهتمام واضعي البرنامج بمهارة الاستماع، حيث لم يُخصّص لها أيّ حجم ساعي. وهو ما يبدو جلياً في جداول توزيع الرّمن التي تفتقد لتخصيص وقت معيّن لهذه المهارة. كما أنّ غياب سياسة لغوية وتخطيط لغوي يخص المحيط بشكل عام ووسائل الإعلام والمدرسة والمؤسسات

²⁰ صحرة دحمان، «الإعداد لتعليم مهارات اللغة...»، مرجع سابق، ص. 263.

²¹ زين كامل الخويسكي، المهارات اللغوية: الاستماع/ والتحدّث/ والقراءة/ والكتابة وعوامل تنمية المهارات اللّغوية عند العرب وغيرهم، دار المعرفة الجامعية، 2008، ص. 52 - 60. (بتصرّف). وينظر: صحرة دحمان، «الإعداد لتعليم مهارات اللغة الأربع...»، مرجع سابق، ص. 246.

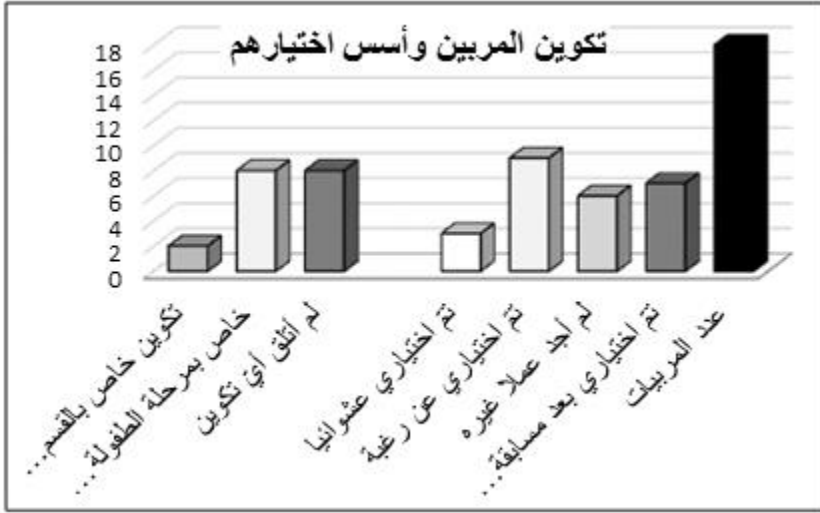
- عدم وعي عدد من المربين بأهمية دورهم في إكساب الطفل اللغة العربية ومهارتها الأربع بدءاً بمهارة الاستماع، يعتبر أكبر عائق يعيق تعلّم مهارة الاستماع وتطويرها، ذلك أنّ سلوك المربي اللغوي هو عامل فاصل في التعلّم. لأنّ اللغة هي أداة التّواصل، التي ينقل بها المربي مقاصده إلى المستمع - المتعلّم الذي يستعمل، بدوره، هذه اللغة لتحليل تلك المقاصد. فيحلّل الإنتاجات اللّغوية، الموجهة إليه، التي تحمل معاني مرتبطة بسياقات خطابية ومقامية معيّنة. فيحلّل التّركيب الصوتي إلى وحدات صغيرة. وفي هذه الحال هو مطالب بإيجاد العلاقة بين هذه الوحدات والمعلومات التي يملكها من أجل الوصول إلى تحليل جيّد عن طريق سلسلة من الفرضيات والعلاقات التّضمينية. وهو في هذا كلّه يستخدم قدراته الإدراكية، فضلاً عن معارفه الأخرى التي اكتسبها كالمعارف غير اللّسانية، ومعارفه حول اللغة والتّواصل على الرّغم من بساطتها، ومعارفه التي استمدّها من لغته الأم¹⁹.

- عدم إعطاء الأهمية للقصة والمسرح في مرحلة ما قبل التّمدرس، وقد تجسّد ذلك في ما يلي:
- حكاية القصة بطريقة غير مشوّقة، وهو ما يؤدي إلى ملل الأطفال وعزوفهم عن متابعة القصة والاستفادة منها.
- عدم قدرة المربي على تقمص شخصيات القصة.
- تعويض القصة والنشاط المسرحي بأنشطة أخرى كالكتابة والرياضيات على الرّغم من أنّ هذين النشاطين ليسا من الأنشطة الأساسيّة في مرحلة ما قبل التّمدرس.
- عدم القدرة على تحديد مواطن القوة في القصة، وكذا سوء تحديد أهم ما يتعلّمه الأطفال من القصص المسموعة، وهو ناجم عن عدم اطلاع بعض المربين على فوائد حكاية القصة للأطفال الصغار وطرق حكايتها.
- عدم التّحكم في استعمال لغة فصيحة بسيطة وواضحة، يدفع بكثير من المربين إلى استعمال العامية أو المستوى الهجين الذي تحدّثنا عنه، وهو ما يجعل استخدام القصة ينحرف عن الأهداف المسطرة ومن أهمها تنمية الثّروة اللّغوية للطفل، وخلق الاستعداد القرائي، وتنمية مهارة الاستماع.

وإذا كانت العربية تتوزع في الاستعمال بين المواقف الرسمية، التي تمثّلها الفصحى، ولغة الحياة اليومية، التي تمثّلها العاميات العربية المختلفة، فإنّ ما يعيق فعلاً تعلّم الاستماع هو تركيز برامج تعليم الفصحى على الجانب المكتوب من اللّغة وإهمالها للجانب المنطوق الذي يترك للعامة. وهو ما يؤدي إلى خلل واضطراب في لغة المتعلّمين في استعمال الجانب المنطوق؛ ذلك أنّ إتقان أيّة لغة إتقاناً كاملاً مرهون بتعليم شكلها: المكتوب والمنطوق؛ لأنّ لكل شكل

¹⁹ Michèle Pendanx, *Les activités d'apprentissage en classe de langue*, Hachette, 1998, p.32.

باعتبار أنهم تعبوا من أداء مهامهم في الأقسام الابتدائية، لأنهم مُقْبِلُونَ على التقاعد¹⁶. وفي ما يلي مخطط¹⁷ يبرز هذه النسب بشكل واضح:



إنَّ عدم وضع مقاييس وشروط من قبل مؤسسات التربية التحضيرية، لاختيار المربين، وعدم خضوع المعنيين لمسابقات كتابية وشفهية، حيث يتم قبولهم على أساس الشَّهادات؛ يجعلنا نتساءل هل تكفي الشَّهادة وحدها لأداء مهمة مربِّي الأطفال؟ إنَّ الاعتقاد بأنَّ مهمة تربية الأطفال في مرحلة ما قبل التمدرس مهمة سهلة هو الذي فتح الباب واسعا لتعليم الأطفال للرَّغبين وغير الرَّغبين، وهو ما يجعل إعادة النظر في معايير انتقاء المعلمين والمربين قبل الخدمة، وإعادة فتح معاهد ومدارس متخصصة في هذا المجال أمر ضروري وحتمي. كما أنَّ ممارسة التَّكوين التَّربوي ينبغي أن تخضع إلى تحديدات دقيقة وعلمية «للكفايات والمهارات المتعلقة بطبيعة وخصائص المهنة. [ذلك أنَّه] حينما يغيب هذا الجانب؛ يتم التَّركيز على الجوانب المعرفية التخصصية التي لا علاقة لها بما ينتظر المدرس من مهام ووظائف»¹⁸.

¹⁶ صحرة دحمان، «الإعداد لتعليم مهارات اللغة الأربع...»، مرجع سابق، ص.217.

¹⁷ المرجع نفسه، ص.216.

¹⁸ سعيد حليم، المرجع في كيفية التَّدریس، س. المنظومة التَّربوية في المغرب، ط.1، فاس، أنفو - برانت، 2009، ص.571.

محيطا لغويا ثانيا، يتسم ببعض الخصائص التي لا توجد في المحيط الأسري. ذلك أنَّ هذا المحيط يستعمل مستويات لغوية تساعد الطفل على اكتساب اللغة العربية. ولكن إلى أي مدى يمكن أن تسهم هذه المؤسسات في تعلّم مهارة الاستماع؟ وإلى أي مدى تسهم في إعاقه هذا التعلّم؟

عندما نتكلّم عن الروضة أو عن أي مؤسسة أخرى يجري فيها إعداد الأطفال لتعليم وتعلّم المهارات اللغوية، فإننا بالضرورة نتكلّم عن المربي الذي له دور فعّال في هذا الإعداد. وإذا كانت اللّغة هدفا أساسيا من أهداف التّعليم، خاصّة في مراحل التّعليم الأولى، فإنّ المربي يسهم في إكساب الأطفال اللّغة وتعلّم مهاراتها. وذلك بتشجيع الطفل على مبادراته اللّغوية، والعمل على خلق جو مساعد على التّعلّم، وقائم على التّنافس؛ فالطفل يكشف أخطائه إثر استجابة المربي ورد فعله. فيتولّد لديه ما يسمى بالتّغذية الرّاجعة اللّغوية: أي التّعرّف على أخطائه وتصحيحها بنفسه. شريطة أن يكون هذا المربي قدوة حسنة في استعماله للّغة العربية. غير أن نظرة فاحصة لواقع التّربية التّحضيرية من خلال معایناتنا الميدانية لعدّة مؤسسات تعليمية، والتي قمنا بها لإنجاز بحث الدكتوراه، تجعلنا نوّكد أنّ هذه المؤسسات تعيق تعلّم المهارات اللّغوية بوجه عام ومهارة الاستماع بوجه خاص، وذلك لعدّة أسباب نذكر أهمّها:

- الاختيار العشوائي لمربي مرحلة ما قبل التّمدرس، فقد بيّن الاستبيان - الذي وزعناه على 18 مربية من خلال الإجابة عن السّؤال الأوّل: هل تلقيت تكوينًا: - خاصًا بالقسم التّحضيرى (5 - 6 سنوات ؟ - خاصًا بمرحلة الطفولة المبكّرة والصغرى بشكل عام؟ - لم أتلّق أيّ تكوين؟ والإجابة عن السّؤال الثّاني: أجب (ي) بنعم أو لا: تمّ اختياري لتعليم الأطفال الصغار عشوائيا/ تمّ اختياري لتعليم الأطفال الصغار عن رغبة/ لم أجد عملا غيره/ تمّ اختياري بعد مسابقة كتابية ومقابلة شفهيّة، أنّ نسبة الذين لم يتلقوا أيّ تكوين تتساوى مع نسبة الذين تلقوا تكويننا خاصا بمرحلة الطفولة المبكّرة والصغرى بشكل عام، حيث قدّرت بـ 44,44%. بينما مثّلت نسبة تلقيت تكويننا خاصًا بالقسم التّحضيرى 11,11%. وهذا يدل دلالة واضحة أنّ اختيار المربين ليس قائما على أسس علمية ولغوية وهو ما يؤكّد:

- القصور الواضح في أسس اختيار مربي ومعلّمي المرحلة التّحضيرية، حيث إنّ نسبة الذين لم يتلقوا أيّ تكوين كبيرة مقارنة بأفراد العيّنة، وإن كنا لا نستطيع أن نعمم هذه النّتائج على واقع اختيار المربين والمعلّمين العام، إلّا أننا قادرين على الجزم من خلال احتكاكنا بالميدان بأنّ الأمر يحتاج إلى وقفة حقيقية وإعادة النّظر في شروط وأسس اختيار مربي الأطفال، ذلك أنّ ما صرّح به بعض المربين أثناء لقاءاتنا بهم مخيف للغاية. من ذلك أنّ بعضهم وُجهوا للقسم التّحضيرى دون رغبة منهم وأنّ بعضهم اختاروا التّعليم في هذا القسم ليرتاحوا

الخمس الأولى بشكل خاص في بناء شخصية الطفل وإعداده للمراحل اللاحقة بدءاً بمرحلة الابتدائي وانتقالاً إلى المراحل التالية. غير أنّ الاهتمام بالتربية التحضيرية، باعتبارها هدفاً من أهداف المجتمع، لم تظهر في الجزائر إلا في عقود متأخرة، نظراً للظروف التاريخية الصعبة التي مرت بها الجزائر؛ فقد عمد الاستعمار الفرنسي إلى القضاء على كل مجالات التعليم والثقافة في جميع مراحل التعليم ابتداءً بمرحلة ما قبل المدرسة. فعلى الرغم من أنّه قد أنشأ مؤسسات تربوية تحضيرية أو ما كان يطلق عليها *L'école maternelle*، فإنّ جلّ الأطفال الجزائريين قد حُرّموا من خدمات هذه المؤسسات، ووجهت خدماتها إلى أبناء المعمرين والموالين للاستعمار. ولم يبق، بعد الاستقلال، إلا عدد قليل من هذه المدارس التحضيرية التي ألغيت بموجب قرار وزاري بتاريخ: 23-09-1965¹⁴. كما تم تحويلها إلى مدارس ابتدائية لامتناس العجز في الهياكل والمؤسسات التي تستقبل أطفال المرحلة الابتدائية، حيث أعطيت لها الأولوية على حساب المرحلة التحضيرية، عملاً بمبدأ فقه الأولويات. تأتّى فيما بعد مرحلة تعيد الاعتبار للتربية التحضيرية بصور أمريات ونصوص رسمية وبعض الوثائق التوجيهية التربوية، منها:

- أمرية 16 أبريل 1976¹⁵ التي حدّدت الإطار القانوني الذي سمح للشركات والمؤسسات الوطنية والهيئات العمومية بإنشاء رياض الأطفال لاستقبال أبناء العاملين في هذه المؤسسات.
- وثيقة توجيهية تربوية سنة 1984.
- وثيقة تربوية مرجعية للتعليم التحضيري سنة 1990، حدّدت أهداف النشاطات وملح طفل المرحلة التحضيرية والبرنامج المقترح وكيفية تنظيم الفضاء المادي للقسم التحضيري.
- الدليل المنهجي للتعليم ما قبل المدرسي سنة 1996.
- المنهاج والدليل التطبيقي لمنهاج التربية التحضيرية سنة 2004.

- تدابير تنظيمية تربوية خاصة بالتربية التحضيرية صادرة بتاريخ 20 أبريل 2008. وتشمل الأهداف، وكيفية فتح الأقسام وتسجيل الأطفال وما إلى ذلك. وكلّ هذه النصوص والوثائق تولى اهتماماً بالغاً بمرحلة ما قبل المدرسة والتربية التحضيرية في الجانب النظري. غير أنّ الجانب العملي يحتاج إلى مزيد من بذل الجهد سواء أكان ذلك على مستوى المنهاج المقدم، أم على مستوى الوسائل المختلفة التي يحتاجها متعلّم ما قبل التّمدرس، أم على مستوى تكوين المربين وغيرها من المستويات الأخرى التي تسهم في إعداد جيّد على مستوى مهارات اللغة والمهارات الأخرى. ويمكن اعتبار المؤسسات التعليمية التي تقدّم تعليماً تحضيرياً (مرحلة ما قبل التّمدرس)

¹⁴ انظر: مجموعات البحث في النشاط المدرسي G.R.A.P.S، الدليل المنهجي للتعليم ما قبل المدرسي، الجزائر، الديوان الوطني للطبوعات المدرسية، 1996، ص.3.

¹⁵ الأمرية، هي أمر مرقم تحت 76/35 يتضمّن تنظيم التربية والتكوين في الجزائر، صدرت يوم 16 أبريل 1976.

الأسنة أو شيوع الفرنسية على أسنة البعض أو شيوع هجين لغوي يختلط فيه تنوع لغويين فأكثر، تسبب في وجود مستوى هزيل لا يمكن بواسطته التعبير عن حاجات المتكلم الضرورية في المواقف المختلفة. وهو ما جعل المحيط الأسري في الغالب - محيطاً معطلاً لاكتساب اللغة العربية. فضلاً عن كونه محيطاً عاجزاً عن تقديم المساعدات اللغوية التي يقدمها أي مجتمع للغة وأفراده، حيث إن اللغة تمثل عنوان حضارة المجتمعات وتقدمها؛ ذلك أن اللغات الأجنبية مهما أمدتنا بالمساعدة لاكتساب العلوم والمعارف، نضل في حاجة إلى لغتنا لأنها الأقرب إلى وجداننا. كما أنها السبيل الوحيد لإخراجنا من سيطرة الغير. فواقع الممارسة اللغوية اليومية للمتكلمين الجزائريين الذين تظهر في أحاديثهم آثار الاحتكاك اللغوي والتفاعل بين الفرنسية والعربية، أدى إلى المزج بين اللغتين وأستعمالهما معا في المحادثة الواحدة. ولم يقتصر هذا الاستعمال اللغوي على أفراد بعينهم، بل شمل كل القطاعات والمجالات والوضعيات: الصفوف التعليمية، والحصص التلفزيونية، والمحاورات الحميمية وغير الحميمية وما إلى ذلك¹². غير أننا نشير إلى نقطة في غاية الأهمية وهي أن حديثنا هذا ليس دعوة إلى الاستغناء عن تعليم اللغات الأجنبية، لأننا في أمس الحاجة إليها في الوقت الراهن نظراً لتخلفنا في المجالات العلمية والتكنولوجية. وهو ما يجعل أمر الاقتصار على لغة واحدة أمراً صعباً. ولكن إعادة النظر في تعاملنا مع مشكلاتنا اللغوية ضروري جداً وتوعية الأسر بهذا الجانب من أولوية الأولويات. ذلك أن النظرة السطحية لمشكلاتنا اللغوية قد أدت إلى تفاقمها واستمرار التبعية في جميع المجالات. وهو ما يدفع المجتمع إلى التخلص من وضعية الازدواج اللغوي Bilinguisme والجنوح إلى وضعية التفرد اللغوي Unilingue. وكذلك الإقرار بالفرضية القائلة «أن التنمية الثقافية المفوضية إلى تطوير المجتمع في شتى المناحي تحصل على الوجه المطلوب في وضعية التفرد اللغوي لا غير. يترتب عن هذه الفرضية أن كل دعوة إلى أي شكل من أشكال التنوع اللغوي غير مبررة تنموياً. بل تكون لهذه الدعوة، بوعي من أصحابها أو بسهو منهم خلفية سياسية مناقضة في مغزاها لمصلحة الأمة¹³».

3. عوائق المحيط التعليمي الأولي (مؤسسات التربية التحضيرية)

شهدت السنوات الأخيرة تزايد الاهتمام بالتربية التحضيرية في الجزائر؛ ذلك أن دراسات كثيرة تُجمع على دور الرعاية والاهتمام والتربية في مرحلة الطفولة المبكرة بشكل عام وأهمية السنوات

¹² قد فصلنا القول حول ظواهر الاحتكاك اللغوي في بحثنا «ظواهر الاحتكاك اللغوي»، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 1999، ص. 32 وما بعدها.

¹³ محمد الأوراعي، التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، الرباط، منشورات كلية الآداب، ط. 1، 2002، ص. 50.

أمازيغية، فقد يسود التنوع فرنسية- أمازيغية، خاصة لدى الأسر التي تعيش في بيئة عامّة أمازيغية كما هو الشأن في المناطق التي تستعمل إحدى اللهجات الأمازيغية. في حين يسود التنوع فرنسية - أمازيغية- عربية في محيط لغوي عام تسيطر فيه العربية العامية. ونشير إلى أنّ هذا التوزع اللغوي لا يحدث في الواقع بهذا الشكل الصارم، حيث يمكن أن يظهر التنوع عربية عامية - أمازيغية في واقع الممارسة اللغوية في بعض الأسر التي تعيش في مناطق تجاور بين ذوي الأصول العربية وذوي الأصول الأمازيغية. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الطفل الجزائري يبدأ في تعلّم العربية الفصحى في مؤسسات التربية التحضيرية (مرحلة ما قبل التّمدرس)، عن طريق تعلّم مبادئ القراءة التي تتمثل في الأصوات العربية والحروف، وتعلّم الكتابة بتعلّم مبادئ الخط.

وعليه فإنّ المحيط الأسري اللغوي في كثير من العائلات الجزائرية يتسم بالتعقيد، ذلك أنّ الطفل الصغير يضطر لاستعمال تنوعين لغويين أو أكثر في المحادثات اليومية. فضلا عن أنّ أسرا كثيرة أصبحت تولي عناية كبيرة باللغات الأجنبية عامة واللغة الفرنسية خاصّة بتشجيع أبنائها على تعلّمها ابتداء من سن مبكرة وذلك راجع لسببين رئيسيين هما:

- اعتقاد بعض الأسر أنّ العربية الفصحى لا تسائر التّطورات الحاصلة في العالم، وهو ناجم عن عدم وجود المسميات للمفاهيم والمخترعات والاكتشافات الجديدة في اللغة العربية، خاصّة في المجال الطبي والتكنولوجي. فالعربية في نظرهم لغة لا يمكن أن تنقل العلوم والمعارف وحسبها أن تكون لغة العبادة. فضلا عن أنّ اللغة الفرنسية هي عامل مهم من عوامل التفتح على العالم في رأي عدد كبير من الفرنكفونيين.

- خوف بعض الأسر من إخفاق أبنائهم الدراسي في مستقبل الأيام إذا لم يتعلّموا الفرنسية، بسبب الصعوبات اللغوية التي يمكن مواجهتها إن تمّ الاقتصار على تعلّم العربية. وهذا الخوف ناتج في الحقيقة عن تجارب عدد كبير من المتعلمين الذين اختاروا إحدى الشعب العلمية؛ حيث اضطر بعضهم لتغيير الشّعبة أو التّخصّص، واضطر بعضهم الآخر لتعلّم الفرنسية من جديد برفع مستواهم في هذه اللغة للتمكّن من متابعة التّعليم في أحد التّخصصات التي تستعمل الفرنسية لغة ناقل للعلوم والمعارف.

إنّ هذا المدّ الزاخر من الإعجاب باللّغات الأجنبية بوجه عام، والفرنسية بوجه خاص في الجزائر، سابه انحسار الاعتزاز بالعربية الفصحى. وهو ما أدى إلى تراجع الاهتمام بها عند أسر كثيرة أو عدم الاقتصار على تعلّم اللغة العربية من قبل أبناء هذه الأسر، والجنوح إلى العناية باللّغة الفرنسية أو الإنجليزية في سن مبكرة بإدخال أولادهم في مدارس خاصّة توفّر تعليمًا باللّغات الأجنبية (الفرنسية، الإنجليزية)، أو توفير حجم ساعي إضافي من دروس الفرنسية والانجليزية إذا كان الأبناء يزاولون تعليمهم في المدارس العامّة. إنّ شيوع العاميات أو الأمازيغيات على

والقدرات مرتكزا مهما يرتكز عليه الطفل في تعلّماته اللاحقة. وقد اهتم عدد من العلماء اهتماما بالغاً بمرحلة الطفولة باعتبارها مرحلة أساسية في حياة الفرد. وذلك لأثرها الكبير في بناء شخصية الأفراد وتصرفاتهم؛ ومن ثمّ بناء المجتمعات والأمم. فقد ركّز عالم الاجتماع دوركايم Durkheim على كيفية انتقال القيم والأفكار إلى الأطفال، حيث تؤكّد الدراسات في هذا المجال وجوب توفير أفضل الظروف الاجتماعية التي تعين الطفل على التكيف السوي¹⁰ في كلّ التّواحي. كما أولى عالم النّفس فرويد Freud السّنّوات الخمس الأولى من حياة الطفل عناية بالغة؛ لإسهامها الواضح في تكوين شخصيته. وقد نبّه إلى العلاقة القوية بين طرق التّنشئة الاجتماعية التي يعيشها الطفل واستجاباته وسلوكاته المختلفة.

2. عوائق المحيط الأسري

يكتسب الأطفال الجزائريون الذين يولدون في بيئات عربية إحدى اللّهجات العربية الجزائرية المتوزّعة على مناطق مختلفة: شمالا، جنوبا، شرقا، غربا. وتعتبر هذه اللّهجات لغاتهم الأولى (اللّغة الأم) التي يعبرون بها عن حاجاتهم وأغراضهم المختلفة ويتعاملون بها مع الأتراب والجيران خارج البيت. ويكتسب الأطفال الذين يولدون في بيئات أمازيغية إحدى اللّهجات الأمازيغية الجزائرية الموزّعة على عدد من مناطق الجزائر، بحيث تتمركز هذه اللّهجات بشكل واضح في كل من: الأوراس - جرجرة - الهقار - وادي ميزاب... غير أنّ توزّع متكلمها على مناطق الجزائر الأخرى ليس له حدود واضحة المعالم. وتعتبر هذه اللّهجات امتدادا لأنماط بربرية قديمة عرفت في شمال إفريقيا. وقد تتقارب هذه اللّهجات بحكم انتمائها إلى أصل واحد، بحيث تشترك في الخصائص العامّة. غير أنها في -الوقت نفسه- قد تتباعد فيما بينها لتتميّز كل لهجة بمجموعة من الخصائص التي تجعل كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى في جملة من العناصر: الصوتية، والمعجمية، والدلالية. وأشهر هذه اللّهجات: القبائلية - الشّاوية - المزابية - التّرفية. ونشير إلى أنّ اللّهجة الواحدة تتسم بتنوّعات لهجية كثيرة سواء أ كان ذلك على المستوى الصوتي أم الإفرادي¹¹. بالإضافة إلى ذلك تجنح بعض الأسر الجزائرية إلى استعمال الفرنسية في ممارساتها اللغوية اليومية. فيجد أطفال هذه الأسر أنفسهم في محيط لغوي متعدّد ويضطرون لاستعمال أكثر من تنوّع لغوي. لذلك قد تدمج اللغة الفرنسية في المحيط الأسري إلى جانب العامية العربية، إذا كان الأهل من أصول عربية. أما إذا كان الأهل من أصول

¹⁰ المرجع نفسه، ص. 20.

¹¹ صحرة دحمان، «الإعداد لتعليم مهارات اللّغة الأربع: الاستماع - التعبير - القراءة - الكتابة وتعلّمها في المرحلة التّحضيرية»، رسالة دكتوراه في تخصّص تعليمية اللغة العربية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر2، 2013، ص. 20 وما بعدها.

المقبول من مهارات الاستماع، بل يستلزم «كفاءة المستمع»، أي سيطرته على الحد الأعلى لمهارات الاستماع، واستخدامه لهذه المهارات بأكبر قدر من الإيجابية والفاعلية⁴. كما أنَّ مهارة الاستماع على الرغم من أنَّها مهارة أساسية تركز عليها كل المهارات اللغوية الأخرى، إلا أنَّ الاهتمام بها يكاد يغيب تماماً. ويلاحظ أنَّ الطفل يجد نفسه منذ أن يدخل الصف وهو يتعامل مع الكتاب والمكتوب أكثر من تعامله مع المنطوق والمسموع. وهو ما يفسر تفوق عدد كبير من التلاميذ في الجانب المكتوب من اللغة على حساب الجانب المنطوق في المرحلة الابتدائية التي نعتقد أنَّها تسير على نفس المنهج⁵. وعلى هذا فإنَّ إعداد أطفالنا إعداداً سليماً يتوقف على ضرورة العناية بتدريس الاستماع والتدريب على مهاراته، ووضع برنامج خاص به في تعليم العربية الفصحى، ذلك أنَّ «الفهم والإنتاج اللغوي عند الطفل يعتمد على الالتزام والحنان والمهارة التي يحفزها بها الكبار على الاستماع⁶»، حيث إنَّ التحفيز يبدأ من الأسرة ويستمر في المدرسة. ويؤكد سيرجيو سبيني أنَّ القدرة على الاستماع والتحدُّث تتطلب في الوقت ذاته تطوراً مناسباً للقدرة الفسيولوجية والنفسية (التحكُّم في التنفُّس، وتمييز الأصوات، ونضج الجهاز الصوتي)⁷. وتعتبر مرحلة الطفولة المبكرة⁸ من أهم المراحل في حياة الفرد لما لها من أهمية بالغة، في النواحي: النفسية والعقلية والجسمية والاجتماعية واللغوية. وبعدَّ الجانب اللغوي أهم هذه الجوانب لما له من أثر واضح في هذه المجالات. فضلاً عن أنَّ هذه النواحي تؤثر بشكل أو بآخر في النمو الفكري واللغوي للطفل. وهو ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى إعاقة النمو اللغوي أو تأخيره أو حدوث اضطرابات لغوية تتسبب فيما يعرف بأمراض الكلام. وتجب الإشارة إلى أنَّ الأطفال يميزون في تأثير هذه الجوانب في حياتهم اللغوية؛ وذلك لأنهم يميزون في طرق عيشهم وبيئاتهم الاجتماعية. إذ نجد أطفالاً يعانون مشكلات نفسية أكثر من غيرهم، ونجد بعضهم الآخر يعاني مشكلات اجتماعية وهكذا. وتتميز مرحلة الطفولة المبكرة، وخاصة السنوات الست الأولى بعدة مميزات أهمها: (أ) سرعة النمو في النواحي المذكورة آنفاً، (ب) قدرة الطفل على تطوير إحساسه بنفسه وبمهاراته اللغوية، والاجتماعية، والانفعالية، والجسدية، (ج) قدرته على تطوير مهارات حل المشكلات⁹، بحيث تصبح هذه المهارات

⁴ علي أحمد مدكور، تدريس فنون اللغة العربية، القاهرة، دار الفكر العربي، 2000، ص. 57.

⁵ وهو ما يحتاج إلى دراسات تؤكد هذا الاعتقاد أو تنفيه.

⁶ سيرجيو سبيني، التربية اللغوية للطفل، ت. فوزي عيسى، عبد الفتاح حسن، دار الفكر العربي، 2001، ص. 12.

⁷ المرجع السابق، ص. 12.

⁸ يشمل مصطلح الطفولة المبكرة المرحلة العمرية للطفل من ولادته إلى سن التاسعة، ولكننا ركزنا على مرحلة ما قبل التمدرس مباشرة؛ وبالتحديد من 4.5 سنوات إلى 6-5 سنوات.

⁹ ينظر: جودي هير، العمل مع الأطفال الصغار، تر وتكييف مركز إيمان للتعليم المبكر، عمان - الأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، ط. 1، 2006، ص. 14.

فن ومهارة تتطوّر ابتداء من ميلاد الطفل ومرورا بمراحل نموه المختلفة، حيث يزداد احتياجه لها يوما بعد يوم. وتمثّل الأسرة المؤسسة الأولى التي تنشأ فيها هذه المهارة وتنمو، وهو ما يؤكّد أهمية عناية الأسر بهذه المهارة. ثم يأتي دور المؤسسات التعليمية المختلفة بدءا بالتربية التحضيرية في رياض الأطفال وغيرها من المؤسسات الأخرى. فيكون لمهارة الاستماع وجود في الفكر العام والفكر التعليمي بوجه خاص، بإعداد المربين والمعلّمين إعدادا جيّدا يُمكنهم من تطوير هذه المهارة لدى الناشئة، وذلك عن طريق اختيار ما يلائم تعليمها وتعليم المعارف والمهارات اللغوية الأخرى، «وهذا ما لن يكون، إلّا إذا نسف اليوم المدرسي اللغوي المعهود نسفا كاملا، وعدّل في نحو جديد يلائم رحابة اللّغة، ورحابة تدريسها، فضلا عن ضرورة حل أزمة الأبنية التعليمية لكي تنتهي فكرة الكثافة في الصفوف؛ لأنّها كثافة ضد تعليم الاستماع»². ولأنّ العرب عرفوا أهمية الاستماع، كانوا يحرصون على تنشئة أبنائهم في البوادي عن طريق سماع العربية الفصحى من أفواه العرب الأفحاح في فترة اكتساب اللّغة. فكانوا يختارون لأولادهم أفصح القبائل العربية، وقد تربي أشرف البرية الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قبيلة بني سعد. وإذا كان للاستماع هذا الدور المحوري في حياة النّاس، وهو أوّل ما يتربّى عليه البشر وتدور عليه العملية التعليمية كلّها، وهو أساس المهارات الثلاث: التّعبير والقراءة والكتابة - والتي من المتعذّر أن تنمو بمعزل عن الاستماع - فإننا في حاجة إلى إعادة النّظر في كيفية تدريس المهارات الثلاث عامة وإعطاء الأهمية للاستماع لأنّها مهارة مهمة في تعليم العربية الفصحى وتعلّمها. وعلينا أن نرجع إلى تاريخ العربية وتراثها الذي ظل شفها إلى غاية عصر التدوين، وإلى القرآن الذي نقل بالاستماع وبقي محفوظا في الصدور فترة طويلة من الزمن. كما أننا في حاجة إلى وضع نظرية جديدة تنطلق من الواقع لتناسب المتعلّمين في هذا العصر. فالعلماء الأوائل، عندما قاموا بوضع قواعد لتعليم العربية أسسوا للدرس اللّغوي العربي (النّحو التعليمي) خدمة للقرآن من خلال حل مشكلة لغوية اجتماعية ودينية، هي مشكلة اللّحن. وهذا ما يجعلنا نقول إنّ الدرس اللّغوي العربي قد بدأ تطبيقيا، وكان هدفه هو حلّ مشكلات لغوية واقعية وأنية، ثم تطوّر بعد ذلك ليصبح بحثا نظريا وضبطا يُعنى بتتبع خصائص العربية الفصحى في مستوياتها المختلفة وفروعها المتعدّدة³. وإذا كانت وسائل الاتّصال المرتبطة بالكتابة والقراءة قد تطورت في أيامنا بشكل واسع، فإنّ مواقف الاتّصال المرتبطة بالاستماع والكلام قد تطورت بشكل رهيب بسبب الثّورة التّقنية الحديثة. إنّ هذا التطور «الذي يحمل غزوا ثقافيا أجنبيا مقصودا وغير مقصود... لا يتطلّب «كفاية» المستمع فقط، أي سيطرته على الحد الأدنى

² المرجع نفسه، ص. 133.

³ يُنظر: يحي بوتردين، «تعليمية النّص القرآني في إطار التكوين الجامعي المتخصص في اللّغة العربية وآدابها»، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2006، ص. 128-129.

العربي بشكل عام؛ أو تستعمل لهجات أمازيغية كما هو الحال في بعض مناطق الجزائر وبعض الدول المغاربية بشكل خاص. غير أنَّ الأمر لا يحدث بنفس الطريقة مع العربية الفصحى؛ ذلك أنَّ الطفل لا يحتك بها في محيطه الأسري، وبالتالي فهو يحتاج إلى تعلّمها كما يتعلّم أيّة لغة ثانية. وفي أثناء تعلّمه الفصحى يواجه الطفل مشكلات كثيرة تعيق ذلك التعلّم. ويبدو أنَّ إهمال مهارة الاستماع في مرحلة ما قبل التّمدرس، باعتبار أنَّ الاستماع مهارة قابلة للتعلّم والتعليم منذ سن مبكّرة، هو ما يجعل المشكلات تتفاقم وتتسع بدل أن تضيق وتزول. لذلك تطمح هذه المحاولة إلى التّركيز على تلك المشكلات والعوائق المرتبطة بالمجتمع الجزائري، مع التّطرّق إلى بعض الحلول الممكنة التي تُسهم في معالجتها، من خلال تناول العناصر الآتية: الاستماع ومرحلة ما قبل التّمدرس، عوائق المحيط الأسري، عوائق المحيط التعليمي (مؤسسات التّربية التّحضيرية)، عوائق المحيط العام، توصيات ونتائج.

1. الاستماع ومرحلة ما قبل التّمدرس

يتعرّف الطفل على العالم الخارجي باستخدام جوارحه وحواسه، وتؤدي حاسة السّمع دوراً مهماً في اكتساب لغة المحيط الأوّل الذي يكون غالباً الأسرة. وتشكّل القدرة على فهم اللغة تدريجياً ويصبح الطفل قادراً على النّطق بالكلمات الأولى التي تدل على أنّه أصبح كائناً ناطقاً معبراً عاقلاً. وشيئاً فشيئاً يكتسب الألفاظ ومعانيها من خلال المواقف الحيويّة. ويظهر نضج تلك المعاني عندما يستطيع الطفل استحضارها من دون مثيراتها التي ربطها بها عند الاستقبال الأوّل، الأمر الذي يسهّل عليه فيما بعد التّتبّع والتّدقيق اللّذين يؤدّيان إلى القراءة بالمعنى التّعليمي¹. وعلى الرّغم من أنّ المواقف الحيويّة مشتركة بين الأفراد، إلّا أنّ مستوياتهم تتفاوت في الفهم والتّحدّث والقراءة والكتابة، مما يدل على تفرّد في الدّات البشريّة، بحيث يضيف كل واحد منهم خصوصيّة على ما يسمع. كما أنّ تمايزهم في الأسلوب يبدو واضحاً؛ حيث يصبح سمة دالّة على الفروق الفرديّة ابتداءً من الكلام البسيط أو العادي إلى الكلام المعقّد أو الإبداعي. إذ نلمس ذلك عند ملاحظتنا لكلام بعض الأطفال الصغار الذين يثيرون إعجاب الكبار حين يبدو تعبيرهم مشابهاً لكلام الكبار؛ حيث يتفوّقون على أترابهم في طريقة حديثهم وممارساتهم اللّغويّة. ويمكننا القول إنّ سمة التّمايز هذه تظهر بصفة بارزة عند قراءة مجموعة من الأشخاص لكتاب واحد؛ بحيث يختلف إدراك معاني المقروء باختلاف هؤلاء الأشخاص. وربّما يرجع سبب ذلك إلى ثقافة القارئ العامّة، أو إلى تكوينه العلمي، أو الأدبي، أو الفلسفي، أو الديني وما إلى ذلك. فيؤثّر هذا التّكوين في توجيه المعنى وفق ميول القارئ ومعتقداته. لذلك فإنّ الاستماع

¹ يُنظر: حسني عبد الباري عصر، قضايا في تعليم اللّغة العربيّة وتدرّسها، الإسكندرية، المكتب العربي الحديث، 1999، ص. 129.

عوائق تعلّم مهارة الاستماع في مرحلة ما قبل التمدرس: المحيط الجزائري أمودجا

صحرة دحمان
جامعة الجزائر 2، الجزائر

ملخص: نتناول في هذه الدراسة مجموعة من العوائق والصعوبات التي تواجه الطفل الجزائري خلال مرحلة ما قبل التمدرس، في تعلّم مهارة الاستماع، مما يؤثر سلبا في اكتساب العربية الفصحى وتعلّمها. مع التركيز على دور البيئات المختلفة: الأسرة، المدرسة، المحيط العام... في إعاقة تعلّم مهارة الاستماع باعتبارها مهارة قابلة للتعلّم. كما عملنا على تقديم جملة من المقترحات لتعليم مهارة الاستماع، التي يمكن تطبيقها في المدرسة الجزائرية، وكذا الاستفادة منها في بعض المجتمعات المغاربية التي يشبه وضعها اللغوي وضع الجزائر.

كلمات مفاتيح: تعلّم؛ تعليم؛ مهارة؛ استماع؛ ما قبل التمدرس؛ عوائق؛ المحيط الأسري؛ العامية؛ الفصحى؛ لغة أولى؛ لغة ثانية؛ صعوبات؛ استراتيجيات

Résumé : Cette étude traite d'un ensemble de déficiences et difficultés relatives à l'apprentissage de l'habileté de l'écoute qui confrontent l'enfant en milieu préscolaire algérien, ce qui influence négativement son acquisition et son apprentissage de la langue arabe. En cela, notre étude insiste sur l'importance de divers environnements tels que la famille, l'école, le contexte général, dans l'apprentissage de l'habileté de l'écoute. Aussi, nous présentons quelques propositions portant sur l'enseignement de l'habileté de l'écoute qui peuvent être appliquées à l'école algérienne et bénéficier à d'autres pays du Maghreb dont la situation linguistique ressemble à la situation algérienne.

Mots-clés : apprentissage; enseignement; dynamique; écoute; préscolaire; environnement familiale; dialecte; arabe standard; difficultés; stratégies.

توطئة

يعيش الطفل الجزائري - كباقي الأطفال - فترة من حياته مستمعا للغة محيطه، وهي الفترة التي تسبق نطقه بالكلمات الأولى. وتبدأ من الميلاد إلى غاية السنة أو السنتين على أكثر تقدير عند بعض الأطفال الذين يتأخر النطق عندهم. وتتشكل في هذه الفترة القدرة على فهم اللغة التي يكتسبها من بيئته الأولى التي تستعمل عادة عاميات عربية تختلف باختلاف أقطار الوطن

الحيوية اللغوية عليها، وهذا ما دفع فولتير للقول «إن المعجم بدون استشهادات يظل مجرد هيكل عظمي» (un dictionnaire sans citations est un squelette).

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن قولة فولتير جاءت في مرحلة انعطافية عند ظهور المعجم اللغوي للأكاديمية الفرنسية في القرن السابع عشر¹⁰، وكان هناك من يعارض إيراد الاستشهادات في ثناياه¹¹.

مراجع

- أبو العزم، عبد الغني، وضع المدونة اللغوية ومصادرها، تحت الطبع
 أبو العزم، عبد الغني، معجم الغني للزاهر، بيروت، مؤسسة الغني للنشر، دار الكتب العلمية، ط. 1، 2013.
 أبو العزم، عبد الغني، «التعريف وإشكالية الشاهد في المعجم»، مجلة المعجمية، جمعية المعجمية العربية بتونس، ع. 28، 2013.
 أبو العزم، عبد الغني، «مفهوم المتلازمات وإشكالية الاشتغال المعجمي»، مجلة الدراسات المعجمية، ع. 5، 2006، ص. 33-46.
 أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية في العصر الجاهلي، بيروت، دار النفائس، 1988.
 ابن دريد الأزدي، أبو بكر، (223-321 هـ/837-933م)، جمهرة اللغة، تح. رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1987.
 ابن منظور، أبو الفضل، (630-711 هـ/1232-1311م)، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف.
 الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (100-170 هـ/718-758م)، كتاب العين، تح. مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، بغداد، دار الرشيد، 1982.
 الميداني، أبو الفضل أحمد بن إبراهيم، الأمثال، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الجيل، 1996.
 زلهابم، أودلف، الأمثال العربية القديمة، ت. رمضان عبد التواب، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط. 3، 1994.
 الزمخشري، جار الله، (467-538 هـ/1074-1143م)، أساس البلاغة، تح. عبد الرحيم محمود، تعريف أمين الخولي، القاهرة، 1953/ تح. محمد باسل عيون السود، بيروت، المكتبة العلمية، 1998.
 اليوسي الحسن، زهرة الأكم في الأمثال والحكم، تح. محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الثقافة، 1985.

Le dictionnaire de l'Académie, dédié au Roy, 1694, vol. 2, Paris.

Lehemann, Alise, *La citation d'auteurs dans les dictionnaires de la fin du XVIIe siècle*, (Richelet, Furetière). Langue française, année 1995, vol. 106, n°. 1, p. 35-54.

¹⁰ Le dictionnaire de l'Académie, dédié au Roy, 1694, Vol. 2, Paris.

¹¹ Alise Lehemann, *La citation d'auteurs dans les dictionnaires de la fin du XVIIe siècle*, (Richelet, Furetière). Langue française, 1995, vol. 106, n°. 1, p. 35-54.

3. المدونة اللغوية والشاهد

وعندما نتحدث عن الشاهد، فإن المقصود بذاته، ونظراً لكونه يعكس المعنى المحدد للكلمة/ المدخل المراد تعريفها وشرحها بحمولتها اللغوية والفكرية، وهو في هذه الحالة يعبر عن الدلالة القصوى ضمن واقعة من الوقائع، ولكي يكون كذلك وليصطبغ بهذه الخاصية، يجب أن يستخرج من مدونة لغوية، يعتمد عليها المعجماتي في أثناء إنجاز معجمه.

تعد المدونة اللغوية الأرضية الصلبة المعتمدة لاستخراج الشواهد، من أجل البنية الصغرى، بل لاستكمال البنية الكبرى macrostructure للمعجم أيضاً.

تكتسي المدونة اللغوية بهذا التصور المتكامل ما نعتبره الأرضية الصلبة لإنجاز المعجم اللغوي لما لها من تمثيلية لطبيعة اللغة وممارستها وحقائقها اللغوية والمجازية. ولأن المدونة اللغوية يتم تشكيلها في ضوء مصادر متعددة، لغوية وأدبية واجتماعية وفلسفية واقتصادية وجغرافية وتاريخية وإعلامية وفنية... فهذا ما يضمن نوعاً من الشمولية والإحاطة النسيئة، كما هو مستعمل ومتداول، وبمختلف الأساليب اللغوية.

وتزداد أهمية المدونة في حالة خضوعها للبرمجة الحاسوبية. إذ تسمح بمعرفة شيوع مفردة ما وتنوع استعمالاتها وسياقاتها وربتها، والوقوف على اشتقاقاتها اللفظية والصرفية. كما تمدنا بعدد هائل من المصطلحات الأدبية والحضارية والعلمية الأكثر تداولاً.

تؤدي المدونة بهذه الصيغة مزدوجة: (1) استخراج المفردات بتراكيب أساليبها المختلفة، سواء أكانت أسماء أم أفعالاً أم حروفاً مجردة، أم ذوات سوابق، أم لواحق، أي في سياق استعمالاتها، لتشكيل البنية الكبرى للمعجم. (2) استخراج الاستشهادات المتنوعة لتطعيم البنية الصغرى، الخاصة بكل مدخل من مداخل المعجم⁹.

خلاصة

تبرز قيمة إيراد الشاهد في المعاجم اللغوية في أبعاده الدلالية والأدبية. ولكونه يشكل أداة لغوية معرفية إبداعية يصعب الاستغناء عنه. ولأنه فوق هذا وذاك، يسهم في حصر دلالة البؤرة اللغوية في صياغته الحقيقية أو المجازية، وما هو مقصود في حد ذاته، أو في حالة ما إذا كانت مفردة ما تتضمن دلالات متعددة، فإن الشاهد في هذه الحالة يعد مرجعاً قائم الذات لإغناء المادة المعجمية، أي تطعيم كل البنى الصغرى بالاستشهادات من أجل إضفاء

⁹ انظر، عبد الغني أبو العزم، وضع المدونة اللغوية ومصادرها، تحت الطبع.

يمكن القول إن المراد من الشاهد يتحدد في إلقاء الضوء على الكلمة/ المدخل المبحوث عن معناها، وما تدل عليه أيضاً في سياقها، وذلك لاكتساب معرفتها وفهم دلالتها، وبالأخص إذا كانت الكلمة/ المدخل تتضمن معاني كثيرة حقيقية أو مجازية، حيث يتخذ الشاهد في هذه الحالة شكله المتميز عن غيره، كما أنه يصبح بعد ذلك قابلاً للقياس أو المماثلة.

يحتوي الشاهد ببنيته التركيبية على ثلاثة أبعاد، فهو من جهة، يشكل بذاته عنصراً قائم الذات في البنية الصغرى، ويأتي اختيار المعجماتي لما يريد أن يؤديه من دلالة لغوية وأدبية من جهة أخرى، وليكتمل المثلث لتبيان قيمته يذيل باسم صاحبه في حدود مقصده واستعماله، محافظاً على بنائه النحوي واللغوي والتداولي والبلاغي⁷.

تهدف هذه العملية الإجرائية المتلقي الذي يعد المحور الأساسي للأبعاد الثلاثية المذكورة أعلاه، لكي يقف بالضرورة على كيفية بنائه ومعايير تركيبه واستعماله، نظراً لخضوعه للغة مقننة بقواعدها، وإتقان صناعتها.

يؤدي الشاهد في هذه الحالة شعوراً مشتركاً في ثلاثية أبعاده، قائماً على روعة اللغة وأدبيتها أو بلاغتها، أي ما له علاقة بتداول اللغة في محيطها⁸.

يعد تضمين المعجم بشواهد مختارة من مدونة أدبية أو علمية، إضافة نوعية لعدة اعتبارات، منها: إن الشواهد تكون مذيلة بأسماء أصحابها من أدباء وشعراء ومفكرين، لهم شهرة في عالم الكتابة والإبداع، ولأنهم فوق هذا وذاك من المتمكنين من اللغة، التي يكتبون بها، وقد أضحت بذلك من الروائع الأدبية، ولكونها تحتل أحياناً دلالية في البنى الصغرى للمعجم، لا لمجرد فهم المعنى اللغوي، بل للتمكن من اللغة الأدبية وأساليبها؛ ولأن الشواهد كما أشرنا إلى ذلك تختلف أنواعها من أدبيات ومتلازمات، وأمثال وتعايير مسكوكة، وتعايير اصطلاحية، تساعد المتلقي بعد تحصيلها على استغلالها في التحدث أو الكتابة في سياقاتها المحددة لها. يرتفع المعجم ويتسع بهذا التصور إلى درجة اللغة المعجمية الوصفة *métalexographique* في ارتباطها بالنصوص التاريخية والمعاصرة في آن واحد، لاعتمادها على الاستعمال الجيد والمتداول من مختلف النصوص، وفي نطاق تطور اللغة، وهذا ما يؤهل المتلقي للتمكن من المعرفة اللغوية، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، إذ أنه يؤدي به إلى الانفتاح على ثقافة اللغة وحضارتها قديماً وحديثاً.

⁷ انظر عبد الغني أبو العزم، مقدمة معجم الغني للزاهر، بيروت، مؤسسة الغني للنشر، دار الكتب العلمية، ط. 1، 2013، ص. 9.

⁸ عبد الغني أبو العزم، «التعريف وإشكالية الشاهد في المعجم»، مجلة المعجمية، تونس، جمعية المعجمية العربية، ع. 28، 2013، ص. 96.

- المثل: يختصر المثل *l'exemple* في كونه جملة بسيطة سائرة، لا تَحْتَمِلُ التأويل، يتكون من كلمتين أو ثلاث كلمات. والمقصود به معجمياً إيضاح وجه استعمال الكلمة المراد شرحها، يقدم عادة لتبيان قاعدة نحويّة، كما يرد في المعجم لتبيان مادة طبيعة المدخل، وتبرير تعريفه في ضوء سياقه، إذ يتضمن ضمناً شرحاً لدلالته.

- المثل: يتضمن معنى، أو موقفاً سائراً رائجاً ومتداولاً بين الجماعة. كما أنه يعد أداة تعبيرية مقتضبة ومركزة، ناتجة عن معاناة نفسية، أو ممارسة اجتماعية تعكس رغبة، أو حاجة، لاحتوائه على ظاهرة من الظواهر.

يتميز المثل بالثبوت والكمون، لا يعرف تداوله تغييراً في معناه، وإن تغيرت بعض ألفاظه نسبياً. كما أنه لا يعرف صاحبه، لكونه يتضمن المماثلة والشبه والنظير، ومعبراً عن روح الجماعة. ويأتي الاستشهاد به لفهم لفظ من ألفاظه المتضمن لسياقه ومعناه.

يشكل المثل مادة لغوية، حيث يهدف الاستشهاد به إيضاح معناه في ضوء تركيبه، والمفردة المراد شرحها، والإسهام في تبيان مقصده، إن كان حسيّاً أو نفسياً أو اجتماعياً أو مجازياً. وبذلك يكون إيراد المثل في نص البنية الصغرى *microstructure* للمعجم إضافة نوعية لإغناء مادته اللغوية⁵.

- المتلازمات: تعرف المتلازمات أنها وحدة لغوية اسمية أو فعلية، مكونة من كلمتين أو أكثر. ينشأ عن ارتباطها معنى جديد، يختلف كلياً عما كانت تدل عليه معانيها الأصلية منفردة، حيث تنتقل بذلك إلى دلالات اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو نفسية أو اصطلاحية.

تحدد أنواع المتلازمات فيما يلي: المسكوكات التامة؛ التعابير السياقية؛ التعابير الاصطلاحية؛ تعابير أسماء الهيئات والمؤسسات ومختصراتها؛ التعابير الشائعة أو المولدات أو المتطورة دلاليّاً؛ التعابير الاتباعية؛ بعض تعابير الأمثال القصيرة السائرة؛

تعد المتلازمات مادة لغوية غنية بمفرداتها المتعددة المعاني. ونظراً لشيوعها في الخطابات، وتداولها في العديد من النصوص، فإن وجودها في المعجم أضحى ضرورة معجمياً ومعجمتياً، إذ لم يعد بالإمكان إهمالها أو التغاضي عنها⁶.

⁵ أبو الفضل أحمد بن إبراهيم الميّداني، الأمثال، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الجيل، 1996. الحسن اليوسي، زهرة الأكم في الأمثال والحكم، تح. محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الثقافة، 1985. محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية في العصر الجاهلي، بيروت، دار النفائس، 1988. أودلف زلهابم، الأمثال العربية القديمة، ت. رمضان عبد التواب، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط. 3، 1994.

⁶ عبد الغني أبو العزم، «مفهوم المتلازمات وإشكالية الاشتغال المعجمي»، مجلة الدراسات المعجمية، ع. 5، 2006، ص. 46-33.

حالة وضعه بين قوسين، سواء في قواعد اللغة النحويّة، أو الاستدال، أو إدراجه ضمن المواد المعجميّة، وقد اتخذ بذلك مفهوم البيان والتبيين أو الإيضاح، لفهم ما طرحه قاعدة ما أو مقولة ما، أو مصطلح ما، أو حكمة ما، من إشكال أو غموض.

يتضمن الشاهد بعدين في مجال البحث اللغويّ أو المعجميّ: (1) بعد إيتيمولوجي يعتمد على تاريخيّة المفردة الواردة في الشاهد/النص، (2) بعد إجرائي يهدف إلى تقديم دلالة المفردة لغويّاً بمعانيها المختلفة.

ما يلاحظ بداهة في أغلب المعاجم العربيّة القديمة، أنها لم تكن تخلو من الاستشهادات المختلفة، مأخوذة من قصائد شعريّة متداولة، أو نصوص نثرية شائعة، أو آيات قرآنيّة، أو أحاديث نبويّة، إلى حد أضحت من الأعمدة المرجعيّة لبناء المعجم العربيّ منذ التجربة الرائدة التي دشنها الخليل بن أحمد الفراهيدي بمعجمه العين¹، وقد اتسع نطاقها فيما بعد في جمهرة اللغة لابن دريد²، وفي لسان العرب لابن منظور³ وفي أساس البلاغة للزمخشري⁴.

وإذا كان البعد الإيتيمولوجي مفهوماً الحديث غائباً في المعاجم العربيّة بصفة عامة، فإن اعتماد الفراهيدي مثلاً على التقاليد اللغويّة من أجل معرفة المستعمل والمهمّل يعد تعويضاً، ومُدخلاً لحصر مفردات اللغة الطبعيّة المتكلم بها في مجتمع عصره، مما يسمح بشكل من الأشكال إيضاح إيتيمولوجياتها مستقبلاً في ضوء نصوصها اللغويّة التاريخيّة.

2. أنواع الشاهد

لا ينحصر الشاهد في فقرة قصيرة دالة على فكرة أو رأي، كما تمت الإشارة إلى ذلك، بل يتسع ليشمل أنواعاً أخرى، يلجأ إليها المعجماني de lexicographe، ويمكن تحديدها فيما يلي:

- الشاهد الأدبي: يستخرج من نص أدبي شعريّ أو نثريّ، أو من خطابات مختلفة الأجناس، مثل النص القرآنيّ أو الأحاديث النبويّة أو المقامات وغيرها ويقع اختياره لتداوله درساً أو قراءة أو شيوعاً، ويتوفر على تركيب دال ومحبوك، ويكون مذيلاً باسم صاحبه.

¹ الخليل بن أحمد الفراهيدي (100-170هـ/718-758م) كتاب العين، تح. مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، بغداد، دار الرشيد، 1982.

² أبو بكر ابن دريد الأزدي، (223-321هـ/837-933م) جمهرة اللغة، تح. رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1987.

³ أبو الفضل ابن منظور، (630-711هـ/1232-1311م)، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف.

⁴ جار الله الزمخشري، (467-538هـ/1074-1143م)، أساس البلاغة، تح. عبد الرحيم محمود، تعريف أمين الخولي، القاهرة، 1953/ تح. محمد باسل عيون السود، بيروت، المكتبة العلميّة، 1998.

موقع الشاهد في المعجم اللغوي

عبد الغني أبو العزم
جامعة الحسن II، الدار البيضاء، المغرب

ملخص: اتخذ الشاهد في الأدبيات النحوية أو المعجمية، مفهوم صيغة البيان أو الإيضاح لفهم ما تطرحه مقولة ما، أو مصطلح ما، أو حكمة ما، في سياق تعبير ما من إشكال أو غموض. من هنا يتضمن الشاهد بعدين في مجال البحث اللغوي أو المعجمي: (1) إيتمولوجي، يعتمد على تاريخية النص؛ (2) إجرائي هادف لتقديم دلالة لغوية بمعانيها المختلفة. يشكل الشاهد أداة لغوية معرفية إبداعية، يسهم في حصر دلالة البؤرة اللغوية في صياغته الحقيقية أو المجازية... فالشاهد يعد مرجعاً قائم الذات.

الكلمات المفتاح: الشاهد؛ الشاهد الأدبي؛ المثل؛ المثل؛ المتلازمات؛ المدونة اللغوية؛ البنية الصغرى؛ البنية الكبرى؛ معجمية؛ معجماتيّة

Résumé : Dans la recherche grammaticale ou lexicale, la citation a pris la forme d'explication ou d'éclaircissement pour aider à la compréhension du terme, de la phrase ou encore d'un proverbe, dans une expression complexe ou obscure. C'est ainsi que la citation revêt deux volets dans la recherche linguistique ou lexicale : (a) étymologique basé sur l'historicité du texte; (b) pragmatique qui vise à donner une définition linguistique avec ses diverses significations. La citation constitue un outil linguistique créatif de connaissance. Ainsi elle est considérée comme une référence à part entière.

Mots-clés : citation; citation littéraire; proverbe; exemple; collocations; corpus; microstructure; macrostructure; lexicologie; lexicographie

1. تعريف الشاهد

يعرف الشاهد بأنه تركيب لغويّ مقتطف من نص أدبيّ ثريّ أو شعريّ، يتضمن معنى تاماً، يحيل على فكرة أو رأي. ما يميز الشاهد أن إنتاجيته ترتبط بمؤلفه، لما له من خصوصيّة قائمة الذات شكلاً ومضموناً، بالإضافة إلى ميزة محتوى بنائه، ويتضمن بذلك مرجعية يستدل بها لغة أو رأياً.

إذا كان الشاهد بهذا التعريف يتمتع بكل هذه الخصوصيّة، فلأن مبدعه من محترفي الكلام أو الخطاب، ويمثل مكانة أدبيّة، مما يجعل الاستشهاد به يأخذ بعداً متميزاً بسياقه المستشهد به في

- Medhat Lecocq, Héba, « Traduire le technolecte, l'exemple du vocabulaire de l'automobile », dans Leila Messaoudi et Pierre Lerat (dir.), *Les technolectes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail /AUF, 2014, p. 261-267.
- Messaoudi, Leila, « Le technolecte, un genre à part entière? », dans Driss Ablali et coll. (dir.), *Les genres textuels, une question d'interprétation?*, Limoges, Lambert-Lucas, 2015, p. 169-178.
- Messaoudi, Leila, « Technolectes savants, technolectes écrits : quelles différences? », dans Leila Messaoudi (dir.), *Sur les technolectes*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST- URAC56, Université Ibn Tofail, 2012, p. 39-46.
- Messaoudi, Leila, « Langue spécialisée et technolecte : quelles relations? », dans Salah Mejri et Gaston Gross (dir.), *Meta*, Presse universitaire de Montréal, 2010, vol. 55, n°. 1, p. 127-135.
- Messaoudi, Leila, *Études sociolinguistiques*, Kénitra, Université Ibn Tofail, 2003.
- Picoche, Jacqueline, *Précis de lexicologie française : l'étude pour l'enseignement du vocabulaire*, Paris, Nathan, 1997.
- Poudat, Céline, « Étude contrastive de l'article scientifique de revue linguistique dans une perspective d'analyse des genres », Thèse, Université d'Orléans, 2006, www.revue-texto.net, consulté août 2015.

- حمداوي، جميل، «إشكالية الجنس الأدبي»، www.startimes.com، الاطلاع: غشت 2015.
- ابن خيرة، فدوى، «اللغة التقنية في مجال الصحة بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر»، ضمن : Leila Messaoudi, Hanane Bendahmane et coll. (dir.), *Technolectes, dictionnaires et terminologies*, Kénitra, laboratoire Langage et société, CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 47-73.
- ابن خيرة، فدوى، «اللغة التقنية في المجال الصحي بالمغرب خلال فترة الحماية»، ضمن Leila Messaoudi et Pierre Lerat (dir.), *Les technolectes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société, CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 39-50.
- إبراهيم الكعاك «اللغة التقنية للخطأ اللغوي في الثقافة العربية»، ضمن Leila Messaoudi et Pierre Lerat (dir.), *Les technolectes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société, CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 63-82.
- المصطفى غزالي «اللغة التقنية الفلاحية وحضورها في المثل الشعبي، جهة الشاوية ورديغة، نموذجاً»، بحث لنيل شهادة الماستر، كلية الآداب- القنيطرة، 2013.
- ابن الرشيق، العمدة، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1934.
- أحلام الهاشمي، «اللغة التقنية في مجال التبريدة وحضورها في الزجل المغربي»، ضمن Leila Messaoudi et Pierre Lerat (dir.), *Les technolectes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 93-103.
- Beacco, Jean-Claude, « Trois perspectives linguistiques sur la notion de genre discursif », *Langages*, vol. 38, n° 153, 2004, p. 109-119, www.persee.fr, consulté le 5 décembre.
- Bendahmane, Hanane, « L'intégration du technolecte dans l'apprentissage des langues au Maroc », *acte du colloque international, Langues spécialisées/ technolectes et didactique des langues : quelles perspectives ?*, Paris le 23-24 mai 2015, Paris/Kénitra, Laboratoire PLIDAM-Inalco/laboratoire Langage et Société.
- Bourguignon, André, « De la pluridisciplinarité à la transdisciplinarité », Congrès de Locarno, 30 avril-2 mai 1997 : Annexe au document de synthèse CIRET6UNESCO, file:///D:/intterdisciplinarité.htm, consulté 1-9-2015.
- De Camargo Grillo, Sheila Viera, « Épistémologie et genres du discours dans le cercle de Bakhtine, *Linx, revue des linguistes* de l'université Paris ouest Nanterre La Défense, 56, 2007, p. 19-36, *linx*, revue.org/355, consulté août 2015.
- Haidar, Mehdi, *L'enseignement du français à l'université marocaine : le cas de la filière sciences de la vie et sciences de la terre et l'univers*, Thèse de doctorat, Université Ibn Tofail, Kénitra et Rennes2, 2012 <http://tel.archives-ouvertes.fr>, consulté, Hiver 2015.
- Lerat, Pierre, *Les langues spécialisées*, Paris, PUF, 1995.

مراجع

- اعمار، عبد العزيز، «اللغة التقنية من خلال المأثور الشفهي، العمارة التقليدية نموذجاً»، ضمن Leila Messaoudi, Farid Benramdane (dir.), *Les technolèctes au Maghreb : éléments de contextualisation*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 5-20.
- اعمار، عبد العزيز، «اللغة التقنية المشتركة بين الحرف والصنائع التقليدية من خلال الأمثال»، ضمن: Leila Messaoudi et Pierre Lerat (dir.), *Les technolèctes / Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 5-13.
- اعمار، عبد العزيز، «الكتابة الإصلاحية في مغرب القرن التاسع عشر - مقارنة مفاهيمية-»، ضمن الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب، أعمال مهداة إلى الأستاذ محمد حميدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2014، ص. 357-369.
- بندحمان، حنان، «قاموس الشعر المغربي المعاصر -مقاربة أولية-»، ضمن ليلى المسعودي، إبراهيم الكعاك وآخرون (تنسيق)، حول القواميس، القنيطرة، منشورات مختبر اللغة والمجتمع CNRST-URAC56، جامعة ابن طفيل، 2010، ص. 21-34.
- بندحمان، حنان، «اللغة التقنية لطقوس الموت وتواشجاتها في الشعر المغربي المعاصر، الزجل»، ضمن Leila Messaoudi, Hanane Bendahmane et coll. (dir.), *Technolèctes, dictionnaires et terminologies*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 5-22.
- بندحمان، حنان، «اللغة التقنية في القصيدة الزجلية بين اليومي والتشكيل المجازي»، ضمن Leila Messaoudi et Pierre Lerat (dir.), *Les technolèctes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 15-24.
- بندحمان، حنان، «الكتابة الإصلاحية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر - دراسة في اللغة التقنية-»، ضمن الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب، أعمال مهداة إلى الأستاذ محمد حميدة، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014، ص. 371-380.
- الحبيب، بكر تركي عبد الأمير، «استخدام مداخل التكامل المعرفي في التطوير التنظيمي لمنظمات الخدمة العامة»، مجلة كلية بغداد للعلوم الاقتصادية، 2006، ع. 12، 192-212 www.iasj.net، الاطلاع: 11-7-2014.
- الحضري، عبد النور، «اللغة التقنية في الملاحه، ميناء المهديّة نموذجاً»، ضمن Leila Messaoudi, Hanane Bendahmane et coll. (dir.), *Technolèctes, dictionnaires et terminologies*, Kénitra, laboratoire Langage et société, CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 23-46.
- الحلاج، عزيز، «مفاهيم موسعة لنظرية شعرية: اللغة- الموسيقى- الحركة: آلة جديدة لشعر جديد له موسيقى جديدة»، الاتحاد الاشتراكي، 11-03-2011 www.maghress.com/alitihad، الاطلاع: 25-08-2015.

يعتبر محمد مفتاح³⁷ أن علم الأعصاب إبدال القرن 21، حيث أعيد النظر في النظريات القائمة على الطرح الانفصالي والاستقلالي، وصار من قبيل المسلمات أن باحات الدماغ متداخلة ومتفاعلة. ويتأكد هذا الطرح مع ما أسماه التقرير العالمي لمنظمة اليونيسكو (2010 تقاسم المعرفة) بـ"موجة ما بعد التخصصات" والتي تقتضي نهج مقارنة جديدة تستحضر كل التخصصات سواء في حقل العلوم البحتة أو العلوم الإنسانية في أفق النهوض بالمعرفة الإنسانية والبحث العلمي.

³⁷ انظر رأي محمد مفتاح ورد عند: عزيز الحلاج، «مفاهيم موسعة لنظرية شعرية: اللغة- الموسيقى- الحركة: آلة جديدة لشعر جديد له موسيقى جديدة»، الاتحاد الاشتراكي، 11-03-2011، www.maghress.com/alitihad، الاطلاع : 25-08-2015.

ويذهب باختين أبعد من ذلك، حين يربط بين الأجناس والممارسات الاجتماعية كمدارات للتبادل، وبين اللغة المتداولة كمؤسسة للأجناس. ذلك أن تحديد الجنس يخضع لمعايير لسانية وأخرى غير لسانية تفرضها الممارسة الاجتماعية، مما يؤكد أن دراسة الجنس لا يمكنها أن تتحقق إلا في إطار تكامل المعرفة، والذي من شأنه أن يزاوج العوامل الاجتماعية التي تميزه بالخصائص اللسانية³⁴. ومن ثم يعلن Beacco أن الأجناس تتضمن بعداً تصنيفياً لمقاربة التواصل الاجتماعي في شقيه العادي والمهني/ الوظيفي³⁵.

ومن هنا تندرج اللغية التقنية في نظرية الأجناس لتصبح جنساً خاصاً تلتف حوله اللسانيات وعلوم أخرى، حيث ترتفع اللغية التقنية بالممارسات الاجتماعية والأنشطة الإنسانية. بالإضافة إلى الجمع بين اللغة الكتابية والشفوية. كما تتميز بمعجمها الخاص وتشكلاتها التركيبية واستعمالاتها الخطائية. وبذلك تحمل محددات لسانية ولسانية اجتماعية وأخرى سيميائية³⁶. إلى جانب استيعابها لتقنية عالية، تنسحب، كذلك، على الكلام العادي الذي ينتجه البسطاء أو من يسميهم فيليب جوتار Philippe Goutard مهمشي التاريخ، لنكون أمام لغية عالمة وأخرى عادية، وقد يتداخلان أحياناً أخرى وفي أوضاع عديدة.

على سبيل الختم

تحضر اللغية التقنية في صلب ما يسمى بنظريات تكامل المعرفة لتقاطعها مع علوم متعددة، تسمح بالتواصل والتشابه والتعاقد فيما بينها. مما يتيح توسيع دائرة البحث العلمي ليشمل التخصصات العلمية الدقيقة وينفتح في نفس الآن على علوم أخرى تتيح توسيع أفق المعرفة والاستفادة من ميادين قد تكون متباينة لكنها من شأنها أن تسهم في تطور العلوم والدراسات والأبحاث. فالتخصص الدقيق لا يمنع من انفتاح التخصصات على بعضها. ذلك أن التطور العلمي يقوم على تعاقد وتكامل العلوم المعرفية في إطار تداخل باحات الدماغ وتفاعلها. ومن ثم

³⁴ Céline Poudat, « Étude contrastive de l'article scientifique de revue linguistique dans une perspective d'analyse des genres », Coral, université d'Orléans, Thèse, 2006, www.revue-texto.net, consultée août 2015.

³⁵ Jean-Claude Beacco, « Trois perspectives linguistiques sur la notion de genre discursif », *Langages*, vol. 38, n° 153, 2004, p. 115, www.persee.fr, consulté le 5 décembre.

³⁶ لتعميق البعد الأجناسي للغية التقنية انظر :

Leila Messaoudi, « Le technoclecte un genre à part entière », dans Driss Ablali, Ayoub Bouhouhou et Ouidad Tebaa (dir.), *Les genres textuels, une question d'interprétation*, Limoges, éd. Lambert- Lucas, 2015.

وبذلك استطاعت اللغة التقنية أن تهجر من دائرة اللغة والأنشطة الإنسانية إلى مجال الشعر والإبداع، حيث أظهرت دراسة أحلام الهاشمي³¹ حول ميدان "التبوريدة"، كيف انتقلت الوحدات اللغائية في هذا الحيز إلى فضاء الشعر والمتخيل ليؤرخ لهذا الطقس المغربي الذي يحتفي بالكرامة والأنفة والكرم، كما يعبر عن الطاقة الاستعارية لهذه الكلمات وقدرتها على نسج الأفق التخيلي.

وهذا ما يؤكد أن اللغة التقنية غير مسيجة بلغة العلوم والتقنيات، وإنما تستقطب لغة الأدب نقدا وإبداعا، وتقدم للقارئ إمكانية الإبحار في النص وقراءته من زوايا مغايرة، تتحول معها اللغة الوظيفية إلى حمالة فكر ورموز ومتخيل وعالم فسيح من التجليات.

4. أجناسية اللغة التقنية

عمل النقد الحديث في إطار نظرية الأدب على بلورة نظرية للأجناس الأدبية، تجاوزت النموذج الإغريقي الذي كان سائدا وكان يعتمد على نسق تصنيفي بلاغي، يتسم بالانغلاق، لابتعاده عن العوامل الاجتماعية والسياقية والثقافية والجديدة. وبذلك انتقل مفهوم الجنس من النقاء النوعي مع الشعرية اليونانية إلى وحدة الأجناس مع الرومانسية إلى التلاقح مع باختين أي من الانغلاق والاستقرار إلى التكون والانفتاح.³²

يتحدد الجنس الأدبي بمجموع النصوص التي تشترك في نفس العناصر. إنه مبدأ تنظيمي وتصنيفي للنصوص، يعمل على تحديد مقوماته ومركزاته مع تقعيد بنياته. ويضيف النقاد بأن خصائصه لا تبرز إلا في تعارضها مع جنس آخر، حيث يتبلور بما لا يرد في الأجناس الأخرى. وتعتبر أعمال باختين مؤسسة لمفهوم الجنس، إذ يرى أن النظرية الأجناسية ليست حركا على التصنيف الأدبي، وإنما تقع في صلب نظريات تكامل المعرفة، حيث تلتقي اللسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس...³³ وبذلك صارت نظريات تحليل الخطاب والأجناس تثير اهتمام تخصصات عديدة ومقاربات متنوعة. وفي هذا السياق تأتي الدراسات التي تنادي بأجناسية الخطاب العلمي كمقابل لأجناسية الخطاب الأدبي.

³¹ أحلام الهاشمي، «اللغة التقنية في مجال التبوريدة وحضورها في الزجل المغربي»، ضمن L. Messaoudi et P. Lerat (dir.), *Les technolécetes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société, CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 93-103.

³² أنظر: جميل حمداوي، «إشكالية الجنس الأدبي»، www.startimes.com، الاطلاع غشت 2015.

³³ Sheila Vierra de Carmago Grillo, «Épistémologie et genres du discours dans le cercle de Bakhtine », *Linx, revue des linguistes* de l'université Paris ouest Nanterre La Défense, 56, 2007, p. 19-36, linx.revues.org/355, consulté août 2015.

شرفها. وقد نقف على تمثلات ذهنية وممارسات فكرية وثقافية ودينية، كما هو الأمر في مجموعة من الاحترازمات الوقائية والعلاجية التي يستعملها المغاربة ويعتقدون في نجاعتها وقدرتها على الاستشفاء (الأحجية- الطلاس- زيارة الأضرحة...) ²⁸. بالإضافة إلى البنية الفكرية التي سادت لمرحلة من المراحل، مثلما وقفنا عليه فيما يخص ضريبة المكس، وما استدعته من سجلات فكرية ودينية وسياسية أمام قضايا اقتصادية ²⁹. وهذا ما يتطلب حضور التاريخ وعلم الاجتماع وعلوم أخرى، ويؤدي، بالتالي، باللغة التقنية، إلى مد جسور متعددة بين دائرة اللغة ودائرة العلوم بتعدد مناحيها الفكرية والمعرفية.

5.3. المقاربة النصية

تشغل اللغة التقنية حيزا هاما داخل النسق اللغوي العام للغة ما، لذا، فهي، تمتح من كل الإمكانيات اللغوية وغير اللغوية التي تتمتع بها اللغة العامة. ذكرنا سابقا، ومن خلال بعض التعريفات التي أوردتها ليلي المسعودي أن اللغة التقنية لا ترد على المستوى الأموزجي أي على مستوى الكلمة والجمله، فحسب، وإنما تشمل، أيضا، المستوى المركبي باشتغالها على الاستعمالات الخطابية. وبذلك تسمح للدارس بمقاربتها ضمن منظورات خطابية.

من هذه الزاوية كان اشتغال حنان بندحمان ³⁰ على البعد البلاغي الذي تلعبه الوحدات اللغائية داخل الخطاب الشعري الإبداعي، وكيف تعبر هذه الوحدات من ميادين متخصصة إلى مساحات المتخيل والحلم. فتخرج من سياجها اللغوي والاصطلاحي لتدخل فضاءات الإبداع والمجهول، وتشغل على مستوى استعاري يعلو عن ملامسات الظاهر ليغور في الباطن ويحتمي بمتعة الكشف والاختراق. وتصير بذلك اللغة التقنية آلية من آليات التأويل ومقاربة النص الإبداعي، حيث عملت في هذه الدراسات على إبراز هذا المتخفي في اللغة التقنية والذي أشارت إليه ليلي المسعودي بالبعد الخطابي واعتبرته بعدا أساسيا في التمايز بين المعجمية والمصطلحية واللغة المتخصصة وبين اللغة التقنية.

²⁸ ابن خيرة، مرجعين سابقين.

²⁹ حنان بندحمان، «الكتابة الإصلاحية...»، مرجع سابق.

³⁰ حنان بندحمان، «اللغة التقنية في القصيدة الزجلية...»، مرجع سابق. حنان بندحمان، «اللغة التقنية لطقوس الموت وتواشجاتها في الشعر المغربي المعاصر - الزجل»، ضمن L. Messaoudi et H. Bendahmane et coll. (dir.), *Technolectes, dictionnaires et terminologies*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 5-22.

بالشق التاريخي لمغرب القرن 18 و 19 برصد وحدات لغائية تتعلق بالحياة الفكرية والاجتماعية والمالية²⁵. وذلك من خلال جانبها اللغوي/ اللساني وكذا في بعدها الاجتماعي والتاريخي. وفي ظل هذه الرؤية كان منجز فدوى بن أخيرة التي اهتمت بالجانب الصحي في شقيه التقليدي والحديث بتتبعها لوحات لغائية تؤرخ وتضبط ميدان الصحة والأمراض والعلاجات التي سادت والتي كان يعتقد في نجاعتها في تلك المرحلة من تاريخ المغرب والعقلية التي هيمنت في تلك الفترة²⁶. وهذه الدراسات لا تبرز فقط البعد اللغوي للوحدات، وإنما تؤكد أن اللغة التقنية تسمح بدراسة ميادين الأنشطة الإنسانية ورصد تطورها وكيف تعبر لغويا، كما تتيح دراسة الذهنية والتطور الفكري لمجتمع من المجتمعات. فبعض هذه الوحدات اللغائية لا تقف مهمتها في ضبط وتتبع الوحدة في شقها اللغوي وبعدها الوظيفي الذي تؤديه في إطار حقل مهني معين، وإنما تستدعي مجموعة من الممارسات الاجتماعية مثل عملية "ثقاف" وعلاقتها بـ "المُنسَج" و"سُدَى"، وهما وحدتان لغيتان ترتبطان بمجال النسيج²⁷، وتلعبان دورا أساسيا في عملية "ثقاف"، والتي كان يعتقد في بعدها الوقائي باعتبارها حماية للفتاة من الآخر "الذكر"؛ إذ تحمي عذريتها وتصون

²⁵ انظر في هذا السياق دراسات: حنان بندحمان، «الكتابة الإصلاحية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر - دراسة في اللغة التقنية»، ضمن الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب، أعمال مهداة إلى الأستاذ محمد حميدة، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، الرباط، 2014، ص. 371-380. عبد العزيز اعمار، «الكتابة الإصلاحية في مغرب القرن التاسع عشر - مقارنة مفاهيمية -»، ضمن الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب، أعمال مهداة إلى الأستاذ محمد حميدة، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، الرباط، 2014، ص. 357-369.

²⁶ فدوى بن خيرة، «اللغة التقنية في مجال الصحة بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر» و«اللغة التقنية في المجال الصحي بالمغرب خلال فترة الحماية»، ضمن : L. Messaoudi, H. Bendahmane et coll. (dir.), *Technolectes, dictionnaires et terminologies*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 47-73.

L. Messaoudi et P. Lerat (dir.), *Les technolectes/Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 39-50.

²⁷ فيما يخص عملية «ثقاف»، انظر : حنان بندحمان، «قاموس الشعر المغربي المعاصر -مقاربة أولية-»، ضمن: ليلى المسعودي، إبراهيم الكعاك وآخرون (تنسيق)، حول القواميس، القنيطرة، منشورات مختبر اللغة والمجتمع CNRST-URAC56، جامعة ابن طليل، 2010، ص. 21-34. فيما يخص اللغة التقنية المرتبطة بالنسيج، انظر: حنان بندحمان، «اللغة التقنية في القصيدة الزجلية بين اليومي والتشكيل المجازي»، ضمن L. Messaoudi et P. Lerat (dir.), *Les technolectes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail / AUF, 2014, p. 15-24

3.3. المقاربة البيداغوجية والديداكتيكية

أظهرت العديد من الدراسات والأبحاث حول اللغة التقنية وفي إطار التمييز بين لغة عاملة وأخرى عادية عن مدى إمكانية استثمار اللغة التقنية كمقاربة بيداغوجية وديداكتيكية، من شأنها أن تنمي قدرات المتعلم واكتسابه المعرفي والمنهجي. ذلك أن دراسة اللغة التقنية لا يتم بعيداً عن سياقها، كما أنها لا يمكن تمثيلها إلا ضمن خطاب معين. والقدرة على تمييز هذه السياقات وكذا الخطابات تمد المتعلم بالقدرة على حيافة اللغة. فالقدرة على حيافة اللغة ليست مسألة تعلم فقط، وإنما هي القدرة على تمثيل التصنيفات اللغوية، خاصة بالنسبة للدول التي تعرف تنوعاً وتعدد لغوي، كما هو الحال في المغرب²¹. وهذا الاستثمار بهم جميع مجالات التعلم على اختلاف قطاعاتها ومستوياتها سواء منها ما يتعلق بتعلم اللغات أو المواد العلمية أو التخصصات المهنية كقطاع الفلاحة²² أو الجمارك أو الصناعات التقليدية والحديثة.

4.3. مقاربات اجتماعية وتاريخية

لا يكتمل مفهوم اللغة التقنية إلا بارتئانها بالجانب الاجتماعي وبالأنشطة الإنسانية، وبذلك تبتعد عن الاصطلاحية بانخراط البعد الاجتماعي والتاريخي والأنثروبولوجي... وقد أبرزت دراسة عبد العزيز أعمار²³ مجموعة من التمثيلات الاجتماعية والثقافية لمبادين الأنشطة الإنسانية منها ما يرتبط بالعمارة التقليدية ومنها ما يستدعي حرفاً أخرى²⁴ وكيف تتقاطع هذه الوحدات اللغوية لتبرز الذهنية الفكرية للإنسان المغربي. كما اهتمت دراسات أخرى

²¹ انظر في هذا السياق: Mehdi Haidar, «L'enseignement du français à l'université marocaine: le cas de la filière sciences de la vie et sciences de la terre et l'univers», Thèse de doctorat, Université Ibn Tofail, Kénitra, Rennes2, 2012. <http://tel.archives-ouvertes.fr>. H. Bendahmane, « L'intégration du technolacte dans l'apprentissage des langues au Maroc », *acte du colloque international, Langues spécialisées / technolactes et didactique des langues : quelles perspectives?*, Paris le 23-24 mai 2015, Paris, Laboratoire PLIDAM-Inalco et Kénitra, laboratoire Langage et Société.

²² المصطفى غزالي، «اللغة التقنية الفلاحية وحضورها في المثل الشعبي - جهة الشاوية ورديغة- نموذجاً»، بحث لنيل شهادة الماستر، إشراف دة. حنان بندحمان، كلية الآداب - القنيطرة، 2012-2013.

²³ عبد العزيز أعمار، «اللغة التقنية من خلال المأثور الشفهي، العمارة التقليدية نموذجاً»، ضمن: L. Messaoudi et F. Benramdane (dir.), *Les technolactes au Maghreb : éléments de contextualisation*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 5-20.

²⁴ عبد العزيز أعمار، «اللغة التقنية المشتركة بين الحرف والصنائع التقليدية من خلال الأمثال»، ضمن: L. Messaoudi et P. Lerat (dir.), *Les technolactes/ Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 5- 13.

والأبحاث التي تناولت اللغية التقنية ضمن ميادين متعددة وأبانت عن خصوصيتها اللسانية واشتغالها ضمن نسق لغوي ينتمي للغة العامة. وتعتبر دراسات ليلي المسعودي، سواء باللغة الفرنسية أو العربية، مؤسسة للبحث اللساني الذي انصب على اللغية التقنية. كما تنخرط في هذا السياق الأبحاث اللسانية التي نشرها مختبر اللغة والمجتمع، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة، والتي تناولت اللغية التقنية من منظورات وقضايا لسانية. ومن ثم تطالعنا المقاربة الفونولوجية التي اعتمدها عبد النور الحضري¹⁷ للبحث في اللغية التقنية في ميدان الملاحة البحرية بميناء المهدية. كما تعرض إبراهيم الكعك¹⁸ لقضايا لغوية تراثية من خلال معالجته لقضية اللحن في اللغة من منظور اللغية التقنية. إلى جانب دراسات أخرى وفي تخصصات مختلفة من رياضة وصحافة وأبنك وفلاحة وغيرها.

من هنا نسجل الأفق المعرفي الذي تفتحه اللغية التقنية في مجال الدرس اللساني الحديث والذي أكدت عليه المسعودي Messaoudi في دراساتها وأبحاثها، وحيث «تبدو اللغية التقنية نسقا لسانيا يستعمل في حقل أنشطة خاصة وتمييزة بمصطلحية متخصصة وبوسائل أخرى كالأسلوب والجملة. وهذا المفهوم، غالبا ما أطلقت عليه تسمية لغة الاختصاص، لكنه، كثيرا ما تعرض للنقد¹⁹».

2.3. الترجمة

يحملنا الحديث عن الجانب اللساني إلى ميدان خصب من الاهتمامات الفكرية وهو الترجمة. فقد أظهرت الدراسات التي انكبّت على هذا الجانب عن مدى إمكانية استثمار اللغية التقنية في مجال البحث في قضايا الترجمة وأسئلتها، خاصة فيما يتعلق بالترجمة التقنية. وفي هذا الإطار ترى هبة مدحت لوكوك Héba Medhat Lecocq، من خلال اشتغالها على ميدان السيارات، مدى غنى هذا القطاع ونهله بشكل متواز من لغية عاملة وأخرى عادية²⁰. كما تسجل أن اللغية التقنية تضمن انفتاحا للمصطلحية على سجلات لسانية أخرى.

¹⁷ عبد النور الحضري، «اللغية التقنية في الملاحة، ميناء المهدية نموذجاً»، ضمن: L. Messaoudi, H. Bendahmane : et coll. (dir.), *Technolectes, dictionnaires et terminologies*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2013, p. 23-46.

¹⁸ إبراهيم الكعك، «اللغية التقنية للخطأ اللغوي في الثقافة العربية»، ضمن: L. Messaoudi et P. Lerat : (dir.), *Les technolectes / Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 63- 82.

¹⁹ L. J. Rousseau, <http://www.iula.upf.es/cp/cptgmfr.htm>, cité dans L. Messaoudi 2003, p. 153.

²⁰ Héba Medhat Lecocq, « Traduire le technolecte, l'exemple du vocabulaire de l'automobile », dans L. Messaoudi, P. Lerat (dir.), *Les technolectes / Langues spécialisées en contexte plurilingue*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, U. Ibn Tofail/AUF, 2014, p. 261-267.

multidisciplinarité وتفاعل interdisciplinarité ودمج transdisciplinarité¹² باعتبارها «معرفة القول، كتابيا أو شفهيًا، معبر عنها بكل مقال لساني مناسب، إنها معرفة أو معرفة الفعل في مجال متخصص [...] لها خاصية مولدة ويمكن أن تتضمن كل الاستعمالات اللسانية في ميادين متخصصة قد تكون موحدة أو غير ذلك، كتابية أو شفهيّة، عالمة أو شعبية، تقليدية أو حديثة، تقنية أو علمية¹³». فاللغة التقنية تستجيب لفكرة أن العلم هو كّل ومن شأن التخصصات أن تدخل في علاقات مع بعضها البعض، حيث يصير التعدد والتنوع ضرورة نظرية وتطبيقية، وبالأحرى يصبح الدمج رؤية جديدة للإنسان¹⁴. وفي هذا السياق، يكتب جون بياجي Jean Piaget عن الدمج المعرفي بأنه «[...] يمكن أن نأمل في بلوغ مرحلة عليا هي "الدمج المعرفي" الذي لن يكتفي ببلوغ التفاعلات أو التناظرات بين الأبحاث التخصصية، وإنما وضع هذه العلاقات داخل نسق كلي بدون حدود قارة بين التخصصات¹⁵؛ ولعل اللغة التقنية بدمجها بين الكتابي والشفهي بل بين اللغة العالمية والعادية قد ساهمت في إلغاء الحدود، ليس فقط بين التخصصات الدقيقة، وإنما بينها وبين المعارف التقليدية والعامة.

3. البعد المقارباتي للغة التقنية

لا ينحصر اشتغال اللغة التقنية في تتبع العلاقة بين الدال والمدلول والمعاني المتولدة عنها، ولا في جرد المفاهيم والمصطلحات، وإنما تعمل كمقاربة منهجية لمجال معين ولتخصصات بعينها.

1.3. المقاربة اللسانية

إن الطبيعة المرنة للغة التقنية ولوحداتها اللغائية¹⁶، التي تحضر ككلمة مفردة أو مركبة أو جملة وتعرض لإبدالات لغوية وسياقية متعددة، تسمح للباحث اللساني أن يتناولها بالدرس والتحليل من منظورات لسانية مختلفة. وهذا ما انكبت عليه مجموعة من الدراسات

¹² لتعميق مداخل التكامل المعرفي من تعدد وتفاعل ودمج، انظر : المرجع السابق.

¹³ Leila Messaoudi, « Langue spécialisée... », *op. cit.*, p. 134.

¹⁴ André Bourguignon, « De la pluridisciplinarité à la transdisciplinarité », Congrès de Locarno, 30 avril 2 mai 1997 : Annexe au document de synthèse CIRET6 UNESCO, file:///D:/interdisciplinarité.htm, consulté le 1/9/2015.

¹⁵ Jean Piaget, cité in André Bourguignon, *op. cit.*

¹⁶ استعملت Messaoudi الوحدات اللغائية بديلاً عن المصطلح في الاصطلاحية وعن الكلمة في اللسانيات. وقد تتضمن كلمة بسيطة أو مركبة، كما يمكن أن تتضمن جملة بعينها، تسمح بوصف حالة أو مسار معطى مرتبط بمعلومات خاصة، انظر: (L. Messaoudi 2003, 163). كما اشتغلت على ما أسمته بالكلمة- المحور وهي، بدورها، كلمة مفردة أو مركبة أو جملة وترتبط بالوحدات اللغائية، لكنها تسمح بالدخول في شبكة دلالية وتكوين أنموذج والانتماء للغة أو لغيات تقنية. انظر : L. Messaoudi, « Technolectes savants... », *op. cit.*, p. 43.

ذات العلمية العالية، بالإضافة إلى المعجم العادي والمصطلحية الشعبية، كل هذا يندرج في اللغة التقنية، دون أن يعني أنها لغة خاصة، مغايرة للغة الطبيعية، كما يفترض الاستعمال المنتقد للغة المتخصصة⁹.

2. اللغة التقنية وتكامل المعرفة

يبدو أن اللغة التقنية تتقاطع مع المصطلحية واللغة المتخصصة بل تتضمنهما كذلك. ومن ثم نميز مع ليلى المسعودي Leila Messaoudi¹⁰ بين لغة عالمة technolcte savant ترتبط بالعلوم والتقنيات، فتخترق مجال الطب والهندسة والرياضيات والفلك... وبين لغة عادية technolcte ordinaire تتجاوز فضاء العلوم والتخصصات المختلفة، لتهتم بمبادئ مهنية ارتهنت بالمووروث الثقافي والاجتماعي والصناعات المستحدثة التي تمت في ظل النمو الاقتصادي والصناعي لبعض الدول؛ ومن ذلك ميادين الصناعة التقليدية (النسيج - الأرابيسك - النجارة-المعمار...) وكذا الصناعات الحديثة (السيارات- الصباغة...). وبذلك تكون اللغة التقنية ملتقى العلوم والمعارف سواء منها العالمية التي لها طابع مدرسي وأكاديمي أو تلك العادية التي ترتبط بالممارسة والدربة وتراكم الخبرة، فتتميز بطابعها الحرفي وتنتقل عبر الممارسة والمشافهة.

ومن ثمة تشكل اللغة التقنية جسورا للعبور إلى تخصصات مختلفة تصلح كقاعدة بيانات وكمدائل أساسية للتمكن من هذه التخصصات المعرفية والتقنية. وبذلك تمثل فضاء معرفيا يسمح بتداخل التخصصات والعلوم. وقد تبلور اللغة التقنية ما يسمى بتكامل المعرفة؛ إذ تعمل على توحيد جسد المعرفة وحقوقها، كما تهدف إلى تحقيق وحدة المعرفة النظرية والتطبيقية، وكذا استكشاف العلاقات العقلية والمهنية التخصصية¹¹. وبهذا تسمح المقاربة اللغوياتية بالتواصل والتشابك والتعاقد بين حقول وتخصصات متعددة، وتشجع، كذلك، على تعدد الرؤى وانفتاح الفكر والخيال، وبالتالي تتيح الاستفادة من مهارات تخصصات وتقنيات أخرى في معالجة القضايا. ذلك أن اللغة التقنية تحقق مداخل التكامل المعرفي من تعدد

⁹ Leila Messaoudi, *Études sociolinguistiques*, Kénitra, Université Ibn Tofail, FLSH, 2003, p. 175.

¹⁰ Leila Messaoudi, « Technolctes savants, technolctes écrits : quelles différences? », dans Leila Messaoudi (dir.), *Sur les technolctes*, Kénitra, laboratoire Langage et société CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail, 2012, p. 39-46.

¹¹ انظر أهداف العمل التفاعلي كما جاءت في دراسات (9 : Klein, 1990) ورد عند: بكر تركي عبد الأمير الحبيب، «استخدام مداخل التكامل المعرفي في التطوير التنظيمي لمنظمات الخدمة العامة»، مجلة كلية بغداد للعلوم الاقتصادية، 2006، ع. 12، 192-121، www.iasj.net، الاطلاع: 11-7-2014.

1. اللغة التقنية وعلوم اللغة

اهتمت المعجمية بالكلمة المفردة باعتبارها علامة لغوية لضبط صيرورتها اللغوية وسياقاتها التي ترد فيها، وكما تؤكد جاكلين بيكوش Jacqueline Picoche «تأخذ بعين الاعتبار مجموع العلامة، شكلاً ومعنى أي الدال والمدلول³». في حين أن المصطلحية ينصب اشتغالها على الكلمة التي يتم التواضع حولها ضمن مسار تخصصي معين، إنها «دراسة علمية للمفاهيم والمصطلحات في استعمالها داخل لغات التخصص⁴». وذلك وفق مبدئين أساسيين: التوحيد والمواضعة. أما اللغة المتخصصة، فقد حددها بيير لورا Pierre Lerat، في سياق علاقتها بالمصطلحية، بكونها استعمال للغة الطبيعية مع الانتباه تقنيا للمعارف المتخصصة. وعلى خلاف المصطلحية، تستعمل اللغة المتخصصة، إلى جانب التسميات الخاصة (المصطلحات)، علامات غير لسانية داخل ملفوظات تستدعي أنساقاً أساسية للغة معينة⁵. وفي هذا السياق تؤكد ليلى المسعودي Leila Messaoudi على دور الخارج-اللساني في بلورة مفهوم اللغة المتخصصة (ميادين الأنشطة والوضعية)⁶.

وعلى غرار المصطلحية واللغة المتخصصة، اللذين يستدعيان تخصصات علمية وتقنية متعددة، فإن اللغة التقنية، بدورها، تفتح من اللغة العامة لتوطين استعمالات لغوية خاصة بميادين الأنشطة الإنسانية. غير أن هذا لا يعني أن اللغة التقنية مرادفة للمصطلحية أو للغة المتخصصة، بل إنها تتضمنهما، باعتبارها تشمل، أيضاً، الجمل والاستعمالات الخطابية «اللغة التقنية ليست مرادفاً للاصطلاحية [...]، وبالرغم من تضمها للمستوى المعجمي لا يمكن اختزالها في ذلك. إنها تشمل، كذلك، الخطاب⁷». فاللغة التقنية لا تقف عند حدود التخصصات العلمية والتقنية المرتبطة بالكتابة «لغات التخصص تفرض أولوية لسانيات الكتابة⁸»، وإفهاماً، كذلك، على المجالات الشفهية واللغات ذات الإرث الشفهي:

اللغة التقنية هي مجموع الاستعمالات المعجمية والخطابية، الخاصة بميدان من ميادين الأنشطة الإنسانية. وكذلك، الإنتاجات الكتابية والشفهية، بتضمها للمصطلحية العاملة والنصوص

³ Jacqueline Picoche, *Précis de lexicologie française : l'étude pour l'enseignement du vocabulaire*, Paris, Nathan, 1997.

⁴ Pierre Lerat, *op. cit.*, p. 16.

⁵ *Ibid*, p. 20.

⁶ Leila Messaoudi, « Langue spécialisée et technolécite : quelles relations? », dans Salah Mejri et Gaston Gross (dir.), *Meta*, Presse universitaire de Montréal, 2010, V. 55, n°. 1, p. 127-135.

⁷ Leila Messaoudi, *op. cit.*, p. 134.

⁸ Pierre Lerat, *op. cit.*, p. 21.

اللغة التقنية ملتقى العلوم والمعارف

حنان بندحمان

جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: تروم هذه الدراسة الوقوف عند اللغة التقنية، بالتمييز بين لغة عالمية ترتبط بالعلوم وبالكتابة، وأخرى عادية ترتفع بالمجتمعات ذات الإرث الشفهي، وتكتنز وحدات لغائية تنهل من الصناعة التقليدية وكذا الحديثة. وبهذا تكون اللغة التقنية ملتقى للعلوم، تجمع بين رافدين أساسيين في الثقافة الإنسانية (الشفهية والكتابة). تنفتح على كل ميادين المعرفة الإنسانية، بما فيها النقد الأدبي. إذ تمتح من حياة البسطاء ولغتهم لتعبر إلى فضاء النص الأدبي وتفصح عن هذا البعد الاستعاري المحمل بقوة الكشف.

كلمات مفاتيح: اللغة التقنية؛ اللغة العالمية؛ اللغة العادية؛ الخطاب؛ الكتابة؛ الشفهية؛ البعد الاستعاري

Résumé : Notre article porte sur le technolecte, en distinguant entre un technolecte savant qui se développe dans les domaines scientifiques (écriture), et un autre ordinaire qui se manifeste dans les sociétés qui ont un héritage culturel oral, en possédant des unités technolectes de différents domaines artisanaux et industriels. Le technolecte constitue un carrefour des savoirs, il associe les deux sources de la culture Humaine (orale et écrit). Il s'ouvre sur plusieurs sphères de la recherche scientifique, comme il regagne la critique littéraire. Ainsi les technolectes ordinaires traversent l'œuvre artistique, en dévoilant la dimension métaphorique.

Mots-clés : technolecte; technolecte savant; technolecte ordinaire; discours; écriture; oralité; métaphore

أبان الفكر الإنساني عبر تاريخه عن اهتمام بالغ باللغة، فكشفت حفريات اللغة عن علوم متعددة، كان للدراسات المعجمية والمصطلحية حيزا بارزا، حيث كان التمييز بين المعاجم العامة والخاصة. وبتعميق البحث في هذا المجال، ظهرت تخصصات أخرى تبحث فيما يصطلح عليه باللغة المتخصصة¹ Langue spécialisée, وبعد ذلك اللغة التقنية² technolecte, فما المقصود بهذه العلوم اللغوية الدقيقة والمتجاورة وما موقع اللغة التقنية في صيرورة البحث العلمي وتكامل المعرفة؟

¹ Pierre Lerat, *Les langues spécialisées*, Paris, PUF, 1995.

² انظر أبحاث ليلى المسعودي المنجزة حول اللغة التقنية *technolecte* باللغتين الفرنسية والعربية منذ 1990.

- Gaudin, François, *Pour une socioterminologie - des problèmes sémantiques aux pratiques institutionnelles*, coll. « Publications de l'Université de Rouen », n° 182, Rouen, Presses universitaires de Rouen et du Havre, 1993.
- Guilbert, Louis, « La spécificité du terme scientifique et technique », *Langue française*, vol. 17, n° 1, 1973, p. 5-17.
- Hutchinson, Tom et Waters, Alan, *English for specific purposes, a learning centred approach*, Cambridge, Cambridge University Press, 1987.
- Sager, Juan-C., *A Pratical Course in Terminology Processing*, Amsterdam Philadelphia, John Benjamins Publishing Company, 1990.
- Khan, Gisèle, « Différentes approches pour l'enseignement du français sur objectifs spécifiques », *Le français dans le monde. Recherches et applications, méthodes et méthodologie*, numéro spécial du Français, janvier 1995, p. 144-152.
- Kandelaki, Tatiana Leonidovna, « Le sens des termes et les systèmes de sens des terminologies scientifiques et techniques », dans *Textes choisis de terminologie. Fondements théoriques de la terminologie*, Québec, Girsterm, 1981, p. 133-184.
- Lehmann, Denis, *objectifs spécifiques en langue étrangère*, Paris, Hachette, 1993.
- Lerat, Pierre, *Les langues spécialisées*, Paris, PUF, 1995.
- Messaoudi, Leila, « Langue spécialisée et technolecte quelles relations? », dans Salah Mejri, Gaston Gross (dir.), *Meta*, Montréal, Presse universitaire, vol. 55, n°1, 2010, p. 127-135.
- Moirand, Sophie, « Décrire les cours de spécialité », *Lenguas para fines especificos (III)*, Université Alcalá de Henares, actes du colloque organisé par l'Université Alcalá de Henares, les 15-17 novembre 1993, 1994, p. 79-91.
- Quemada, Bernard, « Technique et langage », dans Gille Bertrand (dir.), *Histoire des techniques*, Coll. Encyclopédie de la Pléiade, Paris, Gallimard, 1978, p. 1146-1240.
- Rey, Alain, *La Terminologie, noms et notions*, Paris, PUF, 1979.
- Sourieux, Jean-Louis et Lerat, Pierre, *Le langage du droit*, Paris, PUF, 1975.
- Spillner, Bernard, « Pour une analyse syntaxique et stylistique des langues de spécialité du français », dans *Les langues modernes*, no 76, Nancy, éd. Association des professeurs de langues vivantes, 1982, p. 19-27.

مراجع

- الفاسي الفهري، عبد القادر، المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط. 1، 1998.
- هالفرسون، مايكل، خطوة خطوة، Microsoft Visual Basic.net، ترجمة وتحقيق مركز التعريب والترجمة، منشورات الدار العربية للعلوم، ط. 1، 2002.
- الودغيري، عبد العلي، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، 1989.
- Bertrand, Olivier et Schaffner, Isabelle, *le français de spécialité : enjeux culturels et linguistiques*, Paris, éd. École polytechnique, 2008.
- Binon, Jean, « Un dictionnaire d'apprentissage du français des affaires. Projet et propositions de réalisation », dans S.Verlinde (éd.), *Proceedings of the Symposium on differentiation in LSP, Learning and Teaching*. Leuven, Institut voor Levende Talen, 1991, p. 143-188.
- Binon, Jean et Cornu, Ammoni, *The Degree of Systematisation to define the Relationship between General and Functional Language*, in Michel Perrin (éd.), *Proceedings of the 4th European Symposium on LSP*, Bordeaux, Université de Bordeaux II, p. 21-52.
- Cabré, Maria Térésa, *Terminologie : théorie, méthode et applications*, Les presses de l'Université d'Ottawa, Armand Colin, 1998.
- Challe, Odille et Lehmann, Denis, « Le français fonctionnel entre l'alternative politique et le renouvellement méthodologique », dans *Le Français dans le Monde*, n° spécial, Publics spécifiques et communication spécialisée, 1990, p. 74-80.
- Cusin-Berche, Fabienne, « De la langue ordinaire au(x) technolecte(s) », dans Jacques Anis et Fabienne Cusin-Berche (dir.), *Difficultés linguistiques des jeunes en formation professionnelle courte. Diagnostic et propositions de remédiation*, Actes du Colloque international de Paris X, Nanterre, 19-21 décembre 1994, Nanterre, Linx, vol. 1, 1995, p. 41-52.
- Delagneau, Jean Marc, « les langues de spécialité aujourd'hui : approches théoriques et exemples pratiques résultant de l'analyse de corpus », dans Olivier Bertrand et Isabelle Schaffner (dir.), *Le Français de spécialité : enjeux culturels et linguistiques*, Palsiseau, éd. École polytechnique, 2008, p. 105-118.
- Delagneau, Jean Marc, « Langues de spécialité, langues spécialisées : avancées et perspectives de la recherche », dans *Les langues modernes*, Dossier « les langues de spécialité », année 99, n° 1, 2005, p. 63-72.
- Dubois, Jean et coll., *Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage*, Paris, Larousse, 1994.

- يمتاز مفهوم اللغية التقنية بالحيادية مقارنة باصطلاح اللغة الخاصة؛ فهو لا يحيل بالضرورة على ما هو مكتوب أو ما هو شفهي بخلاف مصطلح اللغة الخاصة الذي يحيل، حصريا، على اللغة العلمية المكتوبة.
- إن اللغة الخاصة هي مجموع الوسائل اللسانية المستعملة في مجال تواصل معين نستطيع أن نحدد من خلاله مجال التخصص تيسيرا للفهم بين الفاعلين في هذا المجال، وهذا يشكل انتقالا من الحديث عن اللغة الخاصة إلى الحديث عن التواصل المتخصص.
- إنه لمن العبث الادعاء بأن اللغات الخاصة هي فقط مجموع المصطلحات المنتمية إلى علم من العلوم أو فن من الفنون أو صناعة من الصناعات، كما أنه من العبث الربط بين اللغات الخاصة و البعد الكتابي للغة، لأن اللغات المتخصصة لا ترتبط دائما بالكتابة، فقد تكون شفوية؛ كلغة البناء أو النجارة أو باقي الحرف الأخرى. اللغات الخاصة لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تكون مركبة من المصطلحات العلمية أو التقنية، فقط، فهي تحتاج إلى اللغة المشتركة أو المعجم العام للربط بين المفاهيم.

بالمعنى الدقيق للكلمة. ولقد ظل اللسانيون أنفسهم بعيدين عن هذه المجالات التي كان أصحابها هم المؤهلون دون سواهم لتمثيل لغاتهم التي يستعملونها. فكانت مقارباتهم تاريخية وإيمولوجية ومنطقية، تحاول سبر أغوار الألفاظ وأصولها والبحث في العلاقات الدلالية والمنطقية الموجودة بينها. ولم يكن اللسانيون يجرؤون على الاقتراب من هذه المجالات إلا في حالات معزولة³⁹. وكانت الكتابات في هذا المجال تعتمد على المصطلحات القانونية المستخرجة من قبل القانونيين بالدرجة الأولى، أو المصطلحات الفلسفية المستخرجة من قبل الفلاسفة. ونفس الشيء بالنسبة للمصطلحات الأدبية أو التاريخية. وكانت المرجعيات القوية في بعض هذه المجالات تقوم على استخراج الأصول اللغوية والتاريخية للمصطلحات، كالأصول اليونانية أو اللاتينية للألفاظ المستعملة داخل هذه الحقول المعرفية. كما كان الشأن قديما بالنسبة للغة الطبية، إذ كان العلم باللغات القديمة، اليونانية واللاتينية، مدخلا لمعرفة أصول مفرداتها.

وعلى نفس المنوال ظهرت، لأسباب اقتصادية، لغة خاصة تعرف بلغة الأعمال، موجهة لتعلم التواصل الاقتصادي، لكن حدودها تبقى غير واضحة ويتعذر تنميط وتوحيد مصطلحاتها بسبب تداخل مجالاتها وتعدد المتدخلين فيها (تجارة؛ صناعة؛ فلاح؛ مالية؛ تدبير؛ قانون؛ نقل؛ معلومات؛ إعلام؛ إلخ). هذا الاتساع والخلط في المجالات يشكل عقبة أمام وضع مرجعية واضحة لهذه اللغة وإعدادها للتعليم والتكوين، بالرغم من إغراق السوق المكتبية والإلكترونية بمؤلفات و قواميس تحمل في عناوينها اصطلاح «لغة الأعمال».

خلاصة

كانت هذه، إذن، محاولة لضبط مفهوم اللغات الخاصة وتمييزه عن مفاهيم أخرى مشابهة، نحو اللغة المشتركة واللغة العامة واللغة الخاصة والمعجم الخاص والمصطلحية واللغة التقنية، كما ميزنا بين الطرح التقليدي للغات الخاصة والنظريات الحديثة، وبين غموض مفهوم لغات التخصص. وتوصلنا إلى جملة من الاستنتاجات أهمها:

- قد يقتضي المجال استعمال اللغة المشتركة، أو اللغة المتخصصة، أو التقنية، أو الفنية، دون أن يكون هناك تقابل بين اللغة المشتركة واللغة الخاصة. فلا وجود للغة الخاصة بدون اللغة العامة أو المشتركة.
- إن الحديث عن اللغة التقنية لا يقصد به أنها لغة معينة تقابل اللغة العادية كما قد يوحي بذلك مصطلح اللغة الخاصة. كما أنها ليست مرادفا للمصطلحية أو للغة القطاعية.

³⁹ Jean-Louis Sourieux et Pierre Lerat, *Le langage du droit*, Paris, PUF, 1975, p.10.

إنه لمن العبث، في اعتقادنا، الادعاء بأن اللغات الخاصة هي فقط مجموع المصطلحات المنتمية إلى علم من العلوم أو فن من الفنون أو صناعة من الصناعات، كما أنه من العبث الربط بين اللغات الخاصة والبعد الكتابي للغة، لأن اللغات المتخصصة لا ترتبط دائماً بالكتابة فقد تكون شفوية ك لغة البناء أو التجارة أو باقي الحرف الأخرى. اللغات الخاصة لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تكون مركبة من المصطلحات العلمية أو التقنية فقط فهي تحتاج إلى اللغة المشتركة أو المعجم العام للربط بين المفاهيم.

وقد سعى أصحاب المقاربة المصطلحية للغة الخاصة إلى الانفتاح على أبحاث اللسانيات النصية وذلك عبر دراستهم للعبارات المسكوكة والعبارات الاصطلاحية، خاصة مع دانييل غواديك Daniel Gouadec (1994-1992)، ومع هيربرت بيشت Heribert Picht (1992-1987). هؤلاء استعملوا مفهوم العبارات الخاصة أو الجمل الخاصة، وربطوا المقاربة التقليدية ذات الطبيعة المعجمية- الدلالية بمقاربة جديدة، تأخذ بعين الاعتبار جملة من المظاهر التركيبية والأسلوبية للغات الخاصة، رغم صعوبة وضع حدود واضحة بين المعجم والتركيب في هذا النوع من الدراسات المرتبطة بالعبارات والجمل³⁸. فالوقوف عند الجمل الخاصة قد يكون أيسر بالنسبة لمن يهتم بالنصوص الخاصة.

لقد اتجهت المدارس المصطلحية الحديثة إلى دراسة المتون الكبيرة، مستعينة في ذلك بالتكنولوجيا الحديثة، مما جعلهم يأخذون بعين الاعتبار السياقات التي ترد فيها المصطلحات. فمركز الأبحاث في اللسانيات التطبيقية ببروكسيل ترميستي Termisti وجه دراساته المصطلحية نحو الكلمة والمصطلح والسياق، وبدأت الهوة تتقلص بين المقاربات المعتمدة على تحليل الخطاب التطبيقي للنصوص المتخصصة، والمقاربات المتصلة بالمدارس والتيارات المصطلحية، رغم اختلاف مبادئها النظرية.

5. غموض في مفهوم لغات التخصص

ما زال هناك بعض الغموض يكتنف علاقة اللغة الخاصة ببعض اللغات المنتمية إلى مجالات معينة كالآداب والقانون، مقارنة بلغة العلوم والتقنية. فاللغة القانونية، مثلاً، لها خصائصها المعجمية وأسلوبها المرتبط بقضايا، غالباً، ما تكون وطنية حقوقية، وهو أسلوب شفهي عند أغلب الممارسين لهذه اللغة (المحامون؛ القضاة؛ العدول؛ الموثقون؛ السياسيون).

لذلك ظل تصنيف اللغة القانونية لزمان طويل بعيداً عن اللغة الخاصة، قريباً من الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كالتاريخ والفلسفة اللتين يصعب تصنيفهما ضمن اللغات الخاصة

³⁸ Jean-Marc Delagneau, « Langues de spécialité... », *op. cit.*, p. 69.

الخاص. لذلك نقول إن اللغة الخاصة تُزاوج بين معجمين: معجم خاص: يتضمن المصطلحات المؤسسة للغة التخصص ومعجم عام: أولغة مشتركة، تربط بين الوحدات المصطلحية .

وقد ميز كيميدا بين ما يمكن أن يطلق عليه المصطلح التقني، وما يمكن أن يسمى مصطلحا علميا؛ فالمصطلح التقني عنده هو أوسع استعمالا من المصطلح العلمي، إذ يستعمله ذلك الإطار التقني المحنك كما يستعمله العامل التقني البسيط، بينما المصطلح العلمي يبقى مجال استعماله خاصا بفئة لها نفس الثقافة ونفس التكوين العلمي ويغلب عليه الطابع الكتابي مقارنة بالمصطلح التقني³⁵.

وفي المقابل هناك من لم يميز بين المصطلح العلمي والتقني واعتبرهما وجهان لعملة واحدة، ذلك أن:

المصطلح العلمي أو التقني هو اللفظ الذي خصصه الاستعمال في علم من العلوم أو فن من الفنون أو صناعة من الصناعات بمفهوم معين؛ فإذا أطلقه مستعملوه من أصحاب تلك العلوم، والفنون والصناعات، كان المقصود به هو ما اصطاحوا عليه وتعارفوا على مدلوله، دون ما سوى ذلك من الدلالات الأخرى التي قد تكون لذلك اللفظ فيما يسمح بين عامة متكلمي اللغة³⁶.

ويرى ألان راي Alain Rey أن الاسم إذا كان قابلا للتعريف داخل نظام منسجم ومبني، فهو مصطلح³⁷. والمقصود بهذا التعريف عند راي؛ هو أن المصطلح عبارة عن وحدة لغوية تنتمي إلى لغة نظرية محددة، وبالتالي فهو لا يمكن أن يعرف إلا انطلاقا من الإطار النظري والنسق المستعمل فيه. وبهذا التحديد لماهية المصطلح، فهو يختلف عن الكلمة التي يدرك معناها أو معانيها من خلال السياق الواردة فيه. فالخاصية الأساسية التي يقوم عليها تعريف المصطلح إذن؛ هي حصر دائرة التخصص، لأن هذه الأخيرة هي التي تحدد العمارة المفهومية التي تكتسبها الوحدة المصطلحية. فلا دلالة للمصطلح إلا داخل الإطار النظري المستعمل فيه، وخارج هذا الإطار، لا قيمة للوحدة المصطلحية.

³⁵ Louis Guilbert, « La spécificité du terme scientifique et technique », dans *Langue française*, 1973, vol. 17, n° 1, p. 15.

³⁶ عبد العلي الودغيري، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، 1989، ص. 194.

³⁷ Alain, Rey, *La terminologie : noms et notions*, col. Que sais-je?, Paris. PUF, 1979, p. 22.

انظر للمزيد حول تعريف المصطلح: Tatiana Leonidovna Kandelaki, « Le sens des termes et les systèmes de sens des terminologies scientifiques et techniques », dans *Textes choisis de terminologie. Fondements théoriques de la terminologie*, Québec, Girsterm, 1981, p. 133-184.

وهناك أيضا من فضل استعمال مصطلح آخر قريب من المفهوم السابق، وهو مصطلح «الخطاب الخاص»، الذي استعمله موارون Moirand³²، وهو مفهوم يشمل البعد التواصلية للغة.

فإذا كان وجود المصطلحات المعقدة في ميدان ما يعطيه سمة التخصص، فإن تقليص مفهوم لغة التخصص في مجموعة من المصطلحات المعقدة يجعلنا نتجاهل الجانب التواصلية الذي يمنح للغة معينة سمة التخصص، وننسى أن التواصل بنص معين لا يستدعي فقط ألفاظه، بل كل مكوناته اللغوية.

4. اللغة الخاصة و المصطلحية

إن مصطلح اللغة الخاصة لا يعني أنها لغة منعزلة، ولكنها لغة مؤلفة من مصطلحات ومن تركيب خاص. ولقد أدت المقاربات التقليدية للغات التخصص إلى خلق نوع من الالتباس والتزاد بين مفهوم المصطلحية ومفهوم اللغات الخاصة، مما أدى إلى تغييب باقي العناصر اللسانية الأخرى المشكلة للغة، والاقتصار على مفهوم المعجم الخاص.

لقد أسس أوجين ووستر (1931-1970) - على غرار القوائم المستعملة في العلوم المادية - نظرية لسانية تقوم على تصنيف المعجم الخاص التقني، بهدف توحيد مصطلحاته داخل اللغة الخاصة الواحدة، بحيث لا يكون للمصطلح الواحد إلا المفهوم الواحد والعكس صحيح. هذه المصطلحات ترتبط في ما بينها بشكل بنيوي داخل نفس اللغة الخاصة. واعتبر المصطلحية دراسة لمفاهيم ومصطلحات اللغات الخاصة، والمصطلح هو تسمية لمفهوم معين داخل إحدى اللغات الخاصة³³. فالتخصصات كثيرة وهي في تطور مستمر ووحداتها المصطلحية تنتظم حول نواة صلبة وجد متخصصة. هذه المصطلحات تكون في الغالب تقنية وأحادية المفهوم وواضحة فقط لدى المتخصصين في نفس المجال.

لا يمكن اعتبار اللغة الخاصة مرادفة للمصطلحية ولا يمكن، حسب بينون، اختزال اللغات الخاصة في مسائل مصطلحية³⁴، بل هي تضم في طياتها معجما متخصصا لا يستعمله إلا الأخصائيون في مجال معين، ولا يهم سواهم. هذا المعجم الخاص، يتضمن مصطلحات علمية وأتقنية أوفنية، بالإضافة إلى اللغة العامة أو المشتركة، ويربط بين هذه العناصر نوع من التركيب

³² Sophie Moirand, *Décrire les discours de spécialité*, op. cit., p. 15-17.

³³ Olivier Bertrand et Isabelle Schaffner, *le français de spécialité...*, op. cit., p. 107.

³⁴ Jean Binon, « Un dictionnaire d'apprentissage du français des affaires. Projet et propositions de réalisation », dans S.Verlinde (éd.) *Proceedings of the Symposium on differentiation in LSP, Learning and Teaching*. Leuven, Institut voor Levende Talen, 1991, p. 154.

ولقد ميزت الباحثة ليلي المسعودي بين مفهوم اللغة الخاصة وما يمكن أن يصطلح عليه «لُغِيَّة تقنية»، على اعتبار أن اللغة الخاصة ترتبط بالجوانب الكتابية، بينما اللغيات التقنية تتعدى المكتوب لتشمل الجوانب الشفهية للغات التخصص، متجاوزة بذلك المفهوم السوسوري (نسبة إلى دوسوسير) المحدود الذي تطرحه اللغات الخاصة.²⁷

فتعريف اللغة الخاصة، اليوم، يجب ألا يختزل في المعجم الخاص أو المصطلحي أو في الجوانب الديدانكتيكية، مما قد يؤدي إلى فرض مرجعية معجمية أو نحوية مجردة، تحدد خارج كل سياق، وبالتالي، فإن اللغة الخاصة، كما حددها هوفمان Hoffmann، هي مجموع الوسائل اللسانية المستعملة في مجال تواصلي نستطيع أن نحدد ميدانه الخاص. هذه الوسائل، تسعى إلى تيسير الفهم بين الفاعلين في هذا المجال²⁸. وحددها لورا في استعمال اللغة الطبيعية في بعدها التقني، لإيصال المعارف الخاصة²⁹، بينما اعتبرتها كابرّي Cabré جزءاً من اللغة العامة، تتضمن العناصر التداولية التالية: الموضوع - المستعمل - المقام التواصلي³⁰.

هذه التحديدات، تبين مدى تطور مفهوم اللغات الخاصة في الفكر اللساني الحديث؛ لأنها تراعي جميع مظاهر اللغة، باعتبارها فاعلاً في التواصل اللساني المتخصص. ولقد تولى اللساني الألماني هوفمان عن المقاربة التقليدية للغات الخاصة؛ إذ اعتبرها مقاربة محدودة، واقترح مقاربة حديثة تركز على اللسانيات النصية. وهي المقاربة التي اعتمدها في تعريفه للغات الخاصة، ابتداء من سنة 1976، وشكلت موضوع كتاب له حول اللغة الخاصة والتواصل. قال في تعريفه للغة الخاصة سنة 1987 «إن اللغة الخاصة هي مجموع الوسائل اللسانية المستعملة في مجال تواصلي معين، نستطيع أن نحدد من خلاله مجال التخصص، تيسيراً للفهم بين الفاعلين في هذا المجال³¹». لقد انتقل هوفمان من الحديث عن اللغة الخاصة Fachprache إلى الحديث عن التواصل المتخصص Fachkominication.

Gisèle Kahn, « Différentes approches pour l'enseignement du français sur objectifs spécifiques », *Le français dans le monde, recherches et applications, méthodes et méthodologies*, Numéro spécial du Français, Janvier, 1995, p. 144-152.

²⁷ Leila Messaoudi, « Langue spécialisée... », *op. cit.*, p. 127.

²⁸ Olivier Bertrand et Isabelle Schaffner, *le français de spécialité : enjeux culturels et linguistiques*, Paris, éd. École polytechnique, 2008, p.107.

²⁹ Pierre Lerat, *les langues spécialisées*, *op. cit.*, p. 21.

³⁰ Maria Térésa Cabré, *Terminologie: théorie, méthode et applications*, Les presses de l'Université d'Ottawa, Armand Colin, 1998, p. 123.

³¹ Jean-Marc Delagneau, « Langues de spécialité... », *op. cit.*, p. 68.

لغة اصطناعية، كما قد توحى بذلك التسمية. إذ يرتبط هذا المفهوم في الأذهان ببعض لغات المعلومات (لغة باسكال، لغة وُورد، لغة جافا...). وهناك العديد من الجامعات التي تقترح تكويناً في هذا النوع من اللغات، والذي يقوم على معرفة لغات البرمجة، ومفاهيمها الأساسية، وتطبيقاتها في مجال خدمات المعلومات، من خلال الجانب النظري والعملي و التطبيق، حيث يشتمل التكوين على المتطلبات الضرورية لتنمية المهارات الأساسية لكتابة البرامج باستخدام إحدى لغات البرمجة²⁴. ومن أهم أهداف هذا النوع من التكوينات:

- تعريف الطالب بالمفاهيم الأساسية للبرمجة.
- تعريف الطالب بالمكونات الأساسية للغات البرمجة.
- إكساب الطالب مهارة التفكير والتحليل المنطقي.
- إكساب الطالب مهارة كتابة البرامج البسيطة باستخدام إحدى لغات البرمجة.

كما قد يفهم من مصطلح «اللغات الخاصة» التكوينات التي تقترحها بعض المؤسسات والمعاهد الخاصة في مجال تعليم اللغات الأجنبية في إطار ما يسمى بـ «لغة الأعمال»، وغالباً ما يطلقون مصطلح اللغات الخاصة على هذا النوع من التكوين. وفي السنوات الأخيرة، ظهر مفهوم آخر مشابه، وهو «التواصل لأغراض خاصة» (COS : communication sur objectif spécifique). ويعتبر هوتشينسون Hutchinson وواترز Waters، بأن هذا المفهوم ليس منتجاً لسانياً جديداً، ولكنه مجرد مقارنة لتعليم اللغات، ترى أن كل القرارات المتعلقة بالمحتوى والمنهجية هي قائمة على الأسباب التي من أجلها يتعلم المتعلم لغة أجنبية²⁵. فهي مقارنة تواصلية وتعليمية تراعي جملة من المعطيات أهمها: (أ) المعطى الديدكتيكي: ويشمل الجمهور المستهدف، والحاجيات التواصلية، والأهداف، والموقف التواصلية- التعليمي، والأدوات اللغوية اللازمة اكتسابها. (ب) القدرات التواصلية: إذ لابد من الأخذ بعين الاعتبار جميع مكونات القدرة التواصلية، لأنه ليس هناك مكون لسانى واحد يجب اعتماده، سواء كان صوتياً أو مورفوتركيبياً أو دلالياً أو معجبياً، ولكن هناك مكونات أخرى مهمة، منها: المكون السوسيوثقافى والمكون الاستطردى والإحالي، والمكون الاستراتيجى الذي يلعب دوراً مهماً في عملية التفاوض²⁶.

²⁴ مايكل هالفرسون، خطوة خطوة، ترجمة وتحقيق: مركز التعريب والترجمة Visual Basic، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2002، ط1، مجلد1، ص.59.

²⁵ Tom Hutchinson et Alan Waters, *English for specific purposes, a learning centred approach*, Cambridge university press, 1987, p.19.

²⁶ Sophie Moirand, « décrire des cours de spécialité », dans *Lenguas para fines especificos (III)*, Université Alcalá de Henares, actes du colloque organisé par l'université Alcalá de henares, les 15-17 novembre 1993, 1994.

معين. ومن هذا الجانب، هناك تعسف في الحديث عن اللغة الخاصة. والأنسب أن نتحدث هنا عن ألفاظ خاصة. وتقابل اللغة الخاصة اللغة المشتركة¹⁷.

إن تعريف دوبوا بموقع مفهوم اللغة الخاصة من وجهة نظر دياكرونية، ويربط أصوله ببدائيات المدارس المصطلحية التي استعملت مصطلح اللغات الخاصة في وصف مبادئها، كمقابل للغة المشتركة أو العامة. كما برزت المدرسة المصطلحية البريطانية مع أعمال صاكر Juan C. Sager، في بداية التسعينيات من القرن 20 واعتبرت القضية المصطلحية جزءاً من قضايا اللغات الخاصة، و من مبادئها: التركيز على الظاهرة المصطلحية في بعديها النظري والتطبيقي؛ تمييز المصطلحات عن الكلمات العامة؛ تصنيف المفاهيم حسب أنساقها؛ تطوير شبكات البنوك المصطلحية¹⁸.

وبذلك، تستعمل في أحيان عديدة المختزلات الانجليزية التالية، للدلالة على مفهوم اللغة العامة في مقابل اللغة الخاصة: *LGP : language for general purpose* و *Lsp : language for special purpose*

بمعنى اللغة لأغراض عامة، في مقابل اللغة لأغراض خاصة. وأشهر من استعمل هذه التسميات بينون Binon وكورنو Cornu¹⁹، وكذلك شال Challe²⁰ وليمان Lehmann²¹.

وقد استعمل مفهوم اللغات الخاصة في إطار بعض مقاربات اللسانيات التطبيقية مع لورا Lerat في كتاب له يحمل نفس التسمية²². كما استعمل هذا المصطلح، من المتأخرين دولانيو Delagneau في أعماله التي تندرج في إطار المقاربات المعاصرة لهذا المفهوم²³.

إن اللغة الخاصة هي لغة ترتبط أولاً بالحاجة المهنية والعلمية، بالمعنى الواسع للمصطلح. كما ترتبط بشكل واضح في السنين الأخيرة بالتكوينات الجامعية. إنها لغة طبيعية وليست

¹⁷ Jean Dubois et coll., *Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage*, Paris, Larousse, 1994, p. 440.

¹⁸ Juan Carlos Sager, «A practical course», in *terminology Processing*, Amsterdam-Philadelphia, John Benjamins Publishing Company, 1990.

¹⁹ Jean Binon et A. M. Cornu, *op. cit.*, p. 21-52.

²⁰ Odile Challee et Denis Lehman, « Le français fonctionnel entre l'alternative politique et le renouvellement méthodologique », dans *Le Français dans le Monde, Numéro spécial, Publics spécifiques et communication spécialisée*, 1990, p. 74-80.

²¹ Denis Lehman, *Objectifs spécifiques en langue étrangère*, Paris, Hachette, 1993.

²² Pierre Lerat, *Les langues spécialisées*, Paris, PUF, 1995.

²³ Jean-Marc Delagneau, « Langues de spécialité... », *op. cit.*, p. 63.

ولهذه الأسباب، هيمنت الأعمال المتصلة بالقضايا المعجمية على الباحثين، إلى درجة أنه وإلى حدود السبعينات من القرن الماضي مازال هناك التباس بين مفهومي اللغة الخاصة والمعجم الخاص.

2.3. اللغة الخاصة في المقاربات الحديثة

ذهبت ليلى المسعودي إلى أن اللغة الخاصة تستعمل لأجل التواصل بين المتخصصين المنتمين إلى نفس المجال العلمي أو التقني. وفي معظم الأحيان، يكون التواصل مرتبطاً بسياق متخصص. ولا تشكل اللغة الخاصة في هذا المقام لغة منعزلة، بل هي تعتمد على الموارد الصرفية والتركيبية والمعجمية للغة المشتركة، حتى تتمكن من التعبير المتخصص في مجالات النشاط الإنساني¹⁴. فاللغة الخاصة هي عبارة عن استعمال للغة الطبيعية، قصد إدراك المعارف المتخصصة في جوانبها التقنية. ولا يمكن اختزال اللغة الخاصة في اللغة القطاعية أو في المصطلحية؛ فهي تستعمل، بالإضافة إلى المصطلحات، العلامات غير اللسانية، مستغلة الموارد اللسانية للغة الطبيعية¹⁵.

من ثم لا تشكل اللغات الخاصة أنساقاً لسانية صغرى مستقلة، بل تبقى جزءاً لا يتجزأ من اللغات المشتركة التي هي العنوان الظاهر لاستمراريتها، عبر الموارد اللسانية المشتركة. بالإضافة إلى أن اللغات الخاصة تشكل أنساقاً متعددة، تتوفر على مجموعة من الخصائص، من بينها توفرها على:

- علامات غير لسانية.
- لسانيات الكتابة؛ فهي تعتمد على الجوانب الكتابية وعلى اللغة العلمية المكتوبة.
- صرافة (مورفولوجيا) قادرة على احتضان شتى أنواع المورفيمات والافتراضات والصيغ المعقدة.
- تركيب يطابق لغاتها المرجعية، له خصائص تميزه، على مستوى التعبير، عن المفاهيم والأساليب العلمية والخاصة، (كالأساليب الإدارية).
- كلية المفاهيم العلمية والتقنية¹⁶.

وفي هذا السياق، يقترح دوبوا Dubois التعريف التالي للغات الخاصة «تطلق اللغة الخاصة على جزء من النظام اللساني، يحتوي على الخصائص اللسانية لمجال معين. وتقتصر المصطلحية، بشكل عام، باعتبارها أصلاً لهذا المفهوم، على استخراج المفاهيم والمصطلحات الخاصة بمجال

¹⁴ Leila Messaoudi, « langue spécialisée et technolecte... », *op. cit.*, p.132.

¹⁵ *Ibid.*, p. 133.

¹⁶ *Ibid.*, p. 133.

إبان اشتغالهما على اللغة الألمانية المتخصصة، وضع تمييز واضح بين مفهومي اللغة المشتركة *Gemeinsprache* واللغة الخاصة *Fachsprache*.

من خلال تعريف اللغة المشتركة، بمقارنتها ومقابلتها باللغة الخاصة، مستبدلين مفهوم اللغة المشتركة بمصطلح اللغة غير الخاصة *Nicht-fachsprache*¹⁰.

هذه المقاربة التقليدية، ركزت في العموم على تعريف اللغة الخاصة بالألفاظ الخاصة التي تحددها. وقد لاحظ فلوك *Fluck*¹¹ بأن التسميات الموضوعية للغة التخصص، في إطار هذه المقاربات التقليدية، تشكل قطيعة مع استخدام اللغة العامة، وتربط استعمال اللغة الخاصة بجماعة من المتكلمين المنعزلين الذين لا علاقة لهم باللغة المشتركة¹². فاللغة الخاصة، اعتبرت مجموعة صغرى من النظام اللساني، مما ساهم في تقليص مجالها، وحصرها في جزء ضيق من هذا النظام الذي يشبه القوائم العلمية *nomenclatures scientifiques*. هذه المقاربة المعجمية والمصطلحية الضيقة، اختزلت اللغة الخاصة وجعلتها مرادفاً للغة العلمية، وللغة التقنية، وهذا فيه حيف كبير يطال باقي التخصصات الإنسانية والاجتماعية؛ كالآداب والفلسفة والفنون. وحسب دولانيو *Delagneau*، حدد الألماني إشريت *Ischreyt* والفرنسي فال *Phal* ثلاثة مستويات بالنسبة للغة الخاصة: اللغة العلمية النظرية، اللغة التقنية للمعامل واللغة العامة للتوجيه التقني¹³.

وميز فال بين الألفاظ النمطية للغة التخصص، أو اللغة الخاصة للعلوم والتقنية، وبين المفردات المشتركة والمستعملة في التوجيه العلمي، وهي تتموقع بين اللغة المشتركة واللغة الخاصة. هذه المقاربات بُنيت على أسس مغلوطة؛ لأن الأداة المرجعية للغة الخاصة ظلت هي القاموس المتخصص، الذي يفترض فيه جمع مصطلحات مجال معين، على اعتبار أنها تشكل معجماً متفقاً عليه علمياً بين المتخصصين في ذلك المجال، ومعترفاً به من قبل الهيئات العلمية الدولية.

¹⁰ Jean-Marc Delagneau, « langues de spécialité, langues spécialisées : avancée et perspectives de la recherche », dans *les langues modernes, les langues de spécialité*, n° 1, 2005, p. 64.

¹¹ Hans Rudiger Fluck, *langues techniques, introduction et bibliographie* (Texte Allemand original: *Fachsprachen, Einführung und Bibliographie*), Stuttgart, éd. UTB, 1996, p. 11.

¹² Jean-Marc Delagneau, *op. cit.*, p. 65.

¹³ Jean Marc Delagneau, « les langues de spécialité aujourd'hui : approches théoriques et exemples pratiques résultant de l'analyse de corpus », dans Olivier Bertrand et Isabelle Schaffner (dir.), *Le français de spécialité : enjeux culturels et linguistiques*, Palaiseau, éd. École polytechnique, septembre 2008, *op. cit.*, p. 108.

-التقنية Techno: وهي وحدة تعني المجال التقني، في المقام الأول. لكن، يمكنه أن يكون خارج ما هو تقني. ومن ثمة، نستطيع الحديث عن مجالات أخرى كالنقد الأدبي؛ فليس هناك ما يمنع الحديث عن اللُّغَةِ التقنية في مجال كالنقد الأدبي مثلاً.

ويعود استعمال مفهوم اللُّغَةِ التقنية، حسب ليلي المسعودي، إلى سنة 1982 مع الباحث Claude hague، حيث تُعرَّف المسعودي اللُّغَةُ التقنية بأنها «كل مجموعة لغوية متخصصة، سواء كانت مكتوبة أو شفوية»⁷. فاللُّغَةُ التقنية عبارة عن مجموعة لسانية، تتوفر على استعمال معجمي خاص بمجال معين من مجالات الأنشطة الإنسانية، وبالتالي يتضمن هذا المفهوم، أي مفهوم اللُّغَةِ التقنية، المنتوجين الكتابي والشفهي. وبذلك تميز المسعودي بين لغة عادية وشعبية وأخرى علمية. ويمتاز مفهوم اللُّغَةِ التقنية بالحيادية، مقارنةً باصطلاح اللغة الخاصة؛ فهو لا يحيل بالضرورة على ما هو مكتوب أو ما هو شفهي، بخلاف مصطلح اللغة الخاصة الذي يحيل - حصرياً - على اللغة العلمية المكتوبة.

إن الحديث عن اللُّغَةِ التقنية، في هذا السياق، لا يقصد به بأي حال من الأحوال بأنها لغة معينة تقابل اللغة العادية، كما قد يوحي بذلك مصطلح اللغة الخاصة. كما أنها ليست مرادفاً للمصطلحية أو للغة القطاعية. فاللُّغَةُ التقنية هي قدرة على الكلام الكتابي والشفهي بواسطة إجراءات لسانية ناجعة تترجم بقدرة على الفعل في المجالات المتخصصة. ويحتوي هذا المفهوم على جميع الاستعمالات اللسانية داخل الميادين المتخصصة، سواء كانت معيارية أو غير معيارية، كتابية أو شفوية، عامة أو شعبية، تقليدية أو عصرية، تقنية أو علمية أو تكنولوجية⁸.

3. فصل المقاربة التقليدية للغة الخاصة عن النظريات الحديثة

1.3. اللغات الخاصة في المقاربات التقليدية

استعمل مفهوم اللغة الخاصة في المقاربات التقليدية كمقابل للغات العامة أو المشتركة، نظراً لدقة اكتسبها هذا المفهوم من جراء ارتباطه بمجال متخصص. وفي المقابل، كان هناك غياب شبه تام لمحاولة بيان المقصود، بشكل دقيق، من مفهوم اللغة العامة أو المشتركة. وأمام هذا الغموض، حاول سيبايك ودرودز ludomir drozd و wolfgang seibicke (1973:82)،

⁷ Leila Messaoudi, « langue spécialisée et technolécrite quelles relations? », dans Salah Mejri et Gaston Gross (dir.), *Meta*, Montréal, Presse universitaire, vol. 55, n°1, 2010, p. 127-135.

⁸ *Ibid.*, p. 134.

⁹ Jean-Marc Delagneau, *Quel avenir pour les enseignants de langues allemandes de spécialité?*, cahier de l'APLIUT, vol. XXVII, n° 2, juin 2008.

مفهوم اللغة الخاصة يرتبط، إذن، بالاستعمال اللغوي الخاص بمجال علمي أو تقني أو فني. ويرى برنار سبلنير Bernard Spillner أن اللغات الخاصة تتكون من مجموعة من العناصر اللسانية التي تبرز في مقامات معينة إبان التواصل بين المتخصصين في نفس المجال³. لذلك، فإن ارتباط وحدة معجمية بمجال تقني معين يحدده استعمالها في سياق تواصلي ذو طبيعة تقنية⁴، وبالتالي فإن لغات التخصص لا تشكل لغات منعزلة ما دامت تستعمل الموارد اللسانية للغات المشتركة. وهذا الطرح نجده بقوة في بعض النماذج المصطلحية الحديثة التي تذهب إلى أن المقاربة اللسانية للاصطلاح تقوم في أساسها على كون اللغة المتخصصة ما هي إلا إسقاط لنظام اللغة العام في مجال معرفي معين. فما من شك في أن العبارات الاصطلاحية، في بنيتها الصوتية والصرفية والتركيبية يجب أن تخضع لنفس ضوابط اللغة العامة، وكلما خرجنا عن هذه الضوابط يقع التشكيك في سلامة العبارة⁵. فالمصطلحات هي في نهاية المطاف ألفاظ تستعمل في مجالات متخصصة، وبالتالي فإن نفس الآليات اللسانية المولدة للفظ تتحكم في بنيته الاصطلاحية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصور وجود آليات لسانية (صوتية وصرفية ودلالية) خاصة بالمصطلح ولا تخضع لها الكلمة أو اللفظ. ويرى غودان Gaudin في كتابه Pour une socioterminologie⁶، بأن انتشار التكامل المعرفي وسرعة التداول يؤديان إلى تغيرات المعنى ويجعلان الحدود غير مستقرة بين ألفاظ العموم ولغات التخصص.

2. فصل اللغة الخاصة عن اللُّغَةِ التقنية Technolecte

لقد قامت الباحثة ليلي المسعودي، في دراسات متعددة، بالفصل بين مفهومي اللغة الخاصة واللُّغَةِ التقنية، وبينت نوع العلاقات الموجودة بين المفهومين. ففي دراسة لها تحمل عنوان *Langue spécialisée et technolecte quelles relations ?* بينت الأصول الاشتقاقية لمفهوم اللُّغَةِ التقنية technolecte، وذلك بالتمييز بين:

- اللُّغَةِ Lecte: ويقصد بها السمات اللسانية المميزة، المجموعة في بنية معينة، والتي تحيل على طبقة اجتماعية معينة، أو مجموعة متخصصة. فالأمر يتعلق هنا بالاستعمال اللساني الكتابي والشفهي الخاص بمجموعة متخصصة في مجال متخصص.

³ Bernard Spillner, « Pour une analyse syntaxique et stylistique des langues de spécialité du français », dans *les langues modernes*, n° 76, Nancy, éd. APLV, 1982, p.19-27.

⁴ Bernard Quemada, « Technique et langage », dans Gille Bertrand (dir.), *Histoire des techniques*, Col. Encyclopédie de la Pléiade, Paris, Gallimard, 1978, p. 1146-1240.

⁵ الفاسي الفهري، المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، الدار البيضاء، دار توبقال، للنشر، ط. 1، 1998، ص. 138.

⁶ François Gaudin, *Pour une socioterminologie - des problèmes sémantiques aux pratiques institutionnelles*, coll. publications de l'université de Rouen, n° 182, Presses universitaires de Rouen et du Havre, 1993, p. 82.

نحاول كذلك تمييز اللغة الخاصة عن اللغة العامة واللغة المشتركة؛ فلا وجود للغة الخاصة بدون اللغة العامة أو المشتركة. كما نسعى إلى التمييز بين المقاربات التقليدية لهذا المفهوم وما جاءت به النظريات الحديثة. فقد استعمل مفهوم اللغة الخاصة في المقاربات التقليدية كمقابل للغات العامة أو المشتركة. ولا تشكل اللغة الخاصة في المقاربات الحديثة لغة منعزلة بل هي تعتمد على الموارد الصرفية والتركيبية والمعجمية للغة المشتركة. من بين المفاهيم التي نهتم بتحديددها، كذلك، مفهوم المصطلحية في علاقته باللغة الخاصة؛ فمصطلح اللغة الخاصة لا يعني أنها لغة منعزلة، ولكنها لغة مركبة من مصطلحات.

1. فصل اللغة العامة عن اللغة الخاصة

كلما اتسع المعجم، إلا ويمكن أعضاء العشيرة اللغوية من استعمال اللغة حسب ما يقتضيه السياق التخاطبي، وما يقتضيه مجال الاستعمال اللغوي؛ أي استعمال المقال حسب ما يقتضيه المقام. فالمقال والمقام يحيلان على مجالات لسانية متعددة، فقد يقتضي المجال استعمال اللغة المشتركة، أو اللغة المتخصصة، أو التقنية، أو الفنية، دون أن يكون هناك تقابل بين اللغة المشتركة والخاصة، أو على حد تعبير كوسان بيرش Cusin-Berche «لا توجد لغة تقنية في مقابل اللغة المعيارية ولكن هناك استعمالات معجمية خاصة بكل مجال اشتغال¹». فلا وجود للغة الخاصة بدون اللغة العامة أو المشتركة. ولقد بين ذلك جون بينون Jean Binon وكورنو Cornu في معرض حديثهما عن العلاقة بين اللغة العامة واللغة الوظيفية، وأكدوا عدم وجود أي تعارض بين اللغة العامة واللغة الخاصة؛ فالعلاقة بينهما تشبه علاقة اللغة بالكلام، وعلاقة المعجم بالألفاظ. ذلك أن النظام اللساني واحد ولكن كل متكلم يعمد إلى تقطيع مغاير وفقا للموقف التواصل الذي يوجد فيه ووفقا لأغراض الكلام أو لقصده ونيته من العملية التواصلية المحققة برمتها². هذه المقاربة تدخل العلاقة بين اللغة العامة واللغة الخاصة في مسلك تداولي يأخذ بعين الاعتبار المتكلم والمخاطب والقصد والنية أو ما يعرف بالغرض من الكلام. فهذه العناصر تضبط العلاقة المتداخلة بين اللغة الخاصة ومتى تستعمل واللغة العامة ومتى تستعمل داخل نفس العملية التواصلية وداخل نفس المجال؟

¹ Fabienne Cusin-Berche, « De la langue ordinaire au(x) technolecte(s) », dans Jacques Anis et Fabienne Cusin-Berche (dir.), *Difficultés linguistiques des jeunes en formation professionnelle courte. Diagnostic et propositions de remédiation*, Actes du Colloque international de Paris X, Nanterre, 19-21 décembre 1994, Nanterre, Linx, vol.1, 1995, p. 42.

² Jean Binon et Ammoni Cornu, *The Degree of Systematisation to define the Relationship between General and Functional Language*, Michel Perrin, Proceedings of the 4th European Symposium on LSP, Bordeaux, Université de Bordeaux II, 21-52.

فصل المقال في ما بين اللغة الخاصة وشبهاتها من اتصال

عبد العزيز المطاد

جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: تروم هذه الدراسة ضبط مفهوم اللغة الخاصة وتمييزه عن جملة من الاصطلاحات والمفاهيم المشابهة له، نحو اللغة التقنية والمصطلحية، وبعض لغات الاختصاص. فمفهوم اللغة التقنية يمتاز بالحيادية ويحيل على المكتوب والشفهي، بخلاف اللغة الخاصة التي تحيل على اللغة العلمية المكتوبة. كما نتطرق للغة الخاصة وعلاقتها باللغة العامة أو المشتركة، وكذا بالمصطلحية، باعتبار أنها ليست لغة منعزلة، ولكنها لغة مركبة من مصطلحات.

كلمات مفاتيح: اللغة الخاصة؛ اللغة العامة؛ اللغة المشتركة؛ المصطلحية؛ اللغة التقنية

Résumé : Cet article a pour objectif de déterminer le concept de langue de spécialité et le distinguer d'autre termes et concepts apparentés tels que « technolecte », « terminologie », « jargon », voire « langue spécialisée ». Cette typologie nous permet de montrer que l'utilisation du concept technolecte a la qualité d'être neutre. Il renvoie à l'écrit comme à l'oral, contrairement à la langue de spécialité, qui se rapporte à la langue scientifique écrite. Nous analysons la langue de spécialité en rapport avec la langue commune et générale, ainsi qu'avec la terminologie, en montrant que la première n'est pas une langue isolée et qu'elle est une langue formée de termes.

Mots-clés: langue de spécialité; langue générale; langue commune; terminologie; technolecte

نروم في دراستنا هذه ضبط مفهوم اللغة الخاصة وتمييزه عن جملة من الاصطلاحات والمفاهيم المشابهة له، نحو اللغة التقنية والمصطلحية وبعض لغات الاختصاص، كاللغة القانونية والفلسفية ولغة الأعمال. ذلك أن مفهوم اللغة التقنية يمتاز بالحيادية مقارنة باصطلاح اللغة الخاصة؛ فهو لا يحيل بالضرورة على ما هو مكتوب أو ما هو شفهي بخلاف مصطلح اللغة الخاصة الذي يحيل، حصريا، على اللغة العلمية المكتوبة.

مراجع

- بعلي، حفناوي، مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط. 1، 2007.
- سعيد، إدوارد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ت. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط. 1، 2006.
- عليان، جمال، الحفاظ على التراث الثقافي (نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، س. عالم المعرفة، ع. 322، 2005.
- فخر الدين، محمد، موسوعة الحكاية الشعبية المغربية، تقديم محمد السرجيني، مراكش، المطبعة الوطنية، 2005.
- الفيومي، محمد إبراهيم، الاستشراق رسالة استعمار، القاهرة، دار الفكر العربي، 1993.
- يقطين، سعيد، «الثقافة الشعبية والثقافة الوطنية (بحث في التفاعل الثقافي من خلال "ملعبة الكفيف الزرهوني")»، الرباط، المناهل، ع. 64، 2001، ص. 65.
- الوزان، عدنان محمد، الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر، مكة، رابطة العالم الإسلامي، س. دعوة الحق، ع. 14، يناير 1984.

Castries, Henry (de), *les moralistes populaires de l'Islam : les gnomes de sidi Abderrahmen El Mejdoub*, Paris, Ernest Le Roux, 1896.

بالإضافة إلى هذا، نلاحظ أن دو كاستري، يورد رباعية لعبد الرحمان المجذوب، تظهر من خلالها اللهجة الجزائرية بشكل واضح، فينسبها خطأً للمجذوب:

Ta destinée t'appelle et avec elle est le bien. Quand bien même elle serait éloignée, tu y viendras. Ce qui ne doit pas t'arriver s'envolera de tes mains. Tes richesses, à toi depuis longtemps, ne font pas partie de ta destinée.	الكاتبه تنادي ومعها الخير * لو كان من بعيد تجيها والخاطي عليك من يدك تطير * رزقك قبيل ما هو فيها
---	---

كما يمكن أن نؤكد أن كتاب دو كاستري، وخاصة الجانب المتعلق بترجمة الرباعيات، ينزاح عن الروح العميقة للرباعيات. إذ كشفت لنا ترجمة المستشرق الفرنسي، في غالبيتها، عن تفسيرات للرباعيات، أكثر منها ترجمة خالصة لبعدها الإبداعي. مما يتأكد معه أن «الترجمة خيانة للنص الأصلي»، أي خيانة لروح الفكرة في أبعادها الاجتماعية والدينية والفلسفية والتربوية، وانزياح اللغة المترجم إليها بثنائياتها: لغة المبدع/ الذات، ولغة المترجم الآخر، واللغة والفكر، واللغة والسياقات الثقافية، واللغة والمتلقي أو انتظارات المتلقي.

خاتمة

رغم الانتقادات التي يمكن طرحها حول عمل دو كاستري، فإننا نسجل دراية المؤلف الكبيرة، ليس فقط بالثقافة الشعبية في لهجاتها العربية، بل بالثقافة العربية، أيضاً. كما يعتبر من الدارسين القلائل الذين مارسوا نقداً على الرحلات الفرنسية التي غالت في عرضها لثقافات الآخر بشكل غرائبي وعجائبي، غير منسجم مع الواقع.

كما أن هذه الرباعيات مكنت من خلال تيماتنا المتنوعة، ما بين رباعيات عن المرأة والصبر والحكمة والمال والخير والغدر والروح والشر والفقر والكفر والحب والقناعة وغيرها، من التعرف عن قرب على الروح العربية التي كان يبحث عنها دو كاستري، والتي من خلالها يتفاعل العربي مع عالمه الخاص، ومع محيطه الاجتماعي والروحي والسياسي. فتتشكل، بذلك، شخصيته المتميزة في التعبير عن هذا التفاعل بأقوال تحاكي الواقع من خلال تجارب الذات وتجارب الغير. ويغدو معها المشترك الروحي بأفراحه ومآسيه، وبكل ألوانه القزحية، الخيط الرابط والناسج للحممة الرباعيات.

ومع ذلك، نسجل ضرورة التعامل بحذر مع ما يصلنا حول ثقافتنا الشعبية، سواء ما تعلق بفعل الترجمة في نقلها لهذا الإبداع إلى لغات أخرى أو التوثيق العلمي للمادة الثقافية، حيث أدت بعض المناهج المعتمدة في تجميع هذه الثقافة إلى خلط كبير على مستوى المعلومات. كما حصل مع كتاب دو كاستري، الذي بالرغم من حرصه على نقل الروح العربية وقيامه ببحث ميداني، فقد سجلت حول منجزه مؤاخذات متعددة.

لقد أثارت رباعيات عبد الرحمان المجذوب حول المرأة، والمتمثلة في أزيد من عشرين رباعية متنوعة من حيث المضامين والقيمات، اهتمام دو كاستري؛ مما دفعه إلى البحث في ثقافته الشعبية الفرنسية عن ملامح لهذا المشترك الإنساني.

4. إشكالية توثيق مآثرات المجذوب

يؤكد دو كاستري في مقدمة كتابه أنه اعتمد منهجية البحث الميداني في جمعه لمآثرات عبد الرحمان المجذوب، ولذلك قضى سنوات في الجنوب الجزائري. وهذا ما يدفعنا إلى طرح إشكالات أساسية ترتبط بعملية الجمع والتوثيق لمآثرات المجذوب:

- ما هي الأسباب التي حالت دون جمع مآثرات المجذوب من المغرب بحكم أنه مغربي الموطن. فهل للعامل التاريخي دور في ذلك، على أساس أن صدور الكتاب كان سنة 1896، حيث كان المغرب آنذاك مستقلا. في حين أن دو كاستري دخل المغرب بعد الحماية الفرنسية من خلال رحلاته وكذا المهام الكبيرة التي كلف بها من قبل الإدارة الكولونiale بالمغرب.

- لم يتحدث عن المسارات التي وصلت من خلالها مآثرات المجذوب إلى الجزائر، وما اعتري هذا التنقل من تغييرات بالإضافة أو الحذف.

- لم هذا التجاهل للمتن المغربي، وعدم اهتمام الباحث به وتقديم مقارنة بين المتن الجزائري والمغن المغربي.

من هنا وعند قراءتنا للمتن الذي يقدمه دو كاستري، نلاحظ أن ما جمعه الرحالة من مآثرات المجذوب، يعرف مجموعة من الإضافات غير الموجودة بالنسخ الأصلية التي تم تجميعها من قبل المغاربة. إذ نقف على مجموعة من الأبيات، لا ترد في النسخ المغربية، والتي شملت إحياءات جنسية وأوصافا قد تخذش الحياء. ومن ثمة نتساءل هل سقط دو كاستري، بدوره، فيما انتقده لدى الرحالة السياح؟ ومن بين هذه الرباعيات، نسجل:

De mes yeux je l'ai vue, la dévote en prière,
Son rosaire sur la natte.
Elle, trompait son mari
Lui, il disait : que ma femme est pieuse!

بعيني شفت الفقيرة تصلي * وسبحتها فوق الحصرية
هي تخذع في راجلها * وهو يقول مرا فقيرة

L'alouette s'est envolée, elle s'est élevée dans l'air.
Elle s'est posée sur une branche flexible.
Les femmes sont toutes des catins,
À l'exception de celle qui n'est plus capable de rien.

القوبع طارت وتعلت * نزلت على عود راشي
النساء قاع قحبات * غير الي ما طاقت على شي

أجل المقارنة بين مآثورات تتفق في إلصاق صفات قذحية بالمرأة لدرجة أنها أصبحت متداولة وعادية ومصادق عليها من قبل المتلقي:

Les fourberies des femmes sont deux fourberies Je me suis sauvé pour y échapper, Elles se ceignent avec des céraistes, Et s'agrafent avec des scorpions.	بهت النساء بهتين * من بهتهم جيت هارب يتحزموا باللفاع * ويتخلوا بالعقارب
---	--

وهنا يقترح دو كاستري على القارئ (خصوصا القارئ/ الفرنسي الذي لا يعرف اللغة العربية) الاكتفاء بالمعنى العام للرباعية، عوض الوقوف عند التفسيرات الطويلة ومحاولة تحليلها، حتى لا يساهم ذلك في إذابة الفكرة وطمسها، فقد جاء عند الباحث:

Il suffit d'entendre d'une façon très large que, parmi les fourberies des femmes, les unes produisent des blessures comparables à celles de la vipère, les autres vous piquent comme le dard du scorpion¹⁰.

هذا المعنى المرتبط بمكر وخداع النساء، يوضح دو كاستري، بأنه موضوع مفضل في الكتب القديمة، وفي كتابات قديسي الكنيسة أيضا. كما أن كتاب المآثورات الأخلاقية تناولوا هذه التيمة theme في مآثوراتهم لدرجة الابتذال، مثلا نقرأ في كتاب دو كاستري:

Prends garde à l'artifice fallacieux de la femme, dit le livre des proverbes; car c'est un rayon distillant le miel, que les lèvres d'une prostituée, et plus brillant que l'huile est son gosier; mais ses derniers moments sont amers comme l'absinthe et perçants comme un glaive à deux tranchants¹¹.

وجاء في رباعية أخرى لعبد الرحمان المجذوب:

Charmautes seraient les femmes avec leurs sourires, Si leurs sourires duraient toujours! Les poissons nagent dans l'eau ; La femme trouve le moyen de nager sans eau.	مزين النساء بضحكات * لو كان فيها يدومو الحوت يعوم في الماء * هما بلا ما يعومو
--	--

وأورد دو كاستري تعليقه على هذه الرباعية من خلال تقديم أمثال فرنسية قديمة تصب في أفكار ومعاني مماثلة: Les femmes ont des souris dans la bouche et des rats dans la tête: Ce que diable ne peut, femme le fait

¹⁰ Ibid., p. 1.

¹¹ Ibid., p. 2.

الخيام، خصوصاً، النساء اللواتي قد يمدحن أو قد لا يسلمن من ذمه، حسب مزاجه، دون أن يمس غيره الرجال:

من مآثوراته في ذم النساء	من بين أقواله في مدح النساء
يا الجايزات * يا مقورا العمايم ولا راتعين كالبهايم في راسكم شي عناية *	يا الجايزات * انتما قاع زينات * يانخلات رواضي وأنا بغيت غير هذي
O filles qui passez O vous, aux turbans contournés Ya-t-il en vous quelque délicatesses ? Ou bien n'êtes-vous bonnes qu'à paître Comme des bêtes de somme	O filles qui passez, O vous élancées comme les palmiers De mon jardin Vous êtes toutes des belles Et moi je n'aime que celle-là

وفي سياق اشتغال دو كاستري De Castries على رباعيات عبد الرحمان المجذوب، حاول أن يصنفها وفقاً لنوع أدبي محدد، فكانت أمامه عدة خيارات: (1) هزلي: Boutade، (2) الملعيات: Saillies، (3) أقوال مأثورة: Gnomes.

فبعد تمحيص دو كاستري للنوعين الأولين، عمل على إبعادهما. ذلك أنه اعتبر أن الهزلي لا يتضمن ما يكفي من الروحانيات، في حين أن الأملعيات مفردة في الروحانيات. لذا توقف عند لفظ أقوال مأثورة les Gnomes، حيث أشار إلى أن هذا الشعر الوعظي، الذي هو عبارة عن أقوال مأثورة، ظهر قبل الأزمنة الأدبية، وحتى قبل الكتابة. إنه، حسب دو كاستري، أول تجربة شعرية للشعوب التي لم تعرف المرحلة الملحمية. فهو شعر يصعب تحديده، لأنه يتناول جميع المواضيع، ويتوزع على أنواع عديدة: تعليمي/تربوي، حكمي/هجائي/غزلي...

كما توقف الباحث عند بعض الملامح التي قد تسعف في تمييز هذا الشعر عن باقي الأنواع الأخرى، يمكن إجمالها في:

- مقاطع صغيرة، رباعية على العموم
- عدم انتظام الأفكار التي لا يربط بينها سوى رابط رفيع جداً.

3. عبد الرحمان المجذوب والمشارك الإنساني

خص الباحث كتابه Les moralistes populaires de l'Islam بمسرد يتضمن رباعيات المجذوب التي عمل على جمعها. وقد استهله بالرباعيات التي تتناول التيمات الخاصة بالمرأة. ومن ثم عمد الباحث إلى استدعاء الموروث الشعبي الفرنسي، وكذا المشارك الإنساني من

2. المجذوب من خلال كتاب الكونت هنري دو كاستري

لقد أظهر هنري دو كاستري Henry De Castries اهتماما كبيرا بالموروث الثقافي الشعبي المغاربي بصفة عامة، والمغربي على وجه الخصوص. ومن ثمة خص كتابه *les moralistes populaires de l'Islam* ممدخل مهم حاول من خلاله تقريب القارئ من ظروف جمعه لمأثورات عبد الرحمان المجذوب Abderrahmen El Mejdoub :

إن بسلوكولوجيا الفكر العربي الموثقة في لحظتها، وفي الهواء الطلق، أو تحت الخيام، هي التي اشتغلت على ضبطها على امتداد سنوات قضيتها بجنوب الجزائر وأثناء رحلاتي إلى تونس والمغرب، وحيثما حللت اجتهدت في تسجيل ما اعتبرته حدثا مهما وجمعت كل ما سمعته: أغاني الأمهات التي تهدد بكاء الأطفال، وكذا أنشودات الطفلات وهن يلعبن، وأغاني الفلاحين والرعاة، وكذلك الحكم والأمثال والألغاز والمحاجيات⁹.

كما عرض الكاتب مجموعة من المؤلفات العربية التي اهتمت بالحكم والأمثال، ومنها مجمع الأمثال للميداني الذي ترجمه فريتاغ Freytag سنة 1838، وكذا كتاب المستطرف وكتاب أكنم بن صيفي وغيرهم من الكتب العربية. وقد أبان من خلال ذلك على حرفة ومهارة في تتبع اللغة العربية الفصحى وقواعدها اللغوية، قبل أن يمر إلى دراسة الثقافة الشفهية. وفيما يخص التعريف بعبد الرحمن المجذوب، فقد اقتصر دو كاستري على ذكر تاريخ ومكان ازدياده، موضحا أنه لم يكتب دراسة عن تاريخه، وإنما عمد إلى تقديم سيكلوجية المجذوب، التي تبرز من خلال مأثوراته، نظرا لما تكتسيه من أهمية كبيرة. ولذلك توقف عند هذه الحالة العقلية التي انتابت المجذوب، والتي يسمها العرب بـ«الجدبة»، ومنها اشتق لقب عبد الرحمان «المجذوب».

ومن هنا وقف دو كاستري عند لفظتي: المجذوب- الدرويش، مع محاولة تبين تداولها في الشرق. ومن ثم عمل على توضيح أن لفظ «المجذوب» يختلف عن «الدرويش» في الاستعمال عند الشرقيين ولا يحملان نفس الدلالات؛ وإن كانا يشتركان معا في هذه الوضعية السيكلوجية التي تجعل المجذوب والدرويش يشتركان في هذه الحالة ما بين نصف مزاجي/مجنون ونصف عاقل/حكيم. كما يشتركان في عدم اهتمامهما بالعالم الخارجي/المادي وانتقاده باستمرار. وقد أضاف دو كاستري في وصفه للمجذوب بأنه شخص يلبس بشكل عام لباسا رثا ويضع عمامة ويحمل عصا، ويتنقل بين المدن والدواوير. كما يتقدم للسكنة بصفته «ضيف الله» l'hôte de Dieu كي يقضي ليلته في خيمة من الخيام ويحظى بكامل الحرية في التحدث مع ساكني

⁹ Ibid, p. 2-3.

وبالرغم من هذا البعد الإيجابي الذي حملته الدراسات الاستشراقية، فهذا لم يحجب الجوانب السلبية التي وقف عليها العديد من الدارسين والباحثين والمتمثلة في تمكين الحضارة الغربية المسيحية المادية من السيطرة على الحضارة الإسلامية وإلغاء دورها في الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية، وكذا تشكيك المسلمين في دينهم⁴. كما أبرزت هذه الدراسات حرص الغرب على فهم حقيقة الشعوب غير الغربية وفق رؤيته الاستعمارية، مع محاولة تزييفها وتعرضها للضياع⁵. ويذهب البعض إلى أن الاستشراق صورة من السيطرة الأوروبية والأمريكية على الشرق أكثر منه خطابا علميا، كما يقدم نفسه في صورته الأكاديمية أو البحثية⁶.

وفي هذا السياق، جاءت دراسة المستشرق الفرنسي كونت هنري دو كاستري Comte Henry de Castries في مجال الثقافة الشعبية، حيث انكب على تحليل ودراسة آليات اشتغال المستشرقين على التراث الشعبي للأمم التي كانت تحت السيطرة الاستعمارية، الفرنسية على وجه الخصوص. ومن ثم عمل على انتقاد منشورات الرحالة الفرنسيين، المستعجلين منهم أو الرحالة السياح، الذين لم يتمكنوا من إطالة رحلتهم لفهم عادات وتقاليد الساكنة. وهنا يشير دو كاستري إلى بعض الأخطاء التي اشترك فيها بعض الرحالة الهواة في تعاملهم مع بعض العادات والتقاليد من باب الخيال المحض. كما ركز على المنشورات التي تتميز بطابع السخرية في تقديمها للآخر، حيث وسمت طريقة عيشه وأسلوبه في الحياة اليومية بالغرابة. هذا البعد الغرائبي الذي طبع هذه المنشورات والمصاحب بتعابير مستخفة وتنكيتية، يؤشر على ملاحظات محدودة وسطحية⁷، بل على جهل الرحالة الذي يدون ملاحظاته حول هذه العادات دون الوقوف عليها والنظر إليها من منظور الساكنة الخاص «إننا ننقل، رغما عنا، وبطريقة غير واعية، متأثرين بكل ما هو شرقي، ومن خلال حالتنا الروحية كمتحضرين آريين، حدثا لا قيمة له عند أي سامي (sémites)، في حين يأخذ عند الملاحظ الأوروبي طابعا مهما، ودلالة كبيرة؛ وهذا خطأ»⁸. وفي مقابل ذلك، استشهد دو كاستري بالكاتب والفنان التشكيلي فرومنتان Fromentin الذي استطاع بحسه الفني النفاذ إلى هذه الروح العربية وهو الأمر الذي لم يتمكن منه باقي الرحالة.

الشعبية والثقافة الوطنية (بحث في التفاعل الثقافي من خلال «ملعبة الكفيف الزهوني»، الرباط، المناهل، ع. 64-65، 2001؛ فخر الدين محمد، موسوعة الحكاية الشعبية المغربية، تقديم محمد السريغني، مراكش، المطبعة الوطنية، 2005. ⁴ عدنان محمد الوزان، الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر، مكة، رابطة العالم الإسلامي، س. دعوة الحق، ع. 14 يناير 1984، ص. 197.

⁵ محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، القاهرة، دار الفكر العربي، 1993، ص. 8.

⁶ إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ت. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط. 1، 2006، ص. 50.

⁷ Comte Henry de Castrie, *op. cit.*

⁸ *Ibid.*, p. 2.

نشر الرحالة والمستشرق الفرنسي كونت هنري دو كاستري¹ Comte Henry de Castries سنة 1896 كتابا حول المأثورات الشعبية لعبد الرحمان المجذوب بعنوان *les moralistes populaires de l'Islam*². حاول الكاتب من خلاله التعرف على الروح العربية والأبعاد السيكولوجية للشخصية العربية، وذلك باستنباطها من الرباعيات التي رصد المجذوب من خلالها الأوضاع العامة للحياة التي يحياها العربي في تقلباتها وألوانها الاجتماعية والدينية والتربوية. وقد عمد كونت هنري دو كاستري إلى التنقل مباشرة إلى الجنوب الجزائري بحثا عن رواة يأخذ عنهم ما يحفظونه من رباعيات عبد الرحمان المجذوب، دون الاعتماد على الكتب والمصنفات التي اهتمت بذات الموضوع. فما هي المنهجية التي اعتمدها الباحث في جمع وتوثيق هذه النصوص خاصة وأنه عمد إلى جمع مادته من رواة جزائريين؟ وما مدى دقة توثيق المستشرقين لثقافتنا الشعبية؟ ونجاعة الخلفية المنهجية المعتمدة لإعادة كتابة هذه الثقافة؟

1. الدراسات الاستشراقية والثقافة الشعبية المغربية

شكلت مدارس الاستشراق قاعدة أساسية لإنتاج معرفة مرتبطة بالشرق تشمل الدين والآداب والجغرافيا والسياسة والتاريخ وعلوم أخرى. وقد مكنت هذه الدراسات الباحثين من العديد من المخطوطات، مع العناية بها على مستوى الحفظ والفهرسة. كما ساهمت في كتابة أحداث مهمة من تاريخ الشعوب التي لم يدونها التاريخ الرسمي، دون أن ننسى اهتمامها بالتراث الشعبي وتدوينه.

كما كان تأثير الدراسات الاستشراقية قويا على الاهتمام بالثقافة الشعبية، حيث احتلت موقعا مهما بين الأبحاث والدراسات، وبدأت تنمحي تلك التراتبية بين ثقافة عالمة وأخرى غير عالمة (هامشية- شعبية). فانصبت الدراسات على إعادة قراءة الموروث الثقافي الشعبي، المتعدد والمختلف والمتنوع، من أجل إعطائه بعده الحضاري والإبداعي والإنساني، حيث «يعتبر الحفاظ على المصادر التراثية الثقافية أمرا في غاية الأهمية؛ لأن هذه المصادر تكون جزءا مهما من ذاكرة الأفراد والأمم لما تحتويه من قيم ثقافية»³.

¹ هنري دو كاستري (1850-1927) مقدم في الجيش الفرنسي، عاش في الشمال الإفريقي ردها من الزمن، من مؤلفاته: مصادر غير منشورة لتاريخ المغرب 1950، الأشراف السعديون 1912، رحلة هولندي إلى المغرب 1926.

² Comte Henry de Castries, *les moralistes populaires de l'Islam: les gnomes de sidi Abderrahman el mejdoub*, Paris, Ernest Le Roux, 1896.

³ جمال عليان، الحفاظ على التراث الثقافي (نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، س. عالم المعرفة، ع. 322، 2005، ص. 7؛ انظر في هذا السياق: سعيد يقطين، «الثقافة

عبد الرحمان المجذوب في الدراسات الاستشرافية من خلال كتاب كونت هنري دو كاستري

فاطمة كدو

جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: اهتمت الدراسات الاستشرافية بعدة موضوعات في مرحلة محددة من التاريخ الاستعماري، ومنها دراسة هنري دو كاستري الذي أنجز كتابا بعنوان *Les moralistes populaires de l'islam*. حول رباعيات عبد الرحمان المجذوب المتصوف المغربي. ولإنجاز عمله هذا، انتقل إلى الجنوب الجزائري ملاحقا الرواة الذين تحتفظ ذاكرتهم بمأثورات المجذوب. ورغم رحلاته إلى تونس والمغرب، لم يذكر أنه جمع من هذين البلدين أي مادة بخصوص الرباعيات.

كلمات المفاتيح: الدراسات الاستشرافية؛ الثقافة الشعبية؛ الرباعيات؛ أقوال مأثورة؛ المجذوب؛ دو كاستري؛ الرحلة؛ الترجمة؛ الروح العربية.

Résumé : Les études orientalistes se sont intéressées à des sujets variés, à une époque précise de l'histoire coloniale. Parmi ces études, on cite le livre du Comte Henry de Castries, qui porte sur la culture populaire marocaine « les moralistes populaires de l'islam: les gnomes de sidi Abderrahmen El Mejdoub ». Il a opté pour une méthodologie lui permettant la rencontre des conteurs au sud de l'Algérie sous les tentes, pour recueillir les gnomes d'El Mejdoub. Malgré son voyage en Tunisie et au Maroc, il ne mentionne pas sa collecte des quatrains dans ces deux pays.

Mots-clés : études orientales; culture populaire; gnomes; El Mejdoub; De Castries; voyage; traduction; esprit arabe

كل هذا وذاك، إجراءات علوم اللغة والعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، وكذا المسائل الأدبياتية المرتبطة بها. ومن هذا المنظور، يحتفظ الخطاب الأدبي الشفهي وخطابات معرفية أخرى، بمكانة متميزة ضمن المباحث والتخصصات القائمة على رؤية تكاملية للمعرفة.

مراجع

- أبو الليل، خالد، «التاريخ الشفهي: الأصول النظرية الغربية والتجليات العربية»، الكويت، عالم الفكر، ع. 2، مج. 43 (قضايا فكرية)، 2014، ص. 241-297.
- بلكامل، البيضاء، مظاهر اقتصادية من خلال فسيفساء الشمال الإفريقي، الرباط، مطبعة فيديرانت، 2003.
- بين أموس، دان، «مدخل لدراسة الأدب الشعبي- خطاطة أولية -»، ت، عبد العزيز اعمار، الرباط، المناهل، ع. 64- 65 (الأدب الشعبي المغربي)، 2001، ص. 169-207.
- تودوروف، تزفتان، مدخل إلى الأدب العجائبي، ت. الصديق بوعلام، الرباط، دار الكلام، 1993.
- جوهري، أحمد، «كرونتوب المسخ: بين حمار أبولوس وبقرة الهرادي»، الرباط، المناهل، ع. 84، 2008.
- حرب، طلال، معجم أعلام الأساطير والخرافات، دار الكتب العلمية، لبنان، 1999.
- ديرلاين، فردريش فون، الحكاية الخرافية، ت. نبيلة إبراهيم، القاهرة، مكتبة غريب، 1987.
- ستروس، كلود ليفي، الأنثروبولوجيا البنيوية، ت. مصطفى صالح، دمشق، وزارة الثقافة السورية، 1977.
- سكونتي، أحمد وآخرون، ساحة جامع الفنا: تراث ثقافي غير مادي لمدينة مراكش والمغرب والإنسانية، الرباط، منشورات المكتب المتعدد البلدان لليونيسكو، د. ت.
- شاكر، عبد الحميد، «الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي»، الكويت، عالم المعرفة، ع. 360، 2009.
- شقرون، عبد الله، الأدب الشعبي على أمواج الإذاعة، تونس، منشورات اتحاد إذاعات الدول العربية، 1987.
- Jolles, André, *Formes simples*, Paris, éd. Seuil, coll. poétique, 1972.
- La Fontaine, Jean (de), *Fables*, Paris, éd. Garnier-Flammarion, 1966.
- Messaoudi, Leila, « Le conte Marocain du Nord-Ouest. Traits socio-culturels », dans Leila Messaoudi (dir), *Aspects de la culture orale au Maroc*, Kénitra, Université. Ibn Tofail (RENACLO) avec le soutien du CNRST, 2005, p 61-78.
- Meunier, Mario, *La légende dorée des Dieux et des Héros*, Paris, éd. Albin Michel, 1990.
- Weber, Edgar, *Imaginaire arabe et contes érotiques*, Paris, éd. L'Harmattan, 1990.

في ليلة واحدة؛ رحلة بلا نهاية؛ صراع مع وحش...، ثم العدالة والسعادة (الظفر بكنز؛ الزواج من أميرة؛ التربع على عرش مملكة...). والحال أن هذا السلوك اللفظي في الخطاب الحكائي، هو في نفس الآن مشبع بقوة تدمر وتعطل الحقيقة «اللا أخلاقية» بطريقة أو بأخرى، ليدل هو أيضا على خاصيتي المفارقة والعجائبية في زمان ومكان وشخصيات الحكاية.

على سبيل الختم

يتأكد عبر تفصلات هذه الدراسة أن النباش في حفريات النصوص الشفهية المحلية/ المهاجرة (أساطير؛ حكايات؛ ملاحم؛ سير...) وما تحمله هذه الذخائر من أحداث تاريخية وقضايا اجتماعية، قد يسعف الباحثين في مختلف حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية، في رصد مختلف مظاهر حياة الشعوب والثقافات، باعتماد الوثيقة الشفهية كمصدر مساعد لباقي المصادر والشواهد الأخرى. فإذا كانت الإلياذة والأوديسا لهوميروس تعدان من أقدم المصادر الشفهية في التأريخ لليونان، حيث تروي الملحمة الأولى أحداث حصار مدينة طروادة، وتحكي الثانية ما حدث بعد سقوط المدينة الأسبوية الواقعة على شاطئ البوسفور، فإن حفريات حكاية قفطان الحب المنقط بالهوى، تسجل وجود آثار حضارات إنسانية تعاقبت على بلاد المغرب، حاملة إليه أنفاسا يونانية ورومانية ثم عربية إسلامية. لا تلبث أصول هذه الحكاية المغربية أن تسكن نصوص إبداعات إنسانية أخرى منها، الموسيقى والرقص والقصة والمسرح. مما يستدعي معه تضافر جهود وتكامُل معرفة لإضاءة مساحات مختلفة وراء هذه النصوص الشفهية المهاجرة باستمرار.

كما أن الاشتغال على قوانين التشكل والمبادئ المكونة لبنية هذه النصوص، وغيرها من المقاربات التحليلية، قد يسلط الضوء على الثابت والمتكرر في بنية الخيال البشري بمختلف تجلياته، مهما اختلفت الثقافات وتباعدت الجغرافيات.

ويبقى على البحث، في إطار تكامل معرفي، أن ينقب في المأثور الشفهي بشكل منظم وممنهج، حتى يجعل من النص الشفهي مصدرا وشاهدا أصيلا. لا بد للبحث التكاملي من الرجوع إلى معطيات هذه النصوص الشفهية لفهم الحياة اليومية وتاريخ المعارف والتقنيات، وفهم السيكلوجيات والسلوكات الجماعية. إذ النص المكتوب قد يحجب، عن قصد أو غير قصد، أشياء كثيرة، بسبب عقلنته، في حين يمنح التنقيب الشفهي إمكانية إعادة بناء الظروف والملابسات الاجتماعية والتاريخية، وتوضيحها، إنه يبرز حوافز مغايرة كمكانة المتخيل في الفكر والفعل والتوثيق.

وعليه، فإن التنقيب والنباش في النصوص الشفهية، يفترض حمولة معرفية، وفنا في التقسيم والترتيب. إذ لا مناص من أن يقابل الباحث بين النص الشفهي والأرشيفات المكتوبة والشواهد الأخرى (مخطوطات؛ مدونات؛ لقي؛ نقائش؛ فسيفساء...)، وعلى الباحث أيضا أن يضيف إلى

2.2.3. مأساوية الواقع بين المفارقة والعجائبي

تتحقق ذهنية الحكاية من خلال فعلين أساسيين هما: وقوع المأساوي ثم زواله. ويبدو هذا واضحاً في ترتيب الوقائع والأحداث، حيث النهاية تلائم إحساسنا بالحدث العادل السعيد، فالخطأ والاحتقار والقسوة... كلها أشياء تظهر في الحكاية لتزول شيئاً فشيئاً، ويتم تفكيكها وفق رغبتنا الأخلاقية البسيطة التلقائية (الفتاة الفقيرة المقهورة تنتهي بالزواج من الأمير، والشاب الفقير الشجاع يقتحم المخاطر ويتزوج الأميرة...). بدخولنا عالم الحكاية، ندمر عالم الواقع «الأخلاقي». وهذا التدمير هو ما يفسر سمة المفارقة والعجائبي كأهم خصائص النص الحكائي، حيث تغدو صدمة المفارقة ولغز العجائبي الإمكانية الوحيدة للتأكد من إيقاف وتعطيل «لا أخلاقية» الواقع. ومن ثم لا يمكن فهم خطاب الحكاية إلا من داخل هاتين الآيتين وطريقة اشتغالهما ضمن آليات أخرى مكونة لنفس الخطاب. إن الظلم والتسلط والاستقواء والاستعباد... كلها أحداث أو مشاهد أو مقاطع مأساوية داخل عالم الحكاية، يتم تعميقها لإثارة إحساسنا بضرورة رفعها أو تدميرها أو تعطيلها لكي تتحقق العدالة والمحبة والسعادة...

وتتمظهر آلية المفارقة والعجائبي من خلال سمة أخرى تميز خطاب الحكاية، ويتعلق الأمر بسير الأحداث «بعيدا جدا عن الهنا والآن». ويمكن، كذلك، تفسير هذه الخاصية الحكائية بنفس نسق فكرة «الاستعداد الذهني»، حيث المكان هو «لا مكان»، والزمان هو «دائماً وأبداً». فكلما لامست الحكاية مكاناً جغرافياً معيناً أو زماناً تاريخياً محدداً، إلا ويفقدها ذلك قوتها ويقربها من الواقع «الأخلاقي»، وبالتالي يبدد فيها عنف المتخيل وسلطة العجائبي. لذا نجد كل الثقافات الشفهية الخالصة، تلج عالم الحكاية بصيغ مسكوكة/ مألوفة، من قبيل «كان حتى كان، حتى كان الله في كل مكان، حتى كان في قديم الزمان».

3.3. السلوك اللفظي

ويعتبر من المبادئ الأساسية المكونة للخطاب الحكائي، بحيث يظهر في الحكاية بقوة، وتنظم الأحداث من خلاله بطريقة محكمة. ولا يتعلق الأمر هنا بالحديث عن الدافع أو الحافز Le motif الذي درج العديد من الدارسين على تصنيف الحكايات بحسب طبيعته. فالحكاية هي حدث بتراجيديته وعوائقه وارتقائه نحو العدالة وخاتمته الأخلاقية. وإذا أفرغنا الحكاية من هذا الحدث، فلن يبقى منها إلا هيكل أجوف خال من كل دلالة وغواية. كما أن هذا الحدث في مجموعته يؤلف شكل الحكاية ويتجزأ، بدوره، إلى وحدات غير قابلة للتجزئة. هذه الوحدات المحملة والملفحة، يتم إدراكها كأنظمة لفظية موزعة داخل النص المحكي.

إذا كان السلوك اللفظي في الملحمة أو السيرة، مشبع بالورع والصلاح والمعجزة والكرامة... فإنه في الحكاية محمل بالظلم (الاحتقار؛ العوز؛ الاستغلال...) والتراجيديا (عزل كيس حبوب مختلفة

تبعث سلسلة الوقائع والمغامرات التي تحفل بها حكايات الشعوب، لدى المتلقين وخصوصاً منهم الأطفال، الرغبة في مشابهة أولئك الذين غدوا سعداء بفضيلتهم، والخوف من التعرض للعواقب التي تصيب الأشرار بسبب شرورهم. فأول «استعداد ذهني» يحدد شكل الحكاية، هو الوازع الأخلاقي الذي يتجاذبه صراع أزلي بين: الخير والشر؛ الفضيلة والرذيلة؛ المحبة والكراهية؛ السعادة والشقاء؛ العدالة والظلم...

وقد يحدث ألا تختص بعض شخصيات أو أحداث الحكاية حقاً بسمات أخلاقية. ورغم ذلك قد تبعث فينا نوعاً من التعاطف، لأننا من خلالها، نرضي، في نفس الآن، نزوعنا نحو الغرائبي وحبنا للحقيقي/ الطبيعي. فالأشياء تقع في عالم الحكاية تماماً كما نرغب نحن، أو كما ينبغي لها أن تقع في عالمنا الواقعي. إن فكرة ضرورة حدوث الأشياء داخل الكون وفق رغبتنا وأفق انتظارنا، كانتصار العدل على الجور مثلاً، هي فكرة محورية في عالم الحكاية، لأنها تمثل جوهر «الاستعداد الذهني» لهذا الشكل الشفهي.

غير أن السمات الأخلاقية كاستعداد ذهني في الحكاية، عند كل الشعوب والثقافات، لا تحمل بعداً فلسفياً بمفهوم كانط المتمثل في الإجابة عن السؤال «ما الذي ينبغي أن أفعل؟»، وفي تحديد قيمة أفعال وتصرفات البشر، وإما هي سمات أخلاقية تروم الإجابة عن السؤال «كيف ينبغي للأشياء أن تقع داخل الكون؟». لا يتوجه حكم السمات الأخلاقية نحو الأفعال والتصرفات، بل نحو الوقائع والأحداث. إنها بتعبير جول²⁶، سمات أخلاقية بسيطة وتلقائية/ «ساذجة»، تنقشها اللغة على جدار الحكاية، حكمها انفعالي وعاطفي مطلق، وليس فنياً أو نفعياً أو دينياً قطعياً. ذلك لأن مجريات الأحداث والأشياء في الحكاية، تتبع نظاماً يستجيب كلياً لحاجات الأخلاق البسيطة كالخير والمحبة والعدالة... حسب حكمنا الانفعالي المطلق. ومن هنا يبدو جلياً التعارض الجذري بين عالم الحكاية المتخيل، وعالم الكون الواقعي، خصوصاً، عندما لا يعترف، في هذا الأخير، للأشياء بوجودها كقيم كونية رفيعة، وكذلك عندما تتناقض فيه الأحداث مع حاجات أخلاقنا البسيطة ونعاني من «لا أخلاقيات». وبهذا يمكن القول إن ذهنية الحكاية تمارس تأثيرها في اتجاهين: فهي من جهة، تستوعب الكون كواقع ترفضه ولا يتلاءم مع رؤيتها الأخلاقية للحدث، ومن جهة أخرى، تقترح وتبني عالماً آخر يرضي كل حاجات الأخلاق البسيطة التلقائية.

ويصبح العالم الواقعي المرفوض داخل الحكاية، دائماً من منظور عاطفي انفعالي، عالماً مأساوياً تراجيدياً، يتمظهر عندما لا يقع الذي ينبغي أن يقع أو عندما يقع الذي لا ينبغي أن يقع. المأساوي، بصيغة أخرى، يتمثل في جثوم عالم صعب يتحرك ضداً على أخلاقنا البسيطة اتجاه الحدث²⁷.

²⁶ André Jolles, *op. cit.*, p. 190.

²⁷ *Ibid.*, p. 191.

وخصائصه الكونية.

1.3. اللغة

تظل اللغة في الحكاية متحركة وشمولية في كل مرة وحين، حيث يستطيع كل منا أن يحكي الحكاية «بكلماته الخاصة به». وهذا قد يوحي ببعض «الحقيقة» من جهة، ومن جهة أخرى، تصبح لغة الحكي قوة تتيح لنص الحكاية تحققاً قويا ومتجدداً مع كل إنجاز فردي، مرتبط بلغة وبذكاء ودهاء الراوي، لكن دون حذف أو تغيير في بنية الحكاية ونظام برنامجها السردية، حفاظاً على سلامة جوهرها. ويشير كلود ليفي استروس Claude Levi Stross لنفس المبدأ في معرض حديثه عن الجانب القابل للاستبدال والجانب غير القابل للاستبدال في الأسطورة²⁴.

ومن خلال اللغة، أيضاً، تحتفظ عناصر أخرى داخل الحكاية مثل الشخصيات (أميرة) والأمكنة (قصر) والأحداث (رحلة)، بحركيتها وشموليتها عند كل إنجاز حكاية متجدد.

2.3. الاستعداد الذهني

إذا أمعنا النظر في حقل الحكاية، فسوف نلاحظ أحداثاً عديدة تنجزها كائنات فصيلتها مختلفة (إنس؛ جن؛ حيوان؛ نبات؛ ماء؛ تراب...)، غير أن هذه الكائنات تبدو متعاقبة فيما بينها بطريقة أو بتوليفة معينة في عرض الأشياء. والحال أننا لو حاولنا سلوك نفس الطريقة في عالمنا الواقعي لكان ذلك مستحيلاً، ليس لأن الأحداث هي بالضرورة عجابية في الحكاية وليست كذلك في الكون، ولكن لأن الأحداث كما نجدها في الحكاية لا يمكن استيعابها إلا داخل الحكاية، بصيغة أخرى، يمكن للكون أن يُستوعب داخل الحكاية، ولا يمكن للحكاية أن تُستوعب في الكون.

الحكاية تواجه الكون جهراً، تحوله وتمتصه. ورغم تحوله، يحتفظ الكون داخل الحكاية بحركيته وشموليته وتعددته. وعليه فإن الكون في الحكاية يتحول بحسب مبدأ «الاستعداد الذهني» الخاص بشكل الحكاية²⁵، وأول مظاهر هذا «الاستعداد الذهني» هناك:

1.2.3. الأخلاق / البسيطة

تتميز الحكاية عن غيرها من الأشكال الشفهية، بسمة المحكي الأخلاقي، إذ تُجازى الفضيلة وتعاقب نزعة الشر. فكل الحكايات تهدف إلى إبراز طائفة الأمانة والصبر والفطنة والمثابرة... وعاقبة من يحدد عن هذه القيم الأخلاقية الإنسانية.

²⁴ كلود ليفي-ستروس، الأنثروبولوجيا البنيوية، ت. مصطفى صالح، دمشق، وزارة الثقافة السورية، 1977.

²⁵ يعرض أندري جول André Jolles (في كتاب *Formes simples*) مبدأ الاستعداد الذهني المميز والمحدد لكل شكل شفهي.

وفسيفساء رومانية-إغريقية أو غيرها من ثقافات ومخيل العهد القديم.

ومن هنا يمثل البحث في درر الأدب الشفهي، احتفاء بإنسانية الإنسان في خصوصيته ومشاركته الكوني. مما حذا بمنظمة اليونسكو إلى العناية بهذا الأدب بأن صنفته تراثا ثقافيا إنسانيا غير مادي، تجب صيانتها والمحافظة عليه. كما اعتبرت شعراءه ورواته كنوزا بشرية حية متنقلة، تجب رعايتهم ودعمهم وضمان امتدادهم بالتعلم والتلمذ عليهم. وصاغت في مؤتمرها العام الثاني والثلاثون بتاريخ 17 أكتوبر 2003، اتفاقية تتضمن إطارا قانونيا دوليا خاصا، بحماية هذا الأدب وإبرازه وتدبيره، كرافعة لتنمية بشرية مستدامة تجمع بين: الثقافي والسياحي، والبيئي والتاريخي والأدبي والاجتماعي، والنفسي والتربوي والتعليمي¹⁹. وهذا ما يؤهل الأدب الشفهي، بهجرة أشكاله وامتداد مخيله، لأن يكون منبئا إنسانيا خصباً لتلاقي الثقافات الإنسانية وتساكنها، من جهة ولتداخل المعرفة وتكاملها من جهة أخرى.

3. خطاب الحكاية: قوانين التشكل

في سياق البحث عما هو مشترك بين الإنسانية من شروط تناسل المحكي وامتداده عبر اللغة والخيال، نقترح إضاءة نظرية تقارب الثابت والمتكرر في بنية المتخيل البشري. وذلك من منظور ثقافي «تنميطي» - Archétypale²⁰ «يرجع إلى أطروحة أندري جول «الأشكال البسيطة»²¹»، حيث يذهب إلى اعتبار أنواع الأدب الشفهي تعبيرات فعلية أولية لحالات ذهنية، ويسلم بكون الذهن البشري يهتم بالقدس وبالأسرة وبماهية الكون وبالتجربة المتراكمة. إن الذهن، حسب جول، مسكون بالاختيار بين المبادئ الأخلاقية، وبالإنتاج الفعلي للأحداث، وبتعطيل وإيقاف الحقيقة الأخلاقية، وبالتالي فإن «الأشكال البسيطة» عند جول، تشكل صياغة لسانية أولية لهذه المواقف، وعليه تصير الأسطورة والسيرة والحكاية... تمثيلات فعلية للحالات الذهنية سالفة الذكر. وبتعبير أفلاطوني، فإن أنواع الأدب الشفهي، حسب جول، هي محاكاة للانفعالات الذهنية البشرية²².

واستنادا إلى مفهوم قوانين التشكل²³ Lois de formation التي يقترحها أندري جول في أطروحته حول الأشكال البسيطة، نعرض في ما يلي لبعض المبادئ المكونة لخطاب الحكاية في بنيتها الثابتة

¹⁹ أحمد سكوتني وآخرون، ساحة جامع الفنا: تراث ثقافي غير مادي لمدينة مراكش والمغرب والإنسانية، الرباط، منشورات المكتب المتعدد البلدان لليونسكو، (د. ت).

²⁰ دان بين أموس، مرجع سابق، ص. 169.

²¹ André Jolles, *Formes simples*, Paris, éd. Seuil, coll. poétique, 1972

²² دان بين أموس، مرجع سابق، ص. 169.

²³ André Jolles, *op. cit.*, p. 185.

بصيغتها الرومانية، وبرواية أبوليوس دائماً، عند فردريش فون ديرلاين Friedrich Von Derleyen في مؤلفه الحكاية الخرافية *Das Marchen*.¹⁵

وتجدر الإشارة إلى أن أبوليوس الذي حمل الأسطورة الإغريقية إلى ثقافة ومتخيل الرومان، كان مسقط رأسه، بين سنة 125م ونهاية القرن الثاني للميلاد، ببلاد المغرب القديم، بجهة حدودها الأركيولوجيون في موقع قسنطينة الجزائر. وقد عرف ببيانه وفلسفته وعلمه، وكان كثير التجوال ببلدان العالم القديم، خاصة اليونان وإيطاليا القديمة وموريطانيا الطنجية (شمال إفريقيا).

وقد أشارت الباحثة بلكمال البضاوية في دراستها الأركيولوجية حول فسيفساء شمال إفريقيا¹⁶، إلى وجود فسيفساء كوبيدون وفينوس وجوبيتر وغيرها من فسيفساء الآلهة الرومانية التي ورد ذكرها في أساطير الرومان والإغريق، مما يفسر وصول هذه الأساطير وانتشارها في شمال إفريقيا. ويتأكد معه، أيضاً، أن أبوليوس قد حمل معه، ضمن ذخيرته أو «ثقافته السائلة»، إلى بلاد المغرب، مسقط رأسه، أسطورة إروس وبسيشي بصيغتها الرومانية، ذات الأصل الإغريقي الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد. فتأخذ هذه الأسطورة صيغة حكاية مغربية، لغة وطقوساً وشعائر، مع توالي الزمن وامتداد المتخيل العربي الإسلامي القادم من الشرق عبر حكايات «ألف ليلة وليلة».

كذلك كتب الأديب الفرنسي جون دو لا فونتين Jean De La Fontaine، سنة 1669 قصته *Les Amours de Psyché et de Cupidon*¹⁷، التي استوحاها من أسطورة إروس وبسيشي (أصل حكاية «قفطان الحب المنقط بالهوى»). كما ضمنها مؤلفه *Les Fables* في جزئه الثاني عشر، تحت عنوان *L'Amour et la Folie*.¹⁸ بالإضافة إلى أن هذه الأسطورة كانت موضوع مسرحيات راقصة Ballet ملويير (ق.17) وكورني (ق.17)، وكذا سمفونية موسيقية للموسيقار سيزار فرانك (ق.19).

لقد عرف الإنسان المغربي على امتداد جغرافيته وعبر مراحل تاريخه، ملتقى حضارات موعلة في القدم، أقبلت على أرضه من إفريقيا والشرق والبحر المتوسط. سكن هذه الأنفاس وسكنته، فلفظها رموزاً وخيالات تنضح بالخصوبة والتنوع. وعسى أن يمدنا البحث في الدراسات الأدبية الشفهية والتاريخية الأركيولوجية بنصوص حكاية مغربية أخرى، قد ترجع أصولها إلى أساطير

¹⁵ فردريش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية، ت. نبيلة إبراهيم، القاهرة، مكتبة غريب، 1987، ص. 184.

¹⁶ البضاوية بلكمال، مظاهر اقتصادية من خلال فسيفساء الشمال الإفريقي، الرباط، مطبعة فيديرانت، 2003.

¹⁷ Jean de La Fontaine, *Les amours de Psyché et de Cupidon*, éd. Barbin, 1669. Cité dans Jean de La Fontaine, *Fables*, Paris, éd. Garnier-Flammarion, 1966. p. 7.

¹⁸ Jean de La Fontaine, *Fables*, ..., op. cit., 1966, p. 324.

وكانت صغراهن تدعى بيسيثي بمعنى النفس أو الروح، ولروعة جمالها غارت منها أفروديت¹¹ Aphrodite ربة الجمال والإغراء، فالتهمت من ابنها إروس إله الحب، أن ينتقم لأمه ويلهب الفتاة حبا في أحقر رجل على وجه الأرض. يغادر إروس جبل الألب ليقيم مهمته، لكنه ما أن رأى بيسيثي حتى أغرم بها. فحملها إلى قصره، وتزوجها وخالف، بذلك، أمر أمه. وكان محظورا على بيسيثي أن ترى وجه زوجها أو تتعرف إليه. وتوسوس الأختان لبيسيثي بأن تنتهك المحظور، فرما يكون الزوج وحشا كاسرا فليتهما. أعدت خنجرا ومصباح زيت. وما أن خلد زوجها للنوم، حتى أضاءت المصباح، لتتفاجأ بمشاهدة مخلوق بهي. إنه إروس بجناحيه الذهبيين وقوسه وسهامه، أقوى مخلوق وأعظم موجود. وهي ذاهلة أمام محراب الحب، إذ بنقطة زيت المصباح تسقط على وجهه، ليستيقظ مذعورا، وغاضبا. حلق طائرا في الفضاء وبيسيثي متمسكة برجله تستعطفه، إلى أن أدركها العياء، فارتخت ومن قبة السماء هوت إلى الأرض. غاب إروس، وعانت بيسيثي من اليأس والألم، فعرضت نفسها أمة لخدمة أفروديت عساها تغفر لها وتعيد إليها زوجها. لكن ربة الجمال تجد الفرصة سانحة لإهانة بيسيثي وتعذيبها، فتعرضها للمحن والأهوال، إلى أن أمرتها بالذهاب إلى نيران الجحيم.

وعند تماثل إروس للشفاء، يبحث عن بيسيثي التي يعثر عليها في تلك الحال من البؤس والشقاء. فيلمس لها الصفح من زوس¹² Zeus كبير الآلهة؛ حيث يغفر لها ويجعل منها ذاتا خالدة لا تبلى ولا تفنى، ثم يربط بينها وبين إروس (الحب) برباط لا تنفصم عراه، تكون ثمرة بنتا اسمها «الملذة».

انتقلت أسطورة إروس وبيسيثي من أصلها الإغريقي إلى تأليف روماني قديم للأديب اللاتيني أبوليوس الذي صاغها في القرن الثاني للميلاد ضمن أثره الأدبي الشهير الحمار الذهبي¹³. فأضفى عليها مشاهد وأحداث وأسماء آلهة تعود إلى متخيل وثقافة الرومان. فيأخذ إيروس الإغريقي اسم كوبيدون Cupidon أو أمور Amor عند الرومان؛ وتصير بيسيثي هي بيسيخا، ويتحول اسم أفروديت إلى فينوس Venus، وزوس Zeus إلى جوبتير Jupiter¹⁴. كما وردت الأسطورة

¹⁰ انظر هذه الأسطورة عند : Meunier, *op. cit.*

¹¹ أفروديت آلهة الجمال والجنس عند اليونان، ولدت من زبد البحر، تماثل فنوس الرومانية وعشتار الشرقية. انظر، طلال حرب، مرجع سابق، ص. 49.

¹² زوس كبير الآلهة عند اليونان، إله السماء والجو والأرض، وهو رمز السلطة المطلقة. انظر: طلال حرب، مرجع سابق، ص. 190.

¹³ ترجم علي فهمي الخشيم هذه الرواية إلى العربية نقلا عن الانجليزية، انظر: أحمد جوهري، «كرونطوب المسخ: بين حمار أبوليوس وبقرة الهرادي»، الرباط، المناهل، ع. 84، 2008، ص. 175.

¹⁴ حول أسماء هذه الآلهة، الإغريقية والرومانية، انظر: طلال حرب، مرجع سابق.

يتعلق الأمر بحكاية «قفطان الحب المنقط بالهوى»⁷، حكاية رجل عزم على أداء فريضة الحج، فطلبت منه بناته الثلاث أن يشتري لكل منهن هدية معينة؛ وكان طلب صغراهن، بإيعاز من روحانية، أن يشتري لها «قفطان الحب المنقط بالهوى».

يعثر الأب على بغية ابنته الصغرى بعد مصاعب وأهوال، تنتهي به إلى الغوص في أعماق اليم ولقاء سلطان البحر، ليطلب منه تزويج ابنه قفطان الحب الفتى الجني الوسيم، لصغرى بناته. وتزف الفتاة إلى قصر زوجها في بطن البحر، وكان محظورا عليها أن ترى وجهه. إذ كان يعاشرها، دون علم منها، حيث كان خادمه الخصي يناولها المخدر كل ليلة، فتسترسل في نوم عميق. ويأتي قفطان الحب إلى جانبها ويتملى بالنظر إلى جمالها البهيح، وهو الذي وقع، من قبل، أسيرا في غرامها وتنقط من أجلها بالهوى.

وفي زيارتها لأسرتها، وسوست لها أختها بأن تنتهك المحظور، وترى وجه زوجها للتعرف عليه. من ثم قدما لها منديلا لتضع فيه المخدر، بالإضافة إلى شمعة وكبريت. لما تأكدت الفتاة من استغراق زوجها في سبات عميق، أضأت الشمعة، فإذا بها ترى بهاء وجمالا باهرين. وعندها وقعت نقطة من الشمع على وجه الزوج، ليستيقظ مذعورا. وبالرغم من مسامحته لها وقبوله اعتذارها، لم تستطع مقاومة رغبتها في معرفة هويته وحقيقة أمره. فعاودت الكرة، حتى صاح غاضبا مزمجرا، ليخبرها أنه «قفطان الحب المنقط بالهوى» الذي طلبته من والدها. وعندها أمسكها بقبضة يديه وقذف بها بعيدا، لتخرج من نعيم الحياة معه إلى جحيم المجهول والضياع.

هامت الفتاة على وجهها، وقاست من المحن والأهوال التي انتهت بها إلى أن أمر السلطان بقطع رأسها واستئصال مخها. وقبل تنفيذ الحكم، التمس السماح لها بالوضوء للقيام بآخر صلاة. فما كادت تنحني لتغترب من الماء، حتى اختطفها «قفطان الحب المنقط بالهوى»، وحملها بعيدا وعاشا معا في رابطة خالدة.

ترجع أصول حكاية قفطان الحب المنقط بالهوى المغربية إلى الميثولوجية الإغريقية مع أسطورة إروس⁸ وبسيشي⁹ Psyché¹⁰. تروي هذه الأسطورة قصة ملك ومملكة كان لهما ثلاث بنات،

⁷ وردت هذه الحكاية عند عبد الله شقرون، الأدب الشعبي على أمواج الإذاعة، تونس، منشورات اتحاد إذاعات الدول العربية، 1987، ص. 325.

⁸ إروس إله الحب عند اليونان، ابن أفروديت من إيرمس منذ القرن 6 ق.م، غلب عليه الارتباط بالجسد والشهوة، وسلطانه يمتد على الكائنات والنباتات والمعادن والسوائل، هو -بشكل عام- يمثل طفلا بأجنحة ذهبية، يحمل مشعلا أو قوسا وسهاما، يمثل الرغبة التي تقرب الكائنات وتعمل على توالدها. وإروس يماثل إله الحب كوبيدون عند الرومان، انظر: طلال حرب، مرجع سابق، ص. 28 و 272. Meunier, op. cit.,

⁹ بيسيحي عند اليونان أو بيسيخة عند الرومان، انظر طلال حرب، مرجع سابق، ص. 106.

تضئ النصوص الشفهية المهاجرة باستمرار، مساحات مختفية في حياة الناس ومعيشهم اليومي، فتسهم، بذلك، في بناء معرفة علمية قائمة على البحث والدرس. والحال أنه إذا كانت المعرفة عقلانية في بنيتها وجوهرها، فالخيال وسيلة، لتحسين، وتحقيق هذه البنية والجوهر، بدون اجتماع العقل والخيال لا يمكن أن تتحقق المعرفة. يعمل العقل داخل الخطاب، شفهيًا كان أو كتابيًا، على تحقيق منهجية وتماسك وانسجام عناصر المعرفة، من خلال القواعد والمنطق والمسلّمات. كما يسعى الخيال، داخل نفس الخطاب، إلى تركيب التمثيلات والمرجعيات الحساسة، لإدراك وفهم عناصر المعرفة، من خلال الاستعارة والمجاز والتناص والشاهد³. يعمل الخيال على تنشيط العقل وإثرائه، ويتقاسمان معاً وظائف مشتركة في تنمية وتطور المجتمعات في مختلف حقول أنشطتها وعلومها وتقنياتها، يقترح العقل الناقد البدائل للمشكلات وينشد الخيال الخلاّق استشراف رؤى لتجاوز الكائن (الواقع) وإحلال الممكن (الحلم محله).

من هنا اعتبر الخيال عند العديد من الدارسين حجر الزاوية في النشاط البشري. ففي نظر كانط، يضطلع الخيال بدور مهم في الفن والعلم والوعي. كما ركز باشلار على علاقته بحميمية المكان. في حين ربطه سبينوزا بالانفعالات الإيجابية والسلبية. أما ريكور فقد اعتبره منتجاً للغة في تأكيده على أن الاستعارة هي «الصدمة الدلالية» الناتجة عن قدرة الخيال الخلاّق على الربط أو التوحيد بين مجالين دلاليين غير متشابهين⁴. هذا وقد ارتبط الخيال عند تودوروف بالخطاب العجائبي الذي يتولد ويتحقق عن طريق الصور البلاغية من مبالغة وتشبيه ومجاز واستعارة⁵.

2. حفيريات الحكاية: بخصوص سفر حكاية مغربية

تتقدم هذه الدراسة لترصد رحلة حكاية مغربية، رست أصول أحداثها، منذ عصور خلت، على مرفأ مغربي، قادمة إليه من اليونان مروراً بإيطاليا القديمة لتمتد مساحات متخيل هذه الحكاية المغربية عبر أساطير الرومان والإغريق، فأية حكاية حلت بأرض المغرب؟ وأية أسطورة غادرت جبل الألب⁶؟ كيف حدث السفر ومتى نشأت القرابة؟

³ Edgar Weber, *Imaginaire arabe et contes érotiques*, Paris, éd. L'Harmattan, 1990, p.13.

⁴ عبد الحميد شاكر، الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي، الكويت، عالم المعرفة، ع. 360، 2009، ص. 72-81-163.

⁵ تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ت. الصديق بوعلام، الرباط، دار الكلام، 1993، ص. 104-110-107.

⁶ طلال حرب، معجم أعلام الأساطير والخرافات، لبنان، دار الكتب العلمية، 1999، ص. 73. وبخصوص جبل الألب،

انظر أيضاً : p.11. Mario Meunier, *La légende dorée des Dieux et des Héros*, Paris, Albin Michel, 1990,

تلقية، لا يغادر بنية الفكر البشري مهما تباعدت الأزمنة وامتدت الجغرافيات وتباينت الثقافات واختلفت المجتمعات، مما يمنحه سمة الكوني الشمولي إلى جانب المحلي الخاص. كما تتيح دراسة أشكاله وخطاباته، تشييد معرفة تلتقي عبرها حقول وتخصصات إنسانية شتى، يفضي تكاملها إلى إضاءة مساحات مخفية من الأدب الشفهي.

1. اللغة والخيال: عبور إلى المعرفة

النصوص الشفهية نصوص مهاجرة، تنتمي إلى ما يمكن أن نسميه بالثقافة الإنسانية السائلة التي يحملها الإنسان معه في حله وترحاله، دون حاجة إلى حقيية أو راحلة. يسافر النص الشفهي عبر أفواه الشعراء والرواة، فيتعدد ويتنوع، ويتلاقح ويتوالد، في غياب الدين أولين وآخرين، مما يكسبه أمومة الإنساني وأبوة الكوني، لغة وزمانا ومستقرا، دون أن يفقد أصالته الكامنة في خصوصية وتميز شفهيته عند هذه الجماعة أو تلك. وجدير بالبحث في هذا المهاجر الكوني عن ثوابت كمنونه في بنية المتخيل الإنساني، أي فيما هو مشترك بين الإنسانية من شروط تناسله عبر اللغة والخيال.

وإذا كانت المعاني عند الجاحظ مطروحة في الطريق، فإنها في النصوص الشفهية ماثورة في جغرافيا السلالات البشرية على امتداد الأحقاب التاريخية والأسطورية والدينية. لذا فلا شك أن الاشتغال على نصوص تناخم الأزل، يحتاج للكثير من المعرفة و الدهاء لهدم الهوة بين الحقيقة والخيال، وبين الغرابة والألفة، وبين المختلف والمؤتلف، ثم بين الماضي بعجائبيته واللحظة بحميميتها حول القصيدة والأسطورة والحكاية.

إن المؤرخين الشفهيين في المجتمعات القديمة، كانوا هم شيوخ فن القول وأكياس الحكمة والمعرفة، الذين يتحلقون مساء حول موقد النار ليحكوا خبراتهم وما يتذكرونه عن أسلافهم/ معلميهم من قصص الخلق والشعائر والسياسة والمجتمع. وشكلت مروياتهم عند الأهالي مصدرا للحقيقة الدينية والتاريخية¹. كما أن «التاريخ الشفهي»² باعتباره معرفة علمية حديثة تنتمي إلى حقل العلوم الاجتماعية وتقوم على نظريات ومناهج تسعفها في كتابة تاريخ المهمشين والبسطاء، كثيرا ما يجري فيه البحث بالتنقيب والنش في حفريات الذاكرة الجماعية من أساطير وحكايات متناقلة شفها عبر اللغة في الزمان والمكان. ذلك لأنها محكيات ممتلئة، غالبا، بالتفاصيل والتفسيرات والرؤى والقيم والتطلعات والانفعالات التي تحرك الجماعات الإنسانية.

¹ دان بين أموس، «مدخل لدراسة الأدب الشعبي- خطاطة أولية»، ت، عبد العزيز اعمار، الرباط، المناهل، ع. 64- 65 (الأدب الشعبي المغربي)، 2001، ص. 169-207.

² خالد أبو الليل، «التاريخ الشفهي: الأصول النظرية الغربية والتجليات العربية»، الكويت، عالم الفكر، ع. 2، مج. 43 (قضايا فكرية)، 2014، ص. 241-297.

خطاب الحكاية هجرة المحكي وامتداد المتخيل

عبد العزيز اعمار
جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: نحاول في هذه الدراسة رصد العلاقة بين الأدب الشفهي والعلوم الإنسانية والاجتماعية. إذ لا بد لدارس هذا الأدب أن يعود إلى معطيات ونتائج التاريخ والأركيولوجيا وعلم الاجتماع وعلم اللغة والبلاغة، في محاولة لإبراز موقع المتخيل وشعريته في سياق التمثل والفعل المجتمعيين، باعتبار الإنسان - كما وصفه ابن خلدون في المقدمة - صاحب العقل واليد. كما نروم البحث في خطاب الحكاية وشعريته، خصوصا، عندما يهاجر المحكي ويمتد المتخيل.

كلمات مفاتيح: الأدب الشفهي؛ المتخيل؛ خطاب؛ الحكاية؛ الشعرية؛ هجرة المحكي

Résumé : Nous essayons, dans cet article, de montrer le rapport entre la littérature orale et les Sciences humaines et sociales. Ainsi les chercheurs se trouvent devant la nécessité de consulter les écrits, les données et les résultats de l'histoire, l'archéologie, la sociologie, la linguistique, la sémiologie... dans le but de mettre en valeur la place qu'occupe la littérature orale et sa poétique, dans le contexte des représentations et des pratiques sociales. Nous notons, aussi, que cette littérature est marquée par ses aspects locaux et également par ses traits universels, parce qu'elle accompagne toujours l'Homme dans son long voyage à travers le temps et l'espace.

Mots-clés : littérature orale; imaginaire; discours; poétique; conte; voyage du récit

« إلى جانب سماتها الكونية، تظل الحكايات خير وسيط بين مختلف الثقافات وذخايرها الرمزية »
ليلي المسعودي (2005)

في البدء:

الأدب الشفهي إبداع بشري تتوحد فيه، وباستجابة تامة أحيانا، رغبتان متناقضتان في الطبيعة البشرية، هما النزوع نحو المتخيل بعجائبيته وشعريته، وفي الآن نفسه حب ما هو حقيقي بواقعيته وحجته. والحال أن هذا التناقض المتناغم في الأدب الشفهي، لحظة إبداعه وأثناء

الكعاك، إبراهيم، «التعددية، الوجه والابتداء»، فكر، ع. 3، 2005، ص. 65-108.
 الكعاك، إبراهيم، «الكلمات الفعلية في اللغة العربية»، فكر، ع. 1، 2003، ص. 73-84.
 مكي، علي، «قراءة جديدة لوثائق مستعري طليطلة»، مجلة مجمع اللغة العربية، ج. 75، 1994، ص. 32-59.
 الميداني، أحمد أبو الفضل، مجمع الأمثال، تح. محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة السنة المحمدية، 1955.
 ناصف، حفني، مميزات لغة العرب وتخريج ما يمكن من اللغات العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك، بولاق، المطبعة الأميرية، 1886.
 النحاس، هشام، معجم فصاح العامية، بيروت، مكتبة لبنان، 1997.
 وافي، عبد الواحد، فقه اللغة، القاهرة، نهضة مصر، ط. 3، 2004.

Bloomfield, Leonard, *Language*, Unwin University Books, London, 1970 [1933]

Green, Arthur Octavius, *A practical arabic grammar*, part 2, Oxford, London, 1893.

Messaoudi, Leila, *Études sociolinguistiques*, Okad, Rabat, 2003.

مراجع

- أرسلان، شكيب، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض المتوسط، بيروت، دار الكتاب العلمية، د.ت.
- الأستراباذي، رضي الدين، شرح شافية ابن الحاجب، تح. محمد نور الحسن، ومحمد الزفازف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1982.
- أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003.
- توفيق، حسن، أصول الكلمات العامية، القاهرة، مطبعة الترقى، 1899.
- الحريري، القاسم بن علي، درة الغواص في أوهام الخواص، قسطنطينية، مطبعة الجوائب، 1299 هـ.
- الحلوي، محمد، معجم الفصحى في العامية المغربية، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس، 1988.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح نصر الهوريني، القاهرة، المطبعة الوهبية، 1916.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد، شرح درة الغواص، قسطنطينية، مطبعة الجوائب، 1299 هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001.
- ابن دريد، أبو بكر محمد، كتاب الملاحن، هايدبرغ، هايدبرغ، مطبعة جامعة كارل وينتر، 1882.
- رضا، أحمد، قاموس رد العامي إلى الفصحى، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي، 1981.
- الزبيدي، أبو بكر بن محمد، لحن العوام، تح. رمضان عبد التواب، القاهرة، المطبعة الكمالية، 1964.
- زيدان، جرجي، الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية، بيروت، مطبعة القديس جاورجيوس، 1886.
- ابن أبي سرور، محمد، القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لهجات العرب، تح. السيد إبراهيم السالم وإبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الفكر العربي، 1962.
- سيبويه، عمر بن عثمان، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط. 3، 1988.
- ابن السيد البطليوسي، عبد الله، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تح. مصطفى السقا، وحامد عبد المجيد، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1996.
- الشدياق، فارس، الواسطة إلى معرفة مالطة، تونس، مطبعة الدولة التونسية، 1283 هـ.
- الصباغ، ميخائيل، الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في أحوال الكلام الدارج، ستراسبورغ، فيرلاغ تروينر، 1886.
- الصبيحي، أحمد، معجم إرجاع الدارج في المغرب إلى حظيرة أصله العربي، سلا، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، 1990 [1939].
- عبد التواب، رمضان، لحن العامة والتطور اللغوي، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2000.
- عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط. 6، 1999.
- عمر، أحمد مختار، تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، القاهرة، عالم الكتب، 1995.
- فريحة، أنيس، اللهجات وأسلوب دراستها، بيروت، بيروت، دار الجبل، 1989.
- قدور، محمد، مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن التاسع الهجري، دمشق، إحياء التراث العربي، 1996.
- الكسائي، علي بن حمزة، ما تلحن فيه العامة، تح. رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1982.

علينا، إذن، أن نهتم بالمقارنة بين اللهجات الجغرافية للدارجة، بغية تحديد كل من الخصائص التي تشكل القاسم المشترك بين هذه اللهجات، ومن الخصائص التي تختلف فيها كل نوعية عن اللهجات الأخرى؛ مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذا القاسم المشترك قد يرجع إلى أصل تاريخي واحد نشأت منه جميع اللهجات الدارجة المعاصرة؛ في حين قد تعود الخصائص المميزة للهجة معينة إلى تأثير خارجي من لغة مجاورة، أو إلى تطور داخلي ظلت بمنأى عنه اللهجات الأخرى.

إن مقارنة أحمد مختار عمر تسمح لنا، في واقع الأمر، بالمقارنة بين الدارجة المصرية والدارجة المغربية، وذلك من حيث طبيعة تأثير اللغات المجاورة في العربية؛ في الحالة الأولى تأثير القبطية في مصر، وفي الحالة الأخيرة تأثير الأمازيغية في المغرب.

فهذه اللهجات اللهجية تقبل أن نقارن بينها بغية تحديد الخصائص التي تشترك فيها، والخصائص التي تختلف فيها كل نوعية عن اللهجات الأخرى. وهذه المقارنة يمكنها من الجانب السكوني أن تتناول الدارجة كما هي في المرحلة الحالية، ولكن في مناطق جغرافية متباينة؛ أو أن تعالجها، من الجانب التطوري، كما كانت في مرحلة أو مراحل سابقة.

كما يجوز، من هذا المنظور، أن تكون الخصائص المشتركة راجعة إلى أصل تاريخي واحد تشعبت منه جميع اللهجات المعاصرة للدارجة؛ على حين يجوز أن ترجع الخصائص المختلفة إلى تأثير خارجي من لغة مجاورة، أو إلى تطور داخلي لهذه اللهجة، ظلت بمنأى عنه الدواجر الأخرى.

خذ مثلا الكلمة «شُوِيَّة» المستعملة بكثرة في المصرية، كما في المغربية، واللهجات الأخرى. فمن العبث أن نزع أن هذه الكلمة نشأت بتأثير من الأمازيغية أو القبطية، أو غيرها من اللغات التي تجاوزت معها، واحتكت بها العربية؛ لأن ثمة أصلا مشتركا لا يختلف في لهجات الدارجة، باختلاف هذه اللغات المجاورة. والآن؛ لتساءل: إلى أي عصر سنصل، يا ترى، إن تتبعنا هذه الكلمة طوال العصور التاريخية السابقة؟ إلى عصر الفتوحات؟ أم أبعد من ذلك؟ يقول حسن توفيق: «شُوِيَّة كلمة يستعملونها بمعنى: قليل. ويزعم الكثير أنها تصغير شيء. وليس كذلك. إنما أصلها: شُوَايَة. قال الميداني في مجمع الأمثال عند الكلام على قولهم في المثل: أعطني حظي من شواية الرُضف، الشواية بالضم الشيء القليل من الكثير ... يقال: بقيت على فلان شواية من مال، إذا بقيت له بقية من إبل أو غنم¹⁵⁴». نرى أن هذه الكلمة، شأنها في ذلك شأن كثير من الخصائص المعجمية والنحوية والصوتية الآتفة الذكر، ترجع، في حقيقة الحال، إلى ما قبل العصر الإسلامي، إلى العصر «الجاهلي»، أو بالأحرى إلى حقبة سابقة عن تلك التي عرفت جمع اللغة العربية وتدوينها. ولولا ورودها في هذا المثل؛ لما استقطبت ربما اهتمام علماء اللغة ورواتها.

وإذن؛ فما أحوجنا، في دراسة لهجات العربية، إلى مناهج وصفية تتناول كل لهجة منها على حدة، بالتحليل النسقي والمنظم؛ على جميع المستويات: الصوتية والنحوية والصرفية والمعجمية والدلالية. غير أن تأويل المادة اللهجية، في أبعادها الاجتماعية والثقافية، لا يمكن أن يتم داخل مقاربة تعتمد المناهج الوصفية وحدها، مثل الفكر الكلاسيكي في شكل النحو التعليمي؛ دون الاستعانة بالمناهج التاريخية والمقارنة؛ طالما أن استكشاف القواسم المشتركة لهذه اللهجات يتوقف على المقارنة بين بدائل متنوعة قد تتباين من منطقة إلى أخرى، أو من حقبة إلى أخرى.

ومن هنا؛ يجب على هذا التحليل المقارن أن يتناول الدارجة، تارة، من الجانب السكوني؛ كما هي في المرحلة الحالية، ولكن في مناطق جغرافية متباينة؛ وتارة أخرى، من الجانب الدينامي؛ كما هي في المرحلة الحالية دائما، ولكن بالنظر إلى ما كانت عليه في مرحلة أو مراحل سابقة. فلهجات الدارجة إنما هي نوعيات متعددة للغة واحدة، إذ تغطي في نهاية التحليل قواسمها المشتركة، إلى حد بعيد، على مظاهرها الخاصة. وما دامت هذه العربية اللهجية لا توجد فعليا إلا عبر بدائلها المجالية المختلفة؛ فنحن لا نستطيع، أن نتطرق إليها إلا بطريقة غير مباشرة، من خلال هذه اللهجات المتعددة.

¹⁵⁴ حسن توفيق، مرجع سابق، ص. 22-23. وينظر أيضا: أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 5. ويحمل هذا المثل الرقم 2550 في: أبو الفضل أحمد الميداني، مجمع الأمثال، تح. محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة السنة المحمدية، 1955، ج. 2، ص. 63. والرُضف هو التين المصنوع على الحجارة المحممة.

وخلاصة القول أن الخصائص التي يستخرجها أحمد مختار عمر من متن دراسته في النوع النحوي- الصرفي والنوع الصوتي والنوع المعجمي، لا تقتصر على عربية مصر. بل هي موجودة بوفرة في اللهجات الأخرى.

ومن غير المعقول، إن وجدنا خاصية نحوية معينة في كل من عربية مصر، وعربية المغرب الأقصى، أن ننسبها إلى تأثير أمازيغي هنا، وقبطي هناك. ماذا نصنع حين نلغي هذه الخاصية عنها في عربية العراق وسوريا ولبنان وتونس وغيرها من الأقطار العربية؟ هل نرجعها إلى تأثير تركي حينا، وفارسي أو سرياني حينا آخر؟ وماذا عن دارجة البدو الذين يعيشون في صحراء الخليج العربي؟ أنشأت هي أيضا جراء تأثير خارجي من لغة مجاورة؟

هكذا؛ إذا ما أنجزنا وصفا تحليليا مستقصيا لإحدى لهجات الدارجة، مثل الدارجة المغربية أو المصرية؛ سوف نعثر، إلى جانب هذه المظاهر كلها، على كثير من الخصائص الأخرى؛ مثل: جاب¹⁵²، بمعنى أحضر؛ وشاف¹⁵³، بمعنى أبصر، إلخ. وهذه الكلمات، المألوفة في الاستعمال بالنسبة إلى سائر لهجات الدارجة، لا هي تنتمي صراحة إلى العربية الفصحى؛ ولا هي تنتسب، في نفس الآن، إلى هذه اللهجة المدروسة بعينها، ولا إلى أي لهجة أخرى في حد ذاتها.

وظاهر». أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 100. ويقول الحلوي: «يستعمل هذا التركيب في طرد شخص غير مرغوب فيه، ثم توسع في استعماله فنقول: اخرج برا». محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 30.

¹⁵⁰ يستعملون «كلمة "عيلات" جمعاً لعيال. وقد وردت في فتوح مصر لابن عبد الحكم. وهي ليست في معاجم اللغة التي رجعت إليها». أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 167.

¹⁵¹ يقولون: «كلمة "بح" للأطفال خاصة، بمعنى انتهى أو لم يبق. وأصله بحباح. ففي لسان العرب: قال اللحياني: زعم الكسائي أنه سمع رجلاً من بني عامر يقول: إذا قيل لنا أبقى عندكم شيء؟ قلنا: بحباح، أي لم يبق». المرجع نفسه، ص. 178. وهذه الكلمة واردة أيضاً في: حسن توفيق، أصول الكلمات العامية، ص. 10؛ وفي: أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 99.

¹⁵² جاء عند ابن أبي سرور «يقولون "جاب" أي أتى بالشيء». قاله بعض أئمة اللغة وأنكره المجدي»، محمد ابن أبي سرور، القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لهجات العرب، تح. السيد إبراهيم السالم وإبراهيم الأبياري، دار الفكر العربي، القاهرة، 1962، ص. 13.

¹⁵³ يقول أحمد الصبيحي مرجع سابق، ص. 207 «شُفَ بمعنى انظر وحدق البصر. وفي التاج ما نصه: والشوف البصر عامية، ورجل شواف كشداد حديد البصر». كما يقول محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 123 «كلمة شاف الشيء: أبصره. استعمال عامي يترفع عنه الخاصة واهمين أنه غير عربي. أوردته المعاجم هكذا: شاف النحاس: صقله وجلاه ... وأشاف عليه: أشرف وأطل. وتشوف من السطح: نظر». ويقول أحمد رضا، قاموس رد العامي إلى الفصح، ص. 325 «جاء في اللغة: اشتاف إذا تناول ونظر، وتشوف إلى الشيء تطلع إليه... ويقال اشتاف البرق بمعنى شافه». وينظر أيضاً: هشام النحاس، معجم فصاح العامية، بيروت، مكتبة لبنان، 1997، ص. 382.

ففي النوع الصوتي؛ يبدو أن دارجة كتاب هذا المتن، شأنها شأن جل الدواجر المعاصرة، لا تحتوي على صوت الذال. ولهذا؛ تكثر «كتابة الذال دالا، ونطقها كذلك»¹⁴²، مثل: «إدا» بدلا من «إذا»؛ و«أخذ»، بدلا من «أخذ»... وهي فضلا عن ذلك؛ لا تشتمل على صوت الثاء، الشيء الذي يجعل الكاتب يرسمها تاء¹⁴³؛ في نحو «تلات» عوض «ثلاث»، و«اتنعشر» عوض «اثنا عشر»، و «تعلب» محل «ثعلب»¹⁴⁴.

أما في النوع المعجمي؛ فقد عرفت المكتبة العربية الحديثة، كما هو معروف، منهجا كاملا من التأليف القاموسي يقوم في أساسه على إرجاع الكلمات الدارجة إلى أصولها في المعاجم العربية القديمة؛ مثل: أصول الكلمات العامية¹⁴⁵ لحسن توفيق؛ وقاموس رد العامي إلى الفصح¹⁴⁶ لأحمد رضا؛ بالنسبة إلى دارجة مصر؛ ومعجم إرجاع الدارج في المغرب إلى حظيرة أصله العربي¹⁴⁷ لأحمد الصبيحي، ومعجم الفصحى في العامية المغربية¹⁴⁸ لمحمد الحلوي، بالنسبة إلى دارجة المغرب الأقصى.

ولا عجب، بالتالي، أن تملأ قوائم أحمد مختار عمر كثير من الكلمات، التي لا تدخل في نطاق العربية الفصحى، والتي نجدها مع ذلك في المصرية، كما في المغربية، ولهجات أخرى؛ مثل: برا¹⁴⁹، وعيالات¹⁵⁰، وبج¹⁵¹، إلخ.

¹⁴² المرجع نفسه، ص. 170. وينظر: أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 7. وقد سبق أن ذكرنا مثلا لكتابة الذال دالا من وثائق مستعري طليطلة. ينظر الفقرة [10 §].

¹⁴³ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 169.

¹⁴⁴ ينظر: أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 76 و86. ويقول الحلوي «والحروف المعجمة في الفصحى مهملة في الدارج، مثل التوم والدب والضر». محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 17. أما أنيس فريحة؛ فهو يعتمد أطروحة التأثير الخارجي، حينما يذهب إلى أن نطق الذال دالا، والثاء تاء، في اللهجة اللبنانية ناتج عن تأثير اللغة الآرامية. أنيس فريحة، اللهجات وأسلوب دراستها، بيروت، دار الجيل، 1989، ص. 132.

¹⁴⁵ حسن توفيق، أصول الكلمات العامية، القاهرة، مطبعة الترقى، 1899.

¹⁴⁶ أحمد رضا، قاموس رد العامي إلى الفصح، بيروت، دار الكتاب العربي، 1981، ص. 325.

¹⁴⁷ أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق.

¹⁴⁸ محمد الحلوي، مرجع سابق.

¹⁴⁹ نقل عنهم «أخرج برا! والكلمة عربية صحيحة... والعرب تستعمله في النكرة تقول: جلست برا، أو خرجت برا؛ إذا خرج إلى البر أو الصحراء. ولا يطعن في عربية الكلمة ما يقوله بعض اللغويين من أنها من ذلك التعبير الخاص بكلام المولدين، ولم تسمع من فصحاء العرب والبادية». أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 156. وجاء في معجم الصبيحي: «في شفاء الغليل برا في قولهم: جئت برا. قال الزبيدي في لحن العوام: الصواب في بر. والبر ... ضد البحر. والبرية منسوب إلى البر، والجمع براري. انتهى. وكذا قال الأزهري هو من كلام المولدين. قال في الدر المصون: وفيه نظر لقول سلطان [لعله سلمان] الفارسي رضي الله عنه: لكل امرئ جواني وبراني، أي باطن

مفترضاً ربما أن هناك تطابقاً تاماً بين النسقين. والباحث نفسه يلاحظ أن «لغة هذه المخطوطات- برغم ما فيها من مسحة عامية- خليط بين العامية والفصحى. وقد التزم كاتبها في كثير من الأحيان الاتجاه الفصحى مفضلاً إياه على الاتجاه العامي»¹⁴⁰.

والحق أن لا اختيار للمتكلم في هذه الحالات. فهذا الكاتب، حينما يلتزم بمعايير العربية الفصحى، لا «يفضل» اتجاهاً على آخر، بل يطبق فقط ما لقن له في تربيته التعليمية المدرسية. فلا يلجأ إلى خصائص العربية الدارجة إلا حين يعجز عن التعبير، كما هو مطلوب، طبقاً لمعايير العربية الفصحى¹⁴¹.

والواقع أن عمل أحمد مختار عمر يتيح، أمام أي دراسة للهجة أخرى غير المصرية، إمكان النظر إلى المعطيات التي تتناولها من زاوية مغايرة؛ إذ نستطيع، استناداً إلى هذا العمل، أن ننظر إلى الدارجة المغربية مثلاً، من منظور خارجي: بعين الدارجة المصرية. فالمتكلم المغربي، حين يسمع نصاً من الدارجة المصرية، يبقى في نهاية المطاف، يشعر بأن هذا الكلام يندرج ضمن لغته. غير أنه، إذ ينتمي إلى لهجة أخرى، يختلف شيئاً ما.

لا جرم أن هناك قدراً كبيراً من التنوع اللهجي بين هاتين الدارجتين الممثلتين للاتجاهين الكبيرين الآن ضمن لهجات العربية: دارجة مصر، بالنسبة إلى المشرقية؛ ودارجة المغرب، بالنسبة إلى المغربية. غير أن فحص خصائص عربية مصر، مقارنة بعربية المغرب، ومختلف لهجات العربية؛ يبرز دائماً، وراء التنوعات المميزة لكل لهجة منها، ثابتاً مشتركاً تتحدد باعتباره هذه التنوعات اللهجية نفسها.

لقد اقتصرنا في هذا العمل على الخصائص النحوية- الصرفية. غير أن الخلاصات أعلاه تصدق، ربما بشكل أوضح، على النوعين الصوتي والمعجمي كذلك. فلكي نفهم هذه الخصائص اللغوية بمختلف أنواعها، علينا أن لا يغيب عن ذهننا أن الكاتب المزدوج اللغة يلجأ أحياناً إلى لهجته الدارجة، حتى أثناء استعماله للنسق الفصحى.

¹⁴⁰ المرجع نفسه، ص. 176. ويقدم الباحث الأمثلة التالية: «عما بقا لك من الغرامة»، «إذا جاك كتابي هذا»، «يدخلو كل يوم جماعة من كل موضع»... المرجع نفسه، ص. 108. وتتنطبق هذه الملاحظة على متن مستعربي طليطلة كذلك، حيث يسجل علي مكي أن لغة هذه الوثائق «قرية من العامية الأندلسية الدارجة». علي مكي، مرجع سابق، ص. 52. وهو يخلص إلى أن هذه الظاهرة «على جانب كبير من الأهمية، لأنه من خلال لغة الوثائق يمكن لنا أن نرصد بعض ملامح اللهجة الأندلسية، وبخاصة في منطقة وسط شبه الجزيرة». المرجع نفسه.

¹⁴¹ يشير أحمد مختار عمر إلى أن «الأخطاء الإملائية فاشية جداً في هذه البرديات، وفي غيرها من كتابات الأقباط». أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 185.

خلاصة: العربية اللهجية أو الدارجة النموذجية

تتوخى دراسة أحمد مختار عمر للعربية المصرية استكشاف مدى تأثير هذه النوعية اللسانية، من جهة، باللغات المجاورة، وعلى رأسها القبطية؛ ومن جهة أخرى، باللهجات العربية التي وفدت إلى بلاد الكنانة، عبر هجرات متلاحقة منذ الفتح الإسلامي.

وهو يصل، من جهة العامل الخارجي الذي هو التأثير القبطي، إلى أن « النتيجة النهائية التي نستخلصها من كل هذا أن التأثير القبطي على عربية مصر تأثير محدود جدا لا يكاد يتجاوز مجال المفردات، وحتى في هذا المجال، فالآثار ضئيلة جدا على عكس ما يردده البعض¹³⁶ ». وهو يعلق على هذه الخلاصة قائلا: « وليست هذه النتيجة بالأمر الشاذ أو المستغرب لدى دارسي اللغات ومراحل صراعها. وإما هو شيء متوقع يمكن التكهن به مسبقا¹³⁷ ». ولتدعيم هذا الاستنتاج؛ يستشهد الباحث بنص لبloomfield « حين تنتصر لغة الغزاة وتندثر اللغة المغزوة لا نكاد نلاحظ آثارا في اللغة الغازية نتيجة لهذا الصراع، إلا بعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة من أعلام، أو أسماء الأمكنة، ومن ألفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة¹³⁸ ».

أما من حيث العامل الداخلي المتمثل في التأثير اللهجي، فهو يقول: « آثار اللهجات العربية في مستوى الخطاب العادي أو اللغة الدارجة [...] أكثر من أن تحصى. وتعتبر اللهجات العربية - بلا شك - المصدر الرئيسي لها. وإنه لمن السهل جدا رد كثير من خصائصها إلى أصول عربية، سواء احتفظ بهذه الأصول كما هي، أو لحقها تعديل وتغيير¹³⁹ ».

إن العرض السابق للخصائص الصرفية-النحوية الواردة في دراسة الباحث، يبين أن هذه الخصائص، لا تتعلق بتأثير من اللغة القبطية، أو غيرها من اللغات الأجنبية التي احتكت بها العربية، بقدر ما هي ناجمة عن وضعية الازدواجية اللغوية التي تتميز بها هذه اللغة، إذ تتسرب خصائص الدارجة إلى نصوص يفترض أنها من العربية الفصحى. فالكاتب ببساطة، عندما لا يعرف التعبير الصحيح أو المعيار في النسق الفصيح، يستعمل غالبا ما عنده في النسق الدارج،

¹³⁶ المرجع نفسه، ص. 159. يقول: « الكلمات العربية المستعملة في عامية مصر محدودة جدا، بعكس ما قد يظن. فليس هناك مئات ومئات من الكلمات ... وإنما عشرات من الكلمات لا تتجاوز بحال المائة ».

¹³⁷ المرجع نفسه.

¹³⁸ ينظر: Leonard Bloomfield, *Language*, Unwin University books, London, Eleventh

impression, First published, 1933, p. 464. نص عليه: أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، مرجع سابق، ص. 159. وتتنطبق هذه الملاحظة تماما على حالة العربية مع القبطية، إذ لم يبق في العربية من الكلمات القبطية سوى تلك التي تتعلق بالمجال الكنسي والكهنوتي.

¹³⁹ أحمد مختار عمر، المرجع نفسه، ص. 175.

ويورد أحمد الصبيحي ضمن معجمه الكلمة: ديالو، تحت الرقم 164، قائلاً: «هي ذياً تصغير للإشارية جاءت بعدها لام الملك مضافة إلى ضمير الغائب»¹³². كما نعثر في معجم محمد الحلوي على الكلمة «ديال» التي تستعمل، حسبه:

لإضافة شيء آخر، ونسبته إليه. فعندما تريد العامة أن تقول: كتاب محمد، نجدها تقحم كلمة (ديال) بين المتضايقين، فتقول: كتاب ديال محمد، وديالك، وديالو [...] وبقليل من التأمل ندرك أن هذه الكلمة مركبة من «ذا» اسم إشارة صغر، فصار «ذياً»، ومن اللام، وهي للجر. وأصلها ذيا له، وذيا لك¹³³.

وحاصل الأمر أن محدد الملكية يتحقق إما عبر لاحقة اسمية، مثل ياء المتكلم؛ وإما عبر كلمة مستقلة. وهذه الكلمة قد تكون هي ديال، أو متاع، أو تبع، أو حق، إلخ. فهي كلها كلمات ذات جذور عربية، تدل على نفس المعنى، وتلعب نفس الدور في بنية المجموعة الاسمية.

14.2. أسماء الحرف

تصاغ أسماء الحرف عند غرين عبر: تضعيف العين وزيادة الألف: خباز، خياط، عطار؛ زيادة الياء: بستاني، سيوفي، سروجي؛ واستعمال الخاتمة التركية «جي»: عربي، جواهرجي، طوبجي¹³⁴.

ومن العوامل التي أدت إلى انشعاب العاميات عن الفصحى، عند علي عبد الواحد وافي:

دخول قواعد جديدة في بعض اللهجات العامية للحاجة إليها في الكلام أو عن طريق احتكاكها باللغات الأخرى. فقد انتقل مثلاً إلى المصرية والعراقية طريقة النسب التركية بزيادة جيم وياء في بعض الكلمات، وبخاصة ما يدل منها على الحرفة: عربي، طرشي، جزمجي؛ وطريقة الإضافة في بعض الكلمات بتقديم المضاف إليه على المضاف (كتبخانة، أنتيكخانة، الخ)¹³⁵.

وهذه هي الخاصية الوحيدة من بين الخصائص المعروضة في دراستنا التي يتضح فيها تأثير اللغات الأجنبية على العربية كل الوضوح؛ إذ تتألف الكلمة العامية من مكونين متميزين: أحدهما عربي أصيل، والآخر أجنبي دخيل.

¹³² أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 121. وينظر في خصوص الكلمة متاع، المرجع نفسه. 176. لاحظ كتابة ضمير الغائب الذي أصله هاء في شكل واو. وقد تطرقنا إلى هذه الخاصية في الفقرة السابقة § 2. 14.

¹³³ محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 16.

¹³⁴ Arthur Octavius Green, *op-cit*, p. 254-255.

¹³⁵ علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص. 114.

عن الإعراب بالموقعية. فخصت «مين قابل علي؟»، حين تكون «مين» في موقع الفاعل، و«محمد قابل مين؟»، حين تكون «مين» في موقع المفعول¹²⁷.

14.2. الوقوف على الضمير

يتم أحيانا الوقوف على الضمير في المعطيات التي يدرسها أحمد مختار عمر، داخل المستوى نصف الأدبي، بنقل حركة آخره إلى الحرف الذي قبله. ويظهر له ذلك واضحا في مخطوطات دير القديس مكاريوس، في مثل: ينفع نفسه، فقال له، عنده، إلخ¹²⁸. وهذه الخاصية موجودة في الدارجة المغربية¹²⁹، وباقي لهجات الدارجة. وإن كنا نجد لهجة أخرى تحتفظ بالهاء، ولكن مع حذف حركتها، كما في نحو: ينفع نفسه، فقال له... وهذا التنوع هو الذي يثوي، في الحقيقة، وراء معطيات النفي الواردة في الفقرة [§ 2. 8]: «ما هوش»، في مقابل «مش».

15.2. ضائير الملكية

لا تملك اللغة العربية الدارجة، تبعا لغرين Green، صيغا خاصة بضائير الملكية، بل تستعمل، بدلا عنها: اللواحق: كتابي؛ الأسماء: متاع (بتاع في مصر)، مال، وحق¹³⁰. و في نفس الموضوع، يقول عبد الواحد وافي:

انتقل إلى معظم اللهجات العامية [...] طريقة الإضافة بتوسط كلمة تدل على الملك بين المضاف والمضاف إليه. ففي مصر تتوسط عادة كلمة بتاع المحرفة عن متاع، وفي تونس والجزائر انتاع أو تاع المحرفة كذلك عن متاع، وفي سوريا ولبنان كلمة تبع (الكتاب تبعي)، وفي المغرب الأقصى كلمة ديال، وفي العراق كلمة مال للمذكر ومالة للمؤنث، فيقال: الكتاب مالي والكراسة مالتي، وفي نجد والحجاز والسودان كلمة حق للمذكر، وحققة للمؤنث مع قلب القاف جيما، فيقال: الكتاب حجي، والكراسة حجتي، أي كتابي وكراستي¹³¹.

¹²⁷ المرجع نفسه، ص. 144.

¹²⁸ أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، ص. 173. توحى طريقة الكتابة بأن الهاء لا تحقق فعلا في مستوى النطق. قارن مع كتابة الحلوي في الهامش اللاحق.

¹²⁹ يقول محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 18: «تقلب العامة هاء الغائب واوا، وتنقل الضمة إلى ما قبلها في مثل قال له: قال لو؛ وعمل له: عمل لو».

¹³⁰ Arthur Octavius Green, A practical arabic grammar, part. 2, London, Oxford, 1893, p. 262.

¹³¹ عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص. 11. وتوجد هذه الخاصية في متن مستعري طليطلة؛ حيث يلحظ علي مكي: «الاستعاضة عن الإضافة باسم يدل عليها، إذ يرد مثلا "البيت متاع فلان"، أي بيت فلان. وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في نصوص عامية أخرى أندلسية. ولفظ "متاع" الدال على الملك هو الذي تحرف في العامية المصرية إلى "بتاع"، بل نجد الوثائق تستخدم أحيانا حرف الجر العجمي الدال على ضمير الملك وهو "دي" و"ذي" و"د" (de)». علي مكي، مرجع سابق، ص. 53.

ولعل العامل الذي يجعل الباحث يطمئن إلى أن هذه الخاصية عربية صرف، لا دخل فيها للغة القبطية، أنها متوافرة في نوعيات أخرى غير المصرية. يقول:

من المعروف أن المصرية القديمة تضع اسم الإشارة بعد الاسم. أما في القبطية، فاسم الإشارة يسبق الاسم. فهل أثر هذا على وضعه في عامية مصر؟ مع وجود هذا الاحتمال، فإننا نرى أن هذا تطور داخلي بحث، لا أثر فيه للعامل الخارجي أو الأجنبي. وقد ذكر عبد المجيد عابدين أن اسم الإشارة يأتي للتبعية الوصفية بعد المشار إليه، في لهجة السودان كذلك. فيقال: الراجل دا¹²³.

13.2. تأخير أداة الاستفهام إذا كانت معمولا

تتميز الدارجة المصرية عن كل من الفصحى، وعدد من الدوارج الأخرى، بترتيب الاسم الدال على الاستفهام. فهو لا يرد في بداية الجملة، بل في نهايتها. نجد مثلا: رحت فين؟¹²⁴؛ في مقابل فين مشيت؟ من الدارجة المغربية، وأين ذهبت؟ من العربية الفصحى. وبما أن هذه الخاصية لا توجد في النوعيات العربية الأخرى، إن على المستوى الفصيح أو الدارج؛ فهي تشكل مرشحا أوفر حظا من الخصائص السابقة، لأن تكون نتيجة لتأثير خارجي من لغة مجاورة، مثل القبطية. غير أن الباحث لا يرى في هاته الظاهرة أي تأثير خارجي على اللغة العربية، استنادا إلى الأسباب التالية¹²⁵:

- تأخير أداة الاستفهام ليس هو القاعدة في القبطية.
- القاعدة في العامية المصرية ليست هي تأخير أداة الاستفهام دائما؛ إذ نجد كلا من منين جيت؟ وجيت منين؟
- وجود هذه الظاهرة في عربية سورية، حيث يقولون مثلا: الكتاب منين؟

ومن هنا؛ نرى أن الباحث، من أجل دحض أطروحة التأثير الخارجي، يعتمد معيار توفر الخاصية النحوية في لهجات لم يسبق لها أن احتكت باللغة القبطية، كعربية سورية. وهو يذهب إلى أن تأخير اسم الاستفهام في بعض الأمثلة يعود، في حقيقة الحال، إلى إعادة تنظيم الجملة، وتغيير هندستها، نتيجة للتخلص من الإعراب¹²⁶:

لنأخذ مثلا الجملة الفصحى «قابل محمد عليا». فيمكننا أن نسأل عن المفعول فنقول: «من قابل محمد؟» وعن الفاعل، فنقول: «من قابل عليا؟». والفرق واضح بين الجملتين نظرا لوجود الإعراب. فإذا حولنا هاتين الجملتين إلى العامية المصرية، فقلنا: «مين قابل محمد؟»، و«مين قابل علي؟»؛ لم يكن هناك دليل على وظيفة كل كلمة في الجملة. ولهذا استعاضت العامية

¹²³ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 146 - 147.

¹²⁴ المرجع نفسه، ص. 139.

¹²⁵ المرجع نفسه، ص. 143 - 144.

¹²⁶ المرجع نفسه.

في العيد¹¹⁴». وهو يشير أن هذه «لهجة مشهورة معروفة في كتب النحو باسم لغة "أكلوني البراغيث" ولها شواهد كثيرة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي الفصيح¹¹⁵». قال سيبويه: «واعلم أن من العرب من يقول: ضربوني قومك، وضرباني أخواك، فشبها هذه بالتاء التي يظهرونها في قالت فلانة، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة، كما جعلوا للمؤنث. وهو قليل¹¹⁶».

ويلاحظ رمضان عبد التواب أن «هذه الظاهرة هي الشائعة في كلامنا، في اللهجات العربية الحديثة؛ كقولنا مثلا: ظلموني الناس¹¹⁷». وهو يعتقد أن معاملة الفعل بهذه الطريقة هو الأصل في اللغات السامية؛ وأن هذا الأصل، إن كان ترك في العربية الفصحى، فقد بقيت منه في العربية أمثلة في القرآن والحديث والشعر الجاهلي واللهجات المختلفة¹¹⁸. وقد أدرج الحريري هذا النمط من تطابق الفعل مع الفاعل ضمن لحن العامة¹¹⁹. ورد عليه الخفاجي، فقال: «وليس الأمر كما ذكره. فإن هذه لغة قوم من العرب يجعلون الألف والواو حرف علامة للتثنية والجمع، والاسم الظاهر فاعلا... وقد وقع منها في الآيات والأحاديث ما لا يحصى¹²⁰».

12.2. تأخير اسم الإشارة عن المشار إليه

من الخصائص التي تنفرد بها الدارجة المصرية، في دراسة أحمد مختار عمر، تأخير اسم الإشارة عن المشار إليه. فنجد «الولد ده»، بدلا من «هذا الولد»¹²¹. ويشير عبد الواحد وإفي كذلك إلى هذه الظاهرة «من القواعد المستحدثة كذلك ما تسير عليه اللهجة المصرية وبعض اللهجات العربية في العصر الحاضر من تأخير اسم الإشارة على المشار إليه في بعض التراكيب (الولد دا، أي هذا الولد)¹²²». فهل نتجت هذه الخاصية التي لا تعرفها كثير من اللهجات الأخرى، ومن ضمنها الدارجة المغربية، نتيجة لتأثير قبضي؟ أم نتيجة لتطور داخلي؟ يميل أحمد مختار عمر إلى افتراض التطور الداخلي، أكثر من التأثير الخارجي.

¹¹⁴ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 166.

¹¹⁵ المرجع نفسه.

¹¹⁶ عمر بن عثمان سيبويه، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط. 3، 1988، ج. 2، ص. 40.

¹¹⁷ رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مرجع سابق، ص. 99.

¹¹⁸ المرجع نفسه.

¹¹⁹ القاسم بن علي الحريري، درة الغواص في أوهم الخواص، مطبعة الجوائب، قسنطينية، 1299 هـ، ص. 65-66.

¹²⁰ شهاب الدين أحمد الخفاجي، شرح درة الغواص في أوهم الخواص، مطبعة الجوائب، قسنطينية، 1299 هـ، ص. 152.

¹²¹ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 139.

¹²² عبد الواحد وإفي، مرجع سابق، ص. 11. قارن رسم عبد الواحد وإفي «الولد دا» برسم أحمد مختار عمر

«الولد ده»، مما يبين أننا بصدد لهجتين؛ الأولى تسقط الهاء، والثانية تثبتها.

آكل» بدلا من «قا آكل». ومن أهل مراكش من يقول «كائن آكل» بدلا من «كأكل». فيستدل من ذلك أن «قا» أصلها «قاعد»، و«كا» أصلها «كائن»¹¹¹.

وهنا أيضا يقف الباحث عند بعض الخصائص التي لا نستطيع أن نقاربها في لهجة معينة، إلا بعد مقابلتها بما يوجد في لهجة أخرى، مثل الحاء التي ترد في الفعل المضارع للدلالة على الزمن المستقبل:

أما الحاء؛ فتبعتها أصعب، لاسيما بالنسبة إلى لغة عامتنا، مثلما بالنسبة إلى اللغة الفصحى، وربما جزم باستحالة غير متردد. لكننا من مقابلة لهجة المصريين بلهجة السوريين يتيسر لنا معرفة أصلها بسهولة، لأن البيروتيين يقولون بمعنى الاستقبال القريب «راح اشرب» أي «سأشرب». واللبنانيون يقولون «رايح أشرب» بالمعنى عينه. فمن مقابلة هذه السلسلة «ح» ثم «رح» ثم «رايح» يتضح جليا أن الأصل في هذه الحاء هو صيغة اسم الفاعل من فعل ... «راح» أي مضى. وأما «ماش» و«غاد» في لغة مراكش فواضح أن أصلهما «ماشي» و«غادي»¹¹².

ومن هنا؛ نرى أن المجموعة المكونة من اسم الفاعل والفعل المضارع، في نحو: غادي يكتب، ماشي يكتب، عمال يكتب، رايح يكتب... ليست مستخدمة في العربية الفصحى، بيد أنها ذات إنتاجية مرتفعة في لهجات الدارجة، إلى حد أن اسم الفاعل، الذي هو كلمة تامة «حرة»، يندمج داخل الفعل المضارع، ليصبح صريفة مربوطة تشكل مكونا من مكونات الفعل المضارع ليس غير، في نحو غيككتب، وعميككتب، وحيككتب¹¹³...

11.2. إلحاق علامة التنثية أو الجمع بالفعل

من المعروف أن الفعل في العربية الفصحى يتطابق مع الفاعل من حيث مقولة الجنس، بينما لا يتطابق معه من حيث مقولة العدد. فهو يأخذ حالة الأفراد إن كان الفاعل مفردا، ويلزمها حتى إن كان الفاعل مثنى أو جمعا.

وخلافا لذلك؛ يجد أحمد مختار عمر، في المستوى الأدبي، حالات تلحق فيها علامة التنثية أو الجمع الفعل، إذا أسند إلى فاعل مثنى أو جمع؛ كقول ابن الداية: «اشتھوا علي صبياني حلوى

¹¹¹ المرجع نفسه. وماذا عن الباء في الصيغة «بيكتب»؟ هل تعود إلى اسم الفاعل «بادئ»، في «بادئ يكتب»؟ وعن التاء في «تيكتب»؟ هل ترجع إلى اسم الفاعل «ثابت» في «ثابت يكتب»؟

¹¹² المرجع نفسه، 36-37. يقول محمد الحلوي: «أما ماشي هذه؛ فتستعمل محل السين الداخلة على المضارع. فيقال: ماشي تسافر غدا». محمد الحلوي، مجم سابق، ص. 15.

¹¹³ يكثر استعمال المجموعة المكونة من اسم الفاعل والفعل المضارع في الوجهة أيضا، نحو باغي يكتب، وعاوز يكتب... ينظر مفهوم الوجهة: إبراهيم الكعاك، «التعدية، الوجه والابتداء»، فكر، ع. 3، الرباط، 2005، ص. 89.

ويقول محمد الحلوي: «تلتزم العامة... التاء في كل مضارع، وتفتتحه بها. والتزامها هذا قاعدة لا تختلف في كل الأفعال. تسمعهما وهي تقول:... هو (تا) يتعلم، وهي (تا) تكتب. وقد تأتي (كا) بديلا عنها في الاستعمال. ومعناها: بدأ يتعلم، وبدأت تكتب»¹⁰⁸.

فهل نستطيع أن نجد لهذه الصيغ الجهمية والزمنية الكثيرة والمتنوعة في لهجات الدارجة الكلمات التامة التي تولدت عنها؛ مما يعزز المقاربة التاريخية التي يدعو إليها كل من حفني ناصف وجرجي زيدان في عمليهما الرائدتين؟ يلحظ جرجي زيدان، بالفعل، توافر هذه الصيغ الفعلية في الدواجر العربية:

فالمتأمل في لغة عامتنا [...] يرى هنالك مشتقات وتصاريح فعلية لم تكن في اللغة قبلا، أعني لم يتكلم بها العرب. منها قولهم: «بعرف»، بمعنى أعرف الآن. وهي تدل على الحال ولا تتعداه، فتخالف المضارع من هذا القبيل [...] وهناك صيغة أخرى تفيد الحال مع الاستمرار، كقولهم «عمياكل»... وأهل العراق يقولون في هذا المعنى «قا آكل» أو «قا أكتب». وأهل مراكش يقولون «كا آكل» أو «كا أكتب». ويستعمل المصريون بمعنى الاستقبال القريب قولهم «حاشرب» [...] ويقول أهل مراكش بهذا المعنى: «ماش أشرب» أو «غاد أشرب»¹⁰⁹.

ويهدف الباحث، كما في شين الاستفهام، إلى أن يحدد الأصول التاريخية التي تطورت عنها هذه التراكيب النحوية. يقول:

فإذا نظر أجنبي في هذه الصيغ المحدث في لغة العامة، وهو لا يعرف إلا اللغة الفصحى، فإنه يحكم لأول وهلة أن الباء و«عم» والحاء و«قا» و«كا» إنما هي أدوات، مثل أحرف المضارعة وسين الاستقبال وما شاكل. ولا يخطر له أنها بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها. أما نحن الآن؛ فنظرا لكثرة المواد العامة لدينا، ولسهولة حصولنا على حلقات موصلة بين هذه البقايا وأصولها، يسهل علينا استقرارها وتتبعها إلى تلك الأصول¹¹⁰.

إن باستطاعتنا، تبعا لجرجي زيدان، أن نصف كل لهجة من لهجات الدارجة وصفا شاملا وكافيا؛ لأننا نملك، من جهة، لهجات عديدة أخرى، كي نقارنها بها؛ ولأننا نعرف تمام المعرفة، من جهة أخرى، الأصل التاريخي الذي تطورت عنه، والذي هو العربية الفصحى. يقول:

فإن عامة البيرويين تقول بمعنى الحال والاستمرار «عمال آكل» وهي تؤدي معنى «عمياكل» [...] تماما... فتأمل كيف تحولت «عمال» إلى «عم»... ومن أهل بغداد من يقول: «قاعد

¹⁰⁸ محمد الحلوي، معجم سابق، ص. 13.

¹⁰⁹ جرجي زيدان، مرجع سابق، ص. 36. ليست صورتان «كا آكل» و«كا أكتب»، حسب علمنا، مستعملتين الآن في دارجة المغرب. فالمستعمل هو صيغة النون «كناكل» و«كانشرب». يقول محمد الحلوي: «لا تستعمل الهمزة للمتكلم في الدارجة. فالنون وحدها التي تستعمل للجمع وللمتكلم الواحد». محمد الحلوي، معجم سابق، ص. 17.

¹¹⁰ جرجي زيدان، معجم سابق، ص. 36.

وردت في نقوش كنعانية من شمالي سورية ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد¹⁰³. كما يذكر عبد الواحد وافي أن اللغة الفينيقية كانت تستعمل الفعل المساعد، بشكل مكثف، للدلالة على الاختيارات الزمنية¹⁰⁴. ولقد انتبه إلى هذه الطريقة المتميزة للهجاء الدارجة في الدلالة على الزمن العديد من الباحثين المحدثين. فهذا الباحث يقول:

دخل في معظم هذه اللهجات كذلك زمن جديد للمضارع للدلالة على الاستمرار. وقد اختلفت اللهجات في الإشارة إلى هذا الزمن: فبعضها يشير إليه بباء في أول الفعل (بيكتب في بعض اللهجات المصرية)، وبعضها يشير إليه بكاف قبل الفعل (كيكتب في لهجة المغرب)، وبعضها يشير إليه بكلمة "عم": (عم يكتب في كثير من اللهجات المصرية والعراقية)، أو بكلمة "راه": (راه يكتب في لهجة المغرب)، وتستخدم هذه الأداة كذلك في مصر ولكن للدلالة على الاستقبال وتقلب هاؤها حاء، فيقال: راح يكتب¹⁰⁵.

ويذكر فارس الشدياق من اصطلاحات دارجة أهل مالطة أنهم «يعبرون عن الدخول في الفعل بلفظة ساير، وهي نظير قول الشام ومصر رايح، فإذا قال المالطي أنا ساير نساfer فهي كقول الشامي أو المصري: أنا رايح أسافر»¹⁰⁶. ويعقب شكيب أرسلان على هذا الرأي بقوله:

يظهر أن ساير هذه كانت مستعملة في المغرب. وقد نحتوها فبقي منها سين مفتوحة فيقولون عن شخص مثلاً في حال الأكل: سياكل، وأحياناً يقلبونها تاء: تياكل. ويقولون في المغرب في مثل هذه الحالة: كياكل، وأظن أن الكاف هنا منحوتة من كايين. وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة عمال. فبدلاً من أن يقول هو عمال ياكل، نجد يقول عياكل¹⁰⁷.

¹⁰³ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 177.

¹⁰⁴ عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص. 35.

¹⁰⁵ المرجع نفسه، 11. تختلف مع الباحث في الكلمة «راه». فهي مأخوذة في تصورنا من الرؤية، أي المشاهدة البصرية، بمعنى «انظر إليه يكتب». وليست لها أي علاقة بالفعل «راح». يقول محمد الحلوي: «ره ... فعل أمر من رأى. ومعناها: انظر. تقولها العامة خطاباً للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع». محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 91. لاحظ أن الحلوي يكتب «ره»، بدون ألف. فهنا أيضاً لدينا مشكل في التمييز بين الحركات الطويلة والقصيرة.

¹⁰⁶ أحمد فارس الشدياق، الواسطة إلى معرفة مالطة، تونس، مطبعة الدولة التونسية، 1283 هـ، ص. 61.

¹⁰⁷ شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض المتوسط، دار الكتاب العلمية، بيروت، دت، ص. 293. وينظر أيضاً: أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 47. وهذه الكاف موجودة في «وثائق مستعربي طليطلة». فعلي مكي يلحظ في هذا المتن «استخدام السابقة حرف الكاف المتصل بالفعل المضارع للدلالة على الحاضر أو المتصل أو المتكرر الحدوث في مثل: حيث كتدبج الكباش». علي مكي، مرجع سابق، ص. 53. ثم يخلص إلى أن هذه الصيغة «كانت شائعة في عامية الأندلس، وما زالت مستخدمة في العامية المغربية». المرجع نفسه. لاحظ أن الكاتب يخطئ في كتابة الذال من «يدبج». وسوف نعود إلى هذه الخاصية في الفقرة [3].

إلى النفوذ القبطي. وأي قبطية في "ما"؟ وأي قبطية في "تكتب"؟ أما التركيب نفسه؛ فيبدو أنه هو التركيب العربي المكون من "ما" النافية، والفعل المضارع⁹⁷. ويقترح الباحث لمعالجة مشكل التأويل الدلالي حلا ينبني على الربط الأنف الذكر بين النفي وبين الاستفهام، بأن «يكون النفي قد خرج هنا عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر هو الاستنكار أو التوبيخ المدلول عليه بالتنعيم المعين للجملة. فكأن الجملة تعني: لماذا لا تكتب؟»⁹⁸.

ويستدل الباحث على عروبة هذا التركيب بأنه يتكون من عناصر كلها عربية، مثل «ما»، والفعل المضارع «تكتب». كما يعتمد، زيادة على ذلك، معيار الاستعمال في لهجات أخرى، ولاسيما لهجات البلدان البعيدة عن مصر. فهو يضيف « نفس الاستعمال موجود في عربية فلسطين: ولكن أنت بتتعب لمين... ما يتعب أبو العيال؛ وفي عربية دمشق، بل وفي عربيات أخرى غير متاخمة، كما في عربية بغداد: لك ما تقوللي أنت عملت إيش »⁹⁹.

10.2. الزمن

يتناول أحمد مختار عمر الزمن من خلال ظاهرة اقتران الباء بحرف المضارعة، في المستوى العامي. ويمثل الباحث لهذه الظاهرة في الدارجة المصرية بقولهم: ¹⁰⁰ بِيَكْتَبْ .

ومعلوم أن تعريف الفعل في اللغة العربية، وفي اللغات السامية عموماً؛ لا يركز على التقابل الزمني، بل هو قائم على التقابل الجهي¹⁰¹ بين فعل انتهى تحقيقه: الفعل الماضي، وفعل لم ينته تحقيقه: الفعل المضارع. ولذلك؛ يصلح الفعل المضارع للزمن الحاضر والزمن المستقبل. وهناك، إلى جانب هاتين الصيغتين الفعليتين، مخصصات، مثل: السين وسوف ولن، تجعله خالصاً للاستقبال¹⁰².

إن التقابل بين صيغتي الفعلين الماضي والمضارع لا يكفي وحده للتعبير عن المصفوفة الكاملة للمعاني الجهمية والزمنية. ولذلك، تتوسل اللغة العربية بكلمات مساعدة. علماً بأن هذا الاستعمال للكلمات المساعدة من أجل الدلالة على الزمن النحوي خاصية قديمة في اللغات السامية. والباحث يشير إلى أن « استخدام هذه الباء مع المضارع قديم جداً في اللغات السامية. فقد

⁹⁷ المرجع نفسه.

⁹⁸ المرجع نفسه.

⁹⁹ المرجع نفسه. نلاحظ في هذه الأمثلة تأخير اسم الاستفهام إلى آخر الجملة، خلافاً للفصحى، وللدارجة المغربية أيضاً. وسوف نتناول هذه الخاصية في الفقرة [§ 2. 13].

¹⁰⁰ المرجع نفسه، 177.

¹⁰¹ نستعمل الكلمة العربية «جهة» في مقابل المصطلح الأجنبي (aspect).

¹⁰² ينظر: إبراهيم الكعك، «الكلمات الفعلية في اللغة العربية»، فكر، ع. 1، 2003.

إن حفني ناصف، كما يظهر حتى من عنوان رسالته، يعتمد المنهج التاريخي، مثل جرجي زيدان؛ الشيء الذي يجعل كلا الباحثين يسعى إلى تحديد أصل الشين في العربية الفصحى. فجرجي زيدان يرى أن أصل قولهم: «ماش»، بمعنى «لا شيء»، هو «ما شيء»⁹¹. بينما يقترح حفني ناصف أن تكون هذه الشين «مقتطعة من كلمة شيء. فأصل ما ينفعش مثلاً، ما ينفع شيئاً. ثم صار إلى ما سمعت»⁹². وإضافة إلى ذلك، تدل هذه الشين لديه على نوع من الارتباط بين النفي من جهة، وبين الاستفهام من جهة أخرى. فهو يضيف: «ولا تزداد هذه الشين عند العامة إلا في النفي، كما رأيت؛ أو في الاستفهام، كقولك: فلان سافر؟ أي هل سافر فلان؟»⁹³. ومن هنا؛ نرى أن نحو النفي، كما في الاستفهام، يبدو متماثلاً في لهجات الدارجة؛ في حين أنه مختلف كل الاختلاف عما تسير عليه العربية الفصحى⁹⁴.

9.2. استعمال ما كسابقة تفيد الأمر

يعطي أحمد مختار عمر مثلاً لهذا الاستعمال قولهم في المستوى العامي: ما تكتب، بمعنى الأمر: أي اكتب⁹⁵. وهذا التركيب المكون من «ما» والفعل المضارع معروف في الفصحى؛ لكنه لا يستخدم فيها بهذا المعنى. غير أنه ليس مستعملاً، حسب علمنا، في الدارجة المغربية. ولذا؛ فنحن نهتم اهتماماً خاصاً بمعرفة إذا ما كان ناجماً عن تأثير خارجي. وبالفعل؛ يركز الباحث مناقشته على فحص الرأي الذي يرجع هذا التعبير إلى تأثير قبلي، استناداً إلى أن:

استعمال ما مع المضارع للدلالة على الأمر لا يمكن أن يرد إلى اللغة الفصحى. كما لا يمكن أن يرد إلى أي استعمال سامي أو أي لهجة عربية. ومعنى هذا أنه من الصعب رد هذا الاستعمال العامي لعربية مصر، رده إلى عامل التغيير الداخلي. فتكون القبطية هي أقرب المؤثرات على عربية مصر في هذا الاستعمال⁹⁶.

ولا يصلح هذا الزعم، لدى أحمد مختار عمر، لأن يكون دليلاً، أو شبه دليل حتى، على الأثر القبطي، يقول: «ولا يكفي في نظرنا أن نجد ظاهرة غريبة في عربية مصر لنسارع فننسبها

⁹¹ جرجي زيدان، مرجع سابق، ص. 33. ويقول محمد الحلوي: «ماشي ... تستعمل بمعنى ليس للنفي، في قولهم: ماشي ناعس». محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 15.

⁹² حفني ناصف، مرجع سابق، ص. 31.

⁹³ المرجع نفسه.

⁹⁴ لا يختلف التعبير عن النفي في لهجات الدارجة باعتبار الاختيار الزمني، حيث نجد في مقابل التراكيب الفصيحة: لم يكتب، لا يكتب، لن يكتب؛ التي تدل فيها «لم» على الزمن الماضي، و«لن» على الزمن المستقبل: ما كتبش، ما يكتبش، ما يكتبش؛ حيث لا تدل «ما» والشين إلا على النفي فقط.

⁹⁵ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 139.

⁹⁶ المرجع نفسه، 140.

بعبارة أخرى؛ إذا لم نتعرف بسهولة على الأصل الفصحى لكلمة معينة من الدارجة، يجب علينا أن نبحث في اللهجات الأخرى عن التراكيب المساوية. ثم سوف تدلنا، بعد ذلك، المقابلة وحدها على التركيب الأصلي. ما وجه الاختلاف بين «أيش» و«آش» و«شو» و«شنو»، وغيرها من المفردات التي يذكرها جرجي زيدان في هذا النص؟ لا فرق. فكل كلمة منها تستعمل حقا داخل لهجة خاصة من لهجات الدارجة. لكنها كلها مفردات جاءت من نفس الأصل. وهي تدل على نفس المعنى. كما تملك نفس القيمة النحوية داخل نسقها اللهجي.⁸⁶

8.2. النفي

تلعب «شي» دورا هاما داخل العربية اللهجية، وذلك في فضاءات نحوية متباينة. وسوف نتناول هنا مظهرا آخر لتطور هذه الكلمة، يتعلق بالنفي أكثر من الاستفهام.⁸⁷ فحفني ناصف يلاحظ أن من مميزات العربية الحالية «زيادة الشين في لغة العوام... يقولون: ما تكلمنيش فإني ما كلمتكش، ودا ما ينفعش»⁸⁸. ويذهب عبد الواحد وإفي أيضا إلى أن من القواعد المستحدثة في العربية «إضافة حرف شين للدلالة على النفي أو توكيده»⁸⁹. وهو يسوق لذلك الأمثلة التالية: ما يرضاش، ماهوش كويس أو مش كويس.

يتم التعبير عن النفي، في العربية اللهجية، دائما بواسطة الحرف «ما». أما الشين؛ فهي ليست ضرورية. وهناك العديد من اللهجات والتراكيب التي لا تستعمل فيها الشين البتة. ولهذا؛ فهي، عند عبد الواحد وإفي تدل على «توكيد» النفي فقط؛ ولدى حفني ناصف، مجرد حرف زائد.⁹⁰

آشنو؟ التي أصلها «آش نو» التي أصلها «آش نهو» التي أصلها الأصل «أي شيء هو» كما لا يخفى، المرجع نفسه، ص. 98.

⁸⁶ يجب أن نضيف إلى اللاتحة الكلمة «إيه» المذكورة في هامش سابق.

⁸⁷ هناك عدة كلمات أخرى تستعمل في الدارجة بشكل مختلف تماما عن الاستعمال الفصحى؛ نحو «شأن» و«حال»... فهذه الكلمة الأخيرة مثلا تتركب، من «شي»، مع حروف الجر، كالباء في قولنا «بحال»؛ ثم مع الشين، في «بشحال؟». أما «شأن» التي خففت همزتها لتصبح «شأن»؛ فهي تتركب، كذلك، مع «على»، في قولهم «علشان شو؟»، و«علشان إيه؟»، بمعنى «لماذا؟». ومقارنة هذه التراكيب بمقابلاتها الفصيحة لا تترك مجالاً للشك بأن نحو الدارجة متميز كلية عن نحو الفصحى.

⁸⁸ ناصف حنفي، مرجع سابق، ص. 31.

⁸⁹ عبد الواحد وإفي، مرجع سابق، ص. 115.

⁹⁰ يتوهم محمد الحلوي أن الذي يدل على النفي في قولهم: ما عملناش، ما قلناش؛ هو الكلمة «ناش» بأكملها. محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 15. ومن الواضح أن النون تدل هنا على الشخص، وأن الذي يدل على النفي هو الشين وحدها؛ سواء أكانت ساكنة: ما عملناش، ما قلناش؛ أم مكسورة: ما عملناش، ما قلناش.

إن الوصف اللغوي، عند جرجي زيدان، وصف تاريخي بالأساس. فكل ما في اللغة يملك، من غير شك، أصلاً ما تطور عنه من مرحلة سابقة، وفقاً لقوانين مضبوطة تتحكم في حدوث مثل هذه التطورات. وكلما اعترضت سبيلنا صعوبة في تحليل أي تركيب لغوي، سوف نجد الحل الملائم بمجرد أن نعرف ما هو أصله التاريخي. ويقتضي هذا المنظور، في تصور الباحث، أن تكون الألفاظ النحوية الدالة على معنى في غيرها، مثل حروف الاستفهام، مجرد بقايا أو آثار لتطورات أصابت كلمات تامة دالة على معنى في نفسها، مثلما حصل للكلمة التامة «شيء»، التي تبدلت إلى صورة الشين عبر تطور تاريخي مستمر ومتسلسل.

فالعلاقة بين الكلمة «شيء»، من ناحية؛ وبين الشين، من ناحية أخرى؛ لا تحتاج، عند جرجي زيدان، إلى أن تكون علاقة مباشرة بالضرورة؛ إذ يجوز أن تتوسط، بين تلك الصورة الأصلية الموجودة سلفاً في الفصحى، وهذه الصورة المستحدثة المتوفرة الآن في الدارجة، حلقات انتقالية. ولذلك؛ فهو يرجع حرف الشين بدايةً إلى الكلمة «شو». يقول:

فهذا إذا كان ممن يذهبون إلى أن الألفاظ كذا أنزلت، لا يرى بدا من التسليم أن هذا الحرف إنما وضع للاستفهام، لأنه يراه قد ورد كثيراً في لغات بيروت ولبنان، كقولهم: «شُسمك»، بمعنى «ما هو اسمك»، وما شاكل. وإن كان ممن يعتقدون الخلاف، ويعلمون أن جميع الأدوات الدالة على معنى في غيرها، إنما هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها، يأخذ في البحث عن ألفاظ تتضمن هذا المعنى وهذا الحرف. وربما عثر بعد العناء العظيم على لفظة «شو» التي يستعملها البيروتيون بمعنى «ماذا»، فيحكم أن تلك الشين منحوتة منها. وهناك تنقطع سلسلة بحثه فيقف متحيراً أسفاً [...] وهو على يقين أن ثم حلقات قدر فقدانها⁸⁴.

ويظل التوصل إلى الصورة الأصلية لشين الاستفهام في هذه اللهجة اللبنانية، حسب الباحث، رهيناً بمقارنة الكلمة «شو» مع مقابلاتها في اللهجات الأخرى:

أما نحن الآن، نظراً لبقاء تلك اللغة متداولة بيننا، ولدينا منها لهجات عديدة، فيسهل علينا تتبع هذه اللفظة إلى أصلها تماماً. فإن اللبنانيين يعبرون عن «شو» البيروتية بقولهم: «آيش»، وبعضهم يلفظها «إيشو»، وبعض البيروتيين تصرفوا بها على طريقة غريبة فقالوا: «شونوه»، والسودانيون يقولون: «شونو». فمن المقابلة يتضح جلياً أن الأصل فيها جميعها عبارة مؤلفة من ثلاثة ألفاظ مستقل أحدها لفظاً ومعنى. وهي: أي شيء هو⁸⁵.

⁸⁴ المرجع نفسه، ص. 22.

⁸⁵ المرجع نفسه. لعل وجود النون في بعض هذه الصور، نحو: شنو، شنوه، يدل على أن الأصل يتضمن التنوين وبالتالي الإعراب؛ كما يدل وجود الهاء على أن هذا الأصل يتضمن ضمير الغائب هو. جاء في شرح الكلمة «آشنو» التي تحمل الرقم 12 ضمن معجم الصبيحي «هي أي شيء هو؟ ففتحوا وركبوا وارتكبوا كل أنواع التخفيف، حتى صارت الكلمات الثلاث كلمة واحدة». أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 99. ويقول في مكان آخر «وقد دخلت آش أو إيش كثيراً من كلام العامة على التركيب مع كلمة غيرها. ومنه

قريش، يكون في جيش وأي جيش، من آل قحطان وآل إيش⁸⁰.

إن «أيش» لا ترد داخل النصوص الأساسية في المتن التقليدي؛ والتي هي، كما نعلم، القرآن الكريم والشعر الجاهلي. ولذلك؛ فقد طرحت لمقاربة الرواة وعلماء اللغة مجموعة من المشاكل المستعصية، سواء من حيث تحديد معناها، أو طريقة تكوينها، أو مدى جواز استعمالها في الفصحى. بل إن هذه الصعوبات قد تكون بلغت إلى مستوى كتابة هذه الكلمة، وبالتالي قراءتها. فأغلب الظن أن الكلمة «أيش»، التي نجدها عند ابن السيد وغيره من القدماء، كانت تكتب بدون شكل طبعا، وبدون همزة أيضا، أي بالألف فقط، كما يلي «أيش». وهذه الطريقة في الكتابة تسمح بتنويعات نطقية متعددة، غير تلك التي يوصل إليها التحليل الكلاسيكي⁸¹.

وقد انتبه، في المقابل، اللسانيون المحدثون إلى استعمال الكلمة «أيش»، في لهجات الدارجة، بدءا بالعمل المبكر لجرجي زيدان. والباحث ينطلق، في حقيقة الأمر، من فحص الشين الدالة على الاستفهام في الكلمة «شلون»، من الدارجة اللبنانية. وغير خاف أن هذه الشين المنحدرة من «شيء»، والتي نجدها في «أيش»، وفي «شلون»؛ تظهر كذلك داخل العديد من الكلمات الأخرى، وفي كثير من دواجر العربية؛ مثل «شكون»، و«شحال»، و«كيفاش» و«ليش» و«قديش»، إلخ؛ مما يوحي بأنها تلعب دورا أساسيا في التراكيب الاستفهامية، وفي نحو الدارجة بشكل عام⁸². يقول جرجي زيدان :

يستعمل الدمشقيون لفظة «شلون» [...] بمعنى «كيف» للاستفهام [...] فلو فرضنا أن لغة عامتنا جمعت في هذه الأيام بغية حفظها لغة كتابية، وأن أحد علماء اللغة في القرن القادم أو ما بعده قصد البحث في ألفاظ اللغة بحثا تحليليا، فوصل إلى هذه اللفظة، ماذا ترى يكون رأيه فيها؟ لا أظنه مرجحا كونها مركبة من أصلين فأكثر. وربما اهتمى بعد إجهاد الفكرة إلى أنها مركبة من «لون» والشين، ومن تحليل معناها يتبين له أن هذه الشين تتضمن معنى الاستفهام، إذ أنه يقصد من استعمالها مع «لون» الاستفهام عن الكيفية. لكنه عند ذلك لا يكون فعل شيئا لأنه لم يزل جاهلا معنى هذه الشين الأصلي⁸³.

⁸⁰ أحمد بن محمد الصبيحي، مرجع سابق، ص. 98. ونفهم من الجهد الذي يبذله الرواة في البحث عن معنى هذا النص أنهم واجهوا شيئا من الصعوبة في الوصول إلى التأويل المناسب. حتى ذهب بعضهم إلى أن «آل إيش» قوم من الجن! على أننا ما زلنا نسمع في الدارجة المصرية «يا ابن الإيه»، وفيها معنى المدح والتعظيم أيضا. ⁸¹ الكلمة التي عند أحمد مختار عمر هي «إيش». وهو يحيل إلى ابن السيد الذي يتحدث عن «أيش»، دون أن يلحظ الفرق. وتسمح الصورة الكتابية «إيش» الخالية من رسم الهمزة بطرق متباينة في النطق: «أيش»، «إيش»، «أيش»...

⁸² يذكر محمد الحلوي، بالنسبة إلى اللهجة المغربية، باش، ومناش، وفاش، وكيفاش، وفوقاش. محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 15.

⁸³ جرجي زيدان، الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية، بيروت، مطبعة القديس جاورجيوس، 1886، ص. 21.

الله يستعمل هذا اللفظ كثيرا، وقد وقع مثله لكثير من أفاضل العلماء⁷⁴. نرى أن «إيش» كانت كلمة كثيرة الاستعمال في اللغة العربية، وهذا حتى في السياقات التعليمية الرسمية التي نتوقع فيها، بدلا من ذلك، ورود كلمات من النسق الفصيح.

يقول ابن السيد في معرض حديثه عن بعض الكلمات التي حذفت منها الهمزة: «ترك همزها استخفافا، حين ركبت وطالت، كما تحذف [...] في قولهم: ويلمه وأيش لك ونحو ذلك⁷⁵». وجاء في تحقيق هذا الكتاب: «أصل ويلمه: ويل أمه، حذفت الهمزة تخفيفا ووصلت الكلمتان. وأصل أيش: أي شيء، خففت بحذف الياء الثانية من «أي» الاستفهامية، وحذف همزة «شيء» بعد نقل حركتها إلى الساكن قبلها ثم أعلل إعلال قاض⁷⁶». فطبقا لهذا التحليل؛ يمر تكوين «أيش» بإسقاط الهمزة من الكلمة «شيء⁷⁷»؛ لتصير، بعد ذلك، «شي»، أو «شاي»، أو «شي». وهذه إجمالاً هي الصور التي نلفيها الآن بالفعل في لهجات الداريجة الحديثة⁷⁸.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء اللغة قد انقسموا، في مقاربتهم لهذه الكلمة، فريقين: فذهب بعضهم إلى أنها مفردة فصيحة، في حين رأى البعض الآخر أنها ليست سوى كلمة مولدة. جاء عند الشهاب الخفاجي:

وقال بعض الأئمة: جنبونا ايش، فذهب إلى أنها مولدة. وقول الشريف في حواشي الرضي: إنها كلمة مستعملة بمعنى أي شيء، وليست مخففة منها، ليس بشيء، ووقع في شعر قديم أنشدوه في السير: من آل قحطان وآل ايش. قال السهيلي في شرحه: الايش يحتمل أنه قبيلة من الجن ينسبون إلى ايش. ومعناه مدح. يقولون: فلان ايش وابن ايش، ومعناه شيء عظيم⁷⁹.

ويقول أحمد الصبيحي «جاء في حديث أبي جعفر العقيلي من الصحابة رضي الله عنهم من حديث خطر بن مالك الكاهن: فقلنا له يا خطر: وممن هو؟ فقال: والحياة والعيش، إنه من

⁷⁴ المرجع نفسه: 1 / 74-75.

⁷⁵ عبد الله ابن السيد البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ج. 2، ص. 41.

⁷⁶ المرجع نفسه.

⁷⁷ يسجل أحمد مختار عمر في متنه خاصة «إهمال الهمزة بالكلمة، مثل جاني، بدلا من جاني؛ و شيء، بدلا من شيء ... وجاهم، بدلا من جاءهم». ثم يعلق قائلا: «وقضية تسهيل الهمزة في القديم بالحذف أو التخفيف أشهر من أن نشير إليها». أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 170. والذي يتبادر إلى الذهن أن الأمثلة «جاني» و «شيء»... أقرب إلى الداريجة منها إلى الفصحى.

⁷⁸ تكتب الكلمة «شيء» في متن أحمد مختار عمر أحيانا كالتالي: «شاي». وهو يصف هذه الطريقة بكونها «كتابة غريبة»، ويدرجها ضمن الأخطاء الإملائية. المرجع نفسه، ص. 185. ووضح أن الكاتب هنا، لجهله بالنسق الفصيح، يرسم الكلمة، بكل بساطة، كما ينطقها في دارجته.

⁷⁹ شهاب الدين أحمد الخفاجي، مرجع سابق، ص. 17.

توجد في الدارجة المغربية كذلك؛ واردة، كما يذكر الباحث، في الشعر القديم، ونصوص أخرى، كالحديث النبوي «فهل أنتم صادقوني؟»⁶⁹.

7.2. إيش

تناولنا في الفقرات السابقة فقدان الإعراب وانعكاساته المختلفة على صعيد البنية الصرفية للكلمات. وفي هذه الفقرة المخصصة لكلمة «إيش»، الكثيرة الاستعمال في الدواجر المعاصرة، سوف نرى أن فقدان الإعراب ليس الخاصية الوحيدة التي تميز الدارجة عن الفصحى. فثمة العديد من الخصائص الأخرى التي تستعمل بشكل مشترك في لهجات الدارجة اليوم؛ والتي نعثر عليها، مع ذلك، في نصوص تنتمي إلى مراحل سابقة، وصولاً إلى الحقبة الزمنية التي دونت أثناءها اللغة من عند العرب الفصحاء. ومن أبرز هذه الخصائص استعمال الكلمة «إيش»⁷⁰؛ حيث يلاحظ أحمد مختار عمر مثلاً أنها «ترددت كثيراً في الوثائق البردية ومخطوطات الأقباط، بمعنى: أي شيء»⁷¹.

وخلافاً لما قد نعتقد، ليست هذه الكلمة محدثة في النسق اللغوي العربي؛ إذ لاحظ وجودها للغويون القدماء أنفسهم، بل نص بعضهم صراحة بأنها مسموعة عن العرب. قال الشهاب الخفاجي: «إيش بمعنى أي شيء»، خفف منه، نص عليه ابن السيد في شرح أدب الكاتب، وصرحوا بأنه سمع من العرب⁷². وعندما يقول الأستراباذي في شرحه لشافية ابن الحاجب: «أيش المانع...»⁷³؛ يعلق محققو هذا الكتاب بقولهم: «أيش أصلها أي شيء ... والمؤلف رحمه

⁶⁹ المرجع نفسه.

⁷⁰ نسمع في بعض لهجات الدارجة، مثل المصرية، «إيه» بالهاء، ودون شين. وهي مركبة، كما سئزى، من اسم الاستفهام «أي»، وضمير الغائب «هو».

⁷¹ المرجع نفسه، ص. 178. ونجد في اللهجة المغربية «آش». وهي الكلمة رقم 11 في معجم أحمد الصبيحي، حيث نقرأ: «ويقال فيه ياش بالمغرب. هو إيش بمصر وغيرها نحتا من أي شيء»، أحمد بن محمد الصبيحي، معجم إرجاع الدارج في المغرب إلى حظيرة أصله العربي، سلا، منشورات الخزنة العلمية الصبيحية، 1990 [1939]، ص. 98. وهذه الكلمة واردة في معجم محمد الحلوي، مرجع سابق، ص. 14، «تستعمل العامة للاستفهام أدوات كثيرة للحال والمكان والزمان. فتستعمل آش بمعنى كيف؟ في مثل قولها: آش خبرك؟ آش حالك؟ وبمعنى ماذا؟ في مثل: آش عملت؟».

⁷² شهاب الدين أحمد الخفاجي، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح نصر الهوريني، القاهرة، المطبعة الوهبيّة، 1916، ص. 17.

⁷³ رضي الدين الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، تح. محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1982، ج. 1، ص. 7.

وهي «لهجة عربية صحيحة. وجاء عليها الحديث النبوي الشريف "كما تكونوا يولى عليكم"⁶¹. وهذه الخاصية الناجمة عن فقدان الإعراب أيضاً، تتطابق مع ما هو قائم حالياً في الدارجة المصرية والمغربية، ومعظم لهجات الدارجة المعاصرة⁶².

5.2. حذف أن المصدرية

يمكن أن نقارب في ارتباط مع غياب العلامات الدالة على الإعراب في الفعل المضارع، ملاحظة أحمد مختار عمر لحالات من المستوى الأدبي لا تستعمل فيها، مع ذلك، «ن» المصدرية التي تدخل على هذا الفعل في العربية الفصحى⁶³، نحو «نسيت أذكر لك»⁶⁴. فحذف «أن» في هذه التراكيب يؤدي إلى الاستغناء عن علامة نصب الفعل المضارع أيضاً. وهو يذكر أن «حذف أن لهجة عربية. وبعضهم يبقّي عملها بعد الحذف، وبعضهم يبطله»⁶⁵.

وهذه الظاهرة، التي توجد أيضاً في الدارجة المصرية والمغربية⁶⁶، وباقي الدواجر العربية؛ ترد، حسب الباحث، في معطيات قديمة «ومن ذلك قول الشافعي (ت 150 هـ): عليه يتعلم الصلاة، قبل تكمل الصلاة، وقول ابن زولاق (ت 387 هـ): لاشتتهيت تصفع نفسك»⁶⁷.

6.2. نون الوقاية واسم الفاعل المضاف إلى ياء المتكلم

تلحق، تبعاً لأحمد مختار عمر، اسم الفاعل المضاف إلى ياء المتكلم، في المستوى العامي، النون التي يسميها النحاة نون الوقاية؛ كما في نحو: «ضاربني»، و«فاهمني»⁶⁸. وهذه الخاصية التي

⁶¹ المرجع نفسه.

⁶² نسمع في بعض اللهجات، كالعراقية: يكتبون، وتكتبون وتكتبين، بإثبات النون مع الاستغناء عن فتحها. بيد أن هذه اللهجات لا تتوفر على الصيغة المقابلة؛ وهي الصيغة المجردة من النون: يكتبو، وتكتبو، وتكتبين. فليس ثمة، في كلتا النوعيتين، أي تقابل إعرابي.

⁶³ المرجع نفسه.

⁶⁴ المرجع نفسه، 186.

⁶⁵ المرجع نفسه،

⁶⁶ يقول محمد الحلوي « لا تحتاج العامة إلى أداة نصب أو جزم لتحذف نون المضارع. ففي يكتبون، تقول: التلاميذ (تا) يكتبو». محمد الحلوي، معجم الفصحى في العامية المغربية، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس، 1988، ص. 18. وسوف نتناول هذه التاء التي تدخل على الفعل المضارع في الفقرة [§ 2. 10].

⁶⁷ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 165.

⁶⁸ المرجع نفسه، ص. 177. لاحظ أن هذه النون من الحروف التي لا تدخل في الفصحى إلا على الأفعال. الشيء الذي يجعلنا نعتقد أن اسم الفاعل في الدارجة أكثر «فعلية» منه في الفصحى. ويؤيد هذه الملاحظة استعمال اسم الفاعل في التعبير عن الزمن (tense) والوجهة (modality)، كما سنرى في الفقرة [§ 2. 10].

3.2. المثنى

حينما تجمع الكلمة جمع المذكر السالم في النسق الدارج، تأخذ صورة واحدة، مهما تكن وظيفتها النحوية: هي صيغة الياء. وكذلك الحال في المثنى، إذ يلزم، هو أيضاً، صيغة الياء، أيّا كانت حالته الإعرابية.

ولا تتطرق دراسة أحمد مختار عمر إلى هذه الخاصية، على الرغم من أنها واردة ضمن المعطيات التي يعتمدها؛ حيث نجد: اثنين ودينارين⁵⁶. غير أنها مذكورة، في المقابل، عند حفني ناصف، حيث يقول: «المعروف أن المثنى يعرب بالألف رفعا وبالياء نصبا وجرا. ولغة بلحراث وخثعم إعرابه بالألف مطلقا فيقولون: إن أخواك يقبلان يداك وما بين حاجباك [...] وليس في مصر من يلزم المثنى ألفا بل كلهم يلزمون الياء فيقولون: حضر هنا رجلين ومعهما فرسين⁵⁷». ويستكشف الباحث جميع الإمكانيات التي قد تفسر اختيار صيغة الياء بالتحديد، قائلا: «ولا أعلم وجها لهذا النصب إلا أن يكون ذلك توسعا منهم في لغة هذيل [...] أو جريا على إمالة تميم وأسد وقيس⁵⁸».

وغني عن الذكر أن هذه الخاصية متوفرة في اللهجة المغربية أيضاً، وكذا في باقي لهجات الدارجة؛ لنفس السبب الذي رأيناه في جمع المذكر السالم: الاكتفاء بصورة واحدة من الكلمة. وهذه الصورة، رغم اشتغالها على الياء، ليست «منصوبة»، كما يتصور حفني ناصف، بل هي غير متصرفة للإعراب.

4.2. الأفعال الخمسة

إذا انتقلنا من إعراب الأسماء إلى إعراب⁵⁹ الأفعال؛ سوف نجد، ضمن الخصائص التي يسجلها أحمد مختار عمر في المستوى الأدبي، «حذف النون من الأفعال الخمسة، دون ناصب أو جازم⁶⁰».

⁵⁶ هناك شيء من الانتقائية في عمل الباحث. فهو لا يلحظ هذه الخاصية الهامة في نظرنا، مع أنه يورد جزءاً من وثيقة قديمة ترجع إلى القرن الثالث الهجري فيها «قد بعثت إليكم بصرة فيها اثنين وأربعين دينر شهرية لي [...] وفيها دينرين لأحمد». المرجع نفسه، ص. 109. لاحظ أن الكاتب يرسم الكلمة «دينار» بدون ألف؛ سواء في صورة المفرد «دينر»، أم صورة المثنى «دينزين». ولعل هذا المشكل مع الحركات الطويلة هو الذي رأيناه في الكلمة «مسكنتن» التي ترد في متن أقباط مصر بدلا من «مسكينة»، وفي الكلمة «در» التي ترد في متن مستعري طليطلة، مكان «دار».

⁵⁷ ناصف حفني، مرجع سابق، ص. 33.

⁵⁸ المرجع نفسه.

⁵⁹ نساير هنا القدماء في اعتبار الحركات والنون التي تدخل على الفعل المضارع علامات إعراب. وإلا؛ فهذه الصريقات (morphemes) لا تدل على الإعراب (case)، بالمعنى الضيق للكلمة، بل على الوجه (mood).

⁶⁰ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 165.

وجاء عند حفني ناصف « المشهور في الوقف على الاسم المنون أن يسكن آخره إذا كان مرفوعاً أو مجروراً ويقلب تنوينه ألفاً إذا كان منصوباً... ولغة ربيعة حذف التنوين والوقف بالسكون في جميع الأحوال⁵¹». ثم يعقب على ذلك مشيراً إلى الدارجة الحديثة بقوله «ولغة ربيعة هذه هي المستعملة في جميع البلاد العربية الآن⁵²».

ومن نافلة القول أن فقدان الإعراب، بوصفه واقعة نسقية، يقتزن بالعديد من الخصائص النحوية الأخرى، وخاصة في تصريف الأسماء والأفعال المعربة، والتي تعرب بالحروف بشكل أخص؛ مثل جمع المذكر السالم، والمثنى، والأفعال الخمسة...

2.2. جمع المذكر السالم

المعروف، في العربية الفصحى، أن إعراب جمع المذكر السالم يكون بالواو رفعاً، وبالياء نصباً وجراً؛ الشيء الذي يحتاج إلى صورتين متقابلتين: مسلمون، في الرفع؛ ومسلمين، في النصب والجـر.

غير أن أحمد مختار عمر يلحظ في متنه معطيات تنتمي إلى المستوى الأدبي أو الفصيح؛ ويلزم فيها هذا الجمع، رغم ذلك، الياء دائماً، في كل الحالات الإعرابية⁵³، نحو: الخراسانيـن. وهو يشير إلى أن هذه الخاصية، إما هي لهجة عربية قديمة أتت على ذكرها كتب النحو⁵⁴. ومثل فقدان الإعراب، توجد هذه الظاهرة كذلك في الدارجة المصرية، والدارجة المغربية، وباقي لهجات الدارجة المعاصرة. فلا حاجة فعلاً لنسق بدون إعراب إلا إلى صيغة واحدة: صيغة «مبنية» أو غير معربة⁵⁵.

⁵¹ ناصف حفني، مميزات لغة العرب وتخريج ما يمكن من اللغات العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك، المطبعة الأميرية، بولاق، 1886، ص. 35. لاحظ أن التغيير الذي يصيب الكلمة في الوقف يمس كلا من الحركة والتنوين.

⁵² المرجع نفسه.

⁵³ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 16. يقول: «وقد لوحظت هذه الظاهرة حتى في الوثائق المبكرة المنسوبة إلى قرّة بن شريك (ت 95 هـ)».

⁵⁴ المرجع نفسه. من النصوص التي نلّفها في متن أحمد مختار عمر: «وكانوا الخراسانيـن قد جابو مراكب». المرجع نفسه، ص. 186. لاحظ، إلى جانب جمع المذكر السالم على صورة الباء، تطابق الفعل وفقاً للغة «أكلوني البراغيث» التي سوف نتطرق إليها في الفقرة [2. 11]، واستعمال الكلمة الدارجة «جاب» التي سوف نرجع إليها في الفقرة [3. 3]. ولولا ورود الحرف «قد»، والذي هو من خواص الفصحى، لكان هذا النص دارجة صافية.

⁵⁵ هناك فرق آخر بين الصورة الدارجة، حيث النون ساكنة؛ والصورة الفصيحة، حيث هي مفتوحة. غير أن عمل أحمد مختار عمر لا يتضمن أي إشارة إلى هذا الموضوع، ربما لأن النصوص التي اشتغل عليها ليست مشكولة.

بين إهمال الإعراب من جهة؛ وبين خصائص الدارجة، من جهة أخرى⁴⁵، فيقول:

لا شك أن إهمال الإعراب جاء نتيجة تأثير بعض اللهجات العربية الوافدة. وعلى الرغم مما هو معروف بين علماء اللغات من أن الإعراب كان من أهم الظواهر العربية الشديدة للصوق باللغة، فإن كثيرا من الأمثلة اللهجية التي وردت إلينا تكشف عن اتجاه خطير نحو التخلص منه. كما أنه من غير الممكن الزعم بأن الإعراب كان ملتزما بين كل القبائل، وعلى كل المستويات⁴⁶.

ويحيل الباحث في هذا الموضوع إلى العمل الشهير لإبراهيم أنيس الذي يخلص إلى أن ظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة سليقية في متناول العرب جميعا. بل كانت صفة من صفات اللغة النموذجية الأدبية. ولم يكن من خصائص الكلام العربي في أحاديث الناس، ولهجات خطابهم⁴⁷. وتؤيد هذا الرأي، تبعا لأحمد مختار عمر، دراسة عبد الحليم النجار للقراءات القرآنية⁴⁸؛ والتي يستدل فيها «على شيوع ظاهرة إهمال الإعراب بأمثلة من الإدغام التي وردت بكثرة في القرآن الكريم⁴⁹»، «نحو: الكتاب بالحق، الناس سكارى، يشفع عنده، اختلف فيه...»

وواضح من هذا العرض أن المعطيات التي يتناولها الباحث ترتبط ارتباطا وثيقا بظاهرة اللحن التي يرجع إليها القدماء أسباب نشأة النحو نفسه. فملتكلم يقع في اللحن، وفقا لتصورهم، عندما يتخلى عن إعراب الكلمات، متبعا في ذلك لهجته الدارجة، يقول ابن دريد الأزدي (223-321هـ):

أما اللحن في العربية فهو... أنك إذا قلت: ضربَ عبدُ الله زيدُ؛ لم يدر أيهما الضارب، ولا المضروب. فكانك قد عدلته عن جهته. فإذا أعربت عن معنك، فهم عنك. فسمي اللحن لحنًا، لأنه يخرج من نحوين، وتحت معنيين. وسمي الإعراب نحوًا، لأن أصل النحو قصدك الشيء. تقول: نحوت كذا وكذا: أي قصدته. فملتكلم به ينحو الصواب، أي يقصده. قال أبو زيد (122-215هـ): لحن الرجل، إذا تكلم بلغته⁵⁰.

⁴⁵ يتطرق الباحث إلى هذه الخاصية في الفصل المخصص لتأثير اللهجات العربية. ولذلك؛ فهو لا يناقش للأسف الأطروحة الرائجة لدى علم اللغة التقليدي، والتي ترجع غياب الإعراب من الدارجة إلى احتكاك العربية باللغات الأجنبية.

⁴⁶ المرجع نفسه، ص. 172.

⁴⁷ إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003.

⁴⁸ عبد الحليم النجار، «في اللهجات العربية وأصول اختلافها»، جامعة القاهرة مجلة كلية الآداب، مجلد

15، ج. 1، 1953، ص. 22. نقلا عن: أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 172.

⁴⁹ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 171-172.

⁵⁰ أبو بكر محمد بن دريد، كتاب الملاحن، هايدبرغ، مطبعة جامعة كارل وينتر، 1882، ص. 4.

هذه المعطيات مأخوذة من مخطوطات دير مكاريوس، الذي كان حريصاً على التزام الإعراب؛ وذلك إلى حد كتابة التنوين بحروف تمثل الحركة والنون، مثل كلمة «مسكينة»، التي كتبها كما لو كانت «مسكتن»⁴⁰. وتذكرنا هذه الكتابة الطريفة بأن علينا أن نشير، زيادة على غياب حركات الإعراب، إلى عدم وجود التنوين أيضاً؛ تأكيداً لأهمية الدور الذي يلعبه هذا المركب المكون من النون الدالة على التنكير، والحركة الدالة على الإعراب، ليس فقط في المستوى الصرفي- النحوي، أو في المستوى الخطي، بل في المستوى الإيقاعي للخطاب الفصيح أيضاً⁴¹.

ونجد ضمن متن أحمد مختار عمر أمثلة عديدة أخرى؛ مثل: الذي كان رئيس على دير، مما يسوى درهم، كتبت إليك كتاب، عشرين رطل⁴²؛ الشيء الذي يوحى بأننا بصدد ظاهرة نسقية منتظمة، لا مجرد أخطاء عشوائية. ويتأكد لدينا هذا الاستنتاج، حين يذكر الباحث مظاهر نحوية متعددة يستتبعها اختفاء علامات الإعراب، مثل «محاولة إلزام الكلمات المعربة بالحروف وجها واحداً»⁴³؛ نحو في ذو الحجة، بدلا من في ذي الحجة؛ وبيده، بدلا من بيده؛ وإن هاتان الخصلتان، بدلا من هاتين...⁴⁴ وينتهي أحمد مختار عمر إلى الربط

⁴⁰ المرجع نفسه. لا يرسم هذا الكاتب، الذي يبالغ في الاهتمام بكتابة التنوين، حرف الياء من الكلمة «مسكينة». وكأنه لا يميز بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة، ربما لأن هذا التقابل ليس قائماً في لهجته. ويذكر علي مكي في لغة مستعربي طليطلة حالات مماثلة تحذف فيها حروف اللين، مثل «در» في «دار»؛ و«رحها»، في «روحها»، علي مكي، مرجع سابق، ص. 53. والظاهرة المعكوسة موجودة هي كذلك في هذا المتن؛ نحو «أومهم»، و«مؤمن»؛ مكان «أهم»، و«مؤمن». المرجع نفسه، ص. 52. لاحظ أن الخطأ يملك دائماً مظهراً مزدوجاً. فهو يتم إما بتقصير الحركة الطويلة، وإما بتطويل الحركة القصيرة؛ إما بكتابة الألف في المرفوع، وإما بعدم كتابتها في المنصوب.

⁴¹ يقول ميخائيل الصباغ: «الحركات التي تأتي في أواخر الكلم حسب قواعد العربية من الرفع والنصب والخفض فقد حذفوه مطلقاً في جميع كلامهم حتى والتنوين من كل من هذه الثلاث الحركات واستعملوا مكانها الجزم لأجل الوقف». ميخائيل الصباغ، الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في أحوال الكلام الدارج، ستراسبورغ، فيرلاغ تروبنر، 1886، ص. 11.

⁴² أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 171.

⁴³ المرجع نفسه، ص. 172. وعلينا، بمناسبة هذه الأمثلة، أن ننتبه أيضاً إلى المعطيات التي يسوقها القدماء في معرض حديثهم عن وضع النحو، نتيجة لتفشي الخطأ في الإعراب، مثل: من أبو موسى، يا أبو سعيد، أبا عمران في الدار؟ نحن متعلمين ...

⁴⁴ ترسم علامة الإعراب، في هذه الأمثلة أيضاً، على المستوى الكتابي، كياء جمع المذكر السالم «عشرين»، وواو الأسماء الستة «ذو الحجة»، وألف المثنى «بيده»، وهناك، في المقابل، حالات معكوسة، إذ يبالغ الكاتب في تنوين الكلمات، فيلحق التنوين بالمنوع من الصرف، نحو «ذبحوا ذبائحاً» و«أخذ مراكباً» المرجع نفسه، ص. 17. ففي هذه الأمثلة كلها يظهر الخطأ الإعرابي، مظهره المزدوج، وعلى المستوى المكتوب، قبل المستوى المنطوق.

وبناء عليه؛ تتناول هذه الدراسة الخصائص اللغوية «الغربية» التي يستكشفها الباحث في عربية مصر، مع مقارنتها بنظائرها في «عربية المغرب»³⁵. كما تعمل، من أجل تكوين صورة متكاملة قدر الإمكان، على إغناء العرض، بمعطيات مستقاة من دراسات ولهجات أخرى. وهي تبين، عبر التحليل المقارن للوقائع اللسانية، أن هذه الخصائص قد تكون غريبة من وجهة نظر الفصحى، ناهيك عن القبطية. بيد أنها طبيعية تماما من وجهة نظر الدارجة؛ ما دامت موجودة، في مجملها، دون اختلاف يذكر، ولكن مع قدر كبير من التنوع، في الدارجة المصرية والدارجة المغربية، وباقي لهجات الدارجة أيضا.

وتظهر لنا المقاربة التاريخية، زيادة على ذلك، أن الخصائص المدروسة ترجع، في الواقع، إلى مراحل قديمة جدا من تاريخ اللسان العربي، أقدم بكثير من مرحلة الفتوحات الإسلامية؛ وأنا نستطيع أن نتبعها، في أقل تقدير، حتى العصور التي شهدت جمع اللغة وتدوينها، إن لم يكن حتى العصر الجاهلي.

1.2. فقدان الإعراب

تتمثل أول خاصية تلفت نظر أحمد مختار عمر، داخل المستويين العامي³⁶ ونصف الأدبي³⁷، في «إهمال الإعراب أو التخلص منه بالكلية»³⁸. وهو يعثر في منته على كثير من الحالات الدالة؛ كأن يحاول الكاتب مثلا أن يحافظ على الإعراب، ممثلا بلا شك للتعليم المدرسي؛ فيقع في «أخطاء فاحشة»؛ كما في العبارات التالية: فدفعت لهم فاس وتليس وخبز وملح، قال لي كلام³⁹؛ علما بأن

³⁵ مملك المقارنة بين المصرية والمغربية أهمية خاصة في لهجات العربية؛ لاسيما إذا ما استحضرنّا التمييز الذي يرجع إلى ابن خلدون بين لغة أهل المشرق، ولغة أهل المغرب، ولغة أهل الأندلس؛ وإذا ما تذكرنا أن الدارجة الأندلسية قد ذابت، لأسباب تاريخية معروفة، في لهجات المغرب العربي. ستبقى دارجة مصر، وفقا لهذا التصنيف، ممثلا بارزا للغة المشرقية، ودارجة المغرب الأقصى، في المقابل، ممثلا بارزا للغة المغربية. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحاذة، مراجعة، سهيل زكار، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001، ص. 770.

³⁶ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 177.

³⁷ المرجع نفسه، ص. 171. يدرج الباحث هذه الخاصية ضمن كل من المستوى نصف الأدبي والمستوى العامي، الشيء الذي يضع مبدأ التمييز بين المستويات بأكمله موضع تساؤل. أما بالنسبة إلينا؛ فهذه خاصية من الخواص الأصلية المميزة للدارجة. غير أنها تنتقل، وفقا لشروط معينة، إلى الفصحى.

³⁸ المرجع نفسه.

³⁹ المرجع نفسه. لا يظهر الخطأ إلا حين تكون علامة الإعراب بارزة في الخط، على مستوى الكتابة؛ كما في حالة المنصوب المنون، حيث تأخذ علامة الإعراب صورة الألف. فهذه المعطيات مثلا كان يجب أن تكتب بالألف: خبز، وملح، وكتابا. وقد مرت بنا الحالة المعكوسة سلفا في نص الهامش 28: لم يتبق لي إلا جارية ... ومنزلا، التي كان يجب، على العكس من ذلك، أن تكتب بلا ألف: منزل.

الغربية التي تبدو في عربية مصر، لنرى هل تعكس تأثيراً قبطياً أم لا³²». ما هي هذه الخصائص التي تستفز انتباه الباحث؟ هل هي التي ترد في متن الدراسة، من غير أن تكون موجودة في العربية الفصحى؟ وفي هذه الحال؛ من أين جاءت يا ترى؟ وهل حصل ذلك بتأثير من لغة مجاورة؟ أم من استعمال لهجي؟

بعبارة أخرى؛ إن الباحث يوثق في متنه الأثري وجود مظاهر لغوية لا يمكننا أن نعزوها إلى العربية الفصحى. ولذلك؛ فهو يهتم بنقد أعمال الباحثين الذين تناولوا هذه المظاهر؛ استناداً إلى أنها تسربت إلى العربية، من اللغات المجاورة؛ وفي حالة مصر، من اللغة القبطية. وتبني أطروحة التأثير القبطي على الملاحظات التالية:

- هناك عدد كبير من الكلمات ذات الأصل القبطي في عربية مصر؛
- لغة مصر الدارجة مختلفة عن سائر لهجات اللغة العربية المستعملة في الأقطار المجاورة لمصر، ليس فقط في معجمها، بل في نحوها وصرفها؛
- من الغريب أن الاختلاف الحالي بين لهجات اللغة العربية الدارجة يوافق جغرافياً الاختلاف بين اللهجات القبطية القديمة؛
- من الممكن أحياناً ترجمة جملة دارجة حرفياً إلى القبطية بدون تغيير نحوي، أو أي تعديل في نظام الجملة³³.

ويحدد الباحث التأثير القبطي في المستوى النحوي بوصفه «انتقال قاعدة نحوية أو نظام صري معين إلى لغة الكتابة العربية، وقبول الكتاب لهذا التعبير الجديد واعتباره الأصل والقاعدة³⁴». ولعل مقارنة الباحث تفترض أن عربية متن الدراسة، وصولاً إلى الدارجة أو العامية المصرية اليوم، هي العربية الفصحى بعينها، بالضبط كما نتصورها من خلال مطالعاتنا لكتب القدماء في اللغة والنحو.

وإن كانت هذه النوعيات التي يشملها عند الباحث مفهوم «عربية مصر» تظهر بشكل مختلف، أي في مستوى آخر غير المستوى «الأدبي»، كالمستوى «العامي»، أو المستوى «نصف الأدبي»؛ فليس ذلك سوى نتيجة طبيعية وحتمية لمؤثرات خارجية نابعة من اللغات المجاورة، أو في أحسن الحالات، من الاستعمالات اللهجية أو غير المعيارية للغة العربية.

³² المرجع نفسه، 139.

³³ المرجع نفسه، ص. 124.

³⁴ المرجع نفسه، ص. 173.

لا يوجد اختلاف جوهري بين كتابات هذا المستوى في مصر ومقابلته في البلدان العربية الأخرى. والسبب يتمثل في الحقيقة التي كان مسلماً بها في تلك الفترة. وهي أن اللغة العربية النموذجية تتمثل في القرآن والأحاديث النبوية وفي الشعر والنثر التقليديين. وقد أدى هذا بالكتاب والشعراء والأدباء إلى أن يحاولوا محاكاة هذه النماذج الأدبية، وأن يكون غاية ما يرجوه الواحد منهم أن يتبع تقاليداً حرفياً.²⁸

ويبقى أن المستوى الوحيد، عند الباحث، الذي ينسحب عليه مفهوم «عربية مصر» تماماً، وبشكل واضح، هو المستوى الثالث: المستوى العامي.²⁹ أما المستوى الثاني «المستوى نصف الأدبي أو اللغة الكتابية لغير المتخصصين»؛ فليس، في الواقع، مستوى قائماً برأسه، كالمستويين الآخرين، أي قطباً جاذباً في حد ذاته.³¹

وإذن؛ فلا وجود، على الصعيد الملموس، لمستوى وسيط، أو بالأحرى لمستويات وسطى، أو بين بين. كل ما هنالك، كما سيبين العرض، أن بعض الخصائص تنتقل من مستوى إلى آخر، من الدارجة إلى الفصحى؛ مما يجعلنا نحصل على نصوص تمزج، بقدر أو آخر، بين المستويين.

2. خصائص العربية اللهجية

ينطلق أحمد مختار عمر في دراسته لعربية مصر من ملاحظة أن متن دراسته يحتوي على العديد من الخصائص اللغوية «الغريبة»، على حد تعبيره «سنحاول [...] أن نستعرض الخصائص

²⁸ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 179-180. وهذه الملاحظة تدل على أن العربية الفصحى، أو المستوى الأدبي عند الباحث، ظاهرة معيارية، وليست ظاهرة لهجية؛ الشيء الذي يجعلنا نفضل أن نطلق عليها اسم: العربية المعيار، في مقابل العربية اللهجية التي هي الدارجة أو العامية. والباحث يلاحظ، في خصوص المستوى الأدبي، أن «الفحص الدقيق [...] يكشف عن أخطاء ومخالفات للتقاليد الكتابية ... ومن ذلك قول ابن الداية (ت 340 هـ): لم يبق لي إلا جارية ... ومنزلاً. والصواب: ومنزل». المرجع نفسه، ص. 180. فهل تكفي هذه الانحرافات لنسلم بوجود عربية فصحى خاصة بالقطر المصري، دوناً عن مختلف أقطار العالم العربي؟

²⁹ لا يحترم الباحث تمييزه الثلاثي بشكل دقيق إلا في النوع المعجمي. فهو ينصرف، في النوعين الآخرين، رأساً إلى المستوى العامي قائلًا في النوع الصوتي «من الصعب أن نتبع الأثر القبطي على الأصوات في لغة الكتابة على المستويين الأول والثاني. ولذا سنقصر حديثنا على المستوى الثالث وهو مستوى لغة الخطاب». المرجع نفسه، ص. 131؛ وفي النوع الصرفي- النحوي «لا يوجد نفوذ قبطي على جانبي النحو والصرف في لغة الكتابة بشقيها [...] أما في لغة الحديث، فرمما كان الأمر على خلاف ذلك»، المرجع نفسه، ص. 138-139.

³⁰ المرجع نفسه، ص. 168.

³¹ ولهذا السبب، يعرض الباحث أحياناً، في نفس الوقت، إلى كل من خصائص المستوى العامي والمستوى نصف الأدبي. المرجع نفسه، ص. 181.

كما تمثله كتابات غير المتخصصين، الذين خلفوا كتابات باللغة العربية، دون أن يحققوا مستوى رفيعا في تعلمهم اللغة العربية²⁵.

▪ المستوى العامي، أو مستوى لغة التخاطب؛ وهو المستوى الأكثر إشكالا في دراسة الباحث المستندة إلى متن مكتوب أساسا. ويكمن الحل عنده في افتراض أن:

• كل الآثار القبطية الموجودة في لغة أهل الكتابة لهذه الفترة... موجودة كذلك في لغة الحديث...

• أن الآثار القبطية الموجودة في لغة الحديث الآن تمثل الآثار القبطية الموجودة في فترة الدراسة...

• أن هذه الآثار، إنما ترجع إلى القرون الأولى للهجرة حينما كانت اللغة القبطية ما زالت لغة حية متكلمة، وحينما كان لها نفوذ على اللغة العربية²⁶.

لا شك أن تقسيم نوعيات العربية إلى «مستويات»، كالمستوى الأدبي والمستوى العامي والمستوى نصف الأدبي، أو بين بين؛ يتوافق مع كثير من التحليلات المتداولة في اللسانيات الاجتماعية؛ مثل العربية المعيار للمستوى الأدبي، والعربية اللهجية للمستوى العامي، والعربية الوسطى للمستوى نصف الأدبي²⁷. غير أن خصوصية موضوع دراسة الباحث تبرز جانبا يظل غائبا في كثير من الأحيان، أو ثانويا في أحسن الحالات. فباستثناء المستويات الثلاثة كلها؛ يظهر أن العربية المعيار أو الفصحى ليست هي اللغة الفطرية أو السليقية بالنسبة إلى المتكلم أو الكاتب، وأن هذا الأخير لم يتعلمها، في حقيقة الحال، إلا عبر التمدرس الرسمي.

ولهذا؛ لا ينظر الباحث إلى النص في حد ذاته، ومدى مطابقة خصائصه للنسق المعيار أو اللهجي؛ الفصيح أو الدارج؛ بقدر ما يتطلع إلى جهة المستعمل؛ من حيث مدى تحكمه في استعمال النسق المعيار، ولاسيما في الخطاب المكتوب. هل يتمكن أحمد مختار عمر فعلا من مقارنة كل من التأثير المعجمي والصوتي والصرفي-النحوي، على المستوى العملي، مع احترام التمييز الذي وضعه بين المستويات الأدبي ونصف الأدبي والعامي؟

في المستوى الأول: المستوى الأدبي، على سبيل المثال، لا يظهر أي تأثير للعامل القبطي، أو العامل اللهجي، أو غيرهما من المؤثرات الأخرى. والباحث يقول:

²⁵ المرجع نفسه، 130.

²⁶ المرجع نفسه.

²⁷ ينظر من أجل عرض نقدي لمفهوم اللغة الانتقالية أو العربية الوسيطة: Leila Messaoudi, *op. cit.*, p. 143.

إلى نتائج لغوية وفلولوجية هامة سواء من ناحية أسلوب الكتابة الكلاسيكية في تلك الفترة، أو في أسلوب الكتابة الإدارية أو الرسائل الخاصة، أو الأسلوب العامي²¹.

3.1. تجاوز اللغات: أنواعه ومستوياته

يذهب أحمد مختار عمر إلى أن أبرز المؤثرات التي تركت بصماتها على عربية مصر هي اللغة القبطية، واللهجات العربية، إضافة إلى بعض المؤثرات الثانوية الأخرى²². ويميز الباحث بين ثلاثة أنواع، قد يأخذها تأثير اللغات المتجاورة، محاولاً أن يتناول كل نوع منها على حدة. وهي:

- النوع المعجمي: المفردات المتوافرة في اللغة،
 - النوع الصوتي: طريقة نطق هذه المفردات،
 - النوع النحوي: الإعراب، تطابق الفعل مع الفاعل، الاستفهام، الأمر...²³
- ويؤكد الباحث أن تأثر العربية في مصر بالقبطية يجب أن يعالج بحسب ثلاثة مستويات لغوية؛ على اعتبار أن درجة التأثير قد تفاوتت من مستوى لغوي إلى آخر. وهذه المستويات هي:
- المستوى الأدبي، أو اللغة الكتابية للأدباء. وهذا يتمثل في كتابات كبار الأدباء، الذين شغلوا مناصب رؤساء دواوين الإنشاء، والتي كانت تتبع مباشرة الوالي أو الخليفة. كما يتمثل في كتابات المتخصصين في اللغة العربية، وأشعار الشعراء التقليديين، ورجال الأدب بعامه²⁴.
 - المستوى نصف الأدبي، أو اللغة الكتابية لغير المتخصصين. وهذا المستوى تمثله كتابات صغار الكتاب، وموظفي الحكومة، في تسجيلهم الوثائق، وكتابتهم العقود، ونحو ذلك.

²¹ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 106. يقول: «ويكفي للتدليل على قيمة هذه الوثائق أنها نقضت ما هو شائع بين الباحثين من أن اختراع الإعجام تم على يد يحيى بن يعمر في النصف الثاني من القرن الأول. فقد وجدت أقدم وثيقة بردي عربية وهي مؤرخة عام 22 هـ. وهي تشتمل على نقط الحروف: ش، ز، ذ، خ، ن». المرجع نفسه، ص. 107. وهذه الملاحظة، على الرغم من أنها قد تبدو بعيدة عن موضوع دراستنا، نموذج جيد عن الوقائع التي قد يوفرها لنا هذا المتن؛ ولاسيما أننا نبحث عن معطيات تسمح لنا، على وجه التحديد، بمسألة مسلمات الفكر اللغوي التقليدي.

²² المرجع نفسه، ص. 15. ويجمع الباحث ضمن قسم «المؤثرات الأخرى» كل العوامل التي «كان لها تأثير ثانوي على عربية مصر. وتتمثل في (1) عامل النزوع نحو السهولة وتوفير الجهد، (2) عامل اللامبالاة، (3) عامل الاقتراض من لغات أخرى، مثل اللاتينية والفارسية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية».

المرجع نفسه، ص. 179.

²³ المرجع نفسه، ص. 130.

²⁴ المرجع نفسه، ص. 129.

عموما، ولهجاتها على وجه الخصوص. بيد أن هذه الأعمال يمكن أن لا تكون، كما يعتقد الباحث، مرتبطة، فقط، بمظاهر التطور التاريخي للغة العربية¹⁸. ألسنا في الحقيقة أمام أقدم دراسة وصلتنا عن طريقة استعمال الفئات العامية للغة العربية، عن لغة العامة أو «العامية»، كما أصبحت تسمى اليوم في بعض أقطار العالم العربي؛ في حين يطلق عليها في البعض الآخر اسم «الدارجة»، للإشارة إلى أنها النوعية اللسانية التي درج الناس على استعمالها في معاشهم اليومي؟

غير أن ما يثير الانتباه حقا في خصوص كتب لحن العامة التي يذكرها الباحث أنها تشمل العديد من المؤلفات التي تراعي، إلى جانب المقاييس الزمنية أو التطورية، معايير جهوية أو مناطقية. وهي التي ألفت بهدف تتبع أخطاء قطر بعينه، كلحن العامة للزيدي (ت 379 هـ) في أخطاء أهل الأندلس، وتثقيف اللسان وتنقيح الجنان في لحن عامة صقلية لابن خلف الصقلي (ت 501 هـ)، وتقويم اللسان لابن الجزري (ت 597 هـ) في لحن عامة بغداد...¹⁹ وإذن؛ فظاهرة لحن العامة تبين أن اللغة الدارجة أو العامية كانت مستعملة، حتى إبان القرون الأولى للهجرة، وربما بنفس الطريقة التي نراها عليها الآن؛ وأنها كانت، مع ذلك، ظاهرة متنوعة جغرافيا عبر العالم العربي من قطر إلى قطر، ومن بلاد إلى أخرى.

هكذا؛ يستعرض أحمد مختار عمر، في عمله عن تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، المصادر التي يمكن أن يستقي منها مادته اللغوية، في مختلف مناطق الفكر اللغوي الكلاسيكي، دون أن يعثر فيها على معطيات ملائمة؛ إلى أن ينتهي به الأمر إلى صرف نظره كلية نحو وجهة أخرى.

ولعل أحد الجوانب الهامة لهاته الدراسة يكمن في تناولها مادة مختلفة عن المعطيات التي عهدناها سواء في الفكر اللغوي الكلاسيكي، أم في اللهجات الحديثة. وهي تتمثل في مجموعة من النصوص الموثقة في شكل مخطوطات وبرديات مكتوبة بالخط العربي أو القبطي تغطي فترة تزيد عن سبعة قرون، من 22 إلى 780 للهجرة²⁰. ويصف الباحث هذه النصوص بأنها «ثروة نفيسة من المادة اللغوية قلما يوجد التاريخ يمثلها. ويمكن بدراسة هذه الوثائق الوصول

¹⁸ ينظر في موضوع مفهوم «اللحن» عند العرب القدماء: رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2000. ومحمد قدور، مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن التاسع الهجري، إحياء التراث العربي، دمشق، 1996. وسوف نتناول هذا المفهوم بإسهاب أكثر في الفقرة [§ 2. § 1].

¹⁹ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 97.

²⁰ المرجع نفسه. ومن بين المتون التي تجدر الإشارة إليها، في هذا السياق، وثائق مستعري طليطلة التي يبلغ عددها 1175 وثيقة تمتد من 1073 إلى 1391 م. ينظر: علي مكي، «قراءة جديدة لوثائق مستعري طليطلة»، مجلة مجمع اللغة العربية. ج. 75، القاهرة، 1994، ص. 38.

والمغرب الكبير، ناقلة العربية إلى سكانها الأصليين، ليست من بين القبائل التي أخذت عنها اللغة، لأنها لم تكن، في نظر علماء اللغة ورواتها، تستوفي شروط الفصاحة، ومواصفاتها¹².

والحق أن أحمد مختار عمر يبذل جهداً من حيث البحث عن المعطيات التي تلامس موضوع دراسته، بدءاً من الأعمال التي سجلت، في إطار الفكر اللغوي التقليدي نفسه، جوانب من التطور اللغوي. ويندرج ضمن هذه الأعمال عنده كل من مباحث المغرب والدخيل، ومن كتب اللحن والخطأ والمولد¹³.

وهو يمر بسرعة على مباحث المغرب والدخيل، مكتفياً بالإشارة إلى أن هذه المباحث تظهر متفرقة ومتناثرة في كتب اللغة والنحو، وقلما يشملها مؤلف واحد مثل كتاب المغرب للجوالقي¹⁴. أما كتب اللحن؛ مثل إصلاح المنطق لابن السكيت، وأدب الكاتب لابن قتيبة؛ فهي، في تعريفه، عبارة عن «رسائل صغيرة ألّفت على مر العصور، وفي مختلف الأصقاع التي تتكلم العربية، بقصد علاج داء استشرى في لغة العرب وهو داء اللحن والخطأ في الكلام. وقد بدأ التأليف فيه في عصر مبكر جداً، ربما منذ القرن الثاني الهجري¹⁵».

وهذه الأعمال التي حرصت على التصنيف فيها أجيال متعاقبة من علماء اللغة القدماء، بدءاً بالجيل الذي ارتحل إلى البادية، وشافه الأعراب¹⁶؛ تعالج من وجهة نظر الباحث، «مظاهر التغيير التي حصلت في بعض الكلمات، سواء من حيث اللفظ أم من حيث الدلالة¹⁷».

لا جرم أن ظاهرة اللحن أو الخطأ مظهر معبر من مظاهر السلوك اللغوي. ولذلك؛ فالأبحاث المتعلقة بالأخطاء اللغوية وعلى رأسها، رسائل لحن العامة، ينبغي أن تحتل مكانة بارزة في اللسانيات العربية

¹² المرجع نفسه، ص. 163. ويقول في مكان آخر «من الثابت تاريخياً أن القبائل العربية التي وفدت إلى مصر كانت كثيرة ومتنوعة، وأنها حملت معها سمات لهجاتها وخصائصها. وكثير من هذه السمات والخصائص لم يسجل ولم يدرس، وبالتالي فمعرفةنا به محدودة أو معدومة. ورب ظاهرة نظن أصلها القبطي يرجع أصلها إلى لهجة عربية، أو يمكن ردها بعد التدقيق إلى قبيلة عربية معينة». المرجع نفسه، ص. 129.

¹³ المرجع نفسه، 96.

¹⁴ المرجع نفسه.

¹⁵ المرجع نفسه. يقول رمضان عبد التواب في مقدمة تحقيقه لكتاب لحن العوام «حقاً قد بقيت لنا إشارات لهذا التطور غير أنها ليست في المعاجم التي تحوي الألفاظ العربية، وإنما توجد فيما يسمى بكتب لحن العامة؛ وهي عبارة عن رسائل صغيرة ألّفت على مر العصور، وفي مختلف الأصقاع التي تتكلم اللغة العربية»، مرجع سابق، ص. 1-13.

¹⁶ من أشهر هؤلاء اللغويين أبو الحسن علي الكسائي أحد القراء السبعة وإمام مدرسة الكوفة (119-189هـ) الذي وصلنا عنه كتاب ما تلحن فيه العامة، تح. رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1982.

¹⁷ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 96-97.

«كذلك لم يعن أحد منهم بناحية التطور في دلالة الألفاظ أو نطقها في عصره⁸، قبل أن يضيف:

والسر في عدم العناية هذا أنهم جميعا كانوا ينظرون إلى هذا التطور على أنه نوع من اللحن أو المولد [...] ولذا نجدهم جميعا قد وجهوا كل اهتمامهم إلى جمع المادة اللغوية القديمة التي سموها بالفصحى، والتي وضعوا لها شروطا ومواصفات تشمل الزمان والمكان، وتسابقوا في تنظيم هذه المادة وعرضها بطرق مختلفة⁹.

أما الطريقة التي بلغتنا بها المادة اللهجية؛ فهي تثير عنده مشكلة أخرى؛ ما دامت «كل المادة التي بين أيدينا وصلتنا عن طريق الكتابة. ومن المعروف أن الرموز الكتابية لا تمثل إلا قدرا ضئيلا من اللغة [...] وبخاصة حين نستعمل الرموز الكتابية العادية لا الرموز الصوتية الدقيقة بعض الشيء¹⁰».

2.1. في المادة اللهجية

لا شك أن دراسة أحمد مختار عمر تثير، بطريقة أو بأخرى، العديد من الإشكالات الهامة في لهجات العربية. فهي تسعى تحديدا إلى تناول النوعيات اللسانية للغة العربية المستعملة في أرض الكنانة منذ الفتح الإسلامي (19 هـ، 640 م)¹¹. ولذلك؛ فهي لا تستطيع أن تكتفي بالمواد اللهجية التي يحيل إليها المتن الكلاسيكي. ومعلوم أن القبائل التي هاجرت إلى مصر

⁸ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص. 95. وجاء عند رمضان عبد التواب في مقدمة تحقيقه لكتاب لحن العوام «لم يحاول أحد من ... المتأخرين أن يعنى بناحية التطور في دلالة اللفظ أو نطقه ... وذلك لأنهم لم يكونوا يهتمون بهذا التطور ... بل كان همهم الأول هو تنظيم هذه المادة: مادة العربية الفصحى التي جمعها اللغويون الأوائل. وكانوا ينظرون إلى هذا التطور على أنه نوع من المولد أو اللحن»، أبو بكر بن محمد الزبيدي، مرجع سابق، ص. 13.

⁹ أحمد مختار عمر، المرجع نفسه، ص. 95-96.

¹⁰ المرجع نفسه، 101. وستتناول بشيء من التفصيل نماذج من المشاكل التي تطرحها الكتابة العربية المتداولة، في الفقرات [1، 2، 3]، و[2، 3، 4]، و[3، 2، 3]، و[3، 2، 3].

¹¹ لا تفوت الباحث الإشارة إلى أن اللغة العربية كانت معروفة في مصر قبل الفتح الإسلامي. يقول: «وتشير إحدى الوثائق التي يرجع تاريخها إلى 263 ق. م إلى وجود علاقات تجارية بين المصريين والعرب في تلك الفترة النائية. ومن الثابت كذلك أن عمرا بن العاص زار مصر قبل الفتح الإسلامي بوصفه تاجرا [...] وأن خبرته بالبلاد المصرية هي التي جعلته يفكر في غزوها، وبغري الخليفة بذلك، وهي التي سهلت له عملية الفتح». المرجع نفسه، ص. 19. ومن المعروف أن «بعض القبائل العربية هاجرت قبل الإسلام إلى مصر عبر موجات متلاحقة». المرجع نفسه، ص. 20-21. حتى إن هيرودوت (425 ق.م) يذكر أن «الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل كانت مأهولة بقبائل عربية»، المرجع نفسه، ص. 21. فهل كانت هذه القبائل، يا ترى، تستعمل الفصحى؟ أم الدارجة؟ أم كانت مثلنا تستعملهما معا بشكل مزدوج؟

فلا بد لنا، بادئ ذي بدء، أن نعرف هذه السمات والخصائص اللغوية الكثيرة التي لا تدخل في نطاق الفصحى، والتي وضعها المدونون جانباً أثناء جمعهم للعربية ابتداءً من القرن الثاني للهجرة؛ أتشكل فقط من التنوعات الإثنية والجغرافية للمستوى الفصحى؟ أم تشمل كل ما يتعلق بمستوى الدواجر أو العاميات أيضاً؟ وما هي، بعد ذلك، طبيعة هذا التمييز الذي يلمح إليه الباحث بين اللهجات المستعملة خارج الجزيرة العربية، وبين اللهجات المستعملة داخلها؟ هل هو لمجرد وضع اللهجات التي انتقلت مع العرب الفاتحين والمهاجرين إلى الشعوب المعربة، واحتكت مباشرة بلغاتها الأصلية؛ في مقابل تلك التي بقيت «كما هي»، داخل موطنهم الأصلي، معزل عن هذا الاحتكاك؟

وتزيد مشاكل اللهجات العربية تعقيداً، إلى جانب فقر المتن اللساني، صعوبات أخرى تمس تنظيم هذه المادة اللغوية، وفرضها في إطار تصنيف محدد للهجات العربية، تأسيساً على معايير واضحة: جغرافية أو إثنية أو اجتماعية، يقول: «هناك حقيقة أخرى تشمل اللهجات العربية جميعها، وهي اختلاط مادتها بعضها ببعض، وصعوبة عزل مادة أي واحدة منها عن غيرها، وهي صعوبة قد تصل أحياناً إلى حد الاستحالة أو التعذر»⁵.

ويتوقف مختار عمر، باستغراب كبير، عند موقف اللغويين والنحويين المتأخرين الذين عاشوا بعد عهود الفصاحة والتدوين، والذين كان يفترض بهم أن يهتموا بأشكال التعبير اللغوية داخل مجتمعاتهم، وعلى رأسها المستوى الدارج أو العامي؛ قائلاً: «وحتى اللغويون المحليون الذين كان ينتظر منهم أن يسجلوا ما كان يدور في بيئتهم من تعبيرات خاصة، وأن يقوموا بدراسة موضوعية للمستويات اللغوية المستعملة في أوطانهم، سواء كانت على المستوى الأدبي، أو مستوى الحديث العادي، أو بين يمين؛ حتى هؤلاء لم يلقوا بالا لهذا الجانب»⁶.

وعلاوة على هذه المشاكل كلها؛ تعاني دراسة اللهجات العربية، حسب الباحث، من غياب الدراسات التاريخية التي تتبع تطور هذه اللغة عبر مراحل محددة⁷. ولهذا، فهو يقول:

⁵ المرجع نفسه، ص. 95.

⁶ المرجع نفسه. وسوف نرجع إلى إشكال المستويات اللغوية عند أحمد مختار عمر؛ والتي هي المستوى «الأدبي»، والمستوى «العامي»، والمستوى «نصف الأدبي» أو بين يمين، في [3، 1، 3].

⁷ جاء في مقدمة تحقيق كتاب لحن العوام «إن الناظر إلى المعاجم العربية جميعها يرى أن مادتها اللغوية قد قام بجمعها الرعيل الأول من اللغويين الذين ساحوا في الجزيرة العربية يجمعون اللغة من أفواه العرب، ثم توقفت حركة الجمع هاته بعد فترة من الزمن، واقتصرت جهود اللاحقين من اللغويين على تنظيم هذه المادة وترتيبها في أشكال مختلفة». أبو بكر بن محمد الزبيدي، لحن العوام، تح. رمضان عبد التواب، القاهرة، المطبعة الكمالية، ط. 1، 1964، ص. 13.

من أغان شعبية وردت في مقدمة ابن خلدون وتاريخه، وبعضها من كتب ألفت بلغة بين العامية والعربية الفصحى، ككتاب ألف ليلة وليلة¹.

لا شك أن على أي دراسة للغة طبيعية معينة، اعتماد متن لساني يعكس جميع الاستعمالات اللغوية، ولاسيما منها الاستعمالات العفوية. ولذلك؛ فإن الصعوبة الكبرى التي تواجهنا في اللهجات العربية تتمثل أساسا في أن النصوص التي وصلتنا، عن اللغة العربية، بمختلف نوعياتها، من المراحل التاريخية السابقة، ليست نصوصا تلقائية؛ بقدر ما هي مواد لغوية «متوارثة» يتم تناقلها، مثل قصائد الشعر الجاهلي، من مستعمل إلى آخر، يوما بعد يوم، جيلا بعد جيل.

فلا غرابة، بالتالي، أن نرى الدراسات التي تتناول في أيامنا هذه لهجات الدارجة، على امتداد العالم العربي، تعتمد معطيات يستقيها الباحثون الذين ينجزون هذه الدراسات بأنفسهم، مباشرة من المتكلمين؛ استنادا إلى المناهج الحديثة للعلوم التجريبية، وتقنيات البحث الميداني، كالاستجابات المباشرة، والتسجيلات، والاستمارات...² إذن، فعلى اللهجات العربية، إن كانت تتوخى بلوغ مقاربة شمولية لطرق استعمال هذه اللغة، أن تنجز مراجعة نقدية للفكر اللغوي الكلاسيكي؛ وأن تعمل، في نفس الوقت، على استكمال المتن اللساني، باعتماد معطيات جديدة غير تلك التي انطلق منها علم اللغة التقليدي.

1. برديات أقباط مصر: المادة ومنهج البحث

1.1. اللهجات العربية: بعض العوائق والصعوبات

يتفق الدارسون على أن مقارنة التنوع اللهجي للغة العربية مهمة شاقة تحول دونها، بالمقارنة مع لهجات لغات أخرى، صعوبات وعوائق جمة. فأحمد مختار عمر مثلا يلاحظ، من خلال دراسته القيمة عن تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، أن «الحقيقة التي يواجهها أي دارس للهجات العربية القديمة خارج الجزيرة العربية - وإلى حد ما داخلها- هي قلة المادة اللغوية من ناحية، وانعدام الدراسة اللغوية المنهجية لها من ناحية أخرى³». وتتجلى قلة المادة اللغوية عنده في كون «اللهجات العربية القديمة لم يسجل كثير من سماتها وخصائصها، بل سجل القليل. وهو ما دخل في نطاق اللغة الفصحى، وترك الكثير وهو ما خرج عنها⁴».

¹ عبد الواحد وافي، فقه اللغة، القاهرة، نهضة مصر، ط. 3، 2004، ص. 116.

² ينظر في خصوص أهمية العمل الميداني في اللسانيات: Leila Messaoudi, *Études sociolinguistiques*, Rabat, Okad, 2003, p. 16.

³ أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، القاهرة، عالم الكتب، 1995، ص. 95.

⁴ المرجع نفسه، ص. 162.

العربية اللهجية والعامية النموذجية: ميدانيات برديات أقباط مصر

إبراهيم الكعك

جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: تتناول هذه الدراسة خصائص العربية اللهجية في إطار وضعية الازدواجية اللغوية، عبر المقارنة بين الدارجة المصرية والدارجة المغربية، مع اهتمام باستكشاف مظاهر تأثير اللغات المجاورة، كالبطية بالنسبة إلى المصرية، والأمازيغية بالنسبة إلى المغربية؛ مع إغنائها بمعطيات مستقاة من لهجات أخرى.

فالخصائص اللسانية المميزة للهجات العربية لا تتعلق بتأثير من القبطية أو الأمازيغية، بل تنجم عن وضعية الازدواجية اللغوية التي تتميز بها. كما أن تأويل المادة اللهجية، في أبعادها الاجتماعية والثقافية، لا يكتفي بالمقاربة الوصفية، دون الاستعانة بالمنهج التاريخي والمقارنة.

كلمات مفاتيح: ازدواجية لغوية؛ عربية لهجية؛ تجاور اللغات؛ لسانيات تاريخية؛ لسانيات مقارنة؛ لسانيات وصفية؛ تنوع لساني.

Résumé : L'article propose une étude des propriétés de l'arabe dialectal en situation de diglossie linguistique, à travers une comparaison des dialectes égyptien et marocain, avec un intérêt aux langues en contact, le copte pour l'égyptien, l'amazighe pour le marocain.

Cette étude montre que les propriétés linguistiques distinctives des dialectes arabes résultent de la situation diglossique. Ainsi, l'analyse des propriétés en cause ne peut se contenter des méthodes descriptives; elle doit recourir aussi aux méthodes comparées et historiques développées dans le cadre de la linguistique moderne.

Mots-clés : diglossie; arabe dialectale; contact des langues; variation dialectale; linguistique historique; linguistique comparée

إذا ما استقصينا المعطيات التي تتوفر عليها بالنسبة إلى لهجات الدارجة وتاريخها قبل العصر الحديث؛ فلن نجد، وفقا لبعض الباحثين، شيئا يذكر؛ إذ «لم يصل إلينا عن هذه اللهجات، قبل القرن التاسع عشر، إلا معلومات ضئيلة، بعضها مستقى من كتب القواعد والأدب، وبعضها

- Messaoudi, Leila, « La notion de racine, existait-elle chez les grammairiens arabes? », Dans Abdelkrim Jebbour et Leila Messaoudi (dir.), *Méthodes actuelles en Phonologie et Morphologie*, Kénitra, Publications de la Faculté des lettres et sciences humaines, Université Ibn Tofail, 2001, p. 211-213.
- Messaoudi, Leila, « Contes marocains du Nord-ouest: propositions pour une approche sociolinguistique », dans Leila Messaoudi et Ahmed Zougari (dir.), *Contes et récit Instruments pédagogiques et produits socioculturels*, Kénitra, publications de la faculté des lettres, université Ibn Tofail, groupe pluridisciplinaire d'étude sur Jbala, service culturel- Ambassade de France, 1999, p. 167- 177.
- Messaoudi, Leila, « Éléments pour une dialectologie arabe : quelques aspects linguistiques de l'arabe dialectal marocain », dans *Dialectologie et sciences humaines au Maroc*, Rabat, Publications de la Faculté des lettres et sciences humaines, Université Mohamed V, n° 38, 1995, p. 185-224.
- Messaoudi, Leila et Zougari, Ahmed (dir.), *Contes et récits : instruments pédagogiques et produits socioculturel*, Kénitra, publications de la Faculté des lettres et sciences humaines, Université Ibn Tofail, groupe Pluridisciplinaire d'étude sur les Jbala, Rabat, Service Culturel- ambassade de France, 1999.
- Saussure, Ferdinand (de), *Cours de linguistique générale*, Paris, Payot, 1972.
- The American Heritage Dictionary of the English Language*. Houghton Mifflin Harcourt, 2001.

المراجع

- Bernstein, Basil, *Langage et classes sociales : codes sociolinguistiques et contrôle social*, Paris, Minuit, 1976.
- Bloomfield, Leonard, *Language*, New York, Hold, Reinhart and Winston, 1933.
- Blanchet, Philippe, *la linguistique de terrain : méthode et théorie : une approche ethno-sociolinguistique*, Rennes, Presses universitaires de rennes, 2000.
- Bourdieu, Pierre, *La distinction. Critique sociale du jugement*, Paris, Minuit, 1979.
- Bourdieu, Pierre, *Esquisse d'une théorie de la pratique*, Paris, Librairie Droz, 1972.
- Bulot, Thierry, *Langues urbaines et identité*, Paris, L'Harmattan, 1999.
- Calvet, Louis Jean et Dumont, Pierre, *L'enquête sociolinguistique*, Paris, L'Harmattan, 1999.
- Calvet, Louis Jean, *Pour une écologie des langues du monde*, Paris, Plon, 1999.
- Calvet, Louis Jean, *Sociolinguistique*, Paris, PUF, Que sais-je?, 1993.
- Chomsky, Noam et Halle, Morris, *Principes de Phonologie générative*, Traduction de Pierre Encrevé, Paris, Seuil, 1973.
- Chomsky, Noam, "Conditions on transformations", in S.R. Anderson and P. Kiparsky, eds., *A festschrift for Morris Halle*, Holt, Reinhart and Winston, New York, 1973, p. 232-286.
- Chomsky, Noam, *Aspects of the theory of syntax*, Cambridge, MIT Press, Mass, 1965.
- Encrevé, Pierre, « Présentation linguistique et sociolinguistique », *Langue française*, n°. 34, 1977, p. 12-90
- Fishman, Joshua A, "Who speaks what language to whom and when", *La linguistique*, n° 2, 1965, p. 67-88. Revised as "The relationship between Micro and Macro sociolinguistics in the study of who speaks what language to whom and when", in Pride and Holmes, 1972.
- Fishman, Joshua, «Bilingualism with and without diglossia. Diglossia with and without bilingualism», *Journal of Social Issues*, vol. 23, no 2, 1967, p 29-38.
- Labov, william, *Sociolinguistic Patterns*, Pennsylvania, University of Pennsylvania Press, traduction de Pierre Encrevé, *Sociolinguistique*, Paris, Minuit, 1976 [1972].
- Martinet, André, *Le langage*, Paris, Éditions de La Pléiade, 1969.
- Messaoudi, Leila, « Étude de la variation dans le parler des Jbala (Nord ouest du Maroc), *Revue des lettres et des sciences Humaines de Kénitra*, n°. 4, 2004, p. 7-20.
- Messaoudi, Leila, *Études sociolinguistiques*, Kénitra, publications de la Faculté des lettres et sciences humaines, Université Ibn Tofail, 2003.

- إن ظاهرة التحول اللساني يكون فيها التغير في صراع مع صورة أخرى يأخذ فيها دلالاته الاجتماعية. وتقسم القوى الاجتماعية التي تمارس على الصور اللسانية إلى صنفين: القوى الضاغطة من «الأسفل» والقوى الضاغطة «من الأعلى».
- المقصود بـ«العشيرة اللغوية» في اللسانيات الاجتماعية جماعة من الناس تستعمل نفس اللغة/ اللهجة في وقت معين. فاللغة كنظام ليست مغلقة على نفسها حد عدم الانصياع للفرد والمجتمع.
- لا ينطبق «المماثل» في اللغة على الاستعمالات التي تكون متغيرة، فلا شيء يمنع من التفكير في إقامة ظواهر التنوع على شكل نسق. ولا شيء يمنع من البحث عن الظواهر القياسية في رحم السماع.
- إن الأبحاث التي تسعى إلى استخلاص التنوع اللغوي من أجل الإمساك بالعلاقة بين اللغة والمجتمع مدعوة إلى تدعيم مجال يطرح نفسه بحدّة ألا هو لسانيات جمع المعطيات أو لسانيات الميدان.
- يستدعي البحث في اللسانيات الاجتماعية مراعاة ثلاثة مبادئ: دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي ومبدأ الألفة بين المستجوب والمستجوب ومعرفة اللهجة موضوع البحث.
- يكون حجم العينة، عادة، تابعا لعدد أسئلة البحث ومتغيرات التحليل، ولعدد الأفراد المستهدفين، ولطبيعة المقاربة الواسعة أو المقاربة الضيقة المعتمدة.
- إن طبيعة المتغيرات الاجتماعية المستقلة هي عوامل خارج لغوية لها تأثير محدد على البنية اللغوية للمتكلمين.
- المتغيرات المربوطة هي متغيرات ذات دلالة اجتماعية في الاستعمال، كالكنايات، ولكنها تختلف في دلالتها الاجتماعية والأسلوبية، وتتوحد في فئات اجتماعية مختلفة. وهناك ثلاثة أنماط من المتغيرات اللسانية المربوطة، وهي: المؤشرات والواسمات والصور أو العبارات النمطية.

- الصور أو العبارات النمطية stéréotypes : وهي متغيرات يحملها مجموع أفراد العشيرة، كأخطاء محققة في المجتمع تعتبر منبوذة وغير مرغوب فيها.

خاتمة

تبين من خلال تتبعنا للجوانب النظرية والمنهجية في عمل ليلي المسعودي ما يلي:

- إن تيار اللسانيات الاجتماعية توجه في البحث اللغوي حرص على تفسير التنوع في اللغة بناء على خصائص المجتمع المتضمنة فيها، وتفسير التحول فيها لأسباب ثقافيا أو سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا، إلخ.

- يستعمل مصطلح اللسانيات الاجتماعية استعمالات متعددة: استعمال موسع يعتمد كل مقارنة تعالج التنوع اللغوي في علاقة مع متغيرات اجتماعية، واستعمال ضيق ينظر إلى التنوعات اللغوية كمؤشرات اجتماعية تتوفر على سمات تحدد المتكلمين من طريقة كلامهم.

- إن توجه اللسانيات الاجتماعية نحو دراسة اللغة والمجتمع مرتبط باللغة في شقها الكلامي وفي شقها الخارجي المرتبط بمجالات اجتماعية جعلت من العمل الميداني أساس المعرفة الاجتماعية. - ينكب البحث اللساني الصرف على استجلاء النسق المتجانس القياسي، وتنكب اللسانيات الاجتماعية على النسق المتجانس فتحينه، وتجعله أكثر ارتباطا بالواقع الفعلي وليس بالواقع المثالي المفترض.

- تبني اللسانيات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع تصورها على إيجاد منهجية دراسة التنوع اللغوي عند متكلم أو أكثر، تراعى فيه علاقات الأدوار التي تسند إلى المتكلم، ووضع هذه التنوعات ومجالات اشتغالها. وتهتم اللسانيات الاجتماعية الخاصة باللغة بالتغير الذي يسم البنية اللغوية عن طريق المميزات السوسيوثقافية التي تظهر في كلام الأفراد. والتيار الأكثر تعبيرا عن هذا الاهتمام هو اللسانيات الاجتماعية التنوعية.

- إن موضوع اللسانيات الاجتماعية هو دراسة التنوع اللغوي ودلالته الاجتماعية، من أجل فهم البنية اللسانية، بينما موضوع علم اجتماع اللغة هو دراسة العلاقة بين المجتمع والكلام. ففي الحالة الأولى، تدرس «ملفوظات اللغة»، وفي الثانية تدرس «ملفوظات حول اللغة». فتشير الأولى إلى الرموز اللغوية، وتشير الثانية إلى العلامات، أما الأحكام المسبقة والقوالب الجاهزة أو العبارات النمطية فتشير إلى «التمثلات».

- إن حل مسألة التبدل اللغوي يكمن في إلغاء الصلة بين البنية والتجانس. إن مفتاح التصور للتغير اللساني وللکلام هو إمكان وصف الاختلاف المنظم داخل اللغة المستعملة من قبل العشيرة، من أجل إعادة بناء التاريخ للتغير الصوتي في اللغة، فلا شيء ينتج في وسط فارغ اجتماعيا أو جغرافيا.

في تحليل الخصوصيات الصوتية والمعجمية والبلاغية في الكلام النسوي. والمتغير «جنس» كاف في تحليل المجموعة التي لها نفس «السن» كمجموعة الشباب (التلاميذ والطلبة). واعتمد المتغير «لغة أولى» غالبا كعامل مهم مفسر لتغيير السلوك الكلامي لدى الأفراد. ثم هناك المتغير «موقف» أو «وجهة النظر» من اللغات، عموما. وقد وضع هذا المتغير، غالبا، في علاقة مع ظاهرة مجتمعية هي الإثنية الأمازيغية، أو العربية أو العبرية، كما نجد عند أحمد بوكوس (1981). وإذا كانت هذه المتغيرات لا تطرح مشكل التقسيم الطبقي، فإن المتغير «طبقة اجتماعية» يحتمل التأويلات التالية:

- وظيفة اقتصادية مجردة
- مجموعة من الأفراد يوجدون في نفس الموقع من السلمية الاجتماعية
- مجموعة من الأفراد يزاولون وظيفة محددة في تقسيم العمل
- هوية اجتماعية لها تمثيل اجتماعي مشترك

وهذا التداخل في فهم متغير «طبقة اجتماعية» جعل الباحثين يستعملون تقسيما للبيئة الاجتماعية على شكل متغيرات تختلف من باحث إلى آخر كالدخل، والوظيفة، والمستوى التعليمي، أو متغيرات ذات طبيعة ذاتية، كالهوية، والإحساس الطبقي، والموقع، والتمثيل. وقد استعمل لابوف (1976)، أيضا، طبقات سوسيواقتصادية، مثل طبقة كادحة، طبقة العمال، وطبقة راقية. وتختلف طبيعة وعدد المتغيرات تبعا إلى موضوع البحث وإلى الأسئلة المعتمدة في البحث، وإلى الفرضيات المتبناة في العمل.

4.3. تحديد المتغيرات المربوطة

تعرف ليلي المسعودي المتغيرات المربوطة بالمتغيرات التي لها دلالة اجتماعية أثناء الاستعمال كالكنايات. ويتم انتقاؤها في دراسة هدفها إبراز الوحدات اللغوية التي تكون سمة الكلام موضوع البحث، أي الوحدات التي لها وجود وهوية دلالية، ولكنها تختلف في دلالتها الاجتماعية والأسلوبية، وتتوحد بين فئات اجتماعية مختلفة، ولها درجة استعمال مصنف، بناء على معايير فوق لغوية منتقاة، ويتم استجلاؤها عن طريق وسائل الاستجابات الأولية المنجزة ميدانيا. إن طبيعة المتغيرات المربوطة وعددها وكفايتها والتي يحصل عليها الباحث ترتبط بموضوع دراسته أساسا. ويمكن أن تعالج في مختلف المستويات النحوية الفونولوجيا، المورفولوجيا، التركيب، المعجم أو الخطاب. وقد عرف لابوف ثلاثة أمهات من المتغيرات اللسانية المربوطة، وهي:

- المؤشرات: وهي مجموعة من المتغيرات الموزعة اجتماعيا وفصائيا، وتصلح للتأشير على انتماء الموضوع-الفرد إلى فئة من العمر وإلى طبقة اجتماعية وإلى مجموعة إثنية، إلخ.
- الواسمات: وهي متغيرات اجتماعية وفردية تشكل توزيعا اجتماعيا مطردا، واختلافا أسلوبيا.

الباحثة (2003)، يطرح جمع المعطيات العديد من المشاكل، بعضها تقني وبعضها ذاتي. ولتجاوز هذا المشكل، من الضروري أن يعد الباحث إعدادا جيدا لهذا الجمع، وأن يكون على معرفة جيدة بالوسط المدروس، وأن يتسلح بهاتين المقاربتين:

1.2.3. المقاربة الواسعة (ماكرو-اجتماعية)

الاختلاف السوسiolساني عند المستجوبين له ارتباط بالاختلاف الاجتماعي للمجموعة المستجوبة، وله علاقة بالتجانس اللساني. إن دراسة المجموعة في بنيتها الداخلية بتقديم كل عضو في المجموعة، يمكننا من استنتاج الأسس الاجتماعية التي تقرر هذا الواقع غير التجانس. فقد يميل المتكلم إلى حذف بعض المفردات التي تربطه بطبيعة معينة. وهي حالة تؤدي بالمتكلمين إلى توسيع معجم اللغة ودلالاتها، وبالتالي تحتاج إلى مقاربة اجتماعية واسعة.

2.2.3. المقاربة الضيقة (ميكرو-اجتماعية)

إن دراسة التغير السوسiolساني الذي يشخص معرفة وفهم البصمات emprunts واستعمالها يدفعنا إلى تقديم المستجوبين كل على حدة لنتمكن من تحديد العلاقة بين هذا التغير والاختلاف الاجتماعي (كتوظيف المسائل الاجتماعية التالية: الهجرة، طولها، وضعها، الرصيد الثقافي والاجتماعي للمهاجرين) الذي يتحقق في الاستعمال اللغوي للمستجوبين كمجموعة متجانسة وغير متجانسة في نفس الآن. وتساعد الدراسة الاجتماعية الضيقة على استجلاء أهم السمات المميزة للتاريخ الاجتماعي، وكذا الممارسات اللغوية المتعلقة بمعرفة البصمات وفهم استعمالها. وعبر فيشمان عن هذه المسألة بضرورة الإجابة عن التصور التالي «من يتكلم، أية لغة، مع من يتكلم وأين؟». وكما تذكر الباحثة، تعتمد المقاربة الواسعة على دراسة المجموعة في بنيتها الداخلية لمعرفة ما يجمعهم وما يفرقهم، من أجل استخلاص الوضع الاجتماعي العام للمجموعة، كالوضع الثقافي. وتعتمد الدراسة الضيقة على كل فرد لتبيان خصائص وضعه الثقافي والاجتماعي واللغوي. ولذلك، تأخذ المقاربة الأولى على مستوى الإقليم، مثلا، وتؤخذ الثانية في مكان محدد من الإقليم.

3.3. تحديد المتغيرات المستقلة

إن عدد المتغيرات الاجتماعية المستقلة تعتبر عوامل خارج لغوية extra-linguistique، حسب ليلي المسعودي، ولها تأثير محدد على البنية اللغوية للمتكلمين ونشاطهم. وهذه العوامل محددة بموضوع البحث وبفرضية العمل المتبناة. وفي هذا المستوى، يعتمد الباحثون متغيرات، مثل الجنس، والسن، واللغة الأولى، والوسط الاجتماعي. ومع ذلك، نجد في العديد من الأبحاث بأن خصوصيات العينات التي تعتمد في الاستمارة هي عينات غير كافية، ويحتاج إلى متغيرات أخرى لها قيمة وصفية إضافية. وفي هذا الصدد، تشير عدة أعمال إلى أن المتغير «جنس» كاف

البحث وتؤكددها. ولإعطاء البحث السوسولوجي مصداقيته وموضوعيته، فمن الضروري إعداد استمارة معيار للعينات تتضمن، كذلك، نفس الأسئلة إلى كل المجموعات والمجموعات الفرعية، مسجلة في نفس الظروف، دون تكييف أو تفسير. وتتضمن العينة عددا من المواضيع الضرورية والكافية لمتطلبات البحث. فحجم العينة، عادة، يكون تبعا لعدد أسئلة البحث، ومتغيرات التحليل، ولعدد السكان المستهدفين، ولطبيعة المقاربة الواسعة أو المقاربة الضيقة المعتمدة. وقد استحضرت الباحثة عمل ألبريك (1994) الذي حصر فيه الطرق والمناهج المعتمدة في جمع الأمثلة والمعطيات في نوعين كبيرين:

- المناهج الاستجوابية: وتشمل المقابلة والاستمارة واللوحات الإرشادية والرسوم والوسائل الخطية. ومن اللائق جعل التقاطع بين تقنيات الملاحظة المشاركة لتكوين شبكة من الأشخاص الأساسيين بإمكانهم بناء العينة التي ستوظف في الاستجواب، عن طريق المقابلة الحرة، والاستمارة الموجهة التي تتضمن أسئلة مغلقة أو اختيارات متعددة، أو الاستمارة شبه الموجهة التي تعتمد أسئلة مفتوحة.
- المناهج المختلطة: وتستند إلى عبارة كلامية عفوية في تجمع حر وإرادي. وتعتمد هذه المناهج عبارة أو كلمة مؤشرة أو سلسلة من الكلمات، وتطلب من الشخص إنجاز الكلمات والعبارات أو الأوصاف التي تخطر في ذهنه.

واستحضرت الباحثة، أيضا، خمسة طرق منهجية في عملية جمع المعطيات، كما وردت عند لابوف (1976)، وهي:

- تغيير طريقة الكلام: كل متكلم يغير في كلامه تبعا للقيود التداولية في عملية التواصل، حيث يوسم الخطاب الفردي بالتنوع (تغير الكلام أو الأسلوب). فإما أن المتكلم يوظف كلاما موسوما خاصا وذاتيا، وإما أن يتكلم براحة البال، فيستعمل أسلوبا تظهر عليه بصمات الجدية.
- الانتباه: يمكن أن يستعمل المتكلم أسلوبا يظهر فيه درجة اهتمامه بالخطاب الذي يتفوه به.
- اللغة المحلية: الكلام العادي أو المألوف، أي حينما يولي فيه المتكلم اهتماما أقل لخطابه.
- الراحة والاسترخاء: الأسلوب الذي من خلاله نحصل على معطيات منتظمة، حيث يأخذ الحديث أقصى الاهتمام وأدناه.
- طبيعية المعطيات: يجب أن تكون المعطيات المسجلة طبيعية وفي وضعية مريحة بالنسبة إلى المتكلم. إن ما يسمى بعقدة الملاحظ المتمثلة في حياء أو ارتباك المتكلم أثناء الاستجواب، يجب تجاوزها، وقد استعملت العديد من الطرق لتجاوزها بعدم الاهتمام بالخطاب أو على الأقل تقليص الاهتمام به لإظهار ما يسمى بالكلام العادي والطبيعي⁵⁴. واستنادا إلى عمل

⁵⁴ Leila Messaoudi, *op. cit.*, p. 16-19.

- الصعوبة الثانية هي التفرد في ميدان ما، وبالتالي كيف نصل إلى مستوى عال من التعميم انطلاقاً من معطيات جمعت من ميدان واحد؟ وي طرح هذا التساؤل مشكلاً منهجياً للمستويين في البحث: المستوى الأوسع macro والمستوى الضيق micro. فعن طريق تحليل مختلف أوضاع اللسانيات الاجتماعية الضيقة ومعاينة تعقيدها نتوق إلى الوصول إلى نظرية أكثر شمولية.⁵²

2.3. آليات البحث الميداني ومنهجه

تعتمد اللسانيات الاجتماعية في البحوث الميدانية، كما تذكر الباحثة، على ثلاثة مناهج في التحليل:

- المنهج الإحصائي: يركز على الحصص النسبية، كما فعل لابوف (1976)، حيث يتمثل نظام الحصص النسبية في المعطيات اللسانية والاجتماعية كقوائم مستقلة عن بعضها البعض. ويظهر في هذه المنهجية أن غياب العلاقة الجدلية المجتمعي واللساني يعود إلى نظرة ميكانيكية تنبني على معطيات مبنية سلفاً، تتعلق باللغة ومن يستعملها. ولهذه المنهجية خصائص من بينها أن المتكلم ينظر إليه كذات اجتماعية معزولة ومقطوعة عن تاريخها وسياقها الاجتماعي، مما يعني وجود تنافر بين اللغة وسياقها السوسiolساني.

- المنهج الإثنوغرافي: يعتمد على النظرة الجدلية في تحليل ما هو لساني ومجتمعي. فالمتكلم يظهر من خلال الممارسات الاجتماعية واللسانية. وعادة ما يحال في هذه المنهجية على الفاعل الاجتماعي agent social كعضو في فئة اجتماعية وفي عشيرة لغوية. ويهدف هذا المنهج إلى بناء الفاعل الاجتماعي وربطه بالمجتمع. ويمثل هذان العنصران، عند بورديو، ما يعرف بشكل «التصرف» *habitus* وهو عبارة عن نحو يتحكم في كل الممارسات اللسانية والمجتمعية. وفي كلا المنهجين يمثل الفرد أهمية بالغة. ففي المنهجية الأولى لا يمثل الفرد إلا ذاتاً وآلة تتكلم معزولة عن سياقها الاجتماعي، تجيب عن المعطيات المعدة سلفاً في البحث الميداني. وفي المنهجية الثانية يأخذ الفرد في كليته، فهو الذي يتكلم اللغة وينتج الاختلافات اللسانية والاجتماعية. ولهذا قال بورديو «من يتكلم ليس الكلام أو الخطاب، ولكنه الفرد الاجتماعي برمته (هو الذي يتكلم)⁵³». ويمكن القول إن المنهجين تتكاملان. فإذا كانت الأولى توفر المعطيات الإحصائية واستعمالاتها اللسانية، فإن الثانية توفر المعطيات اللسانية والاجتماعية كذات اجتماعية فردية وكفرد من عشيرة لغوية.

- المنهج السوسولوجي: ينجز الباحث في هذا المنهج الاستمارة بهدف مطابقة المعطيات التجريبية للأسئلة التي لها قدر من الكفاية، فتفسر صلاحية الافتراضات المسلم بها في المرحلة الأولى من

⁵² *Ibid.*, p. 63-93.

⁵³ Pierre Bourdieu, « l'économie des échanges linguistiques », *langue française*, 1977, n° 34, p. 23.

1.3. تصور البحث الميداني

يستدعي البحث في اللسانيات الاجتماعية مراعاة مسألتين أساسيتين: تعريف اللسانيات الاجتماعية كعلم يدرس اللغة في علاقتها بالمجتمع، ثم المناهج المعتمدة في دراسة اللغة. وهاتان المسألتان مرتبطتان بالبحث الميداني أشد الارتباط. ونظرا إلى أهمية البحث الميداني اعتمدت الباحثة على المنطلقات العلمية والمنهجية التي أكد عليها وليام لايف في أبحاثه. وتعتمد على ثلاثة مبادئ⁴⁹: دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي، مبدأ الألفة *principe de familiarisation* بين المستجوبين والمستجوب ومعرفة اللهجة موضوع البحث.

وتلخص الباحثة العلاقة بالميدان في اتجاهين مختلفين: أن يكون الميدان مألوفاً ومعروفاً، أو يكون غير مألوف وغير معروف عند الباحث، حيث تدور إشكالية الميدان حول ثنائية الألفة مقابل الغرابة، لأن معرفة اللغة موضوع البحث يمكن من الحصول على وضعية ألفة بين المستجوب والمستجوب تضمن نجاعة العمل: تفهم العلاقة بين دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي ومعرفة هذه اللغة، ثم الألفة بين الباحث وموضوع البحث⁵⁰. ويظل العمل الميداني ذا أهمية، سواء أجهد الباحث نفسه في جعل ما هو غريب عنه مألوفاً: أي البحث بالتقريب، أم أجهد نفسه في جعل ما هو مألوف لديه غريباً، باعتقاد سبيل الموضوعية بوضع مسافة بينه وبين موضوع البحث وقد تظهر بعض الصعوبات عندما تتضح علاقة الباحث بالميدان:

- الصعوبة الأولى ترتبط بالمبدأ الذي تأسست عليه لسانيات الميدان، وقد أنجزت العديد من الأعمال تعتبر أبجدية للعمل الميداني، وهي أعمال ومجهودات تقنية ومنهجية أنجزت من قبل سوسولوجيين وإثنولوجيين من أجل جمع المعطيات. فأثناء معالجة مناهج جمع المتون وقياس مقبوليتها، أكد بلونشي على ضرورة اعتماد الملاحظة المشاركة في البدء، ثم اعتماد طريقة البحوث الميدانية بعد ذلك⁵¹. وبالفعل، يعد البحث المباشر المعتمد على الاستمارة المسجلة والمكتوبة، أو الاستمارة الشخصية المعدة امتيازاً للحصول على المعطيات. إلا أن هذه الطريقة لها سلبية تتجلى في تقييد وإخضاع المستجوبين أثناء الكلام للاستمارة المعدة، كما أن التحقيق المباشر يترك حيزاً كبيراً للكلام المستجوب، وحيزاً ضيقاً للكلام المستجوب، حيث يخلق نوعاً من الرفض وعدم الانصياع للتصور الذي وضعه الباحث، مسبقاً.

⁴⁹ *Ibid.*, p. 269.

⁵⁰ Pierre Encrevé, *op. cit.*, p. 3-15.

⁵¹ Philippe Blanchet, *op. cit.*, p. 40-44.

جديدة. فما يعرف بالتفريع الاجتماعي، تقول الباحثة، يشير إلى تجمعات اجتماعية في محيط غير واضح. ويلعب المحيط دورا هاما في التنوع اللغوي، وفيه إشارة إلى السلمية الاجتماعية *hiérarchisation sociologique* التقليدية التي تتفرع إلى طبقات، بناء على مجموعة من المؤشرات، كالوظيفة، والمستوى الدراسي، والراتب. وهذا التفريع نتاج الاختلاف والتطور الاجتماعي، ولا تتضمن الصورة الجديدة المستعملة وجود طبقات أو فئات معينة، ولكن تعني بأن الاشتغال العادي للمجتمع ينتج اختلافات نسقية بين بعض المؤسسات أو بعض الأشخاص الذين تم وضعهم بالإجماع في مستوى بناء على الوضع أو الخطوة⁴⁸. وقد بيني ويؤلف نفس الشخص العديد من الاستعمالات اللغوية عندما يشارك في مختلف العلاقات، العائلية والوظيفية، إلخ. ويلاحظ نفس الأمر بالنسبة إلى الطفل المتكلم في السن الخامسة، فهو لا يملك نفس إنجازاته في سن السادسة عشر أو الثلاثين. ومن المؤكد، حسب الباحثة، أن مثل هذا الإجراء يغني الفهم العام للدوافع الاجتماعية للتحويل اللغوي. فلتفسير التغير الصوتي، مثلا، خصص لادبوف (1996) فصلا عالج فيه مشكل الدوافع الاجتماعية للتحويل، وقسمه إلى ثلاث مسائل منفصلة: أصل التنوعات اللغوية، انتشار وشيوع التنوعات واطراد التنوعات.

حيث أفرز هذا التقسيم الثلاثي الأبعاد تنوعا لغويا في كلمة أو أكثر وفي خطاب فرد أو فردين. ومرد هذا التنوع إلى التماثل *assimilation* أو الاختلاف *différenciation* أو التشابه *analogie*، أو الاقتراض *emprunt*، أو الإصهار *fusion*، أو التداخل والتأثر *contamination*، أو التنوع العرضي، أو عن طرق عديدة قد يتقاطع فيها النسق اللساني مع الخصوصيات الفيزيولوجية والنفسية للفرد.

3. اللسانيات الاجتماعية: لسانيات الميدان

إن الأبحاث التي تسعى إلى استخلاص التنوع اللغوي للمسك بعلاقة اللغة والمجتمع مدعوة، تبعا للباحثة، إلى تدعيم لسانيات جمع المعطيات أو لسانيات الميدان. ورغم استعمال «الميدان» من قبل الباحثين مؤخرا إلا أن الكلمة لم تدرج ضمن المداخل المعجمية في قاموس اللسانيات لدبوا Dubois (1972)، في الوقت الذي نجد أن مصطلح «المتن» *corpus* مدرج كمفهوم مميز عن مفهوم «وضع» *statut* اللغة. ولم يربط مفهوم «الحصيلة» بمفهوم الميدان، وكان يعتبر الباحثون أنه من الممكن جمع الحصيلة دون الخروج إلى الميدان. ونهت الباحثة إلى أن سوسير أغفل متغيرا أساسيا في اللغة هو الميدان المتداول في اللسانيات الاجتماعية، كما نجد عند فليب بلونشي Blanchet (2000)، حيث قدم مجموعة من عناصر وآليات البحث الميداني.

⁴⁸ William Labov, *op. cit.*, p. 95.

spatiale والزمني temporelle. وقد يشمل التعدد ثلاثة مستويات⁴⁷:

- كل لغة متعددة تاريخيا بفعل التحول اللغوي، فحالة لغة في الزمن 1 تختلف عن حالة لغة في الزمن 2،
- كل لغة متعددة اجتماعيا، حسب الأصل الجغرافي،
- كل لغة متعددة أسلوبيا، حيث يغير المتكلمون طريقة كلامهم تبعا للوضع التي يوجدون فيها.

واستلهاما لأعمال غاديت Gadet (1997)، بينت المسعودي أن دور ودرجة التنوع الاجتماعي يختلف حسب نوع المجتمع المستهدف في الدراسة، وهما مربوطان بعوامل سوسيواقتصادية في المجتمعات من النمط الغربي، يقسمان إلى مجموعات سوسيو-اقتصادية ويخضعان إلى طرق تصنيفية أخرى، كاستحضار الأبعاد «الدياستراتيكية» *diastatiques*، والعوامل الإثنية والجغرافية، ويكون فيها البعد الثنائي النمط *diatopique* هاما جدا. فهذه الحالة تحتم ملاحظة حيوية ودينامية اللهجات، بل إن تصنيف أفراد عشيرة ما يتغير بناء على المقاييس والوسائط المعتمدة، مثل الطبقة الاجتماعية، السن، والجنس، إلخ. فعلى سبيل المثال، تعد ظاهرة الإفراط في التصحيح *hypercorrection* حالة اجتماعية تضاف إلى الظواهر المتداولة، وتحصل في كل المجتمعات عندما يحاول بعض المتكلمين تغيير خصوصيات المنطقة ويستعمل عوضها خصوصيات أخرى تحت ضغوط اجتماعية، فتتابع سيرورة التغير والتحول الابتعاد عن النموذج المستعمل عند الآباء، وتطمح إلى الاندماج في مجموعة تبدو أن لها المكانة وتحظى بالقبول والتأثير لدى الآخرين. وتوضح هذه الظاهرة أن استعمال اللهجة بالتجاوز أو التصحيح فيها يدل على الموقف الذي يملكه بعض الأفراد تجاهها. وهذا التصرف الواعي يجعلنا نفهم أن المتكلم الذي يصحح كلامه باستمرار وبإفراط يشعر بنوع من الدونية، ويتصور أن لهجته لا تمثل المثال. وهذا مؤشر لساني له علاقة بما هو اجتماعي. وما يعرف في المجتمعات اللغوية بالإفراط في التصحيح، حسب وليام لابوف (1996)، هو ظاهرة تميز طبقة البورجوازية الصغيرة التي تشعر فعلا بتأثيرات ما يعرف بالألأمن اللغوي *insécurité linguistique* في المجتمعات ذات الازدواجية أو التعدد اللغويين.

وقد يحدث أن يستعمل المتكلمون سمات غريبة وغير متوقعة، حيث ينتقلون من أسلوب إلى آخر، دون أن يكون ذلك علامة على انتماء معين. فإذا كان مفهوم «الطبقة الاجتماعية» مفهوما عمليا، فإنه من الصعب وضع علاقة التلازم والتكافؤ التامين بين طريقة الكلام والطبقة الاجتماعية. فلا شيء يمنع بورجوازيا من استعمال صور شعبية، أو يمنع عاملا من استعمال صور

⁴⁷ Leila Messaoudi, *op. cit.*, p. 13.

من تطور القدرات الكلامية كما وردت عند غمبرز (1989):

- في المرحلة الأولى، يكتسب الطفل، تحت تأثير العائلة والأقارب، الكلام المحلي واليومي (العفوي).
- في المرحلة الثانية، يتمكن الطفل من استعمال المستويات الفونولوجية والتركيبية، حيث يتطور اكتسابهما عن طريق إدراج خصائص المجموعة الاجتماعية التي أخذ عنها اللغة وترعرع في كنفها.
- في المرحلة الثالثة، وأثناء الاندماج في المجتمع الإنتاجي، يلجأ الشاب الذي يصل إلى سن البلوغ إلى اكتساب شكل اللغة المعيار، مقابل الاستعمالات اللغوية الموسومة بسمات اجتماعية. وتصبحها بين الحين والآخر بعض العبارات المسكوكة القارة، ويحول جمودها دون تأثيرها بأي عامل من العوامل.

وعالج وليام لابوف (1994) مصطلح «المماثل» في اللغة الذي لا ينطبق على الاستعمالات المتغيرة. فلا شيء يمنع من إقامة ظواهر التنوع على شكل نسق. ولا شيء يمنع من البحث عن الظواهر القياسية في رحم السماع، حيث يتضمن النسق افتراض وجود التنوعات اللغوية، كالتنوعات الصوتية لهذه القطعة أو تلك المستعملة في المجتمع. وهو افتراض يوجه البحث نحو إبراز الطبيعة التكرارية والنسقية للتنوع.

وتقول الباحثة إن نظرية لابوف *théorie Labovienne* التنوعية تعمل بشكل ذؤوب في مجال المنهج السانكروني المتحرك، حيث تجنح إلى مقاربات في زمن واقعي وبفارق يقدر، على الأقل، بعقد بين المتكلمين المعتمدين في الدراسة، عن طريق مقارنة الصور المستعملة من قبل الصغار والكبار ومتوسطي الأعمار. ولذلك، اعتبرت الباحثة أن النظرية اللابوفية مهمة جداً، وكافية لضبط وإحكام ظاهرة التحول اللغوي التي تفرزها اللغات الطبيعية، عموماً. ولكن، هل يكفي إدماج التنوع في دراسة النسق اللغوي لمقاربة المعنى الاجتماعي لهذا الإنتاج الكلامي أو ذاك؟ ألا توجد المتغيرات اللغوية الدالة اجتماعياً في رحم التعدد اللغوي، وهي عبارة عن مؤشرات *indicateurs* تتغير تبعاً للسن وللوضع الاجتماعي، ولا تتغير تبعاً للعرف *formalité* أو الوضع المتعارف عليه. والمتغيرات التي هي عبارة عن موسمات *marqueurs* متعلقة ومرتبطة بالمتغيرات الاجتماعية والأسلوبية، والقوالب الجاهزة أو الصور النمطية *stéréotypes*، أي «الموسومة» والمعنونة *étiquetés* اجتماعياً⁴⁶. وبالفعل، يعد التنوع اللغوي تابعا للمتكلمين في العشرة اللغوية وتابعا للبعدين الفضائي

⁴⁶ William Labov, *op. cit.*, p. 419-420.

عن طريق الكلام⁴³». وعرف لاينز Lyons (1970) «العشيرة اللغوية» بأنها مجموعة من الأفراد يستخدمون لغة أو لهجة بعينها، حيث تقوم كل لغة بتعريف عشيرتها اللغوية، أي جماعة من الناس يتصل بعضهم ببعض مباشرة أو غير مباشرة، عن طريق لغة شائعة بينهم. وتعتبر المجموعة الكلامية، عند غمبرز Gumperz (1989) مجموعة اجتماعية قد تكون أحادية اللغة أو متعددة اللغات، تتماسك كجماعة واحدة من خلال تواتر أنماط التعامل الاجتماعي، ويفصلها عن جماعات أخرى في مناطق مجاورة ضعف خطوط الاتصال. وعرف لابوف مفهوم «العشيرة اللغوية»، بقوله: «سيكون من الخطأ أن تصور العشيرة اللغوية مجموعة من المتكلمين يستعملون نفس الصور. لقد عرفناها كمجموعة (من المتكلمين) تتقاسم معايير اللغة نفسها⁴⁴». ويعني هذا أن اللغة كنظام محكم ليست مغلقة على نفسها إلى حد عدم الانصياع للفرد والمجتمع. فالأحكام النحوية التي تصدر بشأن اللغة في النحو التوليدي، مثل النحوية وجودة التكوين والمقبولية، لا تعكس في اللسانيات الاجتماعية خصائص تراكيب معينة فحسب، وإنما تعكس الخلفية الاجتماعية لمن يصدر تلك الأحكام، أيضا. ويثير تعريف العشيرة، حسب الباحثة، بعض التساؤلات حول طبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع، منها⁴⁵: هل نستعمل نفس الرموز في الواقع؟ وكيف نعالج التنوع للغات التي تتوفر على «المماثل» le même و«المختلف» le différent في اللغة؟

لا أحد، تذكر الباحثة، ينكر ميلو البحث في العلوم اللغوية والاجتماعية إلى إبراز التماسك اللغوي والترابط الاجتماعي. وهو توجه في البحث يدعم «المماثل» على حساب «المختلف». والمختلف في المؤلفات اللغوية والاجتماعية القديمة يوجد دائما مهماشا ومهملا، وأحيانا منبوذا. وكان الاعتناء بـ «المماثل» على أساس تجميع مجموعات من الأشباه والنظائر، لأن هذه المجموعة أو تلك تمثل عاملا موحدًا. ومن ثم، وجدنا الاهتمام منصبا على المجانسة من أجل بناء عشيرة لغوية تستعمل نفس الرموز وتمارس نفس العادات والتقاليد اللغوية. ويثوي خلفه هذا التصور افتراض أن كل شيء يتغير لا يمكن أن يقام عليه النسق. وهذا التصور ليس جديدا في اللسانيات، وهو من بين التعليمات الأساسية عند سوسير، كثنائية اللغة والكلام، وهي الثنائية التي تأسست على تهميش الكلام، والاهتمام بالظواهر المطردة والقياسية، (التنظيم الداخلي للغة)، وإقصاء العوامل الخارجية عن هذه البنية، كوضع اللغة، وفضائها، والانتماء الاجتماعي للمتكلم، وسنه، وجنسه sexe، ومهنته، إلخ. وتعتبر الباحثة أن القدرات الكلامية للعشيرة اللغوية تتطور مع الزمن والتجارب الاجتماعية، عبر ثلاث مراحل

⁴³ Leonard Bloomfield, *op. cit.*, p. 23.

⁴⁴ William Labov, *op. cit.*, p. 288.

⁴⁵ Leila Messaoudi, *Études sociolinguistiques, op. cit.*, p. 11.

التي تنشأ عن الخصائص اللغوية واللهجية مفيدة جدا في دراسة العشيرة اللغوية. فمن جهة، نريد أن يتحقق العنصر/السمة من أجل دراسة العلاقات المباشرة التي توحد المواقف الاجتماعية attitudes sociales بالسلوك اللغوي comportement linguistique. ومن جهة أخرى، نراعي الانحرافات التي قد تأتي عن قصد، مما يجعل من السهولة الحكم على واقعية المعطيات المدروسة.

3.1.2. التحول اللغوي

تقتضي دراسة الكلام، حسب الباحثة، اكتشاف الوحدات الوظيفية الثابتة، كالفونيمات والمورفيمات، وإبراز البنيات القارة التي تجمعها. وقد أتاحت طريقة التحليل هاته آفاقا واسعة في دراسة التحول اللغوي. وكباحثين في هذا المجال، علينا أن ننشغل بشيء آخر، لأن العمل التجريبي على هذه الثوابت القارة لا يقف عند الوحدات الوظيفية القارة وإنما يتعداها إلى مستوى متغير من البنية يربط كل الأنظمة ويحكم توزيع المتغيرات الاجتماعية ذات الوظائف الداخلية الثابتة. وليست دراسة التغير الاجتماعي في الكلام إلا مظهرا من مظاهر التحليل الشامل للبنيات اللسانية المتغيرة. وتهم ظاهرة التحول اللساني عبر ثلاث مراحل:

- يختزل التحول من بين تحولات أخرى عديدة في التغير (في تغير خطاب بعض الأشخاص)،
- ينتشر التغير ويتفشى في كلام العديد من الناس،
- يكتمل التغير ويصبح مطردا عن طريق إقصاء الصورة المزاحمة له.

تركز الباحثة، أساسا، على المرحلة الثالثة حيث يكون فيها التغير في صراع ومزاحمة مع صورة أخرى، ويأخذ فيها دلالاته الاجتماعية. والمزاحمة، حسب لابوف، هي قوى اجتماعية تمارس على الصور اللسانية، ويصنفها إلى: قوى ضاغطة من «الأعلى» وقوى ضاغطة من «الأعلى». والمقصود ب «من الأسفل» القوى التي تؤثر من تحت المستوى الواعي، وتعمل على النسق اللغوي برمته، ومرتبطة بظواهر اجتماعية غامضة ومبهمة. أما الضغوط «الأعلى»، فهي التي تؤثر من فوق على البنية اللغوية وتتصل بظواهر لغوية يمكن دراستها بالآليات والوسائل التي توفرها اللسانيات الاجتماعية. ويستخدم مصطلح التنوع اللغوي للدلالة على مظاهر اللغة المختلفة في رحم العشيرة اللغوية، والتي لها نفس التوزيع الاجتماعي في مختلف مجالات البحث، كالأسرة، والقرية، والمدرسة والتعليق الكروي، إلخ.

4.1.2. العشيرة اللغوية

المقصود ب«العشيرة اللغوية»، في الأدبيات اللسانية، كما تذكر الباحثة، جماعة من الناس تستعمل نفس اللغة التي تمكنهم من التواصل في وقت معين. واستعمل بلومفيلد (1933) مفهوم «الجماعة الكلامية»، بقوله «إن الجماعة الكلامية مجموعة من الناس تتعامل وتتصل

ليست فرعاً من اللسانيات وليست، مجال تقاطع معرفي فهي قبل كل شيء اللسانيات، كل اللسانيات⁴⁰.

1.1.2. الدوافع الاجتماعية للتغير الصوتي

توضح الباحثة، كذلك، كيف عالج لابوف (1976) الدوافع الاجتماعية للتغير الصوتي، لما درس الموجات الصوتية عند توزيع الألفونات allophones في العديد من المناطق الأمريكية، وراعى في ذلك مختلف أعمار الموظفين المستجوبين والإثنيات التي تشكل سكان لهجات جزيرة Marthas's vineyard⁴¹. ولاحظ التغير الحاصل في كلام العشيرة اللغوية، على شكل تنوعات في إنجاز الصوائت. وقد مس هذا التنوع الصائتين المزدوجين /ay/ diphthongs و /aw/ في لهجة السود. إن دراسة هذه الشرائح المجتمعية مكنت من إعادة بناء تاريخ التغير الصوتي في الانجليزية، عن طريق وضع تعالق بين البنية اللسانية المعقدة والفروق الموازية داخل بنية المجتمع، فمن الممكن أن تعزل العوامل الاجتماعية التي تؤثر على السيرة اللسانية. فأغلب التغيرات، يذكر لابوف، تندثر بسرعة أكثر مما تظهر. ولكن، هناك تغيرات تنتج وقد يتم تقليدها من قبل الأفراد على نطاق واسع، حيث يشكل التقابل بين الصور الجديدة والقدمة نهجاً مألوفاً في اللغة، فتستعمل هذه الصورة أو تلك من بين صورتين المتصارعتين. وعلى هذا الأساس، لا شيء ينتج في وسط فارغ اجتماعياً أو جغرافياً. ومن المؤكد أن هذا الإجراء يغني الفهم العام لآليات التغير اللساني⁴².

2.1.2. المتغير اللغوي

تركز اللسانيات الاجتماعية في دراسة المتغير اللغوي، كما تذكر المسعودي، على الإجابة عن التساؤل التالي: ما هي خصائص المتغير اللساني التي تصلح، فعلاً، لدراسة العشيرة اللغوية؟

في المقام الأول، يجب أن يظهر عنصر في كلام شخصين أو أكثر وفي حوارات قصيرة وطبيعية بكيفية مألوفة دون تصنع لتتمكن من معرفة السلوك وتحقيقه انطلاقاً من السياق غير المبني. وفي المقام الثاني، يجب أن يكون العنصر جزءاً من البنية، فكلما تم استعمال هذا العنصر في نظام موسع من الوحدات الوظيفية، كلما كبرت القيمة اللسانية الجوهرية في دراسة الموضوع. وفي المقام الثالث، من المناسب أن تتوزع هذه السمة في المجتمع وتظهر في أعمار أو طبقات اجتماعية مختلفة. فرغم أن بعض هذه المقاييس اللغوية تبدو متناقضة، فإن المتغيرات

⁴⁰ Ibid., p. 9.

⁴¹ William Labov, *Sociolinguistique*, op. cit., p. 73.

⁴² Ibid., p. 45.

- دعوة سوسير المتمثلة في ضرورة دراسة الأنسقة الآنية وعزلها عن التغيرات التاريخية. وخالف أندري مارتيني (1969) هذا التوجه واعتبر أن البنية الجمالية هي التي تظهر في التحولات السابقة. وأما البنية الآنية فهي لم تكتمل بعد، بشكل واضح وجلي.³⁷

- دعوة بلومفيلد Bloomfield (1933) إلى دراسة القياس في اللغة دون الاكتراث بالتغيرات الصوتية الآنية، والتي لا تمثل سوى بصمات فردية.³⁸ وشكلت هذه الدعوة بداية الاهتمام بالتغير اللساني في القرن العشرين.

- استحالة تحديد ظاهرة التغير الحر، ويحيل هذا المفهوم على تصور بلومفيلد (1933) المبني على وجود مقابلات تعبيرية في الكلام، أي وجود تعبير يناوب تعبيراً آخر بكيفية حرة. وكان الاعتقاد السائد هو أن ظهور تعبير عوض آخر في فترة معينة أمر لا علاقة له بالملاءمة اللسانية. ويعني هذا أن دراسة بنية التغير قد أقصيت من البحث ومعها التحولات الطارئة في اللغة. وحصل هذا بتزامن مع وجود فكر يقر بأن اللغوي لا يمكن أن يواجه مجال الأحاسيس وانطباعات الناس فيما يتعلق باللغة. ولا يجب أن يهتم معطيات فوق لسانية لتفسير التغيرات اللسانية والاجتماعية، وسنبين في الفقرة الموالية مجال هذا التصور عند لابوف.

1.2 اللسانيات الاجتماعية عند وليام لابوف

ركزت الباحثة على أمثلة فونولوجية عند لابوف (1976) وهو يعالج تداخل اللغة والمجتمع، مستخلصاً وجود تأثير واضح للغة السود الأمريكيين في لهجة نيويورك. واعتبر أن أساس المعرفة بين شخصين في مجال اللسانيات يوجد في الكلام، فاتجه إلى خوض صراع من أجل فحص اللغة اليومية. وقد استند إلى نص لغوي وضعه فونريش Weinreich قبل وفاته يوضح فيه أساسه النظري: فإذا لزم أن تكون لغة ما مبنية لتعمل بنجاعة فكيف يمكن للناس الاستمرار في الكلام عندما تبدأ اللغة في التبدل؟ أي كيف يتكلمون عندما تقطع اللغة مراحل أقل تنظيماً. ويعتبر لابوف أن حل هذه المسألة يكمن في إلغاء الصلة بين البنية والتجانس. إن مفتاح فهم التغير اللساني في الكلام هو إمكان وصف الاختلاف المنظم داخل اللغة المستعملة من قبل العشرة. ويعتبر أن التمكن شبه الفطري من البنيات غير المتجانسة لا علاقة له لا بمعرفة لهجات متعددة ولا بأبسط إنجاز، ولكنه جزء من المعرفة اللسانية لفرد أحادي اللغة.³⁹ وعليه، تبين الدراسة المعمقة أن مصطلح «اجتماعي» يعني «الفرد المتعدد». وهنا قدم لابوف تعريفاً لللسانيات الاجتماعية «اللسانيات الاجتماعية

³⁷ André Martinet, *le langage*, Paris, La Pléiade, 1969.

³⁸ Leonard Bloomfield, *Language*, New York, Hold, Reinhart and Winston, 1933, p. 9.

³⁹ *Ibid.*, p. 40.

تتنظم بعد³⁴. ومن الملاحظ أن تمثلات المتكلمين قد تتجه في المجتمع اتجاهها متماثلاً عندما نتبع القوالب الجاهزة التي يمتلكونها ويعكسونها في لغته. ولكن، غالباً ما تكون هذه التمثلات في صراع: فإما أن نستسيغ ونقبل ما نتكلم به بين الناس ونحقر ما يتكلم به الآخر أو العكس. وتذكر الحالة الثانية في علاقتها بالصورة المعيار والمقبولة، عادة. ومن المفيد دراسة تصورات وتمثلات المتكلمين بشأن اللغة المؤسسة وتبيان الميول التي تصاحبها، كأن نعرف الإجابة عن الأسئلة التالية: ما علاقة التمثلات بالشكل المعيار؟ هل تكون التمثلات موضوع صراع دائم بين الأفراد؟

إن طبيعة الإجابة عن مثل هذه التساؤلات دفع بعض اللغويين إلى الإقرار بوجود ما سمي بحرب اللغات. وتساءل كالفي (1987) عن سبب وجود هذه الحروب، وعزى وجودها إلى دور اتصال وتنقل الأفراد بين الأشكال المختلفة والمتنوعة. فصار الاتصال والتنقل من الموضوعات المتداولة بين الباحثين، وأصبح الحديث عن اتصال أو صراع اللغات أمراً واقعاً³⁵.

2. اللسانيات الاجتماعية لسانيات خارجية

تذكر الباحثة أن أكبر إنجاز حققته اللسانيات الاجتماعية حديثاً هو الاهتمام بغنى اللغة أثناء عملية الكلام، فأعيد الاعتبار لما دأب سوسير على تسميته بـ«اللسانيات الخارجية»، ويفترض تعريف اللغة إبعاد كل ما هو غريب عن جسمها وعن نسقها. وبعبارة أخرى إقصاء كل ما نعينه باللسانيات الخارجية. وكانت هذه هي المناسبة التي وضع فيها سوسير ثنائية «اللسانيات الداخلية» و«اللسانيات الخارجية»³⁶، ورتب العناصر الخارجة عن النسق، أي كل ما له علاقة بالإتنولوجيا، والتاريخ، والعلاقات مع المؤسسات والعلاقات بين «لغة الكتاب» و«اللغة اليومية»، والتنوع الجغرافي، إلخ. وكل هذه الحقول المبعدة من اللسانيات الداخلية والمدرجة في صلب اللسانيات الخارجية تتموقع في مجال اللسانيات الاجتماعية. وكان لزاماً على اللسانيات الاجتماعية أن تبدأ بتحديد موضوعها، حيث يطرح تعدد الوقائع وغناها مشاكل نظرية ومنهجية، ومنها: هل يجب على الباحث في اللسانيات الاجتماعية أن يهتم بالتنوع والتغير مقابل أن يبحث اللساني في نقيض ذلك ألا وهو عدم التغير؟ واستند لابوف على أن موضوع اللسانيات الاجتماعية هو بنية اللغة وغموها في السياق الاجتماعي. وهو تصور، تقول الباحثة، حالت دونه ثلاثة عوائق فكرية، وهي:

³⁴ Louis Jean Calvet, *Pour une écologie...*, p. 186.

³⁵ Leila Messaoudi, *Études sociolinguistiques*, Kénitra, publications de la Faculté des lettres et sciences humaines, Université Ibn Tofail, 2003.

³⁶ Ferdinand de Saussure, *Cours de linguistique générale*, Paris, Payot, 1972, p. 40.

وفي ظواهر التصحيح المفرط الذي يلاحظ عند المتكلمين في الحكم على لغتهم، ومن جهة أخرى تساهم في الحكم على التمثلات والتصورات بشأن ما يتكلم به وما يجب أن يتكلم به، عادة. إن حساب مؤشر انعدام الأمن اللغوي يمكن أن يوضع انطلاقاً من «السلوك المعجمي»، حيث اقترح لابوف أن تقدم لائحة من الكلمات تدل على معنى معين، ثم يطلب من المتكلم أن يعين الشكل الذي يستعمله من ضمن هذه الأشكال الموجودة في اللائحة. واستنتج أن عدد الحالات التي يختلف فيها الاختياران تكون مؤشراً على انعدام الأمن اللغوي في رحم البورجوازية الصغيرة، وهي الطبقة التي يصل فيها انعدام الأمن اللغوي إلى أعلى درجة³⁰. وقبل ذلك، قدم لومبير Lambert (1958) طريقة أخرى اعتمد فيها حكم المتكلم في مسألة انعدام الأمن اللغوي، واعتمد «المتكلم المقتنع»، وركز على مواقف المتكلمين في وضع مزدوج اللغة في مدينة مونريال، وهو وضع «فرنسي- إنجليزي»، وتتبع القوالب الجاهزة (الصور النمطية) التي تنشأ عن ذلك الوضع. وتعتمد هذه التقنية على جعل المتكلمين مزدوجي اللغة ينصتون إلى تسجيلات، ثم يطلب منهم أن يوقعوا المتكلمين، تدريجياً. ويتم، ذلك، بوضع سبع خانات توجد بين قطبين يمثلان الأحكام القصوى بشأن ما يسمع. وهي التقنية التي استعملها بيلو Bulot (1999) لإبراز مواقف المتكلمين بمدينة رومن Rouen. فميز بين «المواقف اللغوية» و«المواقف الكلامية»، وقال: «نقترح الاحتفاظ بمصطلح «الموقف اللغوي» لكل موقف موضوعه اللغة كنسق، وكشكل واقعي أو متخيل، ولكل موقف يستقري السلوكات المعيارية normatifs، المتقادمة rescriptif أو غير المتقادمة، أو المواقف المتساهلة أو الصارمة. وبالمقابل، نعتبر «المواقف الكلامية» مواقف يكون موضوعها هو الكلام والاستعمالات، باعتبارها عناصر واسمة لمقولات من الواقع³¹». إن ظواهر التحقير stigmatisation المستخلصة من كلام الأفراد (كالتهكم والسخرية من الآخر، إلخ) والقوالب الجاهزة (كالنظرة إلى المرأة والنظرة إلى الرجل وإلى الدين، إلخ) هي ظواهر صالحة لمعرفة التمثلات والتصورات بشأن اللغة. وهناك أمثلة عديدة ذكرها لابوف (1976) هي عبارة عن عنونة أو وسم للاستعمالات الكلامية³².

إن الدفاع عن أحكام المتكلم باعتبارها أحكاماً ذاتية نجدها عند علماء الاجتماع، كبورديو (1982)³³. وقد بدأت تظهر أبحاث في مجال اللغة المكتوبة، وطرحت مفاهيم مثل «المتخيل اللغوي اللساني» و«التمثلات»، وهي عبارة عن محاولات، كما تذكر الباحثة، لازالت في بدايتها ولم

³⁰ William Labov, *op. cit.*, p. 183-184.

³¹ Thierry Bulot, 1999, p. 30.

³² William Labov, *op. cit.* p. 420.

³³ Pierre Bourdieu, *Esquisse d'une théorie de la pratique*, Paris, Librairie Droz, 1972, p. 144.

وتستند الباحثة إلى عمل كالفّي (1999) الذي خصص فصلا كاملا للتمثيلات اللسانية والتحول، واعتبره ورشا كان مهماً فأدرج في اللسانيات مجدداً، وهو المجال الذي يقوم ب²⁵: تعريف ما يقوله المتكلمون، تعريف انطباع المتكلمين بشأن اللغات المتكلم بها (أو الطريقة المتحدث بها)، و تعريف الصيغة التي يتكلم بها الآخرون.

ونجد في هذا الورش الجديد مفهومين ظل لهما حضور واستمرار لوقت طويل، وهما²⁶: مفهوم القوالب الجاهزة ومستوياتها ومفهوم انعدام الأمن اللغوي. والمقصود بالقوالب الجاهزة الصور النمطية لدى الأفراد في مجتمع ما. والمقصود بالأمن اللغوي شعور الأفراد والجماعات بأن استعمال اللغة الأم في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، إلخ، يحقق لهم الانتماء إلى هذا المجتمع أو ذاك. ويرتبط انعدام الأمن اللغوي، عادة، بوجود ضابط شرعي لا يراعي التعدد والتنوع. ومن مظاهره تعلق الأفراد بلغتهم، لأن هذا التعلق يبدو للآخر لا يتماشى مع المشروعية ومع الاستعمال الرسمي. ويمكن أن يفسر انعدام الأمن اللغوي بوجود مشكل النمط أو الشكل اللغوي المستعمل والمعترف به رسمياً. وذكر كالفّي بأن انعدام الأمن اللغوي يلاحظ في التنوعات الموجودة داخل اللغات وفي سياق متعدد اللغات، أي وجود تنوعات بين لغات مختلفة. وميز كالفّي بين نوعين من أنواع انعدام الأمن اللغوي: الأول صوري، يقارن فيه المتكلم كلامه بالكلام المعياري، والثاني وضعي يقارن فيه كلامه بوضع لغة أخرى مستعملة²⁷. وانطلاقاً من وضع صوتي مولد أو مزيج créolophone في ولاية لوزيانا، لاحظ كالفّي أن التمثيلات اللغوية تهم ثلاثة مجالات²⁸:

- شكل اللغات، أي كيف يتكلم الناس، كيف يجب الكلام
- وضع اللغات، أي ما يجب أن يتكلم به (اللغة المعيار)
- وظيفة هوية اللغات، أي ما يميز العشائر اللغوية.

وعلى المستوى المنهجي، من الضروري تبيين المعطيات والأمثلة المجمعة عن طريق استجواب المتكلمين. والعناية بمعالجة المعطيات الصادرة عن المتكلمين أنفسهم، حيث أولى لابوف (1976) الاهتمام بتقاطع شبيئين: تقاطع الأشكال التي يعتبرها المتكلمون صحيحة والأشكال التي يفكرون في استعمالها²⁹. فمن جهة، تساهم أبحاث لابوف في ظاهرة انعدام الأمن اللغوي

²⁵ Louis Jean Calvet, *Pour une écologie...*, op. cit., p.145.

²⁶ Ibid., p. 145-146.

²⁷ Ibid., p. 161.

²⁸ Ibid., p. 167.

²⁹ Ibid., p. 166.

جدول 2: وجهة النظر في اللسانيات الاجتماعية وفي علم اجتماع اللغة		
اللسانيات	اللسانيات الاجتماعية	علم اجتماع اللغة
دراسة الوقائع اللغوية (المتضمنة في النسق)	دراسة الممارسات اللغوية (المربوطة بمتغيرات اجتماعية)	دراسة التمثيلات حسب الممارسات اللغوية

ومنهجيا، يقود هذا التمييز إلى إيجاد الوسائل التي يحتاجها الباحث لدراسة الممارسات والتمثيلات. وحرصا على الدقة المنهجية في مقارنة الكلام الشديد التعقيد، نواجه بتمفصل بعض المجالات الفرعية لهذين المجالين المتمايزين. وهو التمفصل الذي تغذيه معطيات علم اللهجات وجغرافية اللغات. في الوقت الذي يستمد مجال ما يعرف بـ«التهيئة اللغوية» مؤشرات من «علم اجتماع اللغة»، ومن السياسة، ومن ثقافة هذه العشيرة اللغوية أو تلك، دون إغفال اللغات التقنية technolectes المستعملة من قبل هذه المجموعة الاجتماعية المهنية أو تلك.

7.1. علم اجتماع اللغة: دراسة للتمثيلات اللغوية

يستوجب مجال البحث في اللغة والمجتمع أن نكون لغويين، كما تقول الباحثة، نمتلك أدوات لغوية لدراسة الممارسات اللغوية. وهو ليس شرطا ضروريا للعمل على التمثيلات اللغوية، فرما عالم الاجتماع لديه وسائل أفضل لإنجاز هذا العمل، وهذا لا يعني أن الباحث في علم الاجتماع وفي مجال الكلام لا يمكن أن يكون لسانيا في البداية، ولكن يمكن أن يتدرب على التقنيات الخاصة المستعملة من قبل الباحث في علم الاجتماع لمعالجة العلاقة بالكلام من خلال تمثيلات المتكلمين في مجتمع ما. إن مقارنة التمثيلات تعني امتلاك بعض التقنيات الخاصة التي يكون الهدف منها إخراج التمثيلات إلى السطح، وإنتاجات الأفراد الكلامية (كنظرة الرجل إلى المرأة والعكس، والزواج، والطلاق في المجتمع). والهدف هو معرفة الأحكام الضمنية التي تكون، عادة، محفوظة في الذاكرة وتقود وتؤثر على السلوكات الكلامية للفاعلين الاجتماعيين. ويعرف مصطلح «التمثيل» في علم الاجتماع بأنه «صورة للمعرفة موظفة اجتماعيا ومقسمة، ولها نظرة عملية ومساهمة في بناء حقيقة موحدة لمجموعة اجتماعية». وعولج مفهوم «التمثيل»، بشكل دقيق، من قبل موسكوفيتشي Moscovici وألبريك Jean Claude Albric (1994). وعرفه ألبريك قائلا «يعمل التمثيل كنسق لتأويل الحقيقة التي تفرز علاقات الأفراد، وتفرز محيطهم الفيزيائي والاجتماعي، ويحدد (التمثيل) سلوكيات (الأفراد) وممارساتهم»²⁴. وميز بين ما يعرف بالنواة المركزية وبين العناصر الهامشية في دراسة التمثيلات اللغوية.

²⁴ Jean-Claude Albric, *Pratiques sociales et représentations*, Paris, PUF, 1994, p.13.

يهتم بتمفصل البنيتين اللسانية والاجتماعية وتأثيرات هذه على الأخرى. فهذا ما يريد الباحثون، عموماً، أن يجمعوه تحت مصطلح «اللسانيات الاجتماعية». وبالمقابل، عندما يهتم الباحث بعلاقة المتكلمين بلغاتهم أو لغات آخرين يتم الحديث عن «علم اجتماع اللغة»²⁰. ففي الحالة الأولى، يدرس «ملفوظات اللغة»، وفي الثانية يدرس «ملفوظات حول اللغة». ويوضح كالفّي هذا الفرق بقوله «تشير الممارسات إلى الرموز اللغوية، وتشير الأفكار إلى العلامات، أما الأحكام المسبقة والقوالب الجاهزة أو العبارات النمطية فتشير إلى التمثلات»²¹. وإذا كان هناك مجال للتمييز بين اللسانيات الاجتماعية وعلم اجتماع اللغة، فإن ذلك يرجع إلى مناهجهما في البحث والتقصي، بالأساس إلى وجهة نظرهما في المجال العلمي المدروس. تعمل اللسانيات الاجتماعية على الممارسات اللغوية الدالة اجتماعياً، معتمدة في ذلك على اللسانيات وعلى علم اجتماع اللغة، وتعمل على التمثيلات موظفة إطاراً سوسولوجياً ومتبينة الوسائل المعتمدة في هذا العلم. ولهذا التمييز منفعة كبيرة على المستوى النظري، إذ يمكن من تقسيم المجالات: اللسانيات الاجتماعية تهتم بالممارسات الكلامية الدالة اجتماعياً، وعلم اجتماع اللغة يهتم بالتمثيلات الاجتماعية بناءً على الممارسات الكلامية. إن تحديد حقول هذه المجالات الثلاثة لها قيمة منهجية، رغم أنها تكميلية. فلكي تكتمل نجاعة اللسانيات الاجتماعية في الوصف وتحليل الظواهر اللغوية فهي تحتاج ضرورة إلى أمر مسبق هو مجال اللسانيات، أي «اللسانيات الداخلية». وكما نجد عند لا بوف، لا يمكن أن يختزل مجال اللسانيات الاجتماعية في اللسانيات البحتة، كما لا يمكن أن يلغى التقابل بينهما، حسب كالفّي²². فبتبيان قواعد تكوين الخطاب في اللغة الفرنسية، مثلاً، يعني النهل من حقل اللسانيات، والوقوف عند المتغيرات اللغوية في إطار التعدد الطبيعي للغات يعني النهل من اللسانيات الاجتماعية، بينما الوقوف عند القيم الرمزية التي تضيفها هذه الاستعمالات المختلفة فيعني النهل من مجال علم اجتماع اللغة. وبناءً عليه، برز مجالان متميزان في الدراسة: دراسة الممارسات اللسانية الدالة اجتماعياً والتي تكون مجال اللسانيات الاجتماعية، من جهة، ودراسة التمثيلات التي تنشأ عن علم اجتماع اللغة، من جهة أخرى. واستناداً إلى عمل الباحثة، يمكن أن نميز اللسانيات الاجتماعية عن علم اجتماع اللغة من خلال الجدول (2) الذي يوضح أن وجهة النظر في اللسانيات الاجتماعية هي اللسانيات، ووجهة النظر في علم اجتماع اللغة هي السوسولوجيا²³:

²⁰ Ibid, p.11.

²¹ Louis Jean Calvet, *Pour une écologie*, op. cit., p. 145.

²² Louis Jean Calvet, *Sociolinguistique*, op. cit., 1993, p. 110.

²³ Leila Messaoudi, *Études sociolinguistique*, op. cit., p. 23.

التطور اللغوي في البلدان الحديثة. والخاصية اللسانية الحقيقية لعلم اجتماع اللغة هي قبل كل شيء حالة شخص أو جماعة ما تستعمل اللغة «س» في سياق اجتماعي أو في جهة «ص»¹⁷. وكما لاحظ أنكروفي Encrevé (1976)، يظل مصطلح «اللسانيات الاجتماعية» غير محدد، وقد استعمل من باحث إلى آخر، ومن مدرسة إلى أخرى، وفي أعمال وبرامج متعددة، إلى درجة عدم تميزه عن «علم اجتماع اللغة». وفي الواقع، هناك حضور في علم اجتماع اللغة لعلم الاجتماع، وهناك حضور في اللسانيات الاجتماعية لللسانيات¹⁸. فمرة يركز الباحث على اللسانيات، ومرة يركز على علم الاجتماع. ولتوضيح هذا الفرق، أدرجت الباحثة تصور بيير أشارد Pierre Achard (1993) الذي يتضمن جدولا تتضح فيه وجهة النظر المجالية¹⁹:

جدول 1: وجهة النظر المجالية		
الموضوع	اللسانيات	علم الاجتماع
اللغة	اللسانيات الاجتماعية التنوعية	علم الاجتماع اللغوي والتنوع
الخطاب	لسانيات النصوص	علم اجتماع الخطاب

يلخص هذا الجدول الرؤى التي تميز بين: اللسانيات وعلم الاجتماع، ومع ذلك لا يجب أن يفصل المجالان بما لاعتمادهما معا في الدراسة، فهما متقاطعين مع بعضهما.

ويرى كمبرز Gumperz (1989) من الأفضل أن يتم التمييز بين لسانيات اجتماعية وعلم اجتماع اللغة. فموضوع اللسانيات الاجتماعية دراسة التنوع اللغوي ودلالاته الاجتماعية، حيث يعنى بمعالجة العلاقة بين الكلام والمجتمع، لفهم البنية اللسانية، بينما موضوع علم اجتماع اللغة دراسة العلاقة بين المجتمع والكلام، لفهم البنية الاجتماعية. فمن الباحثين من يركز على الاستعمالات اللسانية ودلالاتها الاجتماعية، ومنهم من يركز على الممارسات الاجتماعية وأثرها على البنيات اللسانية. وكلاهما مطالب بتفسير منهجيته: هل يبدأ بالإنجازات الكلامية ليصل إلى ما هو اجتماعي أو العكس، أو يبدأ بالطبقات الاجتماعية ليصل إلى الإنجازات الكلامية؟ وكيفما كانت وجهة النظر المتبناة، فإن الباحث في اللسانيات الاجتماعية يشغل على إنجازات كلامية، باعتبارها بنيات لسانية تعكس سيرورات اجتماعية. وفي كل الحالات

¹⁷ Leila Messaoudi, *Études sociolinguistiques*, op. cit., p.19.

¹⁸ انظر مقدمة بيير أنكروفي Pierre Encrevé (1976) في الترجمة الفرنسية لكتاب: Labov William *Sociolinguistique*, op. cit.

¹⁹ Leila Messaoudi, op. cit., p. 20.

واضحاً على اللغة العربية مانعة إياها لعب دورها الوطني. وأضعفت الفرنسية الحصة المخصصة للغة العربية في المجال الكلامي داخل المجتمع. وتذكر الباحثة أن بوكوس (1977) قد وسع مجال التنوع حتى طال الإنتاج الكلامي. وعمل على تحليل أبعاد اللسانيات الاجتماعية في مختلف العادات الكلامية، معتبراً إياها انعكاساً لنمط الإنتاج الغالب في المجتمع المغربي.

وإجمالاً، تقول الباحثة، إن إدراج البحث في اللسانيات الاجتماعية ضمن النظرية الاجتماعية يمثل ضرورة معرفية تمكن من جعل اللسانيات الاجتماعية ليس علماً وظيفياً وصفيّاً فحسب، وإنما تجعله علماً تفسيرياً، نظراً إلى تقاطع الوقائع اللغوية والوقائع الاجتماعية، حيث تدرس اللسانيات الاجتماعية علاقات «لغة-مجتمع» في الحياة الاجتماعية، وتجمع المعطيات من رحم العشيرة اللغوية وتحللها وهي حية تعمل.

6.1. اللسانيات الاجتماعية وعلم اجتماع اللغة

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن اللسانيات الاجتماعية تعالج الصور اللغوية في ارتباطها بميدان ما ومخبرين محددين، وتوظف مختلف المتغيرات الاجتماعية، كالسن، والجنس، والمستوى الثقافي، والطبقة السوسيواقتصادية، ثم الوظيفة، وغيرها من المتغيرات التي تبدو للباحث كافية وناجعة في دراسة موضوع اللغة والمجتمع. وفي هذا الصدد، طرحت مجموعة من الأسئلة المهمة في تحديد العلاقة بين اللغة والمجتمع والعلوم المتفرعة عنهما، منها:

- هل يسمح إدراج المتغيرات الاجتماعية في اللسانيات الاجتماعية بالحديث عن علم اجتماع اللغة؟
- هل يعتمد الباحث في اللسانيات الاجتماعية غطاء اللسانيات أم يعتمد غطاء السوسولوجيا؟
- هل يمتلك الباحث في اللسانيات الاجتماعية فكراً مزدوجاً، فكر اللساني وفكر السوسولوجي؟
- هل يبقى الاختلاف في دراسة اللغة والمجتمع على مستوى المنهج، أو على المجال المدروس أو على مستوى أوسع من الإطار السوسولوجي المتبنى؟

وتلاحظ الباحثة أن مصطلح «علم اجتماع اللغة» يوظف في أدبيات اللسانيات الاجتماعية عند المتخصصين، في الغالب، موازاة مع مصطلح «اللسانيات الاجتماعية» دون تمييز. أليس من الواجب أن نفرق بين المصطلحين؟ لقد استعمل فشان (1972) المصطلحين دون تمييز. وإذا رجعنا إلى تصور كالفي (1993) لا نجد التمييز الكافي بينهما، أيضاً. فليس للتفريق بينهما أية كفاية نظرية رغم اعترافه وإقراره بقيمته المنهجية. وبالمقابل، يميز لابوف (1976) بينهما، معتبراً أن من بين مجالات البحث التي تدخل في اللسانيات الاجتماعية نجد ما ينعت بـ«علم اجتماع اللغة». وهو العلم الذي يهتم بالعوامل الاجتماعية الأساسية وتقاطعها مع اللغات واللهجات. وبعبارة أخرى، هو العلم الذي يهتم بالتساؤلات والمشاكل العملية التي تطرح زوال اللغات، وتماثل لغات الأقليات، وبروز الازدواج اللغوي القار، ومعيارية اللغات، وتخطيط

السوسiolinguistique المعتمدة في دراسة المجتمع ذات أهمية قصوى أكثر من موضوع اللغة الذي تعتني به اللسانيات بمدرستها المختلفة. والمسألة السوسiolinguistique في اللسانيات هي، بالأساس، تفسير ظواهر، كـ«التغير» و«التحول» اللغويين، بتوظيف مجموعة من العوامل الاجتماعية. وتلخص الباحثة الأبحاث التي لها مرجعية سوسiolinguistique في إطارين تصوريين أساسيين:

- إطار النظرية الماركسية في تصور نمط الإنتاج، كما نجد عند كرودولبي (Godelier 1974).
- إطار النظرية الماركسية في تصور الإنتاج الرمزي، كما نجد عند بورديو (1982).

الإطار الأول يفسر حالة المجتمع في زمن معين من تاريخه كمحصلة لمجموعة من العناصر المكونة من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. واهتم بهذه النظرية بول باسكون Paul Pascon في أبحاثه حول تكوين المجتمع المغربي. وكانت له قناعة بأن الإحاطة بالمجتمع القروي تتطلب التسلح بمعرفة شاملة بالتشكيلات الاجتماعية والحرص على الإصغاء إلى نبض الواقع. ومن أجل تشخيص هذا المجتمع ذي النزعة الانقسامية اقترح مفهوم «المجتمع المركب» société composite من مختلف العوامل¹⁵. والإطار الثاني الذي أغرى علماء اللسانيات الاجتماعية، كما تذكر الباحثة، هو نموذج «علم الاجتماع النقدي» sociologie critique الذي بحث فيه بورديو (1972) وقدم للسانيات الاجتماعية التصور المفتاح لما يعرف بمصطلح «السوق اللغوية» marché linguistique، ويمكن من تحليل ظواهر ترتبط بـ«اقتصاد التبادلات اللغوية»، وساعد على استجلاء القوانين التي تظهر علاقات الإنتاج من خلال المنافع الثقافية واللغوية¹⁶. وتحدد هذه العلاقات قيمة التنوعات اللغوية المستعملة في عشيرة ما، ومن هذه التنوعات: اللغات، اللهجات الجغرافية géolectes، اللهجات الاجتماعية sociolectes، اللهجات الفردية idiolectes، اللهجات المحلية patois، إلخ. وكل منها يشكل رأسملا رمزيا يضاف إلى الرأسمال المادي ليحظى صاحبها بمكانة اجتماعية ما.

إن اللغة التي تحظى بأهمية وقيمة في هذا التصور، هي المستعملة من قبل الأجهزة الإيديولوجية للدولة، أي اللغة الشرعية. ولكن في الواقع، هناك لغات يمكن أن تكون لها مكانة متميزة مقارنة مع اللغة المستعملة في التربية والتعليم. وهذا هو وضع اللغة الفرنسية المستعملة عند المثقفين في المدن وأوساط الفئات التي انفتحت على الثقافة الغربية في المغرب العربي. ورغم سياسة التعريب، فإن الفرنسية ظلت هي لغة الثقافة والتواصل. ولها كل التفوق على اللغات الخاصة، ومارست حيفا

¹⁵ Paul Pascon, et Mohamed Bentahar, « Que disent 296 jeunes ruraux », dans *Études sociologiques sur le Maroc*, Rabat, Bulletin économique et social du Maroc : Sociologie, 1971, p.146-287.

¹⁶ Bourdieu Pierre, *Esquisse d'une théorie de la pratique*, Paris, Librairie Droz, 1972.

- إن تغير الاستعمالات اللغوية هو ملازم لكل عشيرة لغوية. فهذا التغير تجريبي وملاحظ أثناء الإنجاز؛
- إن تغير البنية اللغوية هو مؤشر على التقسيم الاجتماعي، فمن المفيد أن نعلم هل تحظى بعض المتغيرات اللغوية بالقبول ولا تحظى به متغيرات أخرى منبوذة؛
- إن التغير اللغوي نسقي ومحكوم بقواعد اللسانيات الاجتماعية ومبني على قيود سياق اجتماعي.

وتذكر الباحثة أن الأبحاث التي ارتكزت على تحليل المعطيات اللغوية هي، في الغالب، أبحاث تدخل في إطار مجال أدق يعرف باللسانيات الاجتماعية الدنيا، وركز على ظواهر مختلفة ترتبط ب«اتصال اللغات»، والاقتراضات emprunts والبصمات اللغوية، كبصمات العربية على الفرنسية، كما يذكر برونو Brunot (1949)، وبصمات الأمازيغية على العربية، كما في أعمال بوكوس Boukous (1989) وغيرها.

كما تؤكد أن الأعمال التي عالجت ظواهر التغير لم تعرف تطورا كبيرا، وما أنجز منها كان في إطار اللسانيات الاجتماعية الحضرية urbaine، مثل عمل بيلو Bulot (1999)¹³. ومع ذلك، يبقى علم اللسانيات الاجتماعية التنوعية التيار الفتى الأكثر تجذرا وقماسكا في انتقاد اللسانيات البنوية والتوليدية التي تدرس اللغة في استقلال تام عن وظيفتها الاجتماعية. ولهذا السبب، لم يول الباحثون في اللسانيات الاجتماعية، كوليام لابوف والباحثون في علم الاجتماع كبورديو Bourdieu (1972) و (1982) و (1985)، أهمية للأمثالات النظرية ومناهج اللسانيات في مفاهيمها البنوية والتوليدية، كمفاهيم «المتكلم-المستمع المثالي» و«العشيرة اللغوية» و«النحوية» و«المقبولية»، إلخ¹⁴. ويتضح هذا الاختلاف عندما ندرك الأهمية التي أولتها اللسانيات التوليدية للثنائية المجردة «اللغة- القدرة» langue-compétence كموضوع وحيد للسانيات، وعندما ندرك إقصاء ثنائية «الإنجاز-الكلام» performance-parole المتصلة مباشرة بالواقع اللغوي.

5.1. اللسانيات الاجتماعية ونظرية علم الاجتماع

إن الأبحاث المنجزة في اللسانيات الاجتماعية، عموما، والمنجزة منها في المغرب خصوصا، هي أبحاث وصفية لا تركز على نظرية سوسبولوجية كافية لتحليل الوقائع الخاصة بالمجتمع المغربي. ومن الضروري بالنسبة إلى علماء الاجتماع، كما تقول الباحثة، أن تعتبر الأسئلة والأجوبة

¹³ Thierry Bulot, *Langue urbaine et identité*, Paris, Harmatan, 1999.

¹⁴ Pierre Bourdieu, *Ce que parler veut dire*, Paris, Fayard, 1982, p.14.

إذن، هو دراسة ما يعرف بـ«التنوعات اللغوية» وليس اللغة لوحدها، لأن مفهوم التنوعات اللغوية، كما تدل عليه أعمال وليام لابوف وجون لوي كالفلي ويلي المسعودي وآخرين، يجمع كل من اللغة المعيار *langue standard* اللهجة *dialecte*، والمولد *créole*، واللهجة المحلية *patois*، إلخ. وبناء على ذلك، يرر طرح السؤال التالي: هل اللسانيات الاجتماعية فرع من فروع اللسانيات أم هي اللسانيات ذاتها ؟

تتطلب الإجابة عن السؤال، تذكر الباحثة، أن يكون مجال اللسانيات مفتوحا على دراسة مسألتين: القدرة والإنجاز اللغويين. إن الجمع بينهما هو محاولة ضم اللسانيات البنيوية في نظرية تهتم بالسلوك الإنساني. ويضعنا هذا التصور أمام نظرية متعددة المعارف، تستعمل مناهج نوعية *qualitatives* ومناهج كمية *quantitative*. ويعني هذا أن النظرية تعتمد المستوى البنيوي، فضلا عن الوظيفة المجتمعية والوظيفة النفسية التي ركزت عليها النظرية التوليدية. وتصبح اللسانيات الاجتماعية هي اللسانيات، وذلك بتوسيع مجال البحث في اللغة وهي تؤدي وظائف متعددة في السياق الاجتماعي: تهتم الأبحاث في اللسانيات المجتمعية بالمظهر الاجتماعي للغة، (أعمال وليام لاوف، 1972 و1976 و1994)، وتهتم الأبحاث اللغوية التي تستند إلى المجتمع من أجل دراسة اللغة كحصيلة ونتاج مجتمعي، بالمظهر النفسي الاجتماعي (عمل فيشمان، 1971) تدخل الأبحاث الأولى في «اللسانيات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع» وتدخل الثانية في «اللسانيات الاجتماعية الخاصة باللغة». وفيما يتعلق باللسانيات الاجتماعية اللغوية والتي تفسر التغير *variation* في بنية اللغة الاجتماعية فتتقسم إلى تيارين متباينين موضوعا ومنهجيا:

- مدرسة اللسانيات المجتمعية ويمثلها مارسليزي وكاردن Marcellessi et Gardin (1974).
- مدرسة اللسانيات الاجتماعية التنوعية *sociolinguistique variationiste* ويمثلها الباحث الأمريكي وليام لابوف.
- مدرسة اللسانيات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الذي يمثلها فيشمان، تبني تصورهما على الإجابة عن التساؤل التالي: «من يتكلم أي لغة مع من ومتى؟». ويختزل هذا السؤال منهجية دراسة التنوع اللغوي المستعمل من طرف متكلم أو أكثر، حيث تراعى فيه علاقات الأدوار *relations de rôles* التي تسند إلى كل متكلم، ويراعى في ذلك وضع هذه التنوعات، ومجالات اشتغالها.

4.1. اللسانيات الاجتماعية الخاصة باللغة

توضح الباحثة أن اللسانيات الاجتماعية الخاصة باللغة تهتم بالتغير الذي يسم البنية اللغوية بسمات سوسيوثقافية تظهر في كلام الأفراد. والتيار الأكثر اهتماما بهذه التغيرات هو اللسانيات الاجتماعية التنوعية. ويعتبر وليام لابوف (1976) رائده، وتأسس هذا التيار على ثلاث مسلمات أساسية:

وعموماً، تقول الباحثة، كانت الرغبة في استجلاء النسق من التنوع اللغوي مسألة جوهرية، وكانت من الأولويات في التوجهات البنيوية في الستينيات والسبعينيات، فأولت الاتجاهات الوظيفية، التي سارت على نهج أندري مارتيني André Martinet، أهمية خاصة للوقائع faits، دعمت وزكت دراسة النسق وأقصت التنوع. وتحققت في إطارها بعض الأوصاف اللسانية في هذه اللهجة أو تلك. وكان من المتطلب الحصول على أنسقة لغوية تدفع إلى إقامة الأبجديات اللغوية والمختصرات، وبناء الأنحاء، وإعداد القواميس. وبالمقابل، دفعت المنتوجات الكلامية (الشفهية) اللسانيين الاجتماعيين إلى استحضار كل ما له صلة بالمنتجين وبظروف الإنتاج. فتحديد السلوك الاجتماعي الناتج عن الفرد ووضع جاناها هي عملية لا تكشف عما يتميز به الكلام المتغير والمتبدل. وصفة التغير والتبدل، هاته، تجعل من اللغة موضوعاً لا يموت طالما أن الكلام يتجدد باستمرار مع تجدد الواقع وتبدله. إن الطريقة التي نتكلم بها تكشف دائماً عن انتمائنا الجغرافي، وتكشف عن الطبقة الاجتماعية وعن مستوانا التعليمي، وأي نوع من الناس نحن. ومن هذا المنطلق، ليست اللغة أداة للتواصل فحسب، وإنما هي ظاهرة اجتماعية بامتياز. وقد انضح جلياً، تقول الباحثة، أن الكلام شرط أساسي لتحيين اللغة، ف«لا توجد اللغات إلا عندما يوجد من يتكلمها، حيث يتم إبداعها وتجديدها وتحويلها في كل تفاعل وفي كل مرة نتكلمها».⁹ ولم تتوان الباحثة في هذا العمل في إدراج عمل بلونشي Blanchet (2000) الذي أقر بوجود الروابط «الإبستمولوجية القوية» بين التيار الوظيفي واللسانيات الاجتماعية¹⁰، واعتبر أن النماذج التوليدية هي وسائل قوية لفهم وتفسير الظواهر اللغوية، ولها أهداف أخرى من بينها فهم وتفسير السيرة الكلامية في علاقتها بما ينتج ويقع في ذهن الإنسان عامة، وليس بما ينتج ويقع في ذهن متكلم بعينه. ويبدو من الصعب استخلاص، في الآن نفسه، النسق المجرد، المتجانس، القياسي، واستخلاص الظواهر المتغيرة وغير المتجانسة التي تحين النسق وتجعله أكثر ارتباطاً بالواقع الفعلي، وليس بالواقع المثالي المفترض والمختل. وقد تطرق لابوف (1972) إلى هذا الموضوع بالتفصيل.¹¹

وعرف فيشمان (1971) اللسانيات الاجتماعية بأنها دراسة خصوصيات التنوعات اللغوية ووظائفها ووظائف متكلميها، حيث تتفاعل فيما بينها هذه العوامل الثلاثة دون توقف، تتغير وتتبدل بالتوافق مع بعضها، داخل كل عشيرة لغوية¹². موضوع اللسانيات الاجتماعية،

⁹ Louis Jean Calvet, *Pour une écologie des langues du monde*, Paris, Plon, 1999, p. 16.

¹⁰ Philippe Blanchet, *La linguistique de terrain : méthode et théorie : une approche ethno-sociolinguistique*, Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2000, p. 36.

¹¹ William Labov, *Sociolinguistic Patterns*, Pennsylvania, University of Pennsylvania Press, 1972, traduction *Sociolinguistique*, Paris, Minuit, 1976.

¹² Fishman, Joshua, «Bilingualism with and without diglossia. Diglossia with and without bilingualism», *Journal of Social Issues*, vol. 23, no 2, 1967, p. 20.

يتضح من خلال طبيعة الأسئلة الموضوعة من قبل الباحثة أن اللسانيات الاجتماعية ترتبط بالتوجه نحو دراسة الكلام والمجتمع. ترتبط باللغة في شقها الكلامي وترتبط باللغة في شقها الخارجي. والشق الخارجي منها مرتبط بمجالات اجتماعية جعلت من العمل الميداني أساس المعرفة الاجتماعية. وتجمع دراسة الكلام مختلف التنوعات اللغوية والاجتماعية، كالمنطوقات، واللهجات، واللغات، والأوضاع الاجتماعية.

3.1. اللسانيات الاجتماعية: لسانيات الكلام

حاول الباحثون في مجال اللسانيات الاجتماعية، كما تذكر الباحثة، التوقيع نظريا على ما تأسس عند دي سوسير (1916)، وتبنوا المقاربة اللغوية، وميزوا بين المقصود بمصطلح اللغة مقابل مصطلح الكلام. إن اعتبار اللغة نظاما مشتركا بين شرائح عريضة من المتكلمين جعل سوسير يهمل الكلام كفعل فردي، ويعمل على عزل مجال اللسانيات وجعلها ميدانا مستقلا مؤكدا أن اللغة، بالنسبة (هي) الكلام ناقص اللسان، وهي مجموع العادات اللغوية التي تمكن شخصا من الفهم والإفهام. ويلاحظ، هنا، الإشارة إلى المتكلم وإلى أهميته وموقعه بالنسبة إلى اللغة. ومع ذلك، أهمل الكلام الذي يصدر عن المتكلم، والذي يعتبر التحقيق الفعلي للغة كنسق من العلامات والقواعد المجردة، وهي التي افتتن بها الباحثون في علم اللسانيات الصرف، وعملوا على استجلاء النسق، والتجانس *homogénéité*، واستنباط القياس اللغوي والاطراد فيه. وهم يدركون أن بلوغ هذا المراد لن يتأتى إلا عن طريق تجاهل كل المظاهر الاجتماعية وليس إنكارها، لدواعي منهجية بديهية. فمختلف التيارات اللسانية تعتمد مفاهيم الثنائيات: اللغة والكلام عند البنيويين، القدرة والإنجاز عند التوليديين⁸، تركية لثنائية اللغة-القدرة على حساب ثنائية اللغة-الكلام. وفوق ذلك، ذهب التوليديون مذهباً بعيداً في البحث عن النسق، عن طريق التسليم بسيرورات لغوية ترتكز عليها جميع اللغات. واعتمدوا، في ذلك، على القواعد والقيود التي تحكم تلك السيرورات بغية استنباط النحو الكلي، وعزل النسق اللساني عن التنوع، واستخلاص النسق اللغوي من الحدس *intuition* اعتماداً على ما يقدمه المتن اللغوي *corpus* من معلومات صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية تعزز بناء النظرية. وأقصيت وهمشت كل التنوعات والمتغيرات الاجتماعية (الخارجية) المرتبطة بالكلام.

⁸ انظر أعمال تشومسكي:

- Noam Chomsky, *Aspects of the theory of syntax*, Cambridge, MIT Press, Mass, 1965.
- Noam, Chomsky, « Conditions on transformations », in S. R. Anderson and P. Kiparsky, eds., *A festschrift for Morris Halle*, Holt, Reinhart and Winston, New York, 1973, p. 232-286.
- Noam Chomsky, Morris Halle, *Principes de Phonologie générative*, Traduction de Pierre Encrevé, Paris, Seuil, 1973, p. 4.

الاجتماعية تتقاطع مع مجالات عديدة مثل التاريخ والجغرافيا وعلم النفس والتحليل النفسي، والفلسفة والأنتروبولوجيا والإثنولوجيا وعلم الاجتماع. وتتقاطع مع علوم أخرى، كالسيمولوجيا (sémiologie) واللسانيات النصية linguistique textuelle، والتداوليات pragmatique والتحليل التخاطبي (أو الحوارية) conversationnelle analyse. وتتقاطع مع علم النفس اللغوي psycholinguistique والإثنولسانيات ethnolinguistique وعلم اللهجات وعلم اجتماع اللغة sociologie du langage. فكيف نحدد، إذن، اللسانيات الاجتماعية ؟

لقد اعتمدت ليلى المسعودي في تحديد الأسس النظرية والتطبيقية للسانيات الاجتماعية على ما تضمنته الأعمال المنجزة في موضوع اللغة والمجتمع، مثل أعمال فيشمان Fishman (1971) و (1972)، ترودغيل Trudgil (1974)، لابوف (1972، 1976، 1981، 1994)، ومرسليزي Marcellesi و كاردن Gardin (1974)، كالفي Calvet (1987)، (1993، 1999)، غمبرز Gumperz (1989)، ديتمار Ditmar (1989). وترتبط هذه الأعمال السبعينية بأعمال أخرى حديثة، كأعمال مارسى Marçais (1991)، وبوير Boyer (1991)، وأشار Achard (1993)، وبوكوس Boukous (1977) و (1995)، وبيلو Bulot (1999)، وبلونشي Blanchet (2000)، والمسعودي (1995) و (1996أ) و (1996ب) و (1996ج)، و (2000) و (2003)، وآخرين. ومختلف هذه الأبحاث المهتمة سواء بالمجال التطبيقي والعملية أو بالتمثيلات أو التي تعتمدهما معا، تجمع في مجال واسع هو اللغة والمجتمع، ويشمل اللسانيات الاجتماعية، وتقسم مجالات هذا العلم إلى:

- علم اللسانيات الاجتماعية الرابط بين الممارسات اللغوية والمتغيرات الاجتماعية.
- علم اجتماع الكلام الذي يعتني بمستويات وتمثيلات المتكلمين بناء على ممارساتهم اللغوية.
- علم اللغة الجغرافي وعلم اللهجات، ويهتمان بالتنوع الجغرافي والجهوي.
- علم التهيئة اللغوية المرتبط بالتدخل الإرادي المباشر في التنويعات اللسانية، بهدف إدماج سيوررات معيارية وموحدة. ويتم ذلك، عن طريق تهيئة الوسائل اللسانية الضرورية التي تستدعي طرح العديد من التساؤلات التي تشكل صميم المواضيع اللسانية الاجتماعية. ومن ضمنها التساؤلات التالية: هل اللسانيات الاجتماعية تعني لسانيات الكلام؟ هل هي لسانيات خارجية؟ هل هي لسانيات التنوع؟ هل هي لسانيات خاصة بالميدان؟ هل هو مجال خاص بالممارسات اللغوية وما يسمى بالتمثيلات؟ ما الفرق بينها وبين علم اجتماع اللغة؟ ما الموقع الذي يحتله المتكلم في هذا العلم؟ ما هي وجهة نظر الباحث في هذا العلم؟

السلوك اللساني، في نظر برنشتين، الفرد اللساني المرتبط بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها. وبالتالي، تعتبر اللغة من صميم الواقع ونتاج له⁶.

- مقارنة وليام برايت William Bright التي حاول فيها، ومن خلال كشف العلاقة بين اللغة والمجتمع، أن يحدد مهام اللسانيات. وأوضح أن إحدى المهام الأساسية في اللسانيات الاجتماعية هي تبيان أن التنوع والتعدد diversité ليس حراً، وإنما يرتبط باختلافات اجتماعية متناصفة. واقترح وضع لائحة بأبعاد اللسانيات الاجتماعية، حيث تظهر الأبعاد كإجابة عن التساؤل: ما هي العوامل التي تنظم التنوع اللساني؟ ورأى أنها ثلاثة أبعاد: الهوية الاجتماعية للمخاطب، الهوية الاجتماعية للفرد متلقي الخطاب وسياق الخطاب

وإجمالاً، ينقسم مجال البحث في اللغة إلى صنفين: الصنف الأول يمثل اللسانيون العاملون على البنيات الملازمة للغة، كالصوارة والتركيب والصرف. والصنف الثاني يمثل اللسانيون الدارسون للتنوع الملازم للغات. فاللغة تحدث تغييراً في سلوك الفرد والمجتمع وتؤثر فيه. وقد أنجزت في هذا المستوى الدراسات السوسiolسانية التي توصلت إلى نتائج هامة.

2.1. مفهوم اللسانيات الاجتماعية

قدمت الباحثة ليلي المسعودي مفهومًا حديثاً لمصطلح «اللسانيات الاجتماعية»، وذكرت استعمالاته المتعددة في مجال البحث في اللغة والمجتمع:

- استعمال موسع يشمل كل مقارنة للتنوع اللغوي مرتبط بمتغيرات اجتماعية paramètres sociaux، مثل: الاستعمالات اللغوية usages، والمجالات اللغوية domaines، والأوضاع اللغوية les situations، والمستويات اللغوية attitudes، إلخ.

- استعمال ضيق ينظر إلى التنوعات في اللغة كمؤشرات اجتماعية indicateurs sociaux لها سمات تحدد المتكلمين من طريقة كلامهم. فموضوع اللسانيات الاجتماعية يتميز عن مصطلح اللسانيات، من جهة، ويتميز عن مصطلح علم اجتماع اللغة sociologie du langage، من جهة أخرى. فحدد المصطلح في مجال البحث اللغوي والاجتماعي وأدرج في أغلب معاجم اللغات الأجنبية، فعرفته بأنه «دراسة اللغة في علاقة بسياقها السوسيوثقافي⁷». وفوق ذلك، أقرت بأنه جزء من اللسانيات، ويدخل في مجال اللسانيات الإثنولوجية، علم اجتماع اللغة، الجغرافية اللسانية، وعلم اللهجات. وذكر هنري بوير Henri Boyer (1991) أن اللسانيات

⁶ Basil Bernstein, *Langage et classes sociales : codes sociolinguistiques et contrôle social*, Paris, Éditions de Minuit, 1975, p. 63-89.

⁷ The American Heritage Dictionary of the English Language, Houghton Mifflin Harcourt, 2001.

وإروين كوفمان Ervin Goffman ويزيل برنشتاين B. Bernstein ولابوف Labov وغمبرز Gumperz وغيرهم. وبدأ العمل من أجل المفهوم الاجتماعي للغة يشق طريقه لما نشرت مجموعة من الأبحاث تحمل عنوان «اللسانيات الاجتماعية». وكان تجميعه، كما تذكر الباحثة، إيذاً بظهور تيار قوي في اللسانيات، يمثله فيشمان ولابوف وغيرهما، وهو توجه في البحث معترف به وواقعي، لأن الباحثين فيه حرصوا على تفسير أمرين أساسيين، هما: تفسير ظاهرة التنوع variation الموجود في البنية اللغوية، عن طريق بعض خصائص المجتمع المتضمنة في اللغة⁴، وتفسير التحول changement فيها، وكيف يحصل عن طريق العلاقات بين اللغات المتعددة. وهناك من الدلائل التي تشير إلى أن لهذا التحول تأثيراً في تبدل بنية اللغة، على المستويات الثقافية أو السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، إلخ. وهناك تيار قريب من المدرسة الثانية تبنى ما يسمى بالتوجه التعالقي hypothèse corrélationnelle تمثله أعمال وولد Wald (1962) ووليام برايت Williams Bright (1966)، وآخرين. ويقر هذا التيار بوجود تغير متكافئ نسقي بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية.

1.1. اللسانيات الاجتماعية

تستحضر ليلي المسعودي في عملها الأفكار التي ضمنها كالفي Calvet في مؤلفه Sociolinguistique (1993)⁵. وتكمن أهميته في تضمينه مجموعة من المقاربات الأساسية في المجال:

- مقارنة لفارج Lafargue السوسولوجية لواقع اللغة، وقد بين فيها أن اللغة تتغير عبر التاريخ، وترتبط بالأحداث والتحويلات السياسية. فلما درس المفردات في الفرنسية، تبين له أن الفرنسية الكلاسيكية قد سقطت بظهور الملكية الفيودالية.

- مقارنة برنشتين B. Bernstein (1975) التي عالجت الإنتاجات اللسانية الفعلية والوضعية السوسولوجية للمخاطبين. واستنتج الباحث كون أبناء طبقة العمال يمثلون نسبة رسوب عالية مقارنة بنسبة تفوق أطفال الطبقة الميسورة. ولاحظ أن لغة أبناء الطبقتين تفرز وضعين مختلفين: ينتج أبناء الطبقة العاملة نصوصاً لغوية بمعان قليلة تتخللها بين الفينة الأخ و رى إعاقات لغوية، بينما ينتج أبناء الطبقة الغنية نصوصاً منسجمة وغنية في معانيها. وتقوم هذه الأطروحة على مبدأ هام مفاده أن التعلم والاندماج في المجتمع يتأثران بالأسرة التي نشأ فيها الفرد، وأن البنية الاجتماعية تحدد بارتباط مع المعلومات التي يفرزها السلوك اللساني للفرد، أي يعكس

⁴ Fishman, Joshua A, "Who speaks what language to whom and when", *La linguistique*, n° 2, 1965, p. 67-88. Revised as "The relationship between Micro and Macro sociolinguistics in the study of who speaks what language to whom and when", in Pride and Holmes, 1972.

⁵ Louis Jean Calvet, *Sociolinguistique*, Paris, PUF, Que sais-je?, 1993, p. 5-6.

نقدم كتاب الباحثة الأستاذة ليلي المسعودي *Études sociolinguistiques*¹. يضم هذا الكتاب، بالإضافة إلى مقدمة نظرية ومنهجية (ص3-42)، جزءاً أولاً تحت عنوان الكلام القروي/المدني/الحضري (ص43-120)، وجزءاً ثانياً عن الازدواجية (ص121-150)، وجزءاً ثالثاً حول اللغيات التقنية (ص151-196)، وجزءاً رابعاً تحت عنوان تبادل الكلام المقدس (ص207-232)، ثم خاتمة، فلائحة المراجع والمصادر.

ويعتبر هذا العمل تتويجاً لمسار حافل بالإنتاج العلمي للباحثة، كأعمال (1980)، (1995)، (1999)، (2000)، إلخ.² وكان من مهامها العلمية الكبرى التعامل مع النصوص اللغوية بمراعاة المستلزمات العملية أثناء الكلام، وهي المستلزمات الاجتماعية والتركيبية والدلالية والصوتية والصرفية والمعجمية. وهي أدوات تواصلية مستمدة من الواقع المعيش. إن اختيار التصور لمعالجة اللغات/اللهجات والمجتمع أمر بالغ الأهمية. ولذلك، نقدم في هذه الدراسة الأسس النظرية والمنهجية في اللسانيات الاجتماعية التي ارتكز عليها عمل الباحثة.

1. اللسانيات واللسانيات الاجتماعية

شكلت محاضرات فرديناند دي سوسير Fernand De Saussure، كما جاء في الكتاب، اللبنة التي تأسست عليها اللسانيات الحديثة، حيث اعتبر أن «اللسانيات موضوعها الوحيد والفعلية هو اللغة في ذاتها ولذاتها»³، أي نظام من العلامات المجردة، وثررة في العقول تتقاسمها الجماعة. وكان مصطلح اللغة *langue* في نسقه التصوري يقابل الكلام *parole*، الذي يعتبر تحييناً للغة. وانصب هذا التوجه على «التنظيم الداخلي للغة». وهناك توجه آخر يعتبر موضوع اللسانيات دراسة بنية ووظيفة اللغة وفق تصور تزميني تطوري *diachronique*، وفي علاقة ببنية المجتمع الذي نشأت فيه، ويستحضر العوامل الخارجية عنها، كوضع اللغة *statut de la langue* الفضاء *espace* الذي استعملت فيه، والانتماء الاجتماعي للمتكلم *classe sociale*، وسنه *âge*، وجنسه *sexe*، ومهنته *profession*، إلخ. وتمثل هذه المدرسة أعمال أنطوان ميبى Antoine Meillet (1926)، فيشمان Fishman (1972) ووليام لايوف William Labov (1972)، وآخرين. وسمي هذا التيار بمدرسة اللسانيات الاجتماعية.

يذكر فيشمان أن بيرباولو جكليولي Pier Paolo Giglioli نشر سنة 1972 مجلة اللغة والسياق الاجتماعي *Language and social context*، تضمنت مساهمات الباحثين فيشمان Fishman

¹ Leila Messaoudi, *Études Sociolinguistiques*, Kénitra, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Ibn Tofail, 2003.

² بالنسبة لأعمال ليلي المسعودي، انظر لائحة المراجع في نهاية الدراسة.

³ Ferdinand de Saussure, *Cours de linguistique générale*, Paris, Payot, 1972, p. 63.

اللسانيات الاجتماعية في المغرب من خلال كتاب ليلى المسعودي دراسة في النظرية والمنهج

عبد النور الحضري
جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: تأصيلا لللسانيات الاجتماعية التي تعنى بالقدرة اللغوية المنجزة في السياق الاجتماعي، نعرض من خلال هذه الدراسة عمل الباحثة الأستاذة ليلى المسعودي Études sociolinguistiques (2003) نظرا لقيمتها العلمية. ويعتبر هذا الكتاب ترسيخا للمسار العلمي للباحثة الذي يقوم على أسس نظرية ومنهجية لاستجلاء العلاقة بين اللغة والمجتمع.

كلمات مفاتيح: اللسانيات الاجتماعية؛ لسانيات الميدان؛ لسانيات خارجية؛ لسانيات داخلية؛ متغيرات مربوطة؛ متغيرات مستقلة؛ اللغات التقنية؛ الازدواجية؛ عشيرة لغوية؛ مقارنة ماكرو-اجتماعية؛ مقارنة ميكرو-اجتماعية

Résumé : Afin d'ancrer la sociolinguistique, qui s'intéresse à la compétence linguistique dans le contexte social, nous présentons dans cet article l'ouvrage de la Professeure Leila Messaoudi « Études sociolinguistiques (2003) », en raison de sa valeur scientifique. Cet ouvrage est l'aboutissement d'un parcours scientifique, qui se fonde sur des bases théoriques et méthodologiques mettant en valeur la relation entre la langue et la société.

Mots-clés : sociolinguistique; linguistique de terrain; linguistique externe; linguistique interne; variables dépendantes; variables indépendantes; technolécites; diglossie; communautés linguistique; approche macro-sociale; approche micro-sociale

مقدمة

من ضمن التحولات الدالة في مجال البحث اللساني نجد الأعمال التي أنجزت في مجال ما يعرف باللسانيات الاجتماعية، أي الدراسة التي تعنى بالقدرة اللغوية المنجزة في السياق وفي الظروف الاجتماعية التي توظف فيها تلك القدرة. وتعرف الدراسات العربية في الجامعات المغربية نقصا ملحوظا في الأعمال التي تبرز مجال اشتغال اللغة والمجتمع. وهو نقص يشكو منه الباحثون، وله تأثير على محتويات الخزانات والمكتبات الجامعية والوطنية، التي تفتقر إلى أهم المراجع الضرورية في المجالات اللغوية والاجتماعية. وتأصيلا لدراسة اللغة والمجتمع،

- Moumine, Mohamed El Amine, *Sociolinguistic variation in Casablanca Moroccan Arabic*, *Thèse de DES*, Rabat, faculté des lettres, 1990.
- Youssi, Abderrahim, *Grammaire et lexique de l'Arabe marocain moderne*, Casablanca, Wallada. 1992.

كنكاي، عبد القادر، «واقع التعدد اللغوي بالمغرب، إشكالية حاضر ومستقبل المغرب»، مجلة بصمات، بنمسك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2009، ص. 21-35.

كنكاي، عبد القادر، اللغة العربية وتحديات العصر، باريس، معهد العالم العربي، 2006.

كنكاي، عبد القادر، اللغة العربية في العالم، باريس، معهد العالم العربي، 2005.

المتوكل، أحمد، من قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، الرباط، دار الأمان، 1995.

المتوكل، أحمد، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، الرباط، عكاظ، 1989.

المتوكل، أحمد، الوظائف التداولية، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.

المسدي، عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، تونس، الدار العربية للكتاب، 1981.

الوعر، مازن، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دمشق، دار طلاس، 1988.

الوعر، مازن، نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية، دمشق، دار طلاس، 1987.

الوعر، مازن، «أزمة اللسانيات واللسانيين في الوطن العربي»، مجلة المعرفة، ع. 251، 1983.

Amine, Mohamed, *Les niveaux de représentations, Thèse de Doctorat*, Paris VIII, 1990

Aoun, Yousef, *A Grammar of Anaphora*, Cambridge, MIT Press, 1985.

Ayoub, Georgina, *Structure de la phrase en arabe standard, Thèse de Doctorat*, Paris VII.1981.

Boukouss, Ahmed, *Sociolinguistique marocaine*, Sorbonne, Paris, 1999.

Boukouss, Ahmed, *Langage et culture populaires au Maroc*, Casablanca, Dar Al-Kitab, 1977.

Fassi Fehri, Abdelkader, *Linguistique arabe : forme et interprétation*, Rabat, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences humaines, 1981.

Gonegai, Abdelkader, *La syntaxe des relatives et des adjectifs en arabe standard, Thèse de Doctorat*, Paris VIII, 1990.

Khairi, Abdelouahed, *Quelques aspects de la syntaxe du nom en arabe, Thèse de Doctorat*, Paris VIII, 1990.

Messaoudi, Leila, « Étude de la variation dans le parler des Jbala (Nord-Ouest du Maroc) », *Revue Estudios de dialectologia norte africana y anadalusi*, 2000, p. 167-176.

Messaoudi, Leila, « Traits linguistiques du parler ancien de Rabat », dans Patrice Cressier et Angèle Vincente (dir.), *Peuplement et arabisation au Maghreb Occidental. Dialectologie et histoire*. Madrid, 1998, p. 157-163.

Messaoudi, Leila, « Le conte marocain. Aspects sociolinguistiques de la matière racontée », *Recherches pédagogiques*, n° 6, 1996b, p. 23-32.

Messaoudi, Leila, « Note sur l'affriquée [dj] dans le parler des Jbala (Nord du Maroc) », *Estudios de dialectologia norte africana y anadalusi*, n° 1, Zaragoza, 1996a, p. 167-175.

Messaoudi, Leila, « Éléments pour une dialectologie arabe. Quelques aspects linguistiques de l'arabe dialectal marocain », *Dialectologie et sciences humaines au Maroc*, n° 38, Rabat, Publications de la Faculté des lettres de Rabat, 1995, p. 185-224.

Mouchweh, Leila, *De la syntaxe des petites phrases, Thèse de Doctorat*, Paris VIII, 1986.

المراجع

- أيوب، عبد الرحمن، الحقائق اللغوية وأثرها في النظم اللغوية الوصفية، تونس، 1983.
- باكلا، محمد حسن، النظام الصوتي والصرفي في اللغة العربية: دراسة للفعل في اللغة المحلية في مكة المكرمة، بيروت، 1969.
- بشر، كمال، علم اللغة العام: الأصوات، القاهرة، دار المعارف، 1973.
- تمام، حسان، مناهج البحث في اللغة، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1974 [1955].
- تزيني، الطيب، إشكالية الأصالة والمعاصرة، بيروت، 1985.
- جحفة، عبد المجيد، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال، المغرب، 2000.
- حجازي، محمود فهمي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، القاهرة، المكتبة الثقافية، ع. 249، 1970.
- الحناش، محمد، «النحو التأليفي: مدخل نظري»، مجلة دراسات أدبية ولسانية، ع. 1، 1985.
- الحناش، محمد، البنيوية I، الدار البيضاء، دار الرشد الحديثة، 1980.
- حنون، مبارك، مدخل للسانيات سوسور، الدار البيضاء، دار توبقال، 1987.
- دك الباب، جعفر، «مدخل للسانيات العامة والعربية، المنهج الوصفي والوظيفي»، الموقف الأدبي، ع. 135، دمشق، 1982.
- الراجحي، عبده، النحو العربي واللسانيات المعاصرة، الرباط، منشورات كلية الآداب الرباط، 1984.
- الراجحي، التهامي، الثنائيات اللسانية، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1981.
- الراجحي، التهامي، توطئة في علم اللغة، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1977.
- رمضان، عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه، القاهرة، الخانجي، 1982.
- السعران، محمود، علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، الإسكندرية، دار الفكر العربي، 1962.
- السغروشن، إدريس، مدخل للصوتة التوليدية، الدار البيضاء، دار توبقال، 1987.
- شاهين، عبد الصبور، في علم اللغة العام، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1980، ط. 1، 1974.
- الشريف، محمد صلاح، «تقديم عام للاتجاه البراغماتي»، تونس، 1986.
- صالح، حاج عبد الرحمان، مدخل إلى علم اللسان الحديث، (المنهج التاريخي)، جامعة الجزائر، 1972.
- صبحي، الصالح، «أصول الألسنية عند النحاة العرب»، مجلة الفكر العربي، ع. 8-9، 1979.
- غاليم، محمد، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحليل جديدة، الدار البيضاء، دار توبقال، 2007.
- غاليم، محمد، التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، الدار البيضاء، دار توبقال، 1987.
- غلفان، مصطفى، «التفكير اللساني في الحضارة العربية لعبد السلام المسدي»، الثقافة الجديدة، ع. 28، 1983.
- غلفان، مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب عين الشق، 1998.
- فاسي فاهري، عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، الدار البيضاء، دار توبقال، 1985.
- فاسي فاهري، عبد القادر، «لسانيات الظواهر وباب التعليق»، أعمال ندوة البحث اللساني والسيميائي، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1984.
- كنكاي، عبد القادر، الدراسات اللسانية في الفكر العربي في القرن العشرين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2016.

وصورنة جديدة مع اعتماد التفسير والابتعاد عن المعيارية والتقديس (تزيني الطيب 1985). لقد نجحت النظرية التوليدية التحويلية في تربية جيل من اللسانيين تعاملوا بكل موضوعية علمية وتجرد شخصي مع اللغة العربية ومعطياتها ومع كل ما له صلة بأطروحات وتحاليل النحاة العرب القدامى. هكذا، تم إنتاج ركام من الأعمال اللسانية التي أنجزت باللغات العربية والفرنسية والانجليزية عمت بدورها كل قطاعات التحليل اللغوي تركيبا وأصواتا وصرفا ودلالة. تمثل هذه الدراسات نقلة نوعية في الممارسة اللسانية العربية، في المشرق وفي المغرب العربي، من خلال غنى وتنوع المعطيات التي تناولها اللسانيون العرب في تحليلاتهم، ومن خلال بعض الافتراضات والاقتراحات التي قدموها.

خاتمة

إجمالاً نقول، إن اللسانيين العرب، في المشرق والمغرب العربيين، أنجزوا دراسات كثيرة حول اللغة العربية وغيرها من اللغات المحلية والأجنبية. اعتمدوا على أطر نظرية مختلفة استوعبوها وأبدعوا في إطارها، بل أضافوا لها عدة أفكار أغنتها ووسعت مساحة فعاليتها. في الغالب، وموازة مع انفتاحهم على اللسانيات الغربية الحديثة، كانوا واعين كل الوعي بأهمية وضرة العودة لكتب النحاة العرب القدامى لأخذ المعطيات العربية الأصيلة وللتأمل في بعض التحاليل والاستنتاجات التي قدمها النحاة العرب في المعجم والتراكيب والأصوات وفي البلاغة وغيرها. في هذا الإطار، نجد أن بعض اللسانيين العرب حاولوا البرهنة على أن بعض الأطروحات التي قدمتها النظريات اللسانية لا تختلف في جوهرها عما قدمه النحاة العرب. من ناحية أخرى، نجد لسانيين آخرين تبنوا النظريات اللسانية الغربية وقدموا في إطارها تحاليل واستخلصوا أطروحات مهمة غيرت مسار بعضها. على العموم، فاللسانيون العرب، بكل إسهاماتهم المتميزة، قد شاركوا في إنجاز كل التراث اللساني العالمي وفتحوا آفاقاً للبحث والتأمل في الممارسة اللسانية بأسس علمية رصينة تربط ما بين المبادئ العامة بالنظرية *Principes* والخاص باللغات *.Paramètres*.

فاطمة الصديقي، عبد الرحيم اليوسي، محمد أمين مومين، فاطمة بوخريس، عبد الرحيم الجماري¹³.

2.4. اللسانيات التوليدية

ظهرت نظرية اللساني الأمريكي نواو شومسكي Noam Chomsky منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين، وهي التي عرفت بالنظرية التوليدية التحويلية Grammaire Générative أو النحو التوليدي الذي أحدث ثورة كبرى في اللسانيات، في حينها، كان من أهم معالمها:

- الانتقال باللسانيات من مجرد الوصف إلى التفسير¹⁴،
- الانتقال بتصور اللغة من اعتبارها لائحة من الدلائل، كما كانت عند دو سوسور، إلى اعتبارها نسقا من القواعد.

وميز شومسكي القدرة compétence اللغوية النفسية الباطنية لدى المتكلم عن الإنجاز performance المتعلق بالاستعمال الخارجي لهذه القدرة، وافترض أن هذه القدرة اللغوية دليل على وجود بنى ذهنية فطرية لدى الطفل عند ولادته تمكنه من اكتساب لغة عشرته وإنتاج وفهم ما لا نهاية له من الجمل النحوية Grammatical في مقابل الجمل اللائحة ungrammatical.

مثلت هذه النظرية منعطفا كبيرا في الممارسة اللسانية العربية، حيث عمقت النقاش حول ما يجب أن يكون عليه التحليل اللغوي الخاص باللغة العربية وباللغات الأخرى المستعملة في بلدان العالم العربي، خاصة اللغات العربية المحلية. لقد بينت ضرورة تحول الدرس اللساني العربي من مجرد الوصف والتصنيف إلى التحليل والتفسير، فنشطت، نتيجة ذلك، لسانيات الطواهر وكانت هي الغالبة حيث توجه اللسانيون العرب إلى تحليل طواهر اللغة العربية القديم منها والحديث بالإضافة إلى بعض اللهجات.

إن أهم خاصية طبعَت الإنتاج اللساني العربي التوليدي هو أنه عمق الحوار بين الدرس النحوي العربي واللسانيات الحديثة وشجع على إعادة قراءة هذا النحو باعتماد أدوات وفرضيات

¹³ في هذا الإطار، لابد من الإشارة والتنويه بكل الأعمال التي أنجزتها ليلى المسعودي في مختلف المجالات اللسانية ومختلف اللغات. إن المطلع على مختلف أعمالها، يتبين غزارة ما أنجزت داخل المغرب وخارجه حول اللغة العربية، ولغة أجبالة في شمال المغرب واللغة الفرنسية، بالإضافة إلى دراستها للغة في علاقتها مع المتخيل المغربي من خلال الحكايات الشعبية أو من خلال الاستعمالات اليومية في مختلف سياقات الحياة اليومية للأفراد والجماعات عند المرأة والرجل على السواء، (انظر لائحة المراجع، أعمال Leila Messaoudi : 1995؛ 1996؛ 1998؛ 2000).

¹⁴ أنظر أهم الدراسات اللسانية التوليدية خلال السبعينات والثمانينات.

(1962)، باكلا محمد حسن (1969)، حجازي محمود فهمي (1970)، صالح حاج عبد الرحمان (1972)، بشر كمال (1973)، شاهين عبد الصبور (1980)، تمام حسان (1976-1977)، صبحي الصالح (1979)، الراجحي عبده (1979)، الحناش محمد (1980)، الراجحي التهامي (1977-1981)، دك الباب جعفر (1982)، رمضان عبد التواب (1982)، أيوب عبد الرحمن (1983)، الموسي نهاد (1983)، الراجحي عبده (1984)، عبد السلام المسدي، الحناش محمد (1985-1986)، الشريف محمد صلاح (1986)، الوعر مازن (1987-1988)، حنون مبارك (1987)، السغروشني إدريس (1987).

تندرج كل هذه الأعمال في إطار ما أسماه مصطفى غلفان باللسانيات التمهيدية¹¹ التي لعبت دورا مهما في وضع توطئة مهمة لما سيأتي لاحقا من دراسات وبحوث وخلق تراكم أسس للمراحل اللاحقة من تاريخ اللسانيات في العالم العربي. لقد شيدت إنتاجا ضخما تناول كل جوانب التحليل اللساني تركيبا وأصواتا وصرفا ودلالة لعبت الجامعة دورا كبيرا في انتشاره وتعميمه داخل العالم العربي، وذلك من خلال الدروس والمحاضرات التي كانت تدرس للطلاب في الجامعات العربية، ومن خلال البحوث والأطروحات التي أنجزت فيها كل هذه الإنتاجات.

موازة مع هذه الدراسات اللسانية التمهيدية، تم إنجاز عدة دراسات أخرى في الصوتيات والتركيب والصرف، وفي اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية، بالإضافة إلى دراسات تناولت التخطيط اللغوي والمعجم والقواميس والممارسة اللغوية وما تطرحه من قضايا وإشكالات داخل المنظومة التعليمية سواء تعلق الأمر باللغة العربية أو باللغات الأجنبية المستعملة في البلدان العربية خاصة اللغة الفرنسية في المغرب العربي واللغة الإنجليزية في المشرق العربي¹². وفي نفس الإطار، وفي وقت لاحق، أنجزت عدة دراسات تبنت التيار البنيوي، طرحت في إطارها، عدة إشكالات مست دراسة وتدرّس اللغة الأمازيغية، في المغرب خاصة، بمختلف مظهراتها المحلية: تشلحيت في الجنوب وتريفيت في الشمال وتامازيغت في الوسط، وموقعتها داخل الفضاء اللغوي المغربي (انظر أحمد بوكوس، الحسين المجاهد، موحا الناجي،

¹¹ للمزيد من الاطلاع على كل هذه الأعمال، أنظر مصطفى غلفان، مرجع سابق، وعبد القادر كنكاي، الدراسات اللسانية في الفكر العربي في القرن العشرين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2016.

¹² للوقوف على واقع اللغة العربية في العالم، انظر عبد القادر كنكاي: • «واقع التعدد اللغوي بالمغرب، إشكالية حاضر ومستقبل المغرب»، مجلة بصمات، بنمسك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2009، ص. 21-35. • اللغة العربية وتحديات العصر، باريس، معهد العالم العربي، 2006. • اللغة العربية في العالم، باريس، معهد العالم العربي، 2005.

▪ توسيع وتجريب هذه النظريات في مختلف مجالات التحليل اللساني في التركيب والصرف والأصوات بالإضافة إلى الدراسات التي تناولت التعدد اللغوي واللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية واللسانيات التطبيقية والتخطيط اللغوي (أحمد بوكوس، ليلى المسعودي، محمد حليلى، محمد أمين مومين، أحمد سعود...).

4. النظريات اللسانية في القرن 20 ومساهمة العرب فيها

فيما يلي، نقدم التيارات اللسانية الكبرى التي عرفها القرن العشرون والتي استمرت في القرن الواحد والعشرين، وسندرج بعض اللسانيين العرب الذين أنتجوا أعمالاً في إطارها، على أن نترك للقارئ المهتم إمكانية الاطلاع عليها بشكل معمق لأن المجال لا يسمح بإدراجها كلها⁹.

1.4. اللسانيات البنيوية¹⁰

اعتبر دو سوسور أن موضوع اللسانيات هو اللسان *langue* في ذاته ولذاته باعتباره ملكة مشتركة بين كل أفراد أية عشيرة لغوية معينة؛ وميزه عن الكلام *parole* المرتبط بالإنجازات الفردية. وفرق الدراسة اللسانية إلى دراسة تزامنية *synchronique* تهتم بوصف اللغة في مرحلة زمنية معينة، وبين الدراسة التزمّنية *diachronique* التي تهتم بتتبع اللغة في تطورها التاريخي، كما اعتبر اللغة نسقاً *systeme* من الدلائل *signes*، كل دليل منها يقوم على عنصرين غير قابلين للانفصال، هما الدال *signifiant* والممدلول *signifié* تجمع بينهما علاقة اعتباطية *arbitraire* غير طبيعية. لقد كان لعمل دو سوسور أثر كبير في تطوير ما عرف بالمنهج البنيوي سواء داخل حقل اللسانيات، مع مدرسة براغ *Prague* ومدرسة كوبنهاغن *Copenhagen* والمدرسة التوزيعية *Distributionalisme* الأمريكية وغيرها، أو خارجه، في حقول معرفية أخرى كالسيمائيات والنظرية الأدبية والأناسة والفلسفة إلخ.

اتجهت أعمال اللسانيين العرب في هذا الإطار إلى تقديم النظرية البنيوية بشكل تعليمي كإطار نظري للتحليل اللغوي تهدف إلى تلقين طلاب الجامعات تقنيات التحليل اللساني البنيوي. امتدت هذه الأعمال مدة طويلة استمرت من نهاية الستينات إلى السبعينات والثمانينات، وتعددت بين ترجمات وتقديرات لكل المبادئ والأدوات التي تؤطر هذه النظرية. هكذا، نجد عدداً من الباحثين من المشرق والمغرب من أمثال بشر كمال محمد (1962)، السعمران محمود

⁹ للمزيد من الاطلاع على أسماء ومساهمات بعض اللسانيين العرب، انظر مصطفى غلفان، مرجع سابق، ولائحة المراجع الشاملة التي اعتمدها.

¹⁰ لن نقوم بتقديم المدارس البنيوية، وسنقتصر فقط على تقديم أهم الأطروحات التي اقترحتها، ما يهمنا هنا هو تقديم مساهمة اللسانيين العرب في إطارها، مع الإشارة إلى مجالات تدخلاتهم.

- تداخل هذه الدراسات مع الدرس النحوي العربي القديم،
 - تعدد اللغات التي درسها اللسانيون العرب: اللغة العربية واللغات العامية واللغات الأجنبية في العالم العربي،
 - تنوع اللغات التي أنجزت بها كل الدراسات اللسانية،
 - تنوع الهوية الأكاديمية للدراسات المنجزة بين كتب ومقالات وبحوث وأطروحات جامعية.
- في هذا الإطار، تم تصنيف هذه الدراسات تصنيفات متعددة، إلا أن أهمها وأقربها إلى الواقعية، هي تلك التي اقترحها مصطفى غلفان (1998) الذي اعتمد عدة معايير منها الهدف من الدراسة المنجزة، وهوية موضوعها بين موضوع تقليدي أو تراثي أو هما معا، بالإضافة إلى المنهج المعتمد فيها. أسفرت هذه التصنيفات عن ثلاثة هي⁶:
- لسانيات تهديدية تهتم باللسانيات واتجاهاتها،
 - لسانيات تراثية وتهتم بدراسة التراث العربي⁷،
 - لسانيات عربية وتضم مجمل الدراسات التي تناولت ظواهر اللغة العربية.
- لا ينكر أحد إسهام اللسانين العرب في بلورة عدة نظريات لسانية عالمية والدفع بها نحو الكلية Universalité وذلك من خلال تطبيقها على عدد كبير من ظواهر اللغة العربية الخاصة، الشيء الذي أعطى لبعض النظريات إمكانيات أكثر لتفسير مجموعة من الظواهر التي كانت عاجزة على تحليلها وتفسيرها، الشيء الذي ساعد على توسيعها وإعادة صياغة بعض مبادئها وفرضياتها لتصبح قادرة على استيعاب أكثر ما يمكن من المعطيات من لغات مختلفة. في هذا الإطار، يمكن تبين إسهام الباحثين العرب في النقاط التالية:
- إغناء المتن Corpus الذي درسته مختلف النظريات اللسانية مما ساعد على إضافة معطيات جديدة للتحليل اللساني،
 - توسيع الكفاية التفسيرية لبعض النظريات بفضل خصوصية بعض معطيات اللغة العربية، خاصة فيما تم إنجازه في إطار النحو التوليدي التحويلي، أنظر عبد القادر الفاسي الفهري (1981)، عبد الواحد خيري (1990)، وعبد القادر كركاي (1990)، ومحمد أمين (1990).
 - اقتراح أفكار وتحليلات جديدة أضيفت للتحليلات التي ولدت في أحضان هذه النظريات⁸.

⁶ للمزيد من التوسع، انظر: مصطفى غلفان، مرجع سابق.

⁷ أفرز الركام اللساني العربي خطابين: خطاب لغوي نهضوي وخطاب لساني معاصر، انظر: مصطفى غلفان، مرجع سابق.

⁸ انظر Abdelkader Fassi Fehri, *Linguistique arabe : forme et interprétation*, Rabat, PFLSH, 1981

واقترحه لعدة أفكار أغنت النظرية التوليدية المقدمة في أعمال شومسكي (1981)، خاصة اقتراحه تعميم تطبيق

نظرية س-X-Barre Theory على المقولات الوظيفية ومنها المركب المصدرى Complementizer.

3. نشأة اللسانيات في العالم العربي

في البداية، ظهرت اللسانيات في المشرق العربي في مصر وسوريا والعراق بعودة عدد من الطلبة من أوروبا، خاصة من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية الذين درسوا أساسا في شعب اللغة الإنجليزية، وكان من الجيل الأول عدة أسماء نذكر منها جرجي زيدان وعلي عبد الواحد وافي، وعبد المجيد عابدين، وإبراهيم مصطفى، ومحمد السكري، ومحمود فهمي حجازي، وتمام حسان، ومحمد السعران، زكريا ميشال، ومازن الوعر وآخرون. تاريخيا كانت البداية الأولى مع صدور كتاب: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس (1943-1946) الذي طبق المنهج البنيوي على الأصوات العربية⁴.

أما في المغرب العربي، وفي المغرب على وجه الخصوص، فقد كانت البداية خلال نهاية الستينات وبداية السبعينات من القرن العشرين، وذلك بعودة بعض الطلبة من أوروبا خاصة من فرنسا وبريطانيا، نذكر منهم على وجه الخصوص بعض اللسانيين من الجيل الأول: إدريس السغروشن، عبدالقادر الفاسي الفهري، أحمد المتوكل، محمد الحناش، ليلي المسعودي، موحا الناجي، فاطمة الصديقي، أحمد بوكوس، الحسين المجاهد، حسن الصميلي، عبد الرحيم اليوسي، فاطمة بوخريص، عبدالرحيم الجماري، والجيل الثاني الذين درسوا في جامعات أجنبية ومغربية، خلال نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، نذكر منهم: مصطفى غلفان، نعيمة الزوهري، كريم الله كبور، جمال أوهلا، عبد القادر كنكاي، محمد أمين، عبد الواحد خيري، محمد السيدي، مبارك حنون، عبد اللطيف شوطا، عبد المجيد جحفة، رشيد الحضري، محمد غاليم، نعيمة التوكاني، محمد الرحالي، أحمد صابر، مراد موهوب، محمد بلبول أحمد الباهي، محمد الشكري، صالح حاج عبد الرحمان، عبدالسلام المسدي وآخرون. لابد من الإشارة في هذا المقام، أن لسانيي الجيل الثاني قد استفادوا كثيرا من لسانيي الجيل الأول الذين تدرسوا عنهم واكتسبوا من تجربتهم التي ساعدتهم على تعميق النقاش في عدة قضايا وظواهر لغوية تخص اللغة العربية المعيار واللغات المحلية بالإضافة إلى اللغة الأمازيغية⁵.

يظهر من خلال الوقوف على تاريخ اللسانيات في العالم العربي أن هناك صعوبة في استقراء كل ما تم إنجازه من بحوث ودراسات، في المشرق وفي المغرب العربي، وذلك لعدة أسباب منها:

- تقلب اللسانيين العرب بين عدة نظريات لسانية،

⁴ مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب عين الشق، 1998.

⁵ هناك عدد هائل من اللسانيين العرب مشاركة ومغاربة اهتموا بالترجمة والمعجم والتخطيط اللغوي لا يسمح المقام بذكرهم جميعا منهم عبد الغني أبو العزم، عبد العالي الودغيري...

نظرا لشساعة الموضوع وضخامة الإنتاج اللساني العربي، سنعتمد مقارنة نقدم خلالها كل النظريات اللسانية التي ظهرت في هذه الفترة، وسنقف عند أهم الدراسات والإسهامات العربية التي تم إنجازها في إطارها.

2. بدايات الدراسات اللسانية في العالم العربي

نظرا لتنوعها وتداخلها وكثرتها²، ليس من السهل تحديد الأهداف العامة التي كانت وراء إنجاز هذه الدراسات، إلا أن ما يمكن استخلاصه هو أن الهدف الأساس من ذلك يكمن في رغبة اللسانيين العرب في تبرير وتسويغ مشروعية هذه الدراسات مقابل الدراسات الكلاسيكية التي كانت في غالبيتها محصورة في الدراسات النحوية والصرفية بشكل تقليدي، والتي تمثل امتدادا لكل الدراسات النحوية العربية القديمة. بالإضافة إلى هذا، قدم اللسانيون العرب مبررات أخرى منها الرغبة في تجاوز الدراسات التقليدية والدعوة لتبني مناهج جديدة في دراسة اللغة تمشيا مع جنوحهم إلى دراسة اللغة العربية دراسة جديدة توازي التطور الذي تعرفه هذه اللغة اعتمادا على نظريات غربية حديثة.

أثارت هذه الرغبة ردود فعل متنوعة بين داع إلى تبني اللسانيات المعاصرة ورافض لها وبين معتدل يدعو إلى الانفتاح على اللسانيات الغربية مع الحفاظ على هوية اللغة العربية والدرس النحوي العربي. لا بد من الإشارة هنا إلى أن ظهور اللسانيات في العالم العربي جاء موازيا لما عرفته الساحة الثقافية العربية من حركية ونشاط ابتداء من القرن 19 وبداية القرن العشرين خاصة انفتاحها على الغرب ونظرياته، وهي محاولة لتجاوز كل الأطروحات التقليدية في مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية السائدة في العالم العربي شرقه وغربه.

لقد عرف دخول اللسانيات إلى العالم العربي صعوبة تمثلت في ردود الأفعال المناهضة التي عرفتها الساحة سواء من طرف اللغويين العرب أنفسهم أو من قبل المؤسسات الجامعية التي كانت ترفض كل انفتاح على هذه الممارسة اللسانية الجديدة. طبعا يمكن تفهم هذا الرفض في أوانه، وذلك في الانغلاق والتعصب لدراسة النحو العربي ورفض كل اجتهاد خارجه مع الاقتصار على الرغبة في إحيائه وإعادة صياغة قواعده ومحاولة تيسيرها برؤية تقديسية للتراث العربي القديم عامة والنحو العربي خاصة³.

² في هذا الإطار، تطرح مسألة اللغة التي كتبت بها هذه الدراسات، العربية والفرنسية والإنجليزية، والمستوى اللغوي المدروس: اللغة العربية واللغات المحلية «الدوارج» بالإضافة إلى اللغة الأمازيغية.

³ كان الرفض عند بعض اللغويين منطلقا من كون اللسانيات الغربية قد اهتمت كثيرا بدراسة اللهجات الشيء الذي اعتبره استغناء ومسا بقديسية اللغة العربية.

تقديم

تهتم اللسانيات بالدراسة العلمية للغات في جانبها المادي، على غرار العلم الفيزيائي، من حيث اهتمامه بالأصوات اللغوية من جوانبها الفيزيائية، وفي جانبها النفسي من حيث ارتباطها بالمعرفة اللغوية الباطنية/ الذهنية لدى المتكلم وما يصدر عن هذه المعرفة من سلوكات فردية وجماعية.

يمكن الرجوع بأصول تطور اللسانيات إلى القرن التاسع عشر مع باحثين أمثال راسمون راسك وفرانز بوب وفيلهلم فون هومبلت، الذين اتخذوا من اللغة موضوعاً طبيعياً للدراسة العلمية، باستخدام المنهج المقارن لدراسة التشابهات بين لغات مختلفة وبناء تسلسلها التاريخي والوقوف على أصولها والأسر اللغوية التي تنتمي إليها. عرفت بعد ذلك عدة تطورات وتحولات أثرت فيها عدة عوامل ذاتية وموضوعية، إلا أن التحول الكبير الذي مثل نقطة بدايتها الحقيقية ارتبط باسم العالم اللغوي فرديناند دو سوسور Ferdinand De Saussure صاحب المؤلف الشهير: دروس في علم اللغة العام.

في إطار كل النظريات اللسانية التي عرفها القرن العشرون والواحد والعشرون، أسهم لسانيون من كل دول العالم في بلورة عدة نظريات وقدموا تحليلات واقتراحات لوصف اللغات وتحليل ظواهرها والمقارنة بينها. هكذا، عرفت الأدبيات اللسانية عدة تسميات منها «اللسانيات الفرنسية» التي ارتبطت أساساً بالدراسات البنوية، و«اللسانيات الأمريكية» التي ابتدأت باللسانيات التوزيعية وانتهت بالتوليدية... و«اللسانيات العربية» التي ارتبطت بالإنتاج اللساني الذي أنتجه اللسانيون العرب في مختلف النظريات اللسانية والتي كانت موجهة أساساً لدراسة اللغة العربية واللغات المحلية في العالم العربي وأيضاً لبعض اللغات الأجنبية المستعملة بدرجات متفاوتة في البلدان العربية¹.

1. اللسانيات في العالم العربي

ضمت الدراسات اللسانية العربية في القرنين العشرين والواحد والعشرين عدداً هائلاً من الدراسات التي أخذت شكل مقالات وكتب وأطروحات تناولت اللغة العربية واللغات الأخرى التي تتداول داخل العالم العربي بما فيها اللغات المحلية والأجنبية. يصعب حصر كل هذه الدراسات ومقاربتها دون استحضار كل العوامل الإستمولوجية والذاتية والموضوعية التي تحكممت في إنتاجها والتي تطرح عدة أسئلة منها: متى بدأت هذه الدراسات وما هي أهدافها؟ ما هي أهم الأطروحات التي تناولتها؟ ما هي الأطر النظرية التي تم اعتمادها في كل هذه الدراسات؟

¹ مع مرور الزمن، عرفت هذه الدراسات تطوراً هائلاً بفضل المجهود الكبير الذي قام به الجيل الأول من اللسانيين العرب، وبفضل الكتب التمهيدية التي أنجزوها والتي مثلت دعامة مهمة لانتقال نوعي للإنتاج اللساني في السبعينات وما بعدها في المشرق والمغرب العربيين.

اللسانيات في العالم العربي

عبد القادر كنكاي

جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب

ملخص: تهتم هذه الدراسة بمساهمة العرب في الدراسات اللسانية العالمية في القرنين 20 و 21، منذ ظهور اللسانيات وتموقعها بين العلوم الأخرى، مع التركيز على النظريتين البنوية والتوليدية التحويلية لما تولدت عنهما من نظريات أخرى. لقد اخترنا هذا الموضوع لإبراز مساهمة اللسانيين العرب في بلورة بعض النظريات اللسانية وتطويرها وإثارة عدة قضايا لغوية وبيداغوجية وثقافية داخل العالم العربي، وكذا للوقوف على إسهامات اللسانيين المغاربة، ومنهم ليلى المسعودي التي راكمت مجموعة من الدراسات المرتبطة بالتحليل اللساني أصواتا وصرفا وتركيبا، بالإضافة إلى المعجم والسيولسنيات والتربية.

كلمات مفاتيح: اللسانيات؛ التركيب؛ البنوية؛ النحو التوليدي التحويلي؛ الصورة؛ الدلالة؛ التخطيط اللغوي

Résumé : Nous présentons la contribution des arabes dans la linguistique mondiale, durant le 20^e et 21^e siècle, depuis l'apparition de la linguistique et de son positionnement parmi les autres sciences, tous particulièrement la théorie structuraliste et la grammaire générative et transformationnelle. Nous avons choisi ce sujet pour mettre l'accent sur la participation linguistique arabe dans l'étude de plusieurs phénomènes linguistiques, pédagogiques et culturels au sein du monde arabe, particulièrement la production linguistique marocaine dans laquelle s'inscrivent les travaux de la Professeure Leila Messaoudi.

Mots-clés : linguistique; syntaxe; structuralisme; grammaire générative et transformationnelle; formalisation; sémantique; planification linguistique

تمثل هذه الدراسة تتمة لدراسة سابقة تناولت الإنتاج اللساني العربي في القرن العشرين. نقدمها هنا للتنويه بكل الأعمال التي أنجزتها الأستاذة ليلى المسعودي في مسارها العلمي الطويل الذي مس عدة مجالات لسانية أسهمت به في إغناء الخزانة اللسانية العالمية.

تقدم الدراسة فكرة مختزلة عن مساهمة وأعمال اللسانيين العرب في المشرق وفي المغرب العربيين. وندعو القارئ المهتم بالموضوع للاطلاع على لائحة المراجع للإلمام بكل الأعمال الأخرى لأن المقام لا يسمح بالوقوف عندها كلها.

- Rosenberger, Bernard, « Les anciennes exploitations minières et les anciens centres métallurgiques du Maroc », *Revue de Géographie du Maroc*, n° 18, 1970, p. 59-102.
- Roubet, Colette, « La domestication au Maghreb : état de la question », dans L. Krzyzaniak et M. Kobusiewicz (éd.), *Origin and early development of food-producing cultures dans North-Eastern Africa*, Poznan, Poznan Archaeological Museum, 1984, p. 437-452.
- Simoneau, André, *Catalogue des sites rupestres du sud marocain*, Rabat, Ministère d'État chargé des Affaires Culturelles, 1977.
- Simoneau, André, « Les rhinocéros dans les gravures du Draa-Bani », *Antiquités africaines*, t. 1, Paris, CNRS, 1976, p. 7-31.
- Ugot, Henri-Jean, *L'Afrique préhistorique*, Paris, éd. Hatier, 1970.
- Vigne, Jean-Denis, *Les débuts de l'élevage*, Paris, éd. le Pommier, 2004.
- Vaufrey, Raymond, « L'art rupestre nord-africain », *Archives de l'Institut de paléontologie humaine*, n° 20, Paris, Masson, 1939.
- Wailly, Allain, « Le Kef el Baroud et l'ancienneté de l'introduction du cuivre au Maroc », *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. X, 1976, p. 47-51.
- Wailly, Allain, « Le site du Kef el Baroud (région de Ben Slimane) », *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. IX, 1973, p. 39-101.
- Willcox, George, « De la cueillette à l'agriculture », *Pour la Science*, n° 274, 2000, p. 36-40.

- Marcy, Georges, *L'épigraphie Berbère (Numidique et Saharienne)*, Annales de l'Institut d'études orientales de l'Université d'Alger, Université d'Alger, t. II, Paris, 1936.
- Marechal, Jean-René, « La préhistoire de la métallurgie et ses prolongements », *Revue Archéologique*, n° 14, Avignon, 1983, p. 125-169.
- De Keroualin, Karoline-Mazurie, *Genèse et diffusion de l'agriculture en Europe*, Paris, Errance, 2003.
- Mohen, Jean-Pierre, *Métallurgie préhistorique*, Paris, éd Elsevier-Masson, 1997.
- Mori, Fabrizio, « L'Art rupestre préhistorique dans le Sahara Libyen comme aboutissement d'un long processus biculturel », coll. *Histoire Générale de l'Afrique, Études et documents, Libya Antique*, n° 11, Paris, UNESCO, 1988, p. 157-163.
- Moro Abadia, Oscar, « Pour une nouvelle histoire des sciences humaines : Lartet, Mortillet, Piette et le temps de la Préhistoire », *Bulletin de la Société préhistorique française*, 2005, t. 102, p. 715-720.
- Muzzolini, Alfred, « Au sujet de l'origine de l'écriture libyque », *Lettre de l'Association des Amis de l'Art Rupestre Saharien*, n° 19, 2001, p. 23-26.
- Muzzolini, Alfred, « les climats sahariens durant l'holocène et la fin de pléistocène », *Travaux du Laboratoire d'anthropologie et de préhistoire des pays de la Méditerranée occidentale*, 1982, n° 2, p. 1-38.
- Muzzolini, Alfred, « La période des chars au Sahara. L'hypothèse de l'origine égyptienne du cheval et du char », dans G. Camps et M. Gast (dir.), *Les chars préhistoriques du Sahara*, Sénanque, Mars 1981, p. 45-56.
- Muzzolini, Alfred, « Les premiers bœufs domestiques au Sahara central : les documents des fouilles », *Bulletin de la Société méridionale de Spéléologie et de Préhistoire*, vol. XXI, 1981, p. 19-34.
- Muzzolini, Alfred, « L'extension géographique des "Têtes Rondes" au Sahara », dans Emmanuel Anati (dir.), *Prehistoric Art and Religion, Valcamonica Symposium, The intellectual Expressions of Prehistoric Man: Art and Religion*, 1979, p. 365-384 et 511-513.
- Obermaier, Hugo, « L'âge de l'art rupestre Nord-africain », *L'Anthropologie*, t. XLI, n° 1-2, Paris, 1983, p. 65-74.
- Patou-Mathis, Marylène, « Les stratégies alimentaires des Néandertaliens », *Pour la Science*, n° 254, 1998, p. 74-78.
- Richard, Nathalie, *Inventer la Préhistoire : les débuts de l'archéologie préhistorique en France*, Paris, Vuibert, 2008, p. 32-51.
- Rodrigue, Alain, « Les représentations de haches dans l'art rupestre du Maroc méridional », *Bulletin de la Société d'Études et de Recherches Préhistoriques Les Eyzies*, n° 43, p. 27-36.

- Guilaine, Jean (dir.), « Populations néolithiques et environnements », *Séminaire du Collège de France*, Paris, Errance, 2005.
- Guilaine, Jean, *De la vague à la tombe. La conquête néolithique de la Méditerranée*, Paris, éd. Seuil, 2003.
- Hachid, Malika, *Les pierres écrites de l'Atlas saharien, 1, El-Hadjra El-Mektouba*, t. I, éd. ENAG, Paris, 1992.
- Hublin, Jean-Jacques, « Climat de l'Europe et origine des Néandertaliens », *Pour la Science*, n° 245, 1998, p. 52-59.
- Jodin, André, « L'Âge du bronze au Maroc : La nécropole mégalithique d'El Mriès (Oued Bou-Khalf, Tanger) », *Bulletin d'Archéologie Marocaine*, t. V, 1964, p. 11-45.
- Jodin, André, « Les gisements de cuivre du Maroc et l'archéologie des métaux », *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. VI, 1966, p. 11-27.
- Kaache, Bouchra, « Début de la domestication animale au Maroc : indices et reconnaissances et interrogations », *Mémoire de D.E.A*, Aix-Marseille, Université de Provence, 1995.
- Le Corre, Fabrice, « Le vêtement dans l'art rupestre nord-africain et saharien », *Mémoire de DEA*, Aix-en-Provence, 1984, p. 54 (travail, dact.).
- Le Quellec, Jean-Loïc, *Symbolisme et art rupestre au Sahara*, Paris, l'Harmattan, 1993, p. 638.
- Leclant, Jean et Huard, Paul, « La culture des chasseurs du Nil et du Sahara », dans L. Allard-Huard, *Mémoires du Centre de recherches anthropologiques, préhistoriques et ethnographiques*, n° 29, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1980.
- Lhote, Henri, *Les gravures rupestres de l'Atlas saharien. Monts des Ouled-Naïl et région de Djelfa*, Office du Parc du Tassili, 1984.
- Lhote, Henri, « Les chars rupestres du Sahara et leurs rapports avec le peuplement dans les temps préhistoriques », dans *Les chars préhistoriques du Sahara, archéologie et techniques d'attelage*, actes du colloque de Sénanque (21-22 Mars 1981) Aix-en-Provence, 1982, p. 24-33.
- Lhote, Henri, « Nouvelle contribution à l'étude des gravures rupestres du Sahara Central (Ahaggar) », *Journal de la Société des Africanistes*, vol. 29, n° 2, 1959, p. 147-192.
- Libmann, Paul, « Le mouton dans les gravures et les peintures rupestres de l'Afrique du Nord et du Sahara », *Thèse, Médecine vétérinaire*, Toulouse, 1989, p. 76-93.
- Louboutin, Christian, *Au Néolithique. Les premiers paysans du monde*, Paris, Gallimard/RMN, 1990.
- Malhomme, Jean, *Corpus des gravures rupestres du Haut Atlas*, Publications du Service des Antiquités du Maroc, 2 volumes, 1959.
- Marcy, Georges, *Les Inscriptions Libyques Bilingues de l'Afrique du Nord*, Paris, Imprimerie nationale, 1936.

- Cohen, Claudine, *L'homme des origines: savoirs et fictions en préhistoire*. Paris, éditions du Seuil, 1999.
- Collina-Girard, Jacques, « Le feu domestiqué », *Pour la Science*, n° 258, 1999, p. 56-61.
- Coppens, Yves et Picq, Pascal (dir.), *Aux origines de l'humanité. De l'apparition de la vie à l'homme moderne*, Paris, éd. Fayard, 2001.
- Coppens, Yves, *Le Présent du passé, l'actualité de l'histoire de l'Homme*, Paris, éd. Odile Jacob, 2009.
- Coppens, Yves, « L'origine de l'Homme : le milieu, la découverte, la conscience, la création », *Revue des Sciences morales et politiques*, n° 4, 1987, p. 507-532.
- Darwin, Charles, *L'origine des espèces au moyen de la sélection naturelle ou La préservation des races favorisées dans la lutte pour la vie*, Paris, Flammarion, 2008.
- De Certeau, Michel, *L'écriture de l'histoire*, Paris, éd. Gallimard, folio histoire, 1975.
- Demougeot, Émilienne, « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*, 1960, vol. 15, n° 2, p. 209-247.
- Drouin, Jonathan, « Les écritures libyco-berbères », *Les Dossiers de l'archéologie*, n° 260, 2001, p. 36-39.
- El Khayari, Abdelaziz, « Considérations sur l'épigraphie libyque du Maroc », dans Mohamed Fantar et Ahmed Siraj (dir.), *Débuts de l'écriture au Maghreb*, Casablanca, 2004, p. 91-130, Actes des colloques organisés à Casablanca par la Fondation du Roi Abdul-Aziz al Saoud pour les Études Islamiques et les Sciences Humaines, 17-18 janvier et 18-19 avril 2002.
- Elmedlaoui, Mohamed, « Le Berbère et l'histoire du plurilinguisme au Maghreb (le cas du Maroc) », *Études et documents berbères*, Paris. Novembre 2006, n° 23, p. 153-178.
- Février, James Germain, « Écritures libyques et ibériques », dans James-Germain Février (dir.), *Histoire de l'écriture*, Paris, éd. Payot, 1959, p. 321-332.
- Galand, Lionel, « Un vieux débat : l'origine de l'écriture libyco-berbère », *Lettre de l'Association des Amis de l'Art Rupestre Saharien*, n° 20, 2001, p. 21-24.
- Galand, Lionel, « La datation des inscriptions. Pour une évaluation des critères linguistiques », *La Lettre du Répertoire des Inscriptions Libyco-Berbères*, n° 11, 2005, p. 1-2.
- Galand, Lionel, « Du berbère au libyque : une remontée difficile », *Lalies*, 16, 1996, p. 77-98.
- Galand, Lionel, « Inscriptions libyques », *Inscriptions antiques du Maroc*, éd. CNRS, 1966, p. 1-79.
- Février, James-Germain, « Que savons-nous du libyque? », *Revue Africaine*, t. L, 1956, p. 263-273.
- Grébenart, Danilo, « Réflexion sur l'âge des gravures rupestre de Safiet Bou Rhenane », *Libyca*, vol. XIX, 1971.

- Camps, Gabriel, « La faune des temps néolithiques et protohistoriques de l'Afrique du Nord : Critique des données », *Travaux du Laboratoire d'anthropologie et de préhistoire des pays de la Méditerranée occidentale*, 1989, p. 59-70.
- Camps, Gabriel, « Protohistoire de l'Afrique du Nord. Questions de terminologie et de chronologie », *Revue du Centre d'études de la civilisation phénicienne-punique et des antiquités libyques*, t. 3, 1987, p. 43-71.
- Camps, Gabriel, « Un thème religieux dans l'art rupestre nord-africain : le bélier à sphéroïde », dans M. Liverani, A. Palmieri et R. Proni (dir.), *Studi di paleontologia in onore di Salvatore M. Puglisi*, Rome, 1985, p. 345-357.
- Camps, Gabriel, « Recherches sur les plus anciennes inscriptions libyques de l'Afrique du Nord et du Sahara », *Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques et scientifiques*, n° 10-11, 1974, p. 143-166.
- Camps, Gabriel, « Écriture libyque », *Encyclopédie berbère*, vol. 17, 1996, p. 2564-2573.
- Camps, Gabriel et Camps-Fabrer, Henriette, « Perspectives et orientations des recherches sur le Néolithique saharien », *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, t. 11, 1972, p. 21-30.
- Camps, Gabriel, « Formation des populations méditerranéennes de l'Afrique du Nord », *Biologie et génétique de l'homme méditerranéen*, Colloque international, Hammamet 1968, Tunis, éd. Société De Biologie Humaine et de Transfusions Sanguines, p. 51-57.
- Camps, Gabriel, « Aux origines de la Berbérie : Massinissa ou les débuts de l'Histoire », *Libyca*, n° 8, 1960, p. 1.
- Camps, Gabriel, « Les traces d'un Age du bronze en Afrique du Nord », *Revue africaine*, t. 104, 1960, p. 31-55.
- Camps, Gabriel, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara*, Paris, Doin, p. 26-27.
- Chaker, Salem, « L'écriture libyco-berbère. État des lieux, déchiffrement et perspectives linguistiques et sociolinguistiques », *Colloque annuel de la Société d'Histoire et d'Épistémologie des Sciences du Langage, Lyon-ENS*, 2 février 2002, p. 72-89.
- Chaker, Salem et Hachi, Slimane, « À propos de l'origine et de l'âge de l'écriture libyco-berbère. Réflexions du linguiste et du préhistorien », dans Salem Chaker et Andrej Zaborski (dir.), *Mélanges offerts à Karl-G. Prasse*, Paris/Louvain, Peeters, 2000, p. 94-111.
- Chaker, Salem et Hashi, Slimane, « À propos de l'écriture Libyco-berbère », dans *Hommage à Karl Prasse*, éd. Peeters, 1999, p.1-14.
- Chenorkian, Robert, *Les armes métalliques dans l'Art protohistorique de la Méditerranée occidentale*, Paris, CNRS, 1988.

مراجع

- الأرشيف الخاص بأعمال الأستاذ مصطفى أعشي
 أعشي، مصطفى، إسهام النقوش الصخرية المغربية في التعريف ببداية استئناس الحيوان، المnahل، ع. 58، 1998، ص. 28-45.
- أعشي، مصطفى، جذور الكتابة الأمازيغية، من أجل ترسيم أبجدية تيفيناغ لتدريس الأمازيغية تحاليل وآفاق، س. دراسات، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، 2002، ص. 9-32.
- أعشي، مصطفى، نماذج من بعض الإسهامات الأمازيغية الحضارية، نوافذ، ع. 17-18، غشت 2002، ص. 95-108.
- أعشي، مصطفى، جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ، نشر مركز طارق بن زياد، الرباط، دجنبر 2002.
- حشيد، مليكة، أقدم كتابة في إفريقيا الشمالية يعود عمرها إلى أكثر من 5000 سنة، جريدة المعركة، 12 أبريل، 1960.
- غافي، منصور، الكتابة اللوبية، أسلاف البربر، تونس، منشورات المعهد الوطني للتراث، الدورة 3، شهر التراث، 1994.
- غانم، محمد الصغير، النقوش الليبية في شمال إفريقيا، المورد، المجلد 19، ع. 2، 1990.
- سعودي، شايد يسمينة، تاريخ الحصان في شمال إفريقيا، الكراسات التونسية، 1991، ص. 9-12.
- Aghali-Zakara, Mohamed, « De l'origine et de la survivance des écritures libyco-berbères », dans Mohamed Fantar et Ahmed Siraj (dir.), *Débuts de l'écriture au Maghreb*, Casablanca, 2004, p. 85-90, Actes des colloques organisés à Casablanca par la Fondation du Roi Abdul-Aziz al Saoud pour les Études Islamiques et les Sciences Humaines, 17-18 janvier et 18-19 avril 2002.
- Anati, Emmanuel, *Les origines de l'art et la formation de l'esprit humain*, Paris, Albin Michel, 1989.
- Aumassip, Ginette, « L'émergence précoce du Néolithique au Sahara », *Pour la Science*, n° 234, 1997, p. 56-62.
- Badré, Vincent, *L'Histoire fabriquée? Ce qu'on ne vous a pas dit à l'école*, Paris, éd. Le Rocher 2012, p. 12-24.
- Balout, Lionel, *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris 1955, p. 477-478.
- Behrens, Peter, « Langues et migrations des premiers pasteurs du Sahara, la formation de la branche berbère », *Histoire générale de l'Afrique, Libyca antiqua*, n° 11, Paris, UNESCO, 1988, p. 31-53.
- Lamara Boughchiche, *Langues et Littérature berbères des origines à nos jours. Bibliographie internationale systématique*, Préface de Lionel Galand, Paris, Ibis Press, 1997.
- Boule, Marcellin, « Mouvement scientifique », *L'anthropologie*, t. 33, 1923, p. 385-401.

كل المخلوقات، والتزم بضمان نقل المكتسبات المعرفية بين الأجيال. فشكّلت الكتابة أرقى ما وصل إليه الإنسان، حيث ضمنت له الانتقال من مرحلة ما قبل التاريخ إلى المرحلة التاريخية.

كان لطبيعة تركيبة العقل البشري أن لعب دور الخزان المعرفي الذي اكتسبه الإنسان مع توالي استعماله للأدوات الطبيعية قبل أن يكتشف معادنها وثرواتها وتسخيرها لضمان استمراره على قيد الحياة. وجاء اكتشافه للنار كثورة معرفية سارعت في تطوره الحضاري بأن أُنارت له طريق الحياة وترويض العدانة والطبيعة. وكأنه خشي أن تضيع منه هذه المكتسبات المعرفية، فعمد إلى نقش ما رآه أجدر بالخلود على لوحات صخرية لا تزال تشهد على المستوى المعرفي الذي وصله إنسان ما قبل التاريخ. مما أسهم في اكتشاف الرموز، وبالتالي الحروف والكتابة. وبذلك دخل الإنسان مرحلة جديدة في تاريخ تطوره البشري القائم على اكتساب المعارف وتوظيفها في سبيل ضمان الحفاظ على الجنس البشري، وكذا ضمان قدرته على التطور وتراكم المعرفة.

أرضهم. ويشير كل من أميان مرسولان وكوربوس الإغريقي إلى تعدد اللغات المستعملة لدى القبائل، والتي قد تكون مجرد لهجات متعددة كما هي اليوم. وهذا ما قد يفهم مما جاء عند القديس أوغسطين، حين ذكر أن عددا كبيرا من القبائل تتكلم لغة واحدة بعينها، غير أن التعبيرات التي استخدمها لا تساعد على معرفة مراده⁶⁵. والغريب في الأمر أن جل الكتاب الكلاسيكيين لم يتحدثوا لا عن اللغة الأمازيغية ولا عن كتابة الأمازيغ عدا الكاتب فولجانص Fulgence، الذي عاش في القرن الخامس الميلادي وكتب باللاتينية، ذكر أن عدد حروف أو رموز الكتابة الأمازيغية ثلاثة وعشرون حرفاً. أما كوربيوس Corrippe (ق. 5 م.)، فقد اكتفى بإطلاق اللغة البربرية على اللغة الأمازيغية.

صورة 6: رسم حروف الكتابة الأمازيغية



خاتمة

إن ما يهم من ابتكار الحروف هو تشفير الإنسان لسبل اكتساب ونقل المعرفة وتداولها عبر الكتابة. فقد أدرك الإنسان محدودية قدراته العقلية على تخزين كل المكتسبات المعرفية، وأن الكثير منها ينسى بفعل عامل السن، وطبيعة الإنسان. ومن ثم أصبحت الكتابة الوسيلة الفعالة في تحضر المجتمعات وتميز بعضها عن البعض. وبذلك تحمل الإنسان هذه الرسالة من بين

⁶⁵ منصور غاقي، «الكتابة اللوبية»، أسلاف البربر، تونس، منشورات المعهد الوطني للتراث، الدورة الثالثة، شهر التراث، 1994؛ محمد الصغير غانم، «النقوش الليبية في شمال إفريقيا»، المورد، المجلد 19، ع. 2، 1990.

على العظام، وبيض النعام، والنقوش والرسوم الصخرية، وغيرها من المواد الأولية إرهابات فنية أولى ساهمت في تشكيل الكتابة⁶². وقد أعقبتها المرحلة الرمزية أو اللوغوغرافية Logographe، إذ تحولت خلالها الرسوم والأشكال إلى رموز وإشارات تعبر عما يريد الإنسان إبلاغه. أما المرحلة الصوتية الفونوغرافية Phonographie، فقد تحولت الرموز إلى أصوات ثم إلى حروف أبجدية. وأخيراً المرحلة الأبجدية أو الألفبائية Alphabet، حيث تم ضبط الحروف الدالة على الرموز وتحديد نطقها وفق المخارج الصوتية للإنسان. تستعمل الكتابة الأمازيغية ثلاثة أشكال أولية وهي: النقطة point والسطر trait وأخيراً الدائرة cercle.

خلفت المواقع الأثرية القديمة بضع مئات من النقوش المعروفة بالليبية، التي ترجع لعهد ملوك نوميديا ولعهد السيطرة الرومانية على الخصوص، وهي مكتوبة بأبجدية تشبه كثيرا أبجدية الطوارق. إن النقوش الليبية ليست محررة بالبنوية ولا باللاتينية، لأن الكثير منها يصاحب بالترجمة لإحدى هاتين اللغتين اللتين كان لكل منهما أبجديته الخاصة. يضاف إلى هذا، أن الكثير من هذه النقوش تحتوي على لفظ (أو = w) ومعناه ابن، وهو لا يزال مستعملا في لغة البربر⁶³. ومن الأكيد أن قسما كبيرا من هذه النصوص -إن لم يكن كله- قد حرر في لسان ينتسب للهجات الحالية. وباستثناء لفظ (أو) وعدد كبير من أسماء الأعلام التي بعضها بوني وبعضها الآخر بربري، فإن النقوش الليبية بقيت في مجملها غير مقروءة⁶⁴.

وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب القدماء لا يفيدون بالشيء الكثير في هذا المجال، إذ أن الإغريق واللاتينيين كانوا على، وجه العموم، لا يهتمون باللغات «الهمجية» ويكتفي، بعضهم، بالإشارة إلى اللسان الخشن والوحشي للأهالي، وعليه فالأهالي وحدهم القادرون على التلفظ بأسماء

⁶² Lionel Galand, « Inscriptions libyques », *inscriptions antiques du Maroc*, éd. CNRS, 1966, p. 1-79; James-Germain Février, « Que savons-nous du libyque? », *Revue Africaine*, t. L, 1956, p. 263-273.

⁶³ انظر كتابات مصطفى أعشي، جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ، نشر مركز طارق بن زياد، دجنبر، الرباط 2002؛ «إسهام النقوش الصخرية المغربية...»، مرجع سابق؛ «جذور الكتابة الأمازيغية»، ضمن من أجل ترسيم أبجدية تيفيناغ لتدريس الأمازيغية تحاليل وآفاق، س. دراسات، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، 2002، ص. 9-32؛ «نماذج من بعض الإسهامات الأمازيغية الحضارية»، نوافذ، ع. 17-18، غشت 2002، ص. 95-108.

⁶⁴ Jean Malhomme, *Corpus des gravures rupestres du Haut Atlas*, Pub. Service des Antiquités du Maroc, vol.2, 1959; Georges Marcy, « Inscriptions Libyques bilingues de l'Afrique du nord », *Cahiers de la Société antique*, Paris, 1936; Georges Marcy, « L'épigraphie Berbère (Numidique et Saharienne) », *Annales de l'Institut d'études orientales de l'Université d'Alger*, Université d'Alger, t.II, Paris, 1936.

يعود أول اكتشاف لحروف كتابة التيفناغ، إلى سنة 1631 م، عندما عثر طوماس داركو Thomas d'Arco على نقيشة مزدوجة اللغة: ليبية- بونية، بأحد جدران ضريح أجليد مسنيسا في مدينة دوغا Dougga. ومع نهاية القرن التاسع عشر، توالى الاكتشافات التي توجت بصور أول جامع Corpus للنقائش الليبية بشكل عام، وآخر خاص بالنقائش التي تم الكشف عنها بالمغرب.⁵⁹

يتبين من دراسة الكتابات التي خلفها الإنسان في شمال إفريقيا سواء على اللوحات الصخرية أو على الشواهد أو غيرها، أنها لم تكن موحدة ومتجانسة من حيث بعض حروفها. وهنا يمكن الحديث عن تقسيمات جوهية داخل المجال الليبي (بمفهومه القديم)، لها أساس مشترك يجمع بينها⁶⁰. يمتد مجال انتشار الكتابة الأمازيغية من البحر المتوسط شمالا إلى أقصى الصحراء الوسطى والغربية، حتى جنوب موريتانيا وشمال مالي وصولا إلى أدرار إفوغاس بشمال النيجر. وإذا كانت نتائج اللسانيات التاريخية للأمازيغية تذهب إلى اعتبارها لغة تخاطب منذ العصر الحجري الحديث، أي حوالي 8000-7000 ق.م، فإن ظهور كتابتها، حسب حشيد، كان حوالي 1300-1200 ق.م، وهي الفترة نفسها التي برزت فيها الكتابة الفينيقية⁶¹.

كانت الكتابة الأمازيغية تقرأ من الأسفل إلى الأعلى بدءا بالعمود الأيسر colonne gauche في اتجاه الأيمن. وكانت تتميز بعدم فصل كلماتها وإسقاط الصوائت les voyelles كما هو حال باقي اللغات السامية. وقد ساهمت بنية اللغة الأمازيغية القديمة والمتمثلة في عدم فصل الكلمات وعدم كتابة الصوائت في تأخير فك ألغاز حروفها ومعاني تركيبها.

تكشف نتائج الدراسات اللسانية التاريخية أن الكتابة الأمازيغية عرفت مراحل متعددة، تعود إرهاباتها الأولى إلى المرحلة التصويرية أو البكتوغرافية Pictographie، عندما اجتهد الإنسان في تصوير ما يريد التعبير عنه. ويذهب الباحثون إلى اعتبار التماثيل الصغيرة والأشكال المرسومة

⁵⁹ Jonathan Drouin, « Les écritures libyco-berbères », *Les Dossiers de l'archéologie*, n° 260, 2001, p. 36-39; Abdelaziz El Khayari, « Considérations sur l'épigraphie libyque du Maroc », dans Mohamed Fantar et Ahmed Siraj (dir.), *Débuts de l'écriture au Maghreb*, Casablanca, 2004, p. 91-130, Actes des colloques organisés à Casablanca par la Fondation du Roi Abdul-Aziz al Saoud pour les Études Islamiques et les Sciences Humaines, 17-18 janvier et 18-19 avril 2002; James Germain Février, « Écritures libyques et ibériques », dans James-Germain Février (dir.), *Histoire de l'écriture*, Paris, Payot, 1959, p. 321-332.

⁶⁰ Salem Chaker et Slimane Hachi, « À propos de l'écriture Libyco-berbère », dans *Hommage à Karl Prasse*, éd. Peeters, 1999, pp. 1-14.

⁶¹ Alfred Muzzolini, « Au sujet de l'origine de l'écriture libyque », *Lettre de l'AARS*, 19, 2001, p. 23-26.

سالم شاكِر يفترض أن زمن تفرد الأمازيغية حدث ما بين 8000 و 7000 ق.م. وهذا ما يوافق المنحى الذي يربط اللغة الأمازيغية بأواخر أيام الإنسان الإيبيروموري وبداية مرحلة الإنسان القفصي، اعتماداً على نتائج الأبحاث الأثرية واللسانية.⁵⁵

بتداول الإنسان للغة كوسيلة تواصل وتعبير، ابتكر آلية تخزين ونقل المعرفة التاريخية التي راكمها عبر تجاربه. لم يعد الإنسان يقتصر في معرفته على ما خزنته مخيلته واعتاد عليه من الممارسة، وإنما ابتكر وسيلة نقل المعرفة عبر اللغة.⁵⁶ وتكشف الأبحاث التاريخية أن استعمال اللغة، كان، هو الآخر، محطة هامة في تاريخ تدوين ونقل المعرفة. ومن ثمة كان تداول وانتشار التيفيناغ في شمال إفريقيا أساسياً في تدوين مرحلة جديدة من تطور المعرفة التاريخية.⁵⁷

وبهذا شكلت الكتابة لدى الباحثين في التاريخ والحضارة والآثار معياراً للفصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية. ويمثل الاهتمام إلى الكتابة مرحلة متطورة من حياة الإنسان لأن التوصل إلى الكتابة هو نتيجة الشعور بضرورة ابتكار وسيلة لتنظيم حياة الجماعة في كافة مجالاتها، وهو أمر لاحق لإدراك أن المشافهة والاعتماد على الذاكرة لم يعد كافياً، ولا قادراً على القيام بتخزين المعلومة وحفظ المعرفة ونقلها عبر الأجيال. وتذهب نتائج دراسات اللسانيات التاريخية إلى الإقرار بأن توصل الإنسان إلى التعبير بالكتابة يعتبر مقياساً لوصوله إلى مرحلة متقدمة من التطور الحضاري. ففي الوقت الذي عرف فيه البابليون والسومريون والمصريون القدماء الكتابة خلال النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، نجد الليبيين، حسب مفهوم هيرودوت، قد عرفوها هم الآخرون في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد؛ بينما تأخرت هذه العصور في شمال البحر الأبيض المتوسط إلى القرن الثامن ق.م.⁵⁸

⁵⁵ Salem Chaker et Slimane Hashi, « L'écriture libyco-berbère. État des lieux, déchiffrement et perspectives linguistiques et sociolinguistiques », *Colloque annuel de la SHESL, Lyon-ENS*, 2 février 2002, p. 72 -89.

⁵⁶ مليكة شحيد، «أقدم كتابة في إفريقيا الشمالية يعود عمرها إلى أكثر من 5000 سنة»، جريدة المعركة، ع. 12 أبريل 1960.

⁵⁷ Lionel Galand, « Du berbère au libyque : une remontée difficile », *Lalies*, 16, 1996, p. 77-98; « Un vieux débat : l'origine de l'écriture libyco-berbère », *Lettre de l'AARS*, 20, 2001, p. 21-24; « La datation des inscriptions. Pour une évaluation des critères linguistiques », *La Lettre du RILB*, 11, 2005, p. 1-2.

⁵⁸ James-Germain Février (dir.), *Histoire de l'écriture*, Paris, Payot, 1959.

والجدير بالذكر، أن ظهور اللسانيات التاريخية، خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين، على يد كل من رينيش وهومبوركير، ارتبط بمقارنة لغات العالم، وكان عددها حوالي 200 عائلة. كان الهدف منها تجميع هذه اللغات في إطار عائلات لغوية، انطلاقاً من الفكرة القائمة على افتراض وجود جذع مشترك أو لغة أصيلة⁵¹. وتمتلك اللسانيات التاريخية مناهج خاصة للترتيب والتصنيف الجيني للغات، تبحث عن روابط القرابة داخل نفس المجموعة اللسانية. كما تعتمد هذه المنهجية على دراسة معاجم اللغة ومفاهيمها، والتدقيق في فونولوجيا الكلمات ومورفولوجيا جذورها وزوائدها، وتحليل القواعد النحوية كالضمائر الشخصية، وعلامات الحالة (علامات الإعراب)، وصيغ الجمع، والخصائص التوافقية للفعل (توافق الفعل مع الفاعل)، واشتقاق الفعل، والتشابهات المعجمية والفونولوجية⁵².

في هذا السياق يقترح الباحثون في تاريخ اللسانيات أربع عائلات لغوية لحوالي 730 لغة مستعملة في القارة الإفريقية وهي: الكويسان Koisan وتعتبر من أقدم اللغات الإفريقية؛ ثم اللغة النيلية الصحراوية التي تأتي في المرتبة الثانية من ناحية الأقدمية في إفريقيا؛ واللغة النيجيرية الكونغولية الكوردوفانية؛ وأخيراً، اللغة الأفروآسيوية، المعروفة، أيضاً، تحت اسم الحامية السامية. وشكلت هذه الأخيرة الأصل الذي انبثقت منه الأمازيغية التي بدأ في استعمالها في الصحراء الكبرى خلال العصر الحجري الحديث⁵³. وتقترح نتائج دراسات تاريخ اللسانيات بداية تداول اللغة الأمازيغية بشمال إفريقيا ما بين 9000 و8000 سنة قبل الميلاد، أي ما بين 11.000 و10.000 قبل الحاضر⁵⁴.

إذا كان من الصعب التعرف على اللغة التي كان يتحدث بها إنسان هذه الفترة من تاريخ التطور البشري، فمن غير المستبعد أن ظهور الإنسان القفصي، مرتبط بتفرع الأمازيغية عن اللغة الأم، الأفروآسيوية في اتصالها مع لغة الإيبيروموري. ولعل هذا ما جعل الباحث اللساني

⁵¹ Mohamed Elmedlaoui, *Les origines de l'art et la formation de l'esprit humain*, Paris, Albin Michel, 1989.

⁵² Mohamed Elmedlaoui, « Le Berbère et l'histoire du plurilinguisme au Maghreb (le cas du Maroc) », *Études et documents berbères*, Paris, 2006, n° 23, p. 153-178.

⁵³ Gabriel Camps, « Recherches sur les plus anciennes inscriptions libyques de l'Afrique du Nord et du Sahara », *Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques et scientifiques*, 10-11, 1974, p. 143-166; « Écriture libyque », *Encyclopédie berbère*, 17, 1996, p. 2564-2573.

⁵⁴ Salem Chaker et Slimane Hashi, « À propos de l'origine et de l'âge de l'écriture libyco-berbère. Réflexions du linguiste et du préhistorien », dans Salem Chaker et Andrej Zaborski (dir.), *Mélanges offerts à Karl-G. Prasse*, Paris, Louvain, Peeters, 2000, p. 94-111.

والثقافات المختلفة التي تفاعل معها. فقد حافظت اللغة الأمازيغية على مقوماتها وقيمها، كما تشهد على ذلك المعالم الحضارية والفكرية في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى وجزر الكناري.⁴⁸

يؤكد الباحثون أن اللغة الأمازيغية من أقدم اللغات السامية⁴⁹، كما يبرزون المكانة المتميزة التي تحتلها خاصة في تاريخ اللغات وتطورها. وتسعفنا نتائج أبحاث علم اللسانيات التاريخية، إلى جانب أبحاث الباليونتولوجيا البشرية والأركيولوجيا، في تتبع تاريخ تركيب اللغات الأفرو-أمازيغية والوقوف على نوعية العلاقات والأواصر التي تجمع بينها⁵⁰.

صورة 5: من الرسم والنقش إلى إبداع الحرف لتدوين المعلومة أساس المعرفة الإنسانية



⁴⁸ Peter Behrens, « Langues et migrations des premiers pasteurs du Sahara, la formation de la branche berbère », *Histoire générale de l'Afrique, Libyca antiqua*, n° 11, Paris, UNESCO, 1988, p. 31-53; Lamara Boughiche, *Langues et Littérature berbères des origines à nos jours. Bibliographie internationale systématique*, Préface de Lionel Galand, Paris, Ibis Press, 1997, p. 447.

⁴⁹ Mohamed Aghali-Zakara, « De l'origine et de la survivance des écritures libyco-berbères », dans Mohamed Fantar et Ahmed Siraj (dir.), *Débuts de l'écriture au Maghreb*, Casablanca, 2004, p. 85-90. Actes des colloques organisés à Casablanca par la Fondation du Roi Abdul-Aziz al Saoud pour les Études Islamiques et les Sciences Humaines, 17-18 janvier et 18-19 avril 2002.

⁵⁰ Gabriel Camps, « Aux origines de la Berbérie : Massinissa ou les débuts de l'Histoire », *Libyca*, 1960, 8, p. 1.

ويشكل ظهور المرحلة الخيلية Phase équidienne في النقوش والرسوم الصخرية في شمال إفريقيا بداية مرحلة جديدة⁴³، تميزت بظهور الخيل كحيوان جديد، وكذا العربة بأشكالها المختلفة⁴⁴، حيث تؤكد لكور Le Corre «نجد بالمواقع الكبرى للفن الصخري، حيث تطور فن المرحلة البقرية، لوحات جميلة تحتل فيها تلك التي تجسد العربات مكانة كبيرة»⁴⁵. يؤرخ عموماً لبداية هذه المرحلة بنهاية العصر الحجري الحديث وبداية ما قبل التاريخ. وخلفت لوحات الأطلس الصحراوي والجنوب المغربي عربات في وسط بقري متأخر، وهي خاصة نجدها، أيضاً، في بعض مواقع الصحراء الإفريقية الوسطى⁴⁶.

ويذهب الدارسون إلى اعتبار المرحلة الجمالية (نسبة إلى الجمل) نهاية فترة ما قبل التاريخ. ويشار إليها بظهور الجمل وحيد السنام في اللوحات الصخرية بشمال إفريقيا والصحراء. تشهد هذه اللوحات على بداية المرحلة الأخيرة للفن الصخري⁴⁷.

تعتبر فترة ما قبل التاريخ مرحلة مهمة في تدوين ونقل المعرفة لدى إنسان ما قبل التاريخ. وكان الانتقال من الاعتماد على الفطرة البشرية وتخزين المعلومة إلى الوعي بأهمية «الانفراد» بالمعرفة وتوظيفها أساساً للتقدم البشري. كما ساهم تراكم النقوش والرسوم في التفكير في ضبط رموز وأشكال الكتابة، قبل أن تخضع لقواعد لغوية تضمن نقل المعلومة وتداولها عبر الأزمنة والفترات التاريخية.

3. اللغة وسيلة تعبير والكتابة أداة تدوين المعرفة التاريخية

اللغة تعبير عن شخصية الإنسان وكيانه الاجتماعي والثقافي. إنها أداة للتواصل، ينقل من خلالها الإنسان أحاسيسه وانفعالاته وتجاربه. وإنسان شمال إفريقيا القديم، كغيره من الشعوب، استعمل، منذ آلاف السنين ولا يزال، لغته باعتبارها أحد العناصر الأساسية التي يستمد منها هويته الثقافية وكيانته الاجتماعية التي ظلت صامدة إلى اليوم بالرغم من تعاقب الحضارات

⁴³ سعودي شايد يسمينة، «تاريخ الحصان في شمال إفريقيا»، الكراسات التونسية، 1991، ص. 9-12.

⁴⁴ Alfred Muzzolini, « La période des chars au Sahara. L'hypothèse de l'origine égyptienne du cheval et du char », dans G. Camp et M. Gast (éd.), *Les chars préhistoriques du Sahara*, Sénanque, Mars 1981, p. 45-56.

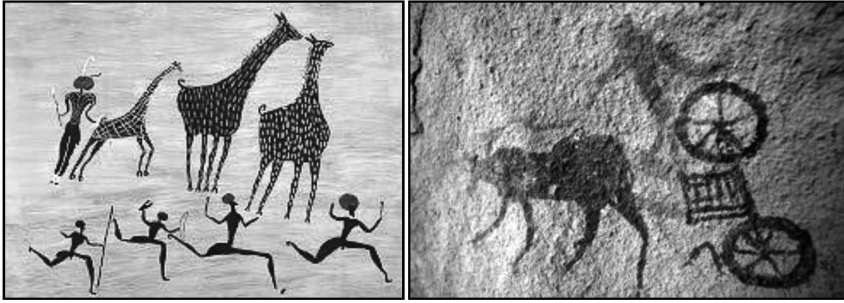
⁴⁵ Fabrice Le Corre, « Le vêtement dans l'art rupestre nord-africain et saharien », *Mémoire de DEA*, Aix-en-Provence, 1984, p. 54, (travail, dact).

⁴⁶ Henri Lhote, « Les chars rupestres du Sahara et leurs rapports avec le peuplement dans les temps protohistoriques », *Les chars préhistoriques du Sahara, archéologie et techniques d'attelage*, Actes du colloque de Sénanque, 21-22 Mars 1981, Aix-en-Provence, 1982, p. 24-3.

⁴⁷ Émilienne Demougeot, « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *Annales, Économies, Sociétés, Civilisations*, 1960, vol. 15, n° 2, p. 209-247.

إذا كانت مرحلة الإنسان العاقل - العاقل قد أرخت لأهم مرحلة تطور معرفي عرفه إنسان ما قبل التاريخ، فإن لوحات الرؤوس المستديرة تشكل، بدورها، منعطفا جديدا في التطور المعرفي الذي راكمه إنسان مرحلة ما قبل التاريخ.

صورة 4: من مرحلة تخزين وتدوين المعلومة إلى مرحلة الإبداع في تمرير المعلومة



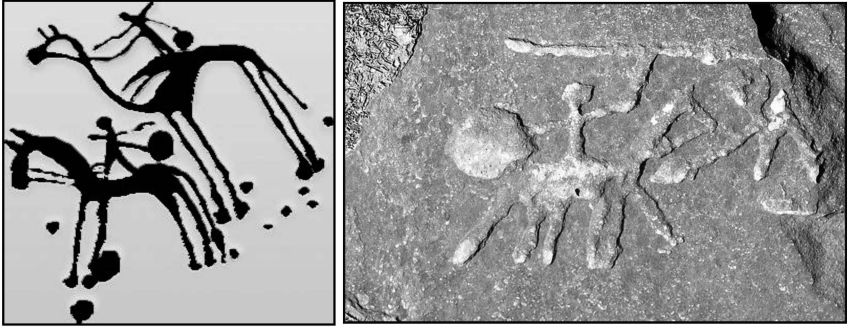
وتعتبر المرحلة البقرية Phase Bovidienne أو الرعوية Phase Pastorale، مرحلة جديدة، حيث خلف إنسان هذه المرحلة لوحات بديعة للبقرات تجسد طرق تعامل الإنسان معها في كثير من الأحيان. كما تعكس العناية التي أصبحت تولى لتدجين هذا الحيوان إلى أن نتج عن ذلك أسلوب خاص بالبقرات. وقد أولى الإنسان عناية متزايدة لمختلف أنواع البقرات في لوحاته الصخرية رسوما كانت أم نقوشاً⁴¹. تتركز هذه اللوحات شمال سلسلة جبل باني والأطلس الصحراوي وبالصحراء الوسطى وعلى طول الأودية وب «الفيجات». لاحظ دارسوا هذه المرحلة أن هذه اللوحات تسجل تخلي الإنسان عن الأسلوب الطبيعي، مع غلبة تقنية النقر. ويظهر الإنسان في لوحات هذه المرحلة مع البقرات، إما راكبا أو واقفا بجانبها، وأحيانا يقودها، أو يحلب ضرعها. ويرى كابريل كامبس أن الأسلوب البقري بدأ حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، ونجده بشكل قوي في جنوب المغرب وجنوب وهران والجزائر الشرقية والوسطى⁴².

⁴¹ Alfred Muzzolini, « Les premiers bœufs domestiques au Sahara central : les documents des fouilles », *Bulletin de la Société méridionale de Spéléologie et de Préhistoire*, XXI, 1981, p. 19-34. *Id.*, « La datation des premiers bœufs domestiques sur les figurations rupestres au Sahara central. La «période bubaline» ». *Bulletin de l'Association Internationale d'Étude de la Préhistoire de l'Égypte* 3, 1989, p. 15-37.

⁴² Bouchra Kaache, « Début de la domestication animale au Maroc : indices et reconnaissances et interrogations », *Mémoire de D.E.A.*, Aix-Marseille I, Université de Provence, 1995.

إن ما تختزنه اللوحات الصخرية للكباش المتوج يدعم فرضية تدجين الكباش محليا. إذ يظهر في لوحات المرحلة الجاموسية بمفرده أو مصطادا، وفي المرحلة اللاحقة يظهر على شكل قطع، مما يدل على تطور التراكم المعرفي الذي مكن الإنسان من التعامل مع الحيوانات كلها وتدجين القابلة منها لهذا الترويض³⁸.

صورة 3: مرحلة الرؤوس المستديرة Les têtes Rondes



كما تعتبر مرحلة الرؤوس المستديرة Les têtes Rondes من أهم المراحل التي تشهد على النمو المعرفي للإنسان، لا من خلال التراكمات المعرفية التي خزنها وأصبح يتحكم في توظيفها، ولكن، أيضا، من خلال تجسيد ما أصبح يعرف بالرؤوس المستديرة. تنتشر هذه الرسوم ببعض مناطق الصحراء، وخصوصا تاسلي نا جار وأكاكوس، وهي رسوم صخرية لها خاصية منفردة تعرف بالرؤوس المستديرة، ويضعون أحيانا أقنعة حيوانية³⁹. يرى كامبس أن لوحات الرؤوس المستديرة رسمتها ساكنة زنجية Négroïde، وقد تعود إلى العصر الحجري الحديث الصحراوي وهو الأمر نفسه الذي لا يستبعده، كذلك، توفرون Touveron. يبدو من خلال هذه المعطيات أن أغلب الباحثين يرجحون التأريخ لرسوم هذه المرحلة بالعصر الحجري الحديث الصحراوي، وتعود أقدم المعطيات المعروفة حاليا عن هذا العصر إلى حوالي 10000 سنة قبل الحاضر⁴⁰.

³⁸ Henri Lhote, *Les gravures rupestres de l'Atlas saharien. Monts des Ouled-Naïl et région de Djelfa*, Office du Parc du Tassili, 1984; Gabriel Camps, « Un thème religieux dans l'art rupestre nord-africain : le béliér à sphéroïde », *Studi in onore di Salvatore Puglisi*, Rome, 1985, p. 345-357.

³⁹ Alfred Muzzolini, « L'extension géographique des "Têtes Rondes" au Sahara », dans Emmanuel Anati (dir.), *Prehistoric Art and Religion, Valcamonica Symposium, The intellectual Expressions of Prehistoric Man : Art and Religion*, 1979, p. 365-384 et 511-513.

⁴⁰ Malika Hachid, *Les pierres écrites de l'Atlas saharien*, 1, *El-Hadja El-Mektouba*, t. I, Paris, éd. Entreprise Nationale des Arts Graphiques, 1992, p. 61-62.

تكشف الدراسات التاريخية الحديثة عن تطور معرفي راكمه إنسان هذه المرحلة. ومن ثمة تعتبر المرحلة الجاموسية أولى المراحل التي سادت في مجال رطب، وكان اصطياد هذا الحيوان أمرا يقتضي تطورا معرفيا قائما على التخطيط والتنفيذ والتعاون، وهي أمور يبرع فيها العاقل من المخلوقات³³. ارتبطت تسمية هذه المرحلة بالجاموسية Bupal، لكون الجاموس شكل محور لوحات هذه الفترة. ويمكن التمييز فيها بين مرحلة الجاموس القديم Bubalus Antique / Buffle Antique، ومرحلة الحيوانات المتوحشة الكبرى Grande faune sauvage. كما تنعت بمرحلة القناصين Phase des chasseurs، ومرحلة ما قبل الرعي Prépastoral، وكذلك بمرحلة الأسلوب الطبيعي Style Naturel³⁴.

وقد اقترح باحثون في المرحلة الجاموسية، اعتمادا على المعطيات المناخية القديمة للصحراء، أنها سادت ما بين الألف العاشر والألف الثامن قبل الحاضر. واعتمدت مليكة حشيد، بدورها، على هذه المعطيات المناخية وعلى بقايا أثرية لمصنوعات الإنسان، وأرخت للمرحلة الجاموسية بالصحراء الوسطى ما بين الألف الثامن قبل الحاضر³⁵.

أعقبت المرحلة الجاموسية، مرحلة الكباش المتوج أو الكباش ذو الهالة Belier à sphéroïde³⁶. وقد تم العثور على عظام الغنيمات من المعزيات ونوع من الأكباش في حالة تدجين منذ 7000 سنة قبل الحاضر في الصحراء الوسطى ونواحيها. وإلى هذا التاريخ تعود عظام أنواع من الماعز والأكباش -في حالة تدجين- عثر عليها بمغارة Capéletti بالأوراس، وأرخ لها بمنتصف الألف الخامس قبل الميلاد³⁷. وعثر كذلك في تدارت أكاكوس بليبيا الحالية على عظام نوع من الماعز، ونوع من الأكباش داخل طبقات أركيولوجية مؤرخة بما بين 7438 و 5260 قبل الحاضر.

³³ مصطفى أعشي، «إسهام النقوش الصخرية المغربية في التعريف ببداية استئناس الحيوان»، المناهل، ع. 58، 1985، ص. 28-45.

³⁴ Henri Lhote, « Nouvelle contribution à l'étude des gravures rupestres du Sahara Central (Ahaggar) », *Journal de la Société des Africanistes*, vol. 29, n° 2, 1959; « Les chars rupestres du Sahara et leurs rapports avec le peuplement dans les temps préhistoriques », *Les chars préhistoriques du Sahara*, actes du colloque de Sénanque (1981) Aix-en-Provence, 1982, p. 24-33.

³⁵ André Simoneau, « Les rhinocéros dans les gravures du Draa-Bani », *Antiquités africaines*, t. 1, Paris, CNRS, 1976, p. 7-31.

³⁶ Paul Libmann, « Le mouton dans les gravures et les peintures rupestres de l'Afrique du Nord et du Sahara », *Thèse, Médecine vétérinaire*, Toulouse, 1989, p. 76-93.

³⁷ Colette Roubet, « La domestication au Maghreb : état de la question », dans L. Krzyzaniak, M. Kobusiewicz (éd.), *Origin and early development of food-producing cultures dans North-Eastern Africa*, Poznan, Poznan Archaeological Museum, 1984, p. 437-452.

وتكون حركة التجسيد للفكرة محكومة بنواميس عامة، أنتجتها الثقافة المادية، وهي عبارة عن رمز منقوش أو صورة على الصخر يُحيلان على جوانب عديدة من الحقيقة الإثنولوجية للواقع المُعاش، مما يكشف عن تطور معرفي عبر صيرورة تاريخية.

صورة 2: بين الإبداع وتخليد مرحلة تطور الفكر من خلال النقوش الصخرية



فمنذ نهاية الألفية السادسة ومن منتصف الألفية الرابعة قبل الميلاد كانت الصحراء الكبرى الممتدة من غرب مصر وحتى المغرب، مناطق رطبة تنمو بها السفانا والغابات؛ وكانت مجالا للحيوانات المفترسة والرعوية، وتعد من أوائل المناطق التي استوطنها الإنسان³¹. وقد خلف إنسان هذه المرحلة شواهد تاريخية تؤرخ لتطوره المعرفي من خلال ما يفوق 30 ألف صخرة رسم عليها أو نقش فوقها رسوما أرخ بواسطتها لمختلف جوانب حياته وعكس بها مدى التقدم الذي وصل إليه³².

³¹ Gabriel Camps, « La faune des temps néolithiques et protohistoriques de l'Afrique du Nord : Critique des données », *Travaux du Laboratoire d'anthropologie et de préhistoire des pays de la Méditerranée occidentale*, 1989, p. 59-70; Alfred Muzzolini, « les climats sahariens durant l'holocène et la fin de pléistocène », *Travaux du Laboratoire d'anthropologie et de préhistoire des pays de la Méditerranée occidentale*, 1982, n° 2, p. 1-38.

³² Leclant, Jean et Huard, Paul, « La culture des chasseurs du Nil et du Sahara », dans L. Allard-Huard, *Mémoires du Centre de recherches anthropologiques, préhistoriques et ethnographiques*, n° 29, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1980.

بسيطة. ونذكر على سبيل المثال إفري وناس (غار النحاس) بقرية تمزرار بإقليم طاطا، وكذلك أدرار وناس (جبل النحاس) بنواحي إفران الأطلس الصغير بإقليم كلميم الحالي²⁸.

شكلت فترة ما قبل التاريخ مرحلة أساسية متميزة بتراكم ونقل المعرفة عند الإنسان، فبعد وعيه بقدراته العقلية، وظف قدرته على التخزين الفطري للمعلومة قصد التميز، أولاً، عن الحيوانات، ثم دخل في سباق مع غيره من البشر لاكتساب المعلومة. وشكل هذا المخزون أرضية للتطور المعرفي الذي مكن إنسان ما قبل التاريخ من التأقلم والانتقال عبر مراحل تشهد على مدى حرصه على اكتساب المعرفة.

ومع تزايد رغبة الإنسان في اكتساب المعرفة، أدرك إنسان ما قبل التاريخ محدودية قدراته العقلية. وكان تزايد الحاجة إلى تدوين المعرفة، أن دخل إنسان ما قبل التاريخ مرحلة نقش ورسم المعلومة والمعرفة. شكلت هذه المرحلة قفزة مهمة في تاريخ البشرية، إذ توصل الإنسان إلى إمكانية حفظ المعلومة وضمان نقلها إلى الأجيال المقبلة عبر رسوم ولوحات فنية شكلت ثورة بشرية خلدت لمراحل من التاريخ، راكم فيها من المعرفة والخبرة ما مكنه من حفظ وتخليد مستوى تطوره المعرفي والحضاري.

2. توظيف النقوش والرسوم الصخرية لإثراء الذاكرة خلال فترة ما قبل التاريخ

تساهم اللوحات الصخرية في الإقرار بوجود عصور المعادن، في شمال إفريقيا عامة، كما أن الأركيولوجيا كشفت عن أنواع من الأسلحة المعدنية في العديد من المناطق خصوصاً في المغرب وغرب الجزائر²⁹. وتعتبر النقوش الصخرية أحد أهم أركان البحث الأثري ومصدراً مادياً أساسياً في تتبع تطور المعرفة التاريخية خلال فترات ما قبل التاريخ وقبل اكتشاف الكتابة. ويمكن تعريف النقوش الصخرية من الناحية الأركيولوجية بكونها «امتداداً للفكرة عبر الحركة»، أي محاولة تجسيد لواقع الحياة البشرية القديمة عبر عملية الرسم أو النقش على الصخر³⁰.

²⁸ Alain Rodrigue, « Les représentations des haches dans l'art rupestre du Maroc méridional », Bulletin de la Société d'Études et de Recherches Préhistoriques les Eyzies, n° 43, 1994, p. 27-36.

²⁹ Gabriel Camps, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin, 1974; « Protohistoire de l'Afrique du Nord. Questions de terminologie et de chronologie », *Revue du Centre d'Études de la Civilisation Phénicienne-Punique et des Antiquités*, t. 3, 1987, p. 43-70.

³⁰ Jean-Loïc Le Quellec, *Symbolisme et art rupestre au Sahara*, Paris, Harmattan, 1993, p. 638; André Simoneau, *Catalogue des sites rupestres du sud marocain*, Rabat, Ministère d'État chargé des Affaires Culturelles, 1977, p. 117.

ومن العصر النحاسي إلى العصر البرونزي ثم العصر الحديدي، تراكمت معرفة الإنسان الذي أصبح يختبر أسساً علمية يستعصي فك رموزها عن باقي المخلوقات؛ مما أعطى له سبقاً معرفياً أرخ له بتطور العصور المعدنية التي مر منها إنسان ما قبل التاريخ. وقد احتفظ موقع كهف البارود بالمغرب، بالنسبة لعصور المعادن بشمال إفريقيا ببقايا أركيولوجية وخصوصاً الخزف الجرسى الشكل والمؤرخ له بالألف الرابع قبل الميلاد إلى جانب أدوات نحاسية تعود إلى ما بين 4315 و3350 قبل الميلاد²⁵. كما تم العثور في السبعينيات من القرن الماضي بكهف البارود على ثلاثة فؤوس نحاسية، تعود إلى حوالي، 3210 قبل الميلاد²⁶.

صورة 1: العدانة واستعمال الأسلحة²⁷



ويبدو أن الجنوب المغربي كان بمثابة خزان للنحاس في شمال إفريقيا طيلة العصور، حيث لا تزال الدلالة اللغوية لمجموعة من الأماكن توحى باستغلال قديم للنحاس استعملت فيه تقنيات

²⁵ André Jodin, « Les gisements de cuivre du Maroc et l'archéologie des métaux », *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. VI, 1966, p. 11-27; « L'Âge du bronze au Maroc : La nécropole mégalithique d'El Mriès (Oued Bou-Khalf, Tanger) », *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. V, 1964, p. 11-45; Alain Wailly, « Le site du Kef el Baroud (région de Ben Slimane) », *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. IX, 1973, p. 39-101.

²⁶ Bernard Rosenberger, « Les anciennes exploitations minières et les anciens centres métallurgiques du Maroc », *Revue de géographie du Maroc*, n° 18, 1970, p. 59-102.

²⁷ كل هذه الصور التي ترد في هذه الدراسة أخذتها من الأرشيف الخاص بأعمال الأستاذ مصطفى أعشي والذي أتقدم له بجزيل الشكر على تمكيني من أعماله الخاصة.

إلى ساكنة الصحراء¹⁸. وتؤكد الأبحاث الأركيولوجية، هي الأخرى، على استعمال المعادن لدى ساكنة المناطق الصحراوية في شمال أفريقيا¹⁹.

إن تتبع العصور المعدنية لفترة ما قبل التاريخ بشمال إفريقيا يؤكد، بدورها، على مدى التراكم المعرفي الذي حرص الإنسان على الحصول عليه²⁰. فقد انتبه إلى أن قوته تكمن في تسخير هذه المواد المعدنية ومعرفة تركيبها وإمكانية تحويلها عبر عمليات الاستخراج من باطن الأرض ثم تحويلها إلى مواد قابلة للاستغلال قبل توظيفها في صنع الأدوات. ومن ثم، بدأت تتكون شرائح في المجتمع تعتمد في تصنيفها على الكم المعرفي والخبرة التي راكمتها عبر التوارث و اكتساب التجربة²¹.

وبذلك، يؤرخ للعصر البرونزي انطلاقا من صورة الفؤوس التي تم الكشف عنها بالأطلس الكبير المغربي بحوالي 1600 سنة قبل الميلاد، أي ما يسمى بعصر البرونز الثاني الأوربي²². فقد أصبح الحديث، بفضل لوحات الأسلحة المعدنية، ممكنا عن عصر برونزي محلي في شمال إفريقيا. و في هذا الصدد يذهب كامبس إلى القول «يحتمل وجود تطور حقيقي لعادنة قديمة، ولأول مرة، في الجزء الغربي من بلاد المغرب، بدليل وجود الأعداد الهائلة من لوحات الأسلحة المنتمة إلى عصر البرونز[...] والتي نجدها منقوشة على صخور الأطلس الكبير²³». كما شجعت كثرة لوحات الأسلحة المعدنية التي عثر عليها في الأطلس الكبير، على تقديم فرضية وجود استغلال «منجمي» قديم في بعض مناطق المغرب، كما هو حال بعض مناجم الأطلس الكبير ومنجم القصدير بموقع الكريط بنواحي ولما²⁴.

¹⁸ Gabriel Camps, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara*, Paris, Doin, p. 26-27.

¹⁹ Hugo Obermaier, « L'âge de l'art rupestre Nord-africain », *L'Anthropologie*, t. XLI, n° 1-2, Paris, 1933, p. 73; Raymond Vaufray, « L'art rupestre nord-africain », *Archive de l'institut de paléontologie Humaine*, mémoire n° 20, 1939, p. 120; Lionel Balout, *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Publications du Gouvernement général de l'Algérie, 1955, p. 477-478.

²⁰ Gabriel Camps, « Les traces d'un Age du bronze en Afrique du Nord », *Revue africaine*, t. 104, p. 31-55.

²¹ Gabriel Camps, « Formation des populations méditerranéennes de l'Afrique du Nord », *Biologie et génétique de l'homme méditerranéen*, Colloque international, Hammamet, 1968, Tunis, éd. Société De Biologie Humaine et de Transfusions Sanguines, p. 51-57.

²² Jean-René Marechal, « La préhistoire de la métallurgie et ses prolongements », *Revue Archéologique*, n° 14, Avignon, 1983, p. 125-169; Jean Malhomme, *Métallurgie préhistorique*, Paris, Masson, 1997.

²³ Gabriel Camps, « Les traces d'un Âge du bronze en Afrique du Nord », *Revue africaine*, t. 104, 1960, p. 31-55.

²⁴ Robert Chenorkian, « Les armes métalliques », *L'Art protohistorique de la Méditerranée occidentale*, Paris, CNRS, 1988, p.414.

يشكل العصر الحجري الحديث Néolithique آخر العصور الحجرية، ويمثل المرحلة الأخيرة قبل وصول الإنسان إلى العيش في التجمعات السكانية على شكل قرى¹⁴. وللنيوليتيك أهمية خاصة في تتبع تطور المعرفة التاريخية عند إنسان ما قبل التاريخ، نظرا للتطورات الاقتصادية والاجتماعية التي كشفت عنها الأبحاث التاريخية الحديثة¹⁵. ويكفي للتدليل على ذلك، تسمية هذا العصر بعصر «انتقال الإنسان من مستهلك للطعام إلى منتج له»، وهي خطوة جد مهمة في تاريخ البشرية، إذ تحول الإنسان من حياة التنقل ومطاردة الحيوانات، والبحث عن الثمار، إلى حياة تتسم بالاستقرار والارتباط بالأرض، مما وفر له الطمأنينة والأمن أكثر من ذي قبل. وهذا ما أتاح له فرصة التأمل والتفكير وسبل التقدم الحضاري¹⁶.

يعتبر ظهور العدانة، المؤشر الدال على انتهاء فترة ما قبل التاريخ وبداية ما قبيل التاريخ. وهي مرحلة جديدة من تراكم المعرفة لدى إنسان هذه الفترة¹⁷. فقد أبانت الدراسات التاريخية أن الأسلحة المعدنية التي عرفتها بلاد شمال إفريقيا خلال هذه الفترة كانت في مستوى تقني مثل ما عرفته الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وبعد ذلك الضفة الشمالية. كان لهذا «الاختراع» أن تفوق الإنسان على الحيوان من جهة، كما مكن، من جهة ثانية، مالكي سر اختراعها من التقدم والتفوق على باقي المجموعات البشرية الأخرى. ومن أجل تأمين نقل المعرفة والتأريخ لهذا التطور المعرفي عمد الإنسان إلى نقش ورسم وإبداع لوحات فنية تشهد على استعمالها في عمليات الحرب والصيد والرقص والتباهي. وتشهد اللوحات الصخرية التي تم الكشف عنها في المناطق الصحراوية عن التنوع الكبير في الأسلحة المعدنية. وفي هذا الشأن يقول غابرييل كامبس «ليس من المستحيل أن يتجاوز منجزوا لوحات الأسلحة المعدنية بالأطلس الكبير هذه السلسلة أثناء عملية الانتجاع التي كانوا يقومون بها، ونقل أسلحتهم

¹⁴ Gabriel Camps et Henriette Camps-Fabrer, « Perspectives et orientations des recherches sur le Néolithique saharien », in *R.O.M.M.*, t. 11, 1972, p. 21-30.

¹⁵ Marylène Patou-Mathis, « Les stratégies alimentaires des Néandertaliens », *Pour la Science*, n° 254, 1998, p. 74-78; George Willcox, « De la cueillette à l'agriculture », *Pour la Science*, n° 274, 2000, p. 36-40.

¹⁶ Ginette Aumassip, « L'émergence précoce du Néolithique au Sahara », *Pour la Science*, n° 234, 1997, p. 56-62; Jacques Collina-Girard, « Le feu domestiqué », *Pour la Science*, n° 258, 1999, p. 56-61.

¹⁷ Fabrizio Mori, « L'Art rupestre préhistorique dans le Sahara Libyen comme aboutissement d'une long processus biculturel », coll. *Histoire Générale de l'Afrique, Études et documents, Libya Antique*, n° 11, Paris, UNESCO, 1988, p. 157-163.

بشرية تؤمن له التفوق على باقي المخلوقات وتُسعفه في التقدم والتطور.⁹ أبانت نتائج البحث التاريخي لهذه الفترة، أن التقنيات التي بدأ يتحكم فيها الإنسان تقدمت ببطء شديد، بينما تطور جسمه بشكل أصبح معه يتحكم في أطرافه، مما مكنه من كسب التوازن في حركاته. استمر تطور وتراكم المعرفة أكثر من مليون سنة قبل أن يكتشف الإنسان النار وبعض الأنواع من الأدوات الحجرية والأسلحة الخشبية. وخلال هذه المرحلة تضاعفت سعة دماغ الإنسان ثلاث مرات، نتيجة التراكمات التي أصبح يخزنها وحرصه على المحافظة عليها.¹⁰

خلال العصر الحجري الوسيط Mésolithique اتخذت الأدوات الحجرية الصغيرة «الميكروليثية» المصنوعة من الشفرات والشظايا، أشكالاً هندسية متنوعة كالمثلثات والمعينات، مما يؤكد أنها لم تكن تستخدم مستقلة، وإنما كانت تثبت في مقابض من الخشب أو العظم، ومن بينهما نصال الصنارة ورؤوس السهام. انتقل الإنسان في هذه المرحلة، من مرحلة كسب التراكمات المعرفية إلى مرحلة توظيفها واستغلالها في الابتكارات وتطوير المعارف. إذ لم يعد يقتصر على تخزين المعرفة، وإنما بدأ في توظيفها عبر استغلال الخشب والمعادن من النحاس ثم البرونز وأخيراً الحديد.¹¹

صادفت بداية هذا العصر نهاية الحقبة الأولى من الزمن الجيولوجي الرابع، والمسماة البليستوسين، وبداية الحقبة الثانية، المسماة الهولوسين، التي لا تزال نعيش في ظلها. وبنهاية البليستوسين، كان الجليد قد انحسر تماماً عن مناطق خطوط العرض الشمالية، مما أدى إلى ندرة سقوط الأمطار في النطاق الصحراوي الإفريقي والآسيوي الذي حل به الجفاف.¹² ولا شك أن هذه التغيرات كانت عميقة التأثير في المراحل النهائية من عصور ما قبل التاريخ، لا سيما على تطور حضارة الإنسان.¹³

⁹ Jean Guilaine (dir.), « Populations néolithiques et environnements », *Séminaire du Collège de France*, Paris, Errance, 2005.

¹⁰ Yves Coppens, « L'origine de l'Homme : le milieu, la découverte, la conscience, la création », *Revue des Sciences morales et politiques*, 4, 1987, p. 507-532; *Le Présent du passé, l'actualité de l'histoire de l'Homme*, éd. Odile Jacob, Paris, 2009.

¹¹ Danilo Grébenart, « Réflexion sur l'âge des gravures rupestre de Safiet Bou Rhenane », *Libyca*, XIX, 1971; Boule, Marcellin, « Mouvement scientifique », *L'anthropologie*, T. 33, 1923, p. 401.

¹² Jean-Jacques Hublin, « Climat de l'Europe et origine des Néandertaliens », *Revue Pour la Science*, n° 245, 1998, p. 52-59.

¹³ Yves Coppens et Pascal Picq (dir), *Aux origines de l'humanité. De l'apparition de la vie à l'homme moderne*, Paris, éd. Fayard, 2001.

اليد انتقل الإنسان إلى الاكتشافات، ثم راح العقل ينظم حركات الجسم، ويخزن النتائج التي وصلت إليها الأيدي⁵. كان من نتائج الوعي البشري بأهمية أطرافه وذاكرته، أن بدأ يكتسب تراكما معرفيا عمد إلى تخزينه وحرص على تأمين نقله إلى الأجيال المقبلة⁶.

فمع نهاية الزمن الجيولوجي البليوسين Pliocène، ظهرت مخلوقات الأسترالوبيثيك أو ما يسمى قبل البشريات les Préhominiens التي تتميز بنصف انتصاب القامة مقارنة مع انتصاب قامة الشامبانزي. ويعتبر المنتصب القامة الممثل الأول للبشر Homo erectus، وقد استوطن كلا من إفريقيا وآسيا قبل أن ينتقل إلى أوروبا. أعقب هذا التحول ظهور إنسان البلايستوسين الأوسط Pleistocène Moyen المعروف بـ Homo Antecessor ثم إنسان هيدلبرج Homo Herdelbergensis ثم النياندرتال قبل أن يظهر إنسان روديسيا Homo Rhodesiensis، الجد المفترض للإنسان العاقل⁷. ويخصص علم التاريخ في تقسيماته للعصور والحقب التاريخية فترة زمنية يطلق عليها مرحلة ظهور الإنسان العاقل التي أعقبها فترة الإنسان العاقل - العاقل Homo Sapiens. ويعود ظهور الإنسان العاقل على وجه الأرض إلى ما بين 100.000 و 50.000 سنة قبل الحاضر حسب الآراء المختلفة⁸.

بدأت تتضح، عند الإنسان، إرهابات معالم التراكم المعرفي منذ العصر الحجري القديم Paléolithique أي منذ حوالي 7 و 5 مليون سنة مع ظهور الأسترالوبيثيك. وخلال العصر الحجري القديم الأوسط، (الذي يمثله إنسان جبل إيغود في المغرب) شرع الإنسان في استغلال الموارد الطبيعية عبر إدراك أهمية وتقنية القطف والفنص والصيد من أجل ضمان حياته المعيشية، دون التحكم فيها. كان الوعي بأهمية هذه العمليات أن أصبح تخزين المعلومة ونقلها خاصة

⁵ Nathalie Richard, *Inventer la Préhistoire : les débuts de l'archéologie préhistorique en France*, Paris, Vuibert, 2008, p. 32-51.

⁶ Oscar Moro Abadia, « Pour une nouvelle histoire des sciences humaines : Lartet, Mortillet, Piette et le temps de la Préhistoire », *Bulletin de la Société préhistorique française*, 2005, t. 102, p. 715-720.

⁷ حول مراحل تاريخ تطور الإنسان خلال فترة ما قبل التاريخ، أنظر: L. Balout, *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris, 1955, p. 477-478.

⁸ Charles Darwin, *L'origine des espèces au moyen de la sélection naturelle ou La préservation des races favorisées dans la lutte pour la vie*, Paris, Flammarion, 2008; Jean Guilaine, *De la vague à la tombe. La conquête néolithique de la Méditerranée*, Paris, éd. Seuil, 2003; Christian Louboutin, *Au Néolithique. Les premiers paysans du monde*, Paris, Gallimard /RMN, 1990; Karoline Mazurié de Keroualin, *Genèse et diffusion de l'agriculture en Europe*, Paris, Errance, 2003; Jean-denis Vigne, *Les débuts de l'élevage*, Paris, éd. le Pommier, 2004.

استفاد علم التاريخ من نتائج تطور البحث العلمي، حيث استثمرها في تفسير الوقائع والأحداث التاريخية. كما بين حاجة المعرفة إلى التاريخ ومساهمة تطور البحث العلمي في المعرفة، إذ أصبح التاريخي ضامناً للتكامل بينهما. فالتاريخ يشهد على التراكمات المعرفية، ويقوم المسارات والنتائج.

من ثمة سنعمل على رصد التراكمات المعرفية للإنسان، خلال فترة ما قبل التاريخ، بتتبع المنجزات المعرفية التي حققها، مع التركيز على مرحلة اعتماد العدانة وإنجاز أدوات الاشتغال وتحقيق «ثورة أدواتية» مكنته من إدراك أهمية اكتشاف المعرفة وتخزينها. كما سنهتم بمرحلة النقوش والرسوم الصخرية، حيث حرص الإنسان على نقل صور الحياة اليومية وتخيل المعقدات التي أصبحت تؤطر مساره وتطوره العقائدي. بالإضافة إلى مرحلة اكتشاف الحرف وتنسيق الكتابة التي مكنت الإنسان من اكتساب آلية ضمان الحصيلة واحتكار المعرفة، مما ساعده على الانتقال إلى المرحلة التاريخية، حيث أصبح الإنسان محوراً أساسياً.

1. تطور المعرفة عند إنسان ما قبل التاريخ

يظل التاريخ وجدانياً، مرتبطاً بالبشرية، حتى أن البعض يعتبره جينة إنسانية، لا تهم العقل فقط، بل كل خلايا الجسم التي تخزن، بدورها، المكتسبات والمعارف المتراكمة عبر تطور تاريخ البشرية¹. وبذلك، يشكل التاريخ الخيط الرابط في صيرورة تطور البشرية، إذ أنه يضمن نقل الخبر ويؤمن المعلومة وينير مسار اكتساب المعرفة التي يتم تناقلها بين الأجيال وعلى مدى فترات تاريخ البشرية².

تقدم لنا الدراسات التاريخية إمكانية تتبع تطور المعرفة وتراكمها التاريخي، بدءاً من مرحلة ما قبل التاريخ التي تعتبر أهم مرحلة في حياة الإنسانية³. إنها مرحلة الوعي بأهمية تراكم المعرفة قبل اختراع الكتابة، ومرحلة مخاض، قبل دخول البشرية إلى المرحلة التاريخية. فقد عمدت مناهج البحث العلمي التاريخية إلى الفصل بين مجموعة من المراحل التي تشهد على تطور تراكم التجارب وحرص الإنسان على اكتسابها ونقلها إلى الآخر عبر النقش والرسم ثم الكتابة التي بدأ في استعمالها منذ أواسط الألف الخامس قبل الميلاد⁴.

تتفق الدراسات الفيزيولوجية أن الإنسان وعى بأهمية وظيفة يديه قبل عقله. ففي المرحلة الأولى من الحياة البشرية، كانت اليد هي الأداة التي ألهمت العقل ونشطت وظيفته، فبواسطة

¹ Vincent Badré, *L'Histoire fabriquée? Ce qu'on ne vous a pas dit à l'école*, Paris, éd. Le Rocher, 2012, p. 12-24.

² Michel De Certeau, *L'écriture de l'histoire*, Paris, éd. Gallimard, folio histoire, 1975, p. 91.

³ Henri-Jean Ugot, *L'Afrique préhistorique*, Paris, éd. Hatier, 1970, p. 112.

⁴ Claudine Cohen, *L'homme des origines : savoirs et fictions en préhistoire*, Paris, Seuil, 1999.

دور التراكمات المعرفية في تطور حضارة إنسان ما قبل التاريخ من العدانة إلى نقش الموروث ثم ابتكار الحرف لتدوين المعرفة

سعيد البوزيدي

جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

ملخص: استجابت العدانة لرغبة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية. مما دفعه إلى نحت معرفته على الصخور في شكل لوحات. فعكست صورة النقائش الصخرية تطور إنسان ما قبل التاريخ. لكنها لا تؤمن انتقال المعرفة، وهذا ما أدى إلى اختراع الحروف كرموز مشفرة، بهدف تخزين المعرفة التي بدأت تتجاوز قدرات الدماغ الإنساني المجبول على النسيان. وبفضل تراكم المعرفة وتوالدها خلد الإنسان وجوده وأمن تفوقه على الآخر.

كلمات مفاتيح: المعرفة؛ إفريقيا ما قبل التاريخ؛ الكتابة الليبية؛ فن النقائش؛ العدانة؛ الأسلحة المعدنية؛ كتابة صخرية؛ برونز

Résumé : De la pulsion économique et sociale de l'humain est née la métallurgie, qui a incité celui-ci à graver son savoir sur les rochers en forme de tableaux. Certes, l'image des gravures rupestres reflète l'évolution de l'homme préhistorique, mais elle n'assure pas la transmission du savoir. Ainsi fut l'invention des lettres, comme signes codifiées, en vue de thésauriser le savoir qui commence à dépasser les capacités du cerveau humain prône à l'oubli. Grâce à l'accumulation et la prolifération du savoir l'homme perpétue son existence et assure sa suprématie sur l'autre.

Mot-clefs : savoir; connaissance; Afrique préhistorique; écriture libyque; art rupestre; métallurgie; armes métalliques; pierre écrite; bronze

غالبا ما يتردد أن «الفلسفة أم العلوم»، وأن «التاريخ أبوها»، مما يبرز الخطوة العلمية لكل من علمي الفلسفة والتاريخ في سيورة العلوم الإنسانية. فقد شكل تراكم المعرفة في حياة الإنسان دور الخزان الذي يشهد على التطور البشري منذ بدء الخليقة. إذ عمل الإنسان على التأريخ لهذه المراحل وأطلق عليها أسماء اختزلت مستوى تراكم المعرفة ونتائج تطور الإنسان.

شكل التاريخ، دوما، حلقة معرفية فطرية تتماشى مع طبيعة العقل الإنساني القائم على تخزين المعلومة، قبل تحليلها، مما ميزه عن باقي المخلوقات الأخرى. وتغذت هذه المعرفة حينما أصبح التاريخ أحد مقومات العلوم الإنسانية التي تستعرض منجزات الشعوب والأمم والحضارات. ونظرا لحاجة الإنسان لهذه المعرفة التاريخية، فقد جعلها نقطة انطلاق لكل مشروع مستقبلي قائم على توظيف التراكمات المعرفية.

- Pascon, Paul, « La nature composite de la société marocaine », *Lamalif*, n° 17, décembre, 1967, p. 18-20.
- Pascon, Paul, « La main-d'œuvre et l'emploi dans le secteur traditionnel », *BESM*, n° 100, janvier-mars, 1966, p. 99-131.
- Pascon, Paul, « La main-d'œuvre et l'emploi dans le secteur traditionnel - II. Méthode de calcul du sous-emploi apparent » *BESM*, n° 101-102, avril-septembre, 1966, p. 123-135.
- Pascon, Paul, « La société marocaine face à l'industrialisation », *Lamalif*, n° 8, décembre 1966, p.28-36.
- Radcliffe-Brown, Alfred Reginald, *Structure et fonction dans la société primitive*, trad. de l'anglais, Françoise, Louis Martin, présentation et notes de Louis Martin, Paris, éd. de Minuit, 1968, [éd. Anglaise, 1952].
- Spencer, Herbert, *Principes de sociologie*, trad. de l'anglais par MM. E. Gazelles, J. Gerschel, Paris, Librairie Germer Baillière et Cie, T. 2, 1879.
- Touraine, Alain, *Production de la société*, Paris, Seuil, 1973.
- Touraine, Alain, *La Fin des sociétés*, Paris, Seuil, 2013.
- Yaqine, Mohammed, « Pascon et le Maroc : pour un lexique pasconien », dans Leila Messaoudi et coll. (dir), *Sur les dictionnaires*, Kénitra, pub. Laboratoire Langage et société, CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail, 2010, p.271-282.

مراجع

- باسكون، بول، «ضرورة إعادة التفكير في الإطار النظري لدراسة الظاهرة الكولونيالية»، ت. مصطفى كمال، س. بيت الحكمة، ع. 3، الدار البيضاء، دار قرطبة للنشر والطباعة، ط. 2، أكتوبر 1986.
- ياقين، محمد، اللغة السوسولوجية لدى بول باسكون، ضمن قسطاني بن محمد وفيليب كوركوف (تنسيق)، أعمال ندوة السوسولوجيا كعلم والتزام اجتماعي: مراد إستمولوجية، 3 و 4 و 5 يناير 2013، مكناس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، س. الندوات 39، 2014، ص. 33-54.
- Adam, André, *Casablanca. Essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'Occident*, éd. du Centre National de la Recherche Scientifique, 2ème édition, Paris, 1968.
- Akesbi, Najib et coll. (dir.), *Devenir de la société rurale, développement économique et mobilisation sociale*, Rabat, IAV Hassan II, 2007.
- Bourqia, Rahma, « Les valeurs : Changements et perspectives », dans *50 ans de Développement humain Perspectives 2025*, Rapports Thématiques, 2005, www.rdh50.ma/fr/pdf/contributions/GT2-3.pdf, site consulté le 30/07/2011.
- Durkheim, Émile, *Les règles de la méthode sociologique*, Félix Alcan, 1895.
- Mauss, Marcel, *CŒuvres. 2. Représentations collectives et diversité des civilisations*, Paris, Minuit, coll. « Le sens commun », 1969.
- Mauss, Marcel, *Manuel d'ethnographie*, Payot, 1989[1926].
- Pascon, Paul, *30 ans de sociologie du Maroc, textes anciens et inédits*, Bulletin économique et social du Maroc, n° 155-56, Rabat, 1986.
- Pascon, Paul et Ennaji, Mohamed, *Les paysans sans terre*, Casablanca, éd. Toubkal, 1986.
- Pascon, Paul et coll., *La maison d'Illigh et l'histoire sociale de Tazerwalt*, Rabat, SMER, 1984.
- Pascon, Paul, *Le Haouz de Marrakech*, T. 2, Rabat, CURS, CNRS, Rabat, INAV, 1983 [1978].
- Pascon, Paul, Wusten, Herman (van der) (dir.), *Les Béni Bou Frah. Essai d'écologie sociale d'une vallée Rifaine (Maroc)*, Rabat, Reproductions Industrielles, 1983.
- Pascon, Paul, « Féodalisme et caidalisme ou Maroc : entre les préjugés et les Idéologies le doute », *Lamalif*, n° 120, novembre 1980, p. 24-28.
- Pascon, Paul, *Études rurales, idées et enquêtes sur la campagne marocaine*, Rabat, SMER, 1980.
- Pascon, Paul, « Emploi et société : le temps productifs et le temps social », *Lamalif*, n° 108, septembre, 1979, p. 24-28.
- Pascon, Paul, « Segmentation et stratification dans la société rurale marocaine », *BESM*, n° 138-139, mars 1979, p. 105-119.
- Pascon, Paul, « Qu'est-ce qu'une tribu? » *Lamalif*, n° 93, décembre, 1977, p. 24-26.
- Pascon, Paul et Bentahar, Mekki, « Ce que disent 296 jeunes ruraux », *BESM*, n° 112-113, janvier-juin, 1969, p. 1-143.

حرية اللباس، الذي جسده حملة «صايتي حريتي»⁸⁵ والحملة المضادة «حجابي حريتي»⁸⁶؛ وحول توصية المجلس الوطني لحقوق الإنسان بخصوص المناصفة في الإرث... تنذر بتوترات عالية الحدة؛ خصوصا أن هذه النقاشات لم تعد حكرًا على نخب سياسية وفكرية تنتهي في الغالب إلى بلورة توافقات، بل غدت تغذي ديناميات تشكل مجالا عاما جديدا يحتضنه الفضاء الأزرق، الذي يتزايد تأثيره يوما بعد يوم، موازاة مع تراجع القوى والمؤسسات التقليدية الوسيطة بين الدولة والمواطن. بناء عليه نتساءل: هل هناك ضرورة اليوم لنحث مفهوم بديل لمفهوم المجتمع المركب؟ أم أن هذا الأخير لازال يحتفظ بصلاحيته وراهنيته؟ هل الإقرار بصلاحية وراهنية النموذج التفسيري الباسكوني يعني الحفاظ على نفس الدلالة -وهذه بالتأكيد مسألة منافية لمنطق التاريخ- أم يعني بالأحرى الحفاظ على الدال وإعادة النظر في المدلول، خصوصا فيما يتعلق بالنقاش حول المجتمع الانتقالي، وبالتالي هل يعني الإقرار بإمكانية استمرارية تعايش المتناقضات أن ما نعيشه في مغرب اليوم لا يعدو كونه مظهرا من مظاهر تطور المجتمع المركب، بالمعنى الذي حدده باسكون بصدد دراسته لواقع المغرب، أم أن ما تمر به الساحة اليوم من أحداث ووقائع ينم عن إرهاصات تنافر تتشابك خيوط تعقيداته، بشكل يقلص هامش إمكانات احتوائه، ويحيل بإمكانات الانتقال إلى غط مجتمعات أخرى؟ أسنا مطالبين اليوم- بعيدا عن كل هذه الأسئلة- بتجاوز كل محاولة لتحديد طبيعة المجتمع في ظل تشظي العلاقات الاجتماعية والتنوع المتزايد لسيرورات التفردية individuation والتفريد individualisation وفي ظل الحديث عن نهاية المجتمعات⁸⁷ -على غرار أطروحات النهايات (نهاية المدينة، نهاية التاريخ، نهاية الإيديولوجيات...)⁸⁸؟ لا يمكننا ادعاء الإجابة عن أسئلة من هذا القبيل ضمن مقال أو ندوة أو يوم دراسي أو مؤتمر، بل إنها تتطلب عملا مكثفا -وممتدا على مدى زمني كاف- تتصافر وتتكامل فيه جهود العديد من الباحثين.

⁸⁵ هي حملة تضامنية أطلقها ناشطات عبر الشبكة العنكبوتية تحت شعار «صايتي حريتي»، مؤازرة لفتاتين تعرضتا لمضايقة في أحد شوارع مدينة أنزكان يوم الأحد 14 يونيو 2015 بسبب ارتدائهما لتنورة قصيرة، وتوجت بوقفة احتجاجية بالبيضاء بساحة الأمم المتحدة وبالرباط أمام البرلمان بتاريخ 28 يونيو 2015.
⁸⁶ توجت هذه الحملة، التي احتضنها العالم الأزرق تحت شعارات من قبيل: «ماتقيش حجابي» و«حجابي عفتي» و«حجابي هويتي»، بوقفة احتجاجية أمام البرلمان يوم الأحد 5 يوليو 2015.

⁸⁷ Alain Touraine, *La Fin des sociétés*, Paris, Seuil, 2013.

⁸⁸ على الرغم من أن هذه الأطروحة تنطبق بالأساس على المجتمعات الغربية التي تعيش اليوم ما يسميه البعض «حدائثة مفرطة» أو «حدائثة متقدمة» أو «حدائثة ثالثة»... فمجتمعاتنا ليست بمعزل عن تأثيرات المرحلة، إذ أننا نشهد يوما بعد يوم اكتساحا متزايدا للتكنولوجيات الجديدة واختراقها لتفاصيل الحياة اليومية وتزايداً لأنماط ووتائر الحركية، وتغلغلا لأنماط الفردانية الملازمة لموجة العمولة، والتي تغذي من قيم الليبرالية الجديدة، وما يرتبط بها من أنماط علائقية تتجه أكثر فأكثر نحو المزيد من التشبيك، إذ تجمع أفرادا متعددي الانتماءات والروابط.

الرجل أو النسج على منواله أو الاستشهاد بأقواله، خصوصا أننا لا نتعامل مع أطروحة مكتملة، مادام فهم تركيبة المجتمع المغربي مشروع مفتوح، مثلما أكد على ذلك باسكون، معتبرا أن «إنجاز مشروع من هذا القبيل لا يمكن أن يقوم به إنسان واحد» وأن من مراميه «فتح سبل جديدة أمام البحث الإثنوغرافي والسوسيولوجي بالمغرب»⁸³.

على سبيل الختم

إن التراكم النوعي الذي حققته المجتمعات وفق مسار تطوري (مجتمع صناعي، مجتمع ما بعد صناعي، مجتمع المعرفة...)، يعكس قدرتها على الفعل التاريخي، إذ تولد وتغذي أسباب التحول كنتيجة طبيعية تستجيب لمنطق ذلك المسار. أما في حالة بلد كالمغرب فالتراكم يترجم من خلال تعزيز القدرة على احتواء التناقضات وامتصاص عناصر التوتر المندرة بالحسم والقطع مع المتجاوز تاريخيا. إن غياب مشروع مجتمعي واضح، كمؤشر على نضج المجتمع في اتجاه تحقيق انتقال فعلي وحقيقي، قد ترجمته شعارات حركة 20 فبراير ذات المرجعيات المتعددة، بل والمتناقضة أحيانا، وهو أمر لا نعزوه فقط إلى تعدد القوى المشكلة لها، بل نعتقد أنه يعود أساسا، إلى غياب البوصلة الموجهة للفعل الجماعي كفعل موجه لمسار تاريخية⁸⁴ historicité المجتمع.

إن أساليب تدبير العديد من المحطات خلال العقود الثلاث التي تلت رحيل بول باسكون تثبت في العديد من الجوانب صلاحية نموذج التفسير، أي استمرارية تعايش المتناقضات والقدرة على امتصاص واحتواء عناصر وأسباب التوتر، بل واستباق نتائجها. وإذا كان المغرب قد توفق في ذلك حتى الآن، عبر إيجاد عناصر التوافق، بما في ذلك تمكنه من تجاوز موجة «الربيع العربي» بشكل مختلف كثيرا عن باقي البلدان، فذلك لا يعفيانا من التساؤل اليوم حول حدود هذه القدرة في المستقبل، أخذنا بعين الاعتبار سرعة وعمق واتجاهات التحولات التي يشهدها. وإنما لا ندعي القول أن تركيبة المجتمع المغربي المزيجة قد استنفذت جل إمكانياتها، ولكن هذا لا يعني في نفس الوقت الإقرار بإمكانية الاستمرار في نسج التحليلات على نفس منوال النموذج الباسكوني. وإن النقاشات التي نشهدها حول القانون الجنائي وحول قضايا تهم الحريات الفردية والحدود بين العام والخاص، مثلما هو شأن النقاش حول المثلية الجنسية والجدال الذي أثير حول

⁸³ Ibid., p. 190.

⁸⁴ تبعا للتعريف الذي أعطاه آلان تورين لهذا المفهوم «لا يمكن اختزال المجتمع الإنساني في تنظيم بعيد إنتاج ذاته بشكل ثابت ولا يتحول إلا بفعل الطفرات التي تحدثها الأحداث الداخلية والخارجية، فبالإضافة إلى قدرة هذا المجتمع على التكيف مع محيطه المتحول وتغيير قواعد عمله وسيره، و يستطيع أن يضع بجانب نظام نشاطاته نظام تمثلاته. إنه يمتلك قدرة رمزية تمكنه من بناء نظام معرفي وأدوات تقنية يتدخل بواسطتها في آليات اشتغاله».

غير قابلة للمقارنة مع أخرى كما أن تحولاتها تعرف اتجاهات مختلفة. لذا ينبغي التخلص من الخداع أو الهوس الكامن خلف وهم الخصوصية والاعتراف بالواقع المتفرد لمجتمع ما والارتقاء بمحاولات تشخيصه وبذل المجهود اللازم بغاية تفسيره؛ كما أن القول باختلاف المجتمعات يفرض مساءلة الخلفيات الإيديولوجية التي يستبطنها السوسيولوجي أو المؤرخ بوحي أو بغير وعي.⁷⁹

وإذا كان توصيف المجتمع المركب ينطبق على بلدان تجمعها والمغرب العديد من القواسم المشتركة (تجربة الاستعمار، واللغة والدين والقرب الجغرافي...)، فذلك لا يعني أنه يكتسي نفس الدلالة. فاعتبار الجزائر، مثلاً، مجتمعاً مركباً «لا يعني أنها من نفس نوع المجتمع المغربي لأن التقلبات التي شهدتها تاريخها مختلفة»؛ وكذلك الشأن بصدد الحديث عن الجهات والمناطق داخل نفس المجتمع كالمغرب «فالحوز ليس هو تادلة أو الغرب أو الريف أو سوس، إلخ»⁸⁰؛ فحتى داخل المغرب يمكن الحديث عن خصوصيات جهوية ومحلية. وهو ما يمنع الإقرار بإمكانية تعميم نتائج المحلي على المستوى الوطني أو الدولي، أي تعميم نموذج الحوز على جهات أخرى في المغرب أو على البلاد برمتها أو خارجها⁸¹. ارتباطاً بذلك، يشدد باسكون على ضرورة زيادة منسوب الأعمال المونوغرافية، فهي الكفيلة بالإحاطة بوقائع اجتماعية ملموسة، في سياقها الزمني والمجالي، بل إنها تبقى قابلة للاستعمال يوماً ما في عمليات التفسير والتركيب.⁸²

لقد شكل توصيف المجتمع المركب، منظوراً إليه كمفهوم وكأطروحة وكنموذج تفسيري لطبيعة التشكيلة الاجتماعية المغربية، مقدمة ومنطلقاً وخلفية لأبحاث ودراسات عديدة، إذ يمكن تبين ملامحه الأولى في كتابات باسكون السابقة على مقاله الذي أثار المفهوم لأول مرة *La nature composite de la société marocaine*، وهو ما يمكن إدراجه في خانة «الحدس السوسيولوجي». وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، نجد هذا المفهوم حاضراً بقوة، بشكل صريح أو ضمني، في جل - إن لم نقل في كل - الكتابات التي تلت هذا المقال؛ وهذا يدفعنا إلى التساؤل حول حدود صلاحيته. بتعبير آخر، ألم يشكل المفهوم قالباً جاهزاً خلعه باسكون على مختلف الوقائع والمعطيات والقضايا لينسج على منواله على مدى ثلاثة عقود تقريباً؟ لكن الأهم من هذا التساؤل والغاية الأسمى من إثارة النقاش حول الإرث الباسكوني هو ربط الماضي بالحاضر بحثاً عن ملامح وآفاق الاستمرارية الفكرية التي يمكن أن تشكل العمود الفقري لتقليد سوسيولوجي «مغربي». وهذا يطرح مشكل الامتداد الذي لا يختزل في محاولات محاكاة فكر

⁷⁹ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 190-191.

⁸⁰ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, t. 2, *op. cit.*, p. 586.

⁸¹ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, t. 1, *op. cit.*, p. 395.

⁸² Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p.195.

4. مفهوم/ أطروحة المجتمع المركب لدى باسكون: عناصر التجاوز ومعالم الأصالة

ليست أطروحة باسكون مجرد رقم إضافي يعزز التراكم الكمي للدراسات المتعددة المنجزة حول المغرب، بل إنها تشكل بحق إضافة نوعية أصيلة. ولعل ما منحها أسباب القوة والصلابة والاستمرارية هو الرغبة في تجاوز ما يعتري هذه الدراسات من ثغرات ونقائص، والتي تترد إلى طابعها الاختزالي والتجزئي والسطحي وإلى غياب التكامل والنظرة الكلية والشمولية، وهيمنة النزوعات الإيديولوجية التبريرية الموجهة سياسيا لخدمة المشروع الاستعماري أو الطبقي. لذا، فقد كان يعتبر أن الخطوة الأولى لبلورة نهج تفسيري جديد للمجتمع تكمن في نقد التفسيرات السابقة ولمختلف الأوصاف المغلوطة التي وسم بها المجتمع المغربي⁷⁶.

لقد استعمل باسكون مفهوم المجتمع المركب لتوصيف وتحليل التشكيلة الاجتماعية المميزة للمغرب عامة مثلما حضر كخلفية في تحليل سيرورة وصرورة التاريخ الاجتماعي المحلي للحوز وتازروالت وبني بوفراح... وفي تحليل قضايا العالم القروي ومواقف وتطلعات الشباب المغربي وتركيبية الأنظمة القانونية... وإن دفاعه عن أطروحة المجتمع المركب، بصدد توصيف التشكيلة الاجتماعية المغربية، هو دفاع، بصيغة ما، عن خصوصية محلية. وذلك ما حرص على التقيد به ليثمر مشروعه بنية مفاهيمية تجمع بين النحت والتبينة والتأصيل وإعادة البناء⁷⁷. لكن إقراره بمسألة الخصوصية، كسمة ملازمة لتنوع واختلاف المجتمعات يمنع النظر إليها من نفس المنظار، ولا يعني الانسياق خلف الطروحات الإيديولوجية المغرضة أو الساذجة⁷⁸. ففي سياق الدفاع عن مسألة الخصوصية المغربية من وجهة نظر علمية سوسيو تاريخية يقر باسكون بوجود اختلاف فعلي بين المجتمعات في فترات تاريخية معينة، واتصافها بنوع من «الخصوصية». فهي

⁷⁶ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 197.

⁷⁷ انظر في هذا الصدد: محمد ياقين، « اللغة السوسولوجية لدى بول باسكون »، ضمن قسطلاني بن محمد وفيليب كوركوف (تنسيق)، أعمال ندوة السوسولوجيا كعلم والتزام اجتماعي: مراد إستمولوجية، 3 و 4 و 5 يناير 2013، مكناس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، س. الندوات 39، 2014، ص. 33-54.

Mohammed Yaqine, « Pascon et le Maroc: pour un lexique pasconien », dans Leila Messaoudi et coll. (dir), *Sur les dictionnaires*, Kénitra, Laboratoire Langage et société, CNRST-URAC56, Université Ibn Tofail, 2010, p. 271-282.

⁷⁸ يتذرع الكثيرون بمسألة الخصوصية، لتسويغ ممارسات أو الإعلاء من شأن الذات الجماعية، بشكل ينم عما يمكن اعتباره «تضخما للزجسية الهوياتية»، أو تبريرا لنزوعات محافظة... كما يتردد في خطابات بعض السياسيين؛ بل، وعن قصد أو غير قصد، لدى صحفيين وأكاديميين. وقد ازداد منسوب الإعلاء من شأن الخصوصية/ الاستثناء، في السنوات الأخيرة، ارتباطا بتصاعد موجة الحراك الاجتماعي الذي تشهده العديد من البلدان العربية، بدعوى أن المغرب ليس هو مصر أو تونس أو ليبيا...

فبينما يعتبر الأول المجتمع المركب مجتمعا في طور الانتقال⁷¹ يرفض الثاني الخلط بين الصنفين. فضلا عن ذلك لا يختزل التركيب بالنسبة لباكون في ثنائيات متجاوزة بل إنه محصلة تراكم و تمازج العديد من الأنماط.

إن استعمال المفهوم من طرف سوسيولوجيين سابقين عليه أو معاصرين له لا ينفي عن المدلول الباسكوني أصالته من حيث المجهود البحثي الممتد على مساحة زمنية طويلة والذي ارتقى بالتوصيف إلى مستوى الأطروحة المستندة على وقائع ميكرو وماكروسوسيولوجية مستقاة من أفضية متنوعة. لقد توسل بهذه الأطروحة المؤسسة والموجهة للمشروع الباسكوني برمته تفسير كل مظاهر الحياة الاجتماعية والسلوكات والتصرفات الجماعية والفردية. وقد كان يحذوه في ذلك طموح تقديم نظرية مغايرة حول التغير الاجتماعي بالمغرب، لا نطن أنها استنفذت راهنتها اليوم. كما كان يحذوه هاجس فهم طبيعة المجتمع وفهم آليات تكوينه- كمدخل لفهم الوطن والثقافة، وهو الأمر الذي يهم كل مواطني البلد ولا يستجيب فقط لهاجس البحث الأكاديمي المحض، الذي يشغل السوسيولوجي وحده⁷² - فهما راصدا لمختلف إيقاعات التحول ولمجمل مستويات واتجاهات التغير. ولعل أحد أبرز جوانب الاختلاف بين باكون والأعلام سالف الذكر، هو براغماتيته المرتبطة أشد الارتباط بموقع الفاعل الاستراتيجي الباحث باستمرار عن السبل القمينة بتحويل المجتمع، عبر الكشف عن نقط ضعفه ومكامن قوته ومقاومته وإواليات حركياته، بشكل يساعد على توجيه أنشطته بشكل علمي وعلى تحديد الأولويات بشكل واع⁷³. كما ترتبط بموقع الباحث الملتمزم، على النموذج البورديوي، الذي يبقى شغله الشاغل هو كشف الحقائق، وهو ما يجسده حرصه أشد الحرص على المساهمة في بلورة نموذج تفسيري مغاير للتاريخ الرسمي وللطروحات الإثنوغرافية التي تناولت تحولات المجتمع المغربي الحديث، ومغاير للتاريخ الاستعماري وما قبله، تبعا لما أعلنه في مقدمة مقاله حول La formation de la société marocaine⁷⁴؛ مع الحرص على إحداث قطعة مع كل الأطروحات الاختزالية والأحادية والتبسيطية، مغرضة كانت أو منحازة، سواء تلك التي تصنف في خانة الخطاب الاستعماري أو خانة الخطاب الوطني⁷⁵.

⁷¹ يتحدث أندري آدم عن المجتمع المغربي باعتباره مجتمعا تقليديا يعيش مرحلة انتقالية :

André, Adam, Casablanca. *Essai sur la transformation...*, op.cit., p. 705.

⁷² Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », op. cit., p. 196.

⁷³ Ibid.

⁷⁴ Ibid., p. 189.

⁷⁵ بول باكون، ضرورة إعادة التفكير في الإطار النظري لدراسة الظاهرة الكولونيالية...، مرجع سابق، ص.133.

تنوع ومضاعفة محاولات التكيف. وتبعاً لهذا الطرح، لا ينبغي أن يفسر التطور الهائل للفردانية في المجتمع المغربي بنفس الآليات المعتمدة في تفسير أنماط الفردانية في المجتمعات الأخرى، مادامت تخضع لمنطق المصالح الشخصية الموسومة بسمات المجتمع المركب والموجهة باستراتيجيات إنسان المجتمع المركب⁷⁰.

3. مفهوم/ أطروحة المجتمع المركب لدى باسكون: فكر أصيل أم إسقاط نظري؟

يصنف كل من سبنسر ودوركايم وموس تاريخ المجتمعات الإنسانية تبعاً لدرجات تعقيدها وفق منظورات ماكروسوسيولوجية (تطورية، وضعية، وظيفية...) ومقاربات أنثربولوجية كلاسيكية تنطوي على تصنيفات مرجعها الأساس هو المجتمعات الأوربية الحديثة، التي تمثل في نظرهم أعلى وأسمى درجات تطور المجتمعات (قديمة أو بدائية أو سفلى...)، إذ تعكس درجة التركيب، من منظورهم، مستوى من مستويات تعقيد البناء الاجتماعي. وإذا كان المجتمع المركب، في نظر هؤلاء، يمثل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات فهو يشكل، في المنظور الباسكوني، واقعا اجتماعيا متجددا وليس مرحلة منصرمة أو عابرة. ومقارنة مع هؤلاء الأعلام لم يبق تحليل باسكون حبيس مستوى من مستويات التشكيلة الاجتماعية (طبيعة الزعامات ومستويات استقرار السلطة (سبنسر)؛ المكونات الاجتماعية/القسمات (دوركايم) الأنظمة القانونية (موس)، بل تجاوزه لينصب على مختلف البنى والمستويات وعلى مختلف علاقاتها المركبة والمتداخلة والمعقدة وفق منظور كلي واعتمادا على نهج اختباري يعلي من شأن التجريب.

ومقارنة مع رادكليف براون، الذي ركز بالأساس على دور العامل الخارجي في إفراز تركيبة مزيجية، ليس المجتمع المركب، بالنسبة لباسكون واقعا جديدا أفرزه الاستعمار، رغم مساهمة هذا الأخير في سيورته تطوره. ولا يتعلق الأمر ببنيات اجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة كل الجدة أساسها تركيبة سكانية هجينة تجمع الأهالي والأجانب المعمرين، بل يهتم تشكيلة اجتماعية وتركيبية ثقافية فسيفسائية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، تنتمي لنفس المجال الجغرافي وتتضمن علاقات اجتماعية تحيل على أنماط متعددة عرف المغرب الكثير منها في مراحل ما قبل الاستعمار.

ومقارنة مع أندري آدم، الذي يحصر استعمال المفهوم في حدود مجال جغرافي حضري وواقعي اجتماعي وثقافي محلي (الدار البيضاء)، يوسع باسكون دائرة هذا الاستعمال لينطبق على مجتمعات محلية متعددة، أبرزها مجتمع الحوز، ويسحبه على مستوى أعم هو المغرب برمته، بل ويخلعه أيضا على بلدان أخرى شبيهة، كما سترى لاحقا. كما نلاحظ أن هناك اختلافا كبيرا بين آدم وباسكون بخصوص تحديد مفهوم المجتمع المركب في علاقته بالمجتمع الانتقالي؛

⁷⁰ Ibid.

على التكيف مع واقع يتسم بالتعقيد ويحفل بالتناقضات بحثا عن موطئ قدم يمكن «الفرد» من لعب أدواره داخل مؤسسات اجتماعية تفتقر إلى أسس مؤسساتية حديثة ولا تتضح فيها كفاية قواعد اللعبة⁶⁶. فنفس المواصفات التي تسم المجتمع المغربي- كمجتمع مركب- تسم السلوك الفردي، كما أن إنسان المجتمع المركب لا يتصرف خارج منظومة أطر معرفية ونماذج وأنماط سلوكية متعايشة، رغم التناقضات التي تخترقها، إذ يضطر للقيام باختيارات توفيقية. وهنا نلاحظ بوضوح أحد ملامح هوليسية الفكر الباسكوني التي تقترب إلى حد بعيد من النموذج البنيوي البنائي البوردويوي (نسبة إلى بيير بوردويو) المتمحور حول مفهومي الحقل والهياكلية؛ رغم الفرق الشاسع بين فرد مجتمع رأسمالي يعبئ الفرد داخله رساميل طبقته الاجتماعية وفرد مجتمع مركب يوظف مرجعيات متعددة تحيل على أنماط إنتاج متنوعة ومتناقضة. فإنسان المجتمع المركب يسعى على الدوام إلى تحقيق التكيف في «عالم معقد» ومجبر على إيجاد التوازن والتلاؤم في شخصه بين أنماط متعددة ومتنافسة: إيديولوجيات ومواضعات وقيم وأخلاق وأنظمة قانونية وتكنولوجية ومعرفية ولغات وأنظمة لتوزيع النقود وصيغ تقويم موجهة للاستعمال اليومي، ومع «كل سمات المجتمع التي تبدو له يوميا بألف وجه، والتي يتسم كل واحد منها بمنطقه ومرجعياته وقاموسه وتقاليد، بل ولسانه الخاص أحيانا⁶⁷». لا يتعلق الأمر إذن بإنسان مبادر مستقل يتمتع بهوامش واسعة لفعل إرادي وحر يجسد مقومات فردانية أصيلة «فسواء على المستوى الفردي أو الجماعي، يسعى الأشخاص الذين يعيشون داخل المجتمع المركب إلى التكيف باستمرار مع تعقيدات الواقع، كي يتمكنوا من لعب أدوارهم. إنهم ينتمون إلى مجتمعات عديدة ومن خلالها يتم تصفية وتجاوز التناقضات. وهم لا يكفون عن تركيز إراداتهم ورغباتهم حول السمات التي تبدو لهم مهمة⁶⁸». يتوسل باسكون في هذا الصدد بالعديد من الأمثلة والشواهد والحجج الأمبيريقية لإبراز مظاهر التعقيد في السلوك اليومي للفرد والتفاعلات الاجتماعية⁶⁹. بتعبير آخر، ليس هناك استراتيجيات فردية خارج منظومة جمعية وجماعية ترسم حدود السلوك والتصرف وتشرط الحريات، استراتيجيات تعكس ملامح المجتمع المركب وتعمق حدة تعقيداته، في نفس الوقت، من خلال

⁶⁶ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 209.

⁶⁷ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, t. 2, *op. cit.*, p. 592.

⁶⁸ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 209.

⁶⁹ يورد باسكون العديد من الأمثلة التي تحيل على أنماط مجتمعات مختلفة (أبوي، إقطاعي، رأسمالي) وتنطوي على تعايش نماذج اجتماعية متعددة تتعايش فيها الزبونية والمحسوبية والحداثة والتقليد والقدرة والحساب العقلاني والمعتقدات الخرافية مع استعمالات التكنولوجيات الحديثة... انظر في هذا الصدد:

« La nature composite de la société marocaine », *op. cit.*, p. 18-19; *Le Haouz de Marrakech*, t. 2, *op. cit.*, p. 593-594; « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 209.

وتتجلى مظاهر التركيب أيضا في تعدد استعمالات الطاقة بالمغرب، والتي تختلف حسب المناطق وتبعا لدرجات البعد والقرب من المدن الكبرى⁶¹.

ويحفل حقل المعتقدات والممارسات الدينية بشتى مظاهر التعايش بين العديد من الأنساق التي يحيل بعضها على ممارسات طقوسية ما قبل إسلامية- تنهض على الاعتقاد بالخوارق والسحر وبالقدرات الهائلة للقوى الخفية...- وينتمي بعضها إلى المرحلة التي أعقبت مجيء الإسلام؛ أنساق يتعايش داخلها السحر والإسلام الشعبي والإسلام السني والإسلام الصوفي، دون أن يتاح لأحدها الهيمنة، بل إنها قد تتحالف فيما بينها أو يحل أحدها محل الأخرى⁶². في المقابل ينتمي جزء آخر من هذه الأنساق إلى العلم الحديث، في منظومة لا يتعارض فيها العلم والدين⁶³. وينعكس تعدد سجلات المعتقدات أيضا على مستوى تنوع صيغ التقويم الزمني، إذ تتعايش أزمنة متعددة تحيل على مرجعيات ثقافية متنوعة خصوصا في العالم القروي، حيث يتم اعتماد تقويم الأبراج والتقويم الجولياني والتقويم الإسلامي والتقويم الغريغوري⁶⁴. وهذا يعني أننا نإزاء تحديث لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية دون أن يوازيه تقدم في اتجاه الحداثة، التي يتوازى ضمن سيرورتها التحديث التقني مع تطور الذهنيات في اتجاه المزيد من العقلنة والعقلانية، عوض التعامل بمنطق أداتي اختزالي مع العلم والتقنية. ويتجسد تعدد سجلات الأساطير والمعتقدات، كذلك، على مستوى أساليب العلاج والوقاية من الشرور والحسد والعين، التي لازال الكثير منها يتوسل بممارسات خرافية من قبيل استعمال التمايم والاستعانة ببركات الأولياء، إلخ⁶⁵.

2.3.2. مسلكيات وسلوكيات الأفراد

لا يقتصر مفهوم المجتمع المركب - كما سلف الذكر- على توصيف بنيات علائقية وسرورات اجتماعية بل «يفسح المجال أيضا لاكتشاف سيكولوجية جديدة، هي «سيكولوجية إنسان المجتمع المركب». ولا يبدو غريبا استعمال باسكون لمفردة «إنسان» عوض مفهوم الفرد. ذلك أن مدلول المجتمع المركب يبدو متنافرا ومدلول مفهوم الفرد، كما تبلورت أبعاده في المجتمعات الغربية الحديثة. ولعل أهم سمة مميزة لهذا النمط السيكلوجي هي القدرة

⁶¹ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, op. cit., p. 587; « La formation de la société marocaine », op. cit., p. 203.

⁶² Ibid., p. 80.

⁶³ Paul Pascon, « Mythes et croyances au Maroc », dans *30 ans de sociologie du Maroc*, op. cit., p. 84.

⁶⁴ Ibid., p. 78.

⁶⁵ Ibid., p. 76-78.

ومن خلال كافة العوامل المؤثرة في المجتمع⁵⁴. وتتجسد معالم التركيب في تباين درجات التمتع بالحقوق الاجتماعية، بالنظر إلى تنوع علاقات الشغل والإجارة، التي تتأرجح بين وضعيات قانونية متعددة: أجراء قارون ومتخصصون يتمتعون بالعديد من الحقوق وأجراء مؤقتون وموسميون ومياومون وخماسة وأشباه أفتان...⁵⁵. وهناك بون شاسع بين علاقات الشغل والإجارة السائدة في المدينة، حيث «العمل المأجور الدائم والمؤهل، مع وجود ضمانات للتشغيل والاحترام النسبي للحقوق النقابية والحماية الاجتماعية [...] إلخ»؛ وتلك التي توجد خارجها، والتي تتسم بالكثير من الهشاشة، حيث يهيمن العمل المأجور المؤقت الموسمي والأجور المتحصلة من علاقات: الشَّرْكة والخماسة والعمل العائلي غير المؤدى عنه⁵⁶. وجدير بالذكر أن باسكون قد أفاض في تحليل هذه الوضعيات في العديد من الدراسات⁵⁷، بل إنه أفرد لها آخر أعماله⁵⁸. Les paysans sans terre

وتطال مظاهر التركيب النظام القانوني المغربي، الذي يتسم ببنية مزيجة أفرزتها سيورة اندماج مذاهب متراكبة متعددة الروافد والمرجعيات، والتي أضفت عليها الدولة طابعا رسميا، إذ تتخلل القانون الوضعي المغربي طبقات قانونية ترسبت عبر التاريخ كما أنه لا يعدم وجود قوانين أخرى توارثت تماما بفعل التطور التاريخي⁵⁹. يسجل باسكون والناجي في هذا الصدد استمرارية العرف بجانب الشرع- وهو التناقض الذي استثمره الاستعمار لبسط هيمنته- وقد انضاف إليهما القانون الفرنسي المفروض من طرف هذا الأخير. وإن اللجوء إلى استعمال قانون من بين هذه القوانين لتحكمه اعتبارات متعددة مشروطة بظروف وأمكنة ووضعيات، إلخ⁶⁰.

⁵⁴ *Ibid.*, p. 588.

⁵⁵ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 204.

⁵⁶ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, *op. cit.*, p. 588.

⁵⁷ «La main-d'œuvre et l'emploi dans le secteur traditionnel», *BESM*, n°100, janvier - mars, 1966; « La main-d'œuvre et l'emploi dans le secteur traditionnel - II. Méthode de calcul du sous-emploi apparent », *BESM*, n° 101-102, avril - septembre, 1966; « Emploi et société: le temps productifs et le temps social », *Lamalif*, n°108, septembre 1979, « L'affectation du temps à la production sociale», dans *Études rurales*, *op. cit.*

⁵⁸ Paul Pascon et Mohamed Ennaji, *Les paysans sans terre*, Casablanca, éd. Toubkal, 1986.

⁵⁹ Paul Pascon et Nagib Bouderbala, « Le droit et le fait dans la société composite », *op. cit.*, p. 214-215.

⁶⁰ *Ibid.*, p. 218 et s.

في أساسه على أشكال مركبة complexes لأنماط الإنتاج المتنافسة داخلها»، حرص باسكون على التمييز داخل التشكيلات الاجتماعية بين نوعين «المجتمعات الانتقالية، التي تتميز بقدرتها على إعلان وابتغاء وتحديد الغايات المنشودة، وتحديد الوسائل القمينة بتصفية الأخرى؛ والمجتمعات المركبة التي، على العكس، ترفض وتأبى وتتفادى اتباع خط جذري جديد وتحاول الاستمرار في اللعب على جميع الجبهات التي تتيحها المنافسات الضمنية لأنماط الإنتاج السابقة والجديدة»⁴⁹. ويعزو باسكون موانع مرور المجتمع المغربي من مرحلة انتقالية، إلى وضعية التبعية والخضوع لهيمنة القوى الصناعية الكبرى إلى غياب مشروع مجتمعي يحظى بالإجماع ويتيح تعبئة طاقات وموارد إيديولوجية وسياسية واجتماعية ومالية لتغطية تكاليفه «مشروع مجتمعي يحظى بمصادقية وقادر على تعبئة الإرادات... وفائض الإنتاج»⁵⁰. ذلك أن القديم يحتوي الجديد ويوظفه وفق توجهات تنتصر للترميح والتزويق، في ظل ضعف «قوى الدفع الذاتي»، بفعل قوة الانشداد إلى الماضي وثقل أساور التقليد ووطأة كوابح التبعية؛ وفي غياب مشروع وطني واضح وعدم القدرة على دفع ثمن الانتقال⁵¹. وباختصار «إن تغيير المجتمع، يعني اختيار نمط جديد للوجود من أجل مجتمع جديد، يعيش وفق أخلاق جديدة، أخلاقا وسلوكات متجانسة في مجتمع ينشد التجانس، الذي يطرح [كمبتغى] مشكل القطيعة»⁵². وهذا لا يعني أن المجتمعات المركبة تظل رهينة لهذا الوضع إلى الأبد وأنها ستبقى بالضرورة سجين حلقه مفرغة. فمقاومتها للتغيير ليست أبدية ولا تعني أنها «لن تجبر موضوعا على التحول [يوما ما] من تلقاء ذاتها وتشهد، بشكل لا يقاوم، هيمنة تدريجية لما تريد إخفاءه في إطار تشكيلة اجتماعية جديدة، شريطة تحمل كل أشكال التأخر وكل التكاليف وكل حالات عدم الاستقرار»⁵³.

3.2. مظاهر وتجليات المجتمع المركب

1.3.2. العلاقات والأنظمة والمعتقدات والممارسات الاجتماعية

في ظل تداخل أنماط إنتاج متعددة تخترق مظاهر التركيب مختلف ثنانيا العلاقات الاجتماعية وتعكس على مستوى العلاقات القانونية وعلى مستوى الإيديولوجيا، بل وعلى جميع المستويات

⁴⁹ Ibid., p. 598.

⁵⁰ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, T. 2, op. cit., p. 595.

⁵¹ Paul Pascon, « Entretien avec Tahar Benjelloun », dans *30 ans de sociologie du Maroc, textes anciens et inédits*, Rabat, BESM, n° 155-56, 1986, p. 56-57.

⁵² Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, T. 2, op. cit., p. 595.

⁵³ Ibid., p. 598.

وإذا كانت الماركسية، وتحديدًا تأويلاتها الكلاسيكية «الميكانيكية» القائمة على نظرية الانعكاس، تعتبر أن ما يعتَمَل في البنية التحتية ينعكس على مستوى البنية الفوقية، ففي وضعية المجتمع المركب نشهد تعايشًا للمتناقضات بفعل تباين مسارات وإيقاعات التصفية أو الاستبدال ووثائر تطور الأدوات والتقنيات والعلاقات الاجتماعية والمؤسسات...⁴² وبالتالي، فمقاومة المجتمع المركب للتغيير تشكل الوجه الآخر للعملة؛ إذ «لا يعني التغيير الاجتماعي إحلال نمط إنتاج ما محل آخر أو تشكيلة اجتماعية محل أخرى، بل هو صراع دائم في مجتمع تاريخي واقعي معين بين جميع مكوناته وعلى كافة أصعدة الواقع الاجتماعي».⁴³

بناءً على ما سبق، يفرض باسكون رفضًا باتًا استعمال مفهوم المجتمع الانتقالي لتفسير ما يعرفه المغرب من تحولات. فباستثناء ما يمكن اعتباره «فلتة عابرة»، والتي أكد فيها أن المغرب يمر بشكل بطيء من مرحلة انتقالية⁴⁴، ما برح يشدد على عدم صلاحية المفهوم لحالة المغرب. ففي مقدمة أطروحته حول Le Haouz de Marrakech، يعلن عدم ثقته فيه كمفهوم ينطوي على إمكانية «إحلال نموذج محل آخر بشكل خطي ولا رجعة فيه»⁴⁵، ليؤكد أنه «لا شيء يثبت بأن هناك انتقال في ظل وضع يفترق، في البداية، إلى التجانس والتماسك وفي غياب مشروع وطني أو طبقي، نموذج النهائي معلن أو محدد بشكل واضح»، مثلما حدث في البوادي الجرمانية حيث وضع الاحتلال الروماني حداً للقبليّة وتمكنت الرأسمالية من تصفية نظام الأسياد⁴⁶. إن الحديث عن المجتمع الانتقالي يقتضي وجود مشروع يتحقق معه نموذج مجتمعي مثالي؛ ويقتضي الانخراط في سيرورة تصفية أنماط الإنتاج السابقة والتحرر من الرأسمالية العالمية في آن واحد، وهو ما لا يتحقق في المجتمع المركب. إذ يتم العمل باستمرار على تفادي تحديد هذا المشروع⁴⁷ الذي يستلزم «إرساء تشكيلة اجتماعية متماسكة جدًا وأكثر وحدة يقتضي تصفية أنماط إنتاج أقل تنافسية، مع ما يترتب عنها من تكلفة لتعويض الاختفاء الإرادي، والمبكر بالنتيجة، للتنافسية الجزئية للأنظمة المتداخلة والخاضعة»⁴⁸.

وبصدد رده على ما اعتبره سوء فهم من جانب زملائه الذين يعتبرون الطابع المركب هو في النهاية قاسم مشترك لجميع المجتمعات في العالم، وأن «مفهوم التشكيلة الاجتماعية ينطوي

⁴² Paul Pascon, « La nature composite de la société marocaine », *op. cit.*, p. 19.

⁴³ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 203.

⁴⁴ Paul Pascon, « La société marocaine face à l'industrialisation », *Lamaliz*, n° 8, 1966, p. 34.

⁴⁵ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, *op. cit.*, p. 7.

⁴⁶ *Ibid.*, p. 8.

⁴⁷ Paul Pascon, « La grande maladie du Maroc... », *op. cit.*, p. 279-280.

⁴⁸ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, *op. cit.*, p. 595.

نال حصة الأسد في دراسات بول باسكون. وتخترق المجتمع المركب صراعات وتتنافس داخله أنماط مجتمعات متعددة، يتجاور فيه القديم والجديد، التقليدي والحديث وتعيش فيه المتناقضات بشكل يمنع التجاوز الخلاق ويكبح دافعية الانطلاق في اتجاه التجاوز الفعلي للسائد والحسم في مشروع مجتمعي جديد وواضح المعالم... لقد خلص باسكون بصدد دراسته لمجتمع الحوز إلى اعتباره «نتاج تداخل أنماط إنتاج لكل منها نصيب في تحديد تشكيلته الاجتماعية: الأبوية، القبلية، الفيودالية، الرأسمالية والاشتراكية أيضا، رغم انحصار هذا النمط الأخير في مستوى الإيديولوجيا والتنظيمات السياسية. إذ لا يستند على أسس مادية وأعمال منتجة»³⁶. وإن تداخل الأنماط وتعايشها لا ينفى تنافسها، ذلك أن «هذا التعايش بين وقائع اجتماعية تبدو ظاهريا لا متجانسة ومتباعدة تاريخيا ليس في الواقع تعايشا سلميا. فعلاقاتها يطبعها التنافر وتناقضاتها تسمح بالتجديد، بل إنها قادرة على تحمل حركة المجتمع نفسها»³⁷. ولا يقتصر التنافس داخل المجتمع المركب على شكل وطبيعة العلاقات الاجتماعية، بل يطال كل مناحي الحياة ومختلف الأنشطة والممارسات الدينية والسياسية والاجتماعية...³⁸، ويتجسد في تجاور العديد من الأنماط المثالية داخل نفس المجموعة الاجتماعية، بل إنه يمتد ليشمل وعي نفس الفرد³⁹.

إن تداخل أنماط متعددة متنافسة ومتعايشة في نفس الآن يعني تقاسم مواقع الهيمنة بين قوى متجاذبة داخل المجتمع المركب، بين قايديّة مخزنية تمارس نفوذها على نظام قبلي- آيل إلى الزوال- وعلى نظام أبوي في مجتمع يتحدد سوسيولوجيا بوصفه «مجتمعا قايديا مخزنيا» و«رأسمالية عالمية تخضع لهيمنتها القايديّة المخزنية نفسها على مستوى الإنتاج والتبادل»⁴⁰. وتتعاظم هيمنة نمط الإنتاج الرأسمالي على التشكيلة الاجتماعية المغربية في مجالات تعرف تطورا تكنولوجيا وترتهن للهيمنة الأجنبية والتجارية (الأبنك والمالية والتجارة)، في حين أنها تضعف أمام أنماط الإنتاج الأخرى التي تدافع عن نفسها وتقاوم، بل وتنتصر في المجال البيروقراطي وعلى مستوى العلاقات الاجتماعية والهيئات السياسية تحديدا⁴¹.

³⁶ Ibid., p. 591.

³⁷ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 203.

³⁸ «في حالة المغرب، على سبيل المثال، تتعايش الشراكة والعمل المأجور والتعاقد؛ وتعيش الطاقات البشرية والحيوانية والمائية والميكانيكية والكهربائية؛ ويتعايش الحق الأبوي مع العرف القبلي والنظام الفيودالي والتشريع القرآني مع القانون العصري؛ والمؤسسة العائلية مع الجماعة القروية وشبكة الأسياد والدستور. وتعيش عبادة الأموات مع الممارسات السحرية-الدينية والإسلام والعلم الحديث الخ...»، نفسه، ص. 202.

³⁹ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, *op. cit.*, p. 6.

⁴⁰ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 206.

⁴¹ Paul Pascon, « La grande maladie du Maroc c'est la greffe des modèles et l'absence d'innovations », (Entretien avec Zakia Daoud) [1978], dans *Études rurales*, *op. cit.*, p. 279.

المنافسة (الرأسمالية الدولية) لا يمتلك سلطة الدولة ويضطر بالنتيجة إلى المرور عبر مؤسسات نمط إنتاج وأجهزة مجتمع تابع هو المجتمع القاندي المخزني³¹. ويكمن الفرق بين المجتمعات التي يهيمن فيها نمط إنتاج معين (الفيودالية أو الرأسمالية أو الاشتراكية...) أو المجتمعات الانتقالية... والتي تكشف بقدر ما ومعنى ما عن معالم مركبة- والمجتمعات التي توصف بكونها مركبة بصيغة التخصيص، كالمجتمع المغربي، في طبيعة العلاقة القائمة داخلها بين الدولة والمجتمع، بين الدولة ودواليب العالم الاقتصادي؛ وفي طبيعة السلطة وآليات اشتغالها وطبيعة ومستوى مأسسة العلاقات. ففي المجتمع المركب «لا يمتلك نموذج الإنتاج المهيمن سلطة الدولة والمؤسسات بشكل فعلي»³². وليس المجتمع المركب، كما قد يبدو لأول وهلة، بنية جامدة بل إنه يتشكل باستمرار عبر استيعاب الجديد وإضفاء حُلل التجديد على الرواسب القديمة، مضيفا لبنات لصرح فيسيفسائي تتراكب عناصره دون تحقيق تراكم نوعي يمكنه من تجاوز واقعه المركب، فهو يراكم تجارب تصلب قدرته على المقاومة وعلى الجمع بين المتناقضات. إنه، بتعبير آخر، محصلة مسار تاريخي حيث «تتداخل مجتمعات تاريخية متعاقبة لم يتبق منها سوى بعض المظاهر، هي بمثابة امتدادات متجذرة لمجتمع سابق، أو مقدمات لمجتمع في طور التشكل، تكتسب مدلولها الكامل بمجرد اتخاذها مكانا داخله»³³. وهذا التشكل المستمر والمتجدد هو الذي يمكن من احتواء التوترات، إذ يشكل تعايش المتناقضات إحدى السمات المميزة للمجتمع المركب، حيث «تتصارع نماذج تنظيمات اجتماعية عديدة، مكتملة في حد ذاتها. فلسنا بصدد مجتمع معين، بل أمام مظاهر جزئية تنتمي إلى مجتمعات عديدة تتعايش أحيانا في نفس اللحظة وفي نفس المكان. وهكذا ينتمي فرد معين إلى عدّة مجتمعات، تبعا لسلوكاته المختلفة»³⁴.

2.2. المجتمع المغربي بوصفه مجتمعا مركبا

إن المجتمع المركب كتوصيف لبنية اجتماعية وكأطروحة مفسرة لطبيعة التشكيلة الاجتماعية المغربية ليس توصيفا لبنية اجتماعية ساكنة أو راکدة بل إنه توصيف لدينامية اجتماعية قوامها «تعايش أنماط إنتاج مختلفة ضمن نفس المجتمع، وهو ليس تعايشا محايدا أو هادئا»³⁵. ينسحب هذا الأمر على المجتمع المغربي ككل وعلى مجتمعات محلية، كمجتمع الحوز، الذي

³¹ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », *op. cit.*, p. 206-207.

³² *Ibid.*, p. 207.

³³ Paul Pascon, « La nature composite de la société marocaine », *op. cit.*, p. 19.

³⁴ *Ibid.*, p. 18.

³⁵ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, *op. cit.*, p. 587.

تجاه كل تصنيف، وبالنظر إلى مواقفه النقدية تجاه معظم النظريات والمقاربات الإثنوغرافية والسوسيولوجية التي اشتغلت على قضايا التغير الاجتماعي بالمغرب؛ بل إن مفهوم المجتمع المركب الذي يتبناه باسكون يرفض كل إحالة على نظرية أو مقارنة بعينها.

يبدو المجتمع المركب، لأول وهلة، كمقابل للمجتمع النموذجي أو المجتمع المتجانس الذي لا وجود له بشكل فعلي وواقعي، في رأي باسكون، بل هو نتاج «نظرة تاريخية خطية للتاريخ ولتعاقب المجتمعات في الزمن، والتي تقوم على فكرة الحلول التام لتشكيلات اجتماعية محل أخرى، بفعل تحولات تتفاوت درجات حدتها، أو إصلاحات أو ثورات، ذات مصدر داخلي أو خارجي»²⁸. إن ما يعتبر مجتمعات تاريخية وواقعية هي، في الواقع، مجتمعات غير منسجمة وغير متجانسة ومركبة، تخترقها تناقضات يرتد بعضها إلى منطقتها الداخلي ويعود بعضها إلى التأثير الخارجي، ويتعلق بعضها الآخر بثوابت تاريخية في علاقاتها المتداخلة مع أنماط أخرى من التشكيلات الاجتماعية، وبالتالي فلا وجود لأنماط مثالية يمكن خلعها على مجتمعات معينة خارج التاريخ والبيئة. إذ أن غط المجتمع الخالص أو المجتمع النموذجي غير ملائم حتى بالنسبة للمجتمعات التي يبدو أنها نشأت من فراغ كمجتمع شمال أمريكا، أو المجتمعات التي بقيت مغلقة على نفسها لمدة طويلة كمجتمعات العرب الرحل أو المجتمعات الصحراوية أو العشائر الجبلية²⁹. إن جميع المجتمعات، هي في الواقع، مجتمعات مركبة، وما يميز بعضها عن بعض هو «أشكال التنافس والمقاومة والهيمنة النوعية لنمط من أنماط الإنتاج المكونة والمميزة لها، والتي تشبك بطريقة أو أخرى، على مستوى إحدى أجهزة التشكيل الاجتماعية»³⁰. وبالتالي فدلالة التركيب، كسمة وكخاصية وكواقع اجتماعي، تبقى مفتوحة على أبعاد متعددة وعلى تجارب مجتمعية متنوعة. وإن كان الدال قابلا للتعميم، فالأمر ليس كذلك بالنسبة للمدلول. فنحن لسنا أمام مدلول جامد ومسكوك figé، بل إنه مدلول مفتوح وسياقي ووضعياتي، مدلول يقبل التحديد بصيغة التنكير عوض صيغة التعريف، إنه بتعبير آخر، جمع بصيغة المفرد. فلما يعتبر باسكون المجتمع المغربي مجتمعا مركبا فهو يحدده بشكل لا يقبل التطبيق الميكانيكي، بنفس المضامين والمحددات السوسيولوجية على مجتمع آخر قد يحمل نفس الوصف. صحيح أن معالم المجتمع المركب تبدو أكثر وضوحا في بلدان عرفت ما يمكن اعتباره بمعنى ما «تطورا معاقا»، بفعل عاملي الاستعمار والتبعية، و«يمكن إطلاقه [كمفهوم] على بعض بلدان منتمة للعالم الثالث، شبيهة بالمغرب، حيث نموذج الإنتاج السائد والديناميكي والأكثر قدرة على

²⁸ Paul Pascon, « La formation de la société marocaine », dans *Études rurales. Idées et enquêtes sur la campagne marocaine*. SMER, 1980[1971], p. 200.

²⁹ *Ibid.*, p. 202.

³⁰ Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, CURS, CNRS, Rabat, INAV, t. 2, 1983, p. 598.

إلى تشريح مكونات وعناصر بنية اجتماعية مزيجية تشكلت عبر عقود بفعل عوامل عديدة، على رأسها التدخل الأجنبي الذي أحدث تغيرات بنيوية مست التركيبة الديموغرافية والاقتصادية والعمرانية و ترتبت عنها ردود أفعال ومقاومات ثقافية. وفي إطار حديثه عن مسار تطور المدينة من أنفا إلى البيضاء يتطرق أندري آدم إلى العديد من التحولات التي نتجت عن الانتقال من مدينة «كانت تضم في البداية مجتمعا مسلما صغيرا، نصف حضري ونصف قروي، حيث يوجد الملاح وبعض التجار الأجانب»²³ إلى مدينة ميتروبولية تمت وتطورت بفعل الاستعمار. فما فتى عدد الساكنة الأوروبية يتزايد حتى نهاية الحماية، وما انفك تصاعد تيار الهجرة الداخلية، القروية في الغالب، يتزايد بفضل استنبات صناعة واقتصاد حديثين²⁴؛ وقد ترتب عن هذه الظاهرة انسلاخ العلاقات الاجتماعية عن عمقها القبلي *détribalisation*. وبالموازاة أفرزت هذه التحولات بنية اجتماعية فسيفسائية وهوية حضرية مزيجية تتداخل فيها الأبعاد المحلية والوطنية، ويمتزج فيها الشعور بالانتماء إلى المدينة بالشعور بالانتماء إلى الوطن²⁵. وبمقدار اتساع هوامش التزايد الديموغرافي والتوسع العمراني والتطور الاقتصادي ازدادت ثنائيات الحياة الاجتماعية. ولم يضع الاستقلال حدا لهذه الثنائيات التي اخترقت النسيج الاجتماعي برمته. فعلاوة عن ثنائية السكن، على المستوى العمراني والهندسي وعلى مستوى التنظيم المجالي، والتي تكشف عن مختلف مظاهر التمييز والعزل، تعمقت حدة الثنائيتين الاقتصادية والثقافية اللتين أصبحتا «تخترقان جميع أشكال التنضيد الاجتماعي مضيفة تقسيمات أخرى [...] لتحداث داخل نفس الطبقات الاجتماعية شروخا أعمق أحيانا من تلك التي تفصل الطبقات نفسها، تبعا للمعايير الكلاسيكية»²⁶. وجدير بالذكر أن أندري آدم يعتبر المجتمع المركب مجتمعا في طور الانتقال، لما يثير صعوبة تطبيق مفهوم الطبقات الاجتماعية -الذي خضع للدراسة وبني على أساس ملاحظة المجتمعات الأوروبية - على مجتمع مسلم وعربي ومغربي، أي على مجتمع تقليدي في طور الانتقال²⁷.

2. المجتمع المركب لدى بول باسكون

1.2. دلالات التركيب

يصعب علينا إقحام أو تصنيف المنظور الباسكوني ضمن نظرية أو مقارنة سوسيولوجية أو أنثروبولوجية مثلما فعلنا مع المنظورات سالفه الذكر، بالنظر إلى الحساسية التي يبديها باسكون

²³ André Adam, *op. cit.*, p. 765.

²⁴ *Ibid.*

²⁵ *Ibid.*, p. 548.

²⁶ *Ibid.*, p. 766.

²⁷ *Ibid.*, p. 705.

المجتمع المزيج والوطن، وإبداراجه لسوريا وفلسطين ضمن المجتمعات غير المتجانسة اعتبر أنهما «في حاجة للمزيد من الوقت ليشكلتا وطنين»¹⁹.

4.1. المنظور البنيوي الوظيفي: رادكليف براون Radcliffe-Brown

استعمل رادكليف براون مفهوم المجتمع المركب في سياق حديثه عن التحولات التي عرفها اتحاد جنوب أفريقيا بفعل التدخل الاستعماري؛ مبرزاً معالم التغيرات التي طرأت على الشعوب الأفريقية، التي ليس لها عهد بالكتابة *sans écriture*، على مستوى تركيبها الديمغرافية وبنيتها الاجتماعية التي فقدت مقومات وعناصر التجانس والخصوصية بعدما انضافت إليها ساكنة من أصول أوروبية (موظفون حكوميون ومبشرون وتجار ومستوطنون في بعض الحالات)²⁰. لقد أفرزت هذه التحولات - التي لعب فيها العامل الخارجي دوراً محورياً - وضعاً جديداً ومغايراً انعكس على وثيرة التطور الطبيعي للحياة الاجتماعية للسكانة الأصلية، إذ «لم تعد الحياة الاجتماعية، كما كانت في السابق، سيروية بسيطة خاضعة للعلاقات والتفاعلات القائمة بين الأهالي. لقد تطورت بنية سياسية واقتصادية جديدة يمارس داخلها الأوروبيون، رغم عددهم القليل، نفوذاً مهماً»²¹. وقد انعكس الطابع الفسيفسائي الديموغرافي والاجتماعي على مستوى نوعية وتراكم وتفاعل الإنتاجات الثقافية، حيث أصبح «الأوروبيون والأفارقة يشكلون طبقات مختلفة داخل البنية الجديدة، بلغات وعادات وأماط عيش مختلفة وأنظمة أفكار وقيم مغايرة»²². ويذهب براون إلى أن معنى «المجتمع المركب» ينطبق على مثل هذه المجتمعات؛ التي يشار إليها أيضاً بعبارة المجتمعات «المتعددة» *plurales*. وكمثال على ذلك يسوق تجربة اتحاد جنوب أفريقيا الذي يتميز ببنية سياسية واقتصادية فريدة وتركيبية ديموغرافية فسيفسائية على المستوى العرقي والديني واللغوي.

5.1. المنظور السوسيوأنثروبولوجي: أندري آدم André Adam

في السياق المغربي سبق لأندري آدم أن استعمل مفهوم «المجتمع المركب» عند تحليل طبيعة ووثائر وإيقاعات وعمق التغير الاجتماعي الذي عرفته الدار البيضاء والمجتمع البيضاوي، بعد دخول المغرب مرحلة الحماية الفرنسية حتى الستينيات. فوفق منظور جنياالوجي سعى آدم

¹⁹ *Ibid.*

²⁰ Alfred Reginald Radcliffe-Brown, *Structure et fonction dans la société primitive*, Trad. de l'anglais, Françoise et Louis Martin, présentation et notes de Louis Martin, Paris, éd. de Minuit, 1968, [éd. Anglaise, 1952], p. 288.

²¹ *Ibid.*

²² *Ibid.*

- «مجتمعات متعددة القسّمات بسيطة التركيب» والتي تشكّلت نتيجة تجميع مجتمعات من الصنف السابق.

- وفي مرتبة أعلى نجد «مجتمعات متعددة القسّمات مضاعفة التركيب» والتي «تنتج عن تراكب أو انصهار مجتمعات متعددة القسّمات بسيطة التعقيد»¹³.

إن التصنيف أعلاه، حسب دوركايم، ليس تصنيفاً جامعاً لكل ما اعتبره «مجتمعات سفلى»، فالمسألة ليست بهذه البساطة التي اقتضتها ضرورة التوضيح. وهو تصنيف يقوم على افتراض مفاده «أن كل نمط مجتمعي أعلى يتشكل عن طريق تكرار مجتمعات من نفس النمط، أي من نمط أدنى بصفة مباشرة»¹⁴.

3.1. المنظور الإثنولوجي: مارسيل موس Marcel Mauss

ورد تعريف المجتمع المركب لدى مارسيل موس بصدد حديثه عن الأنظمة القانونية ومصادر وتشكيلات التشريعات والقوانين في المجتمعات الغربية، مقارنة مع بعض المجتمعات القبلية القديمة وبعض المجتمعات الإفريقية التي يحضر فيها العرف بجانب القانون «حضوراً يشكل تحدياً كبيراً أمام كل محاولة لعزل قوانين خالصة نسبياً؛ لأننا بصفة عامة، بصدد مجتمعات مركبة [مزيجية]، حيث يكتسي تقسيم المجتمع هذا الشكل لدرجة أن بعض الأجزاء توجد في استقلال عن بعضها البعض»¹⁵. كما ورد في سياق حديثه عن بعض خصوصيات المجتمعات الإفريقية المختلطة، حيث ساق موس نماذج «مجتمعات مختلطة mixtes» تشكل من الغالا وتشادي النيل، وأخرى مختلطة أيضاً تتكون من تشادي النيل والبانطوس، معتبراً أن هاتين المجموعتين هما خير تعبير عن نمط تنظيم اجتماعي يصنف ضمن مجتمعات مركبة، والتي تكون عادة من عدة أجناس أو مجموعات اجتماعية يرتبط بعضها ببعض»¹⁶. ومن ضمن خصائص المجتمع المركب أنه يتسم دائماً بوجود عنصر أو اثنين في وضع دولي مطابق لوضع «الأقليات القومية»¹⁷، علاوة على أنه مجتمع غير محدد الشكل، وهو ما أكدّه في سياق حديثه عن طبيعة التشريعات القانونية السائدة في المجتمعات السابقة على الإغريق وروما¹⁸. ويميز موس بين

¹³ Ibid.

¹⁴ Ibid.

¹⁵ Marcel Mauss, *Manuel d'ethnographie*, Paris, Payot, 1989[1926], p. 141.

¹⁶ Marcel Mauss, *Œuvres 2, Représentations collectives et diversité des civilisations*, Paris, Minuit, coll. « Le sens commun », 1969, p. 533.

¹⁷ Marcel Mauss, *Manuel d'ethnographie, op.cit.*, p. 141-142.

¹⁸ Ibid., p. 582.

المضاعفة التركيب، والتي تعتبر حصيلة تجميع جماعات مركبة يرقى بها إلى مستوى الاستقرار التام وإلى درجة أعلى على مستوى التنظيم السياسي للسلطة وتقسيم العمل... وأخيراً، هناك المجتمعات المضاعفة التركيب ثلاثياً، أي «الأمم المتحدة الكبرى» والتي يمكن تصنيفها تبعاً لدرجة استقرار حكوماتها، أي أن استقرارها السياسي يتحدد بالمعنى الذي «تبقى فيه المراكز العليا والتجمعات الكبرى هي نفسها»⁹.

يضرب سبنسر لكل صنف من الأصناف، سائلة الذكر، أمثلة تحيل على قبائل وشعوب ومجتمعات لا يسع المجال لعرضها. وتتحدد خصائص وأنماط المجتمعات المركبة لديه في ضوء مقارنات تستحضر تجارب متعددة وأزمنة ومجالات متنوعة وفق منظور تطوري عام يستلهم عناصره من البيولوجيا التطورية؛ منظور لا يعدم مفاضلة، حيث يشكل المجتمع الحديث، الذي يجسد في نظره أعلى درجات التطور والتعقيد من حيث لا تجانس وتباين وظائف أعضائه ومكوناته، النموذج الأرقى الذي توج مساراً تاريخياً طويلاً قطعتة البشرية.

2.1. المنظور الانقسامي: إميل دوركايم Émile Durkheim

ورد تحديد مفهوم المجتمع المركب لدى دوركايم في سياق رده على سبنسر واعتراضه على صنفاته الأنفة الذكر، حيث وجه سهام نقده نحو المدلول الذي خلعه سبنسر على صفة البساطة، معيياً عليه تعميمها على كل المجتمعات المصنفة في خانة الأقل تحضراً وجمعه في سلة واحدة أنماط مجتمعات متباينة¹⁰. مقابل ذلك ميز دوركايم بين أنماط عديدة من المجتمعات المتميزة من حيث درجات البساطة والتعقيد:

- مجتمعات بسيطة، ويتعلق الأمر بنمط «لا يشمل مجتمعات أخرى، أبسط منه، ولا يختزل وضعه القائم في قسمة فحسب، بل إنه خلو من كل أثر لتجزئ سابق». ويستجيب لهذا التعريف، حسب دوركايم، مفهوم الحشد horde أو «مجتمع القسمة الوحيدة»¹¹؛

- مجتمعات «بسيطة متعددة القسمات»، وهي عبارة عن مجاميع تشكلت نتيجة «مضاعفة أعداد الحشود أو العشائر - دون أن يعني هذا ارتباطها بعلاقات - بالشكل الذي يتيح لها تكوين جماعات تتوسط مجموع الجماعة الذي يحتويها في مجملها ويضم كل واحدة منها. فهي مجاميع متراكبة كما هو شأن أفراد الحشد»¹².

⁹ Ibid., p. 143.

¹⁰ Émile Durkheim, *Les règles de la méthode sociologique*, Paris, Félix Alcan, 1895, p. 101.

¹¹ Ibid., p. 103-104.

¹² Ibid., p. 104.

المجتمع المغربي؟ أين تكمن خصوصية وأصالة الدلالات التي خلعتها عليه وماهي إضافاتها المعرفية والمنهجية؟ ما حدود الإبداع والاتباع في بنائه كمفهوم وكأطروحة؟ بتعبير آخر، يهمننا التعرف على سمات المجتمع المركب ومظاهره وتجلياته - من منظور بول باسكون- وإبراز مدى أهميته في تحليل التشكيلة الاجتماعية المغربية؛ والكشف عن مرجعياته وخلفياته والوقوف على تطبيقاته في السياق المغربي. ولعل الأهم من كل ذلك هو إثارة النقاش حول مسألتي صلاحية وراهنية المجتمع المركب -بوصفه مفهوماً وأطروحةً وباراديغماً- في سياق التحولات التي يعرفها مغرب اليوم. ولإبراز عناصر أصالة وإجرائية وصلاحية التحديد الباسكوني للمفهوم سنسلط الضوء، في البداية، على مختلف المدلولات التي اكتسها في أعمال سوسيولوجية وأثنوبولوجية أخرى.

1. لمحة تاريخية عن استعمال مفهوم المجتمع المركب

1.1. المنظور التطوري: هربرت سبنسر Herbert Spencer

قادنا «الحفر الأركيولوجي»، بحثاً عن بدايات استعمال المفهوم، إلى سبنسر وتحديداً إلى تصنيفه للأشكال الاجتماعية وللدساتير الذي خصص له الفصل السادس من مؤلفه *Principes de sociologie*⁵؛ حيث بسط دلالاته وفق منظور تطوري متدرج يصف المجتمعات تبعاً لدرجات تعقيدها، من المستوى الأبسط إلى المستوى الأعقد ثم الأعلى درجة في التركيب. تبعاً لذلك، يرجع سبنسر بداية سيرورة التطور الاجتماعي إلى تشكل مجاميع صغيرة بسيطة، يعرف بعضها تطوراً عن طريق اتحادها مع أخرى ضمن مجاميع كبيرة، والتي تتحد بدورها مع أخرى شبيهة، بمجرد أن يشتد عودها، لتشكل مجاميع أكبر⁶. وبناء عليه يميز سبنسر بين أربعة مستويات في مسار تطور المجتمعات⁷، يتضمن كل واحد منها أصنافاً تختلف فيما بينها من حيث درجات البساطة، ومن حيث طبيعة الزعامة والسلطة ودرجات استقرارهما. يتعلق الأمر بالمجتمعات البسيطة، التي يعتبرها سبنسر مجتمعات غير متحضرة؛ ثم المجتمعات المركبة، التي يجسد الانتقال إليها حالة تبعية، متفاوتة الدرجات، والتي يخضع بموجبها زعماء المجموعات البسيطة لسلطة زعيم أكبر ويرتبط فيها مستوى استقرار السلطة العليا المركبة «بدرجة انتقال المجتمع من حالة التجوال البدائي إلى حالة الاستقرار الكلي»⁸. وفي المستوى الثالث يدرج سبنسر المجتمعات

⁵ Herbert Spencer, *Principes de sociologie*, trad. de l'anglais, MM. E. Gazelles, J. Gerschel, Paris, Librairie Germer Baillière et Cie, T. 2, 1879.

⁶ *Ibid.*, p. 135.

⁷ *Ibid.*, p. 137-143.

⁸ *Ibid.*, p. 137.

المجتمع المركب الذي استعمل ضمن إسهامات تنظرية متعددة تحيل على مراحل تاريخية مختلفة وعلى سياقات اجتماعية وثقافية متباينة.

يشكل المجتمع المركب، منظورا إليه كمفهوم وكأطروحة، العمود الفقري في المشروع السوسيولوجي الباسكوني وحجر الزاوية في بنائه الفكري. وقد استعمله باسكون لأول مرة سنة 1967 في مقاله الذي يحمل عنوان: *La nature composite de la société marocaine*¹، ليصبح حاضرا بقوة، بشكل صريح أو ضمني، في جل- إن لم نقل في كل- كتاباته وموجها لتحليلاته السوسيولوجية والأنثروبولوجية على مدى ثلاثة عقود. وقبل الخوض في بسط مضمونه واستعراض خصائصه وأبعاده ومظاهره وتجلياته، تجدر الإشارة، بداية، إلى أنه لا يمكن الجزم والمجازفة باعتبار هذا المفهوم إبداعا أو «ابتكارا» باسكونيا، كما ذهب إلى ذلك نجيب بودربالة²، ولو أنه يبقى بإمكاننا، من حيث السبق الزمني³، ترجيح أسبقية استعمال المفهوم- في السياق المغربي- لدى باسكون على استعماله لدى أندري آدم، الذي أورده في دراسته حول الدار البيضاء⁴ المنشورة سنة 1968، أي سنة عقب صدور مقال بول باسكون الأنف ذكره.

وبعيدا عن الجدل حول مسألة الأسبقية، نعتقد أنه من الأهمية بما كان - طرح التساؤل التالي: ما الجديد الذي حمله مفهوم المجتمع المركب لدى باسكون على مستوى فهم وتحليل بنيات

¹ Paul Pascon, « La nature composite de la société marocaine », *Lamalif*, n°17, décembre 1967.

² Najib Bouderbala a bien dit : « dans les années 70, Paul Pascon avait créé le concept de la société composite », « Souvenir de Paul », dans N. Akasbi, D. Benatya, L. Zagdouni, A. Zougari, (dir), *Devenir de la société rurale, développement économique et mobilisation sociale*, IAV Hassan II , Rabat, 2007, p.21, colloque organisé en décembre 2005 à Rabat, l'Institut Agronomique et Vétérinaire Hassan II, en hommage à Paul Pascon.

³ بخصوص هذه المسألة تذهب رحمة بورقية إلى أن استعمال باسكون لمفهوم المجتمع المركب كان لاحقا على استعمال أندري آدم له: Bourqia Rahma, « Les valeurs: Changements et perspectives », dans : *50 ans de Développement humain. Perspectives 2025, Rapports Thématiques*, 2005, p.72 : www.rdh50.ma/fr/pdf/contributions/GT2-3.pdf . بالمقابل ، يشير الهامش الأول من مقال:

Paul Pascon et Nagib Bouderbala, « Le droit et le fait dans la société composite. Essai d'introduction au système juridique marocain », dans Paul Pascon, *Études rurales, idées et enquêtes sur la campagne marocaine*, Rabat, SMER, 1980 [1972], p.213, إلى أن المفهوم آنف، المذكور قد تم تطويره على يد أحد كاتبه هذا المقال، والذي ليس سوى بول باسكون، بما أن الإحالة تشير إلى مقاله « La nature composite de la société marocaine », *op. cit.*

⁴ André Adam, *Casablanca. Essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'Occident*, Paris, éd. Centre National de la Recherche Scientifique, seconde édition, 1968.

مفهوم المجتمع المركب لدى بول باسكون أسئلة الأصالة والإجرائية والصلاحية والراهنية

محمد ياقين

جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب

ملخص: نروم من خلال هذا المقال إثارة النقاش حول إرث علمي للسوسيولوجي البارز والباحث الملتزم بول باسكون الذي وسم مسار سوسيولوجيا المغرب بميسم خاص. وسيتم تركيز الاهتمام على مفهوم/ أطروحة المجتمع المركب للكشف عن إسهامهما في تحليل التشكيلة الاجتماعية المغربية ودراسة ديناميات وسيرورات تطورها، وما يرتبط بها من ظواهر وبنيات ومؤسسات أفرزتها سياقات اجتماعية وتاريخية وثقافية خاصة.

كلمات مفاتيح: المجتمع المركب؛ المجتمع المغربي؛ التشكيلة الاجتماعية؛ الخصوصية؛ القادية المخزنية

Résumé: Le but de cet article consiste à susciter un débat autour de l'héritage d'un sociologue éminent et un chercheur engagé; il s'agit de Paul Pascon. Pour ce faire, nous allons mettre l'accent sur la société composite en tant que concept et thèse, et révéler par ce fait leur contribution à l'analyse de la formation sociale marocaine, ainsi que l'étude de sa structure et la dynamique des processus de son évolution.

Mots-clés : société composite; société marocaine; formation sociale; particularité; caïdalisme makhzenien

تهديد

وضع العديد من السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين تصنيفات للمجتمعات بغاية إبراز مقوماتها وخصائصها وخصوصياتها وآليات اشتغالها في سياقات تاريخية واجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية معينة. يمكن الوقوف ابتداء عند التصنيفات الكلاسيكية الشائعة (مجتمعات تقليدية/ مجتمعات حديثة، مجتمعات صناعية/ مجتمعات ما قبل صناعية، مجتمعات باردة/ مجتمعات ساخنة...)، مروراً بتصنيفات من قبيل: مجتمعات ما بعد صناعية، مجتمعات مبرمجة، مجتمعات الاستهلاك الجماهيري... وانتهاءً بالتصنيفات المعاصرة المواكبة لموجة العولمة وللثورة التكنولوجية الثالثة (مجتمعات المخاطرة، مجتمعات المعرفة، مجتمعات الحداثة المفرطة، المجتمعات المنسبكة...). وفي ثنايا هذه التصنيفات نعثر لدى الكثيرين - من بينهم بول باسكون - على مفهوم

مراجع

- تقرير المعرفة العربي، نحو تواصل معرفي منتج، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم. 2009.
- تقرير التنمية الإنسانية العربية، نحو إقامة مجتمع المعرفة، 2003.
- جعيط، هشام، أزمة الثقافة الإسلامية، بيروت، دار الطليعة، 2009.
- شوشة فاروق، جمال العربية، س. الكتاب العربي، ع. 52، 2003.
- كمال، عبد اللطيف، أسئلة الحداثة في الفكر العربي، من إدراك الفارق إلى وعي الذات، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009.
- كمال، عبد اللطيف، العرب في مواجهة حرب الصور، دمشق، دار الحوار، 2007.
- كمال، عبد اللطيف، أسئلة النهضة العربية، التاريخ، الحداثة، التواصل، بيروت، م.د.و.ع، 2003.
- كمال، عبد اللطيف، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 1992.
- كمال، عبد اللطيف، التأويل والمفارقة، نحو تأصيل فلسفي في النظر السياسي العربي، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1987.
- نبيل، علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، س. عالم المعرفة، ع. 370، 2009.
- البيحاوي، يحيى، كونية الاتصال، عوامة الثقافة شبكات الارتباط والممانعة، منشورات عكاظ، الرباط، 2004.
- يقتين، سعيد، «اللغة العربية ومجتمع المعرفة»، ورقة خلفية أعدت لتقرير المعرفة العربي، 2009، (مرقونة).
- يقتين، سعيد، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية، بيروت، م. الثقافي العربي، 2005.

UNESCO, *Vers les sociétés du savoir*, Paris, Éditions UNESCO, 2005.

إن سجلات الثورة المتواصلة في موضوع تقنية المعلومات وما يرتبط بها، دفعنا إلى طرح سؤال الإصلاح اللغوي، وهو سؤال يتصل بالسياسة اللغوية في مجتمعاتنا، إضافة إلى أنه سؤال تتقاطع فيه اهتمامات متعددة ذات صلة بالتربية والمجتمع والتراث والتواصل.

لقد توقفنا في المحور الأول من هذه الورقة أمام مظاهر عديدة من أعطاب لغتنا، كما حاولنا في إشارات مختصرة تشخيص جوانب من عجزها أمام طفرة المعلومات وتقنياتها، مما له صلة بالتواصل، وما أصبح يطلق عليه مجتمع المعرفة.

ترتب عن نتائج التحليل المستوعبة في أولياتنا وفي المحور الأول، ضرورة الإصلاح الشامل لنسقنا اللغوي. وقد بينا أن هذه المسألة تتطلب إرادة سياسية واضحة، كما تقضي بلزوم الاستعانة بالخبراء من ذوي الاختصاص.

أما المحور الثاني، فقد أبرزنا فيه أهمية المرونة اللغوية، وذلك لأن الأنساق اللغوية المحافظة لا تستوعب الطابع الرمزي والمختزل للغات المعاصرة الموصولة بالتقنيات الجديدة وصناعاتها.

زاوجنا في المحورين بين التشخيص وتعيين أفق التحديث اللغوي، ورغم وعينا بصعوبة بلوغ مرمى الإصلاح المطلوب، بحكم هيمنة نظرة لا تاريخية للغة العربية في فضائنا الثقافي، وهي نظرة يعرف الجميع، أنها موصولة بقضايا تتجاوز اللغة، إلا أننا وضحنا خطورة المأزق الحاصل وضرورة تجاوزه.

نتوخى من وراء حديثنا عن عربية مرنة، بناء لغة قادرة على امتلاك فنون جديدة، تعيد لنسقنا اللغوي قدرته على الحياة، في عالم جديد.

لقد اكتفينا بالمرونة باعتبارها أفقاً يرسم أمام العربية إمكانية مغالبة صور تكلسها وهامشيتها أمام الانقلابات المتواصلة في مجالات المعرفة وتقنياتها.

تتقاطع في الأسباب المفسرة لقصور لغتنا معطيات التاريخ بالمعرفة بالسياسة اللغوية وبالتقدم التقني. ورغم تداخل هذه العوامل، فإنها تمنحنا معاينة مركبة لمختلف العوامل الصانعة لأزمة الوضع اللساني العربي في مجتمعاتنا. كما أن الفاعل اللغوي لم يستطع نقل الأزمة إلى أفق قادر على تخطي مختلف الجوانب السلبية التي رُكِّبت في واقعنا اللغوي، وذلك لعدم قدرته وقدره مؤسساته المعنية بالموضوع على وضع البرامج والخطط المسنودة بالخيارات السياسية اللازمة لإصلاح اللسان، وردم الفجوة المعرفية القائمة.

إن ربط اللغة العربية بمجتمع المعرفة، وذلك بإصلاح نسقها الوظيفي يعزز مكانتها، ويتيح لها إمكانية تطوير وسائلها ورموزها وأنظمتها²⁹، وتاريخ تشكل اللغة العربية ينبئ بتوفرها على إمكانات كامنة، ينبغي إطلاقها بهدف اختراق الحواجز وكسر العوائق، التي عملت على تنميط اللغة في قواعد مطلقة. وهذان الأمران، الإمكانات الذاتية للغة، وممكنات مجتمع المعرفة يمنحان اللغة العربية إمكانية تجاوز حالة الركود التي تهيمن عليها، وهما معا في حاجة كما بنا، إلى إرادة تجمع بين بناء خيار واضح في الموضوع، وهذا شأن سياسي. وخيار تقني يوكل لأهل الاختصاص، قصد تركيب الروافع والقواعد الجديدة المرسومة وفق حاجيات عصرنا. إن فرص التجاوز ممكنة، شريطة الاهتمام بمتطلبات الراهن وأسئلة التحول التي بناها مجتمع المعرفة³⁰.

خلاصات

ركبنا في هذه الورقة تصورنا لجوانب من قصورنا اللغوي، أمام التحديات المعرفية الكبرى الحاصلة بفعل التطور الكبير في مجال تقنية المعلومات، وما ولّده من تضخم معلوماتي واقتصادات معرفية. إضافة إلى العوامل الافتراضية التي تساهم اليوم في تغيير تصورنا عن الأمكنة والأزمنة والمعارف والقيم.

²⁹ نقرأ في تقرير المعرفة العربي 2009 ما يلي: «ولا بد للارتقاء بالمحتوى المعرفي الرقمي العربي، من سياسات وطنية وإقليمية مواتية تستهدف التواصل والتفاعل الخلاق مع ثقافات ومعارف العالم، والإسهام فيها بروح نقدية تؤكد على ثوابت الهوية والثقافة العربية وقدرتها على تمثيل وتوطيد واستنبات المعرفة، بل قدرتها على إبداع المعرفة». الفصل 4، ص. 156.

³⁰ «وليس من المغالاة القول بأن مستقبل اللغة العربية يتوقف على مدى استخدامها ضمن شبكات المعلومات العالمية، ويتطلب جهوداً كبيرة على المستوى التقني لاكتساب جملة من القدرات الضرورية للتعامل مع اللغة ذاتها. كما يتطلب وضع أهداف طموحة على الصعيد الوطني بحيث تستخدم المؤسسات في الدول العربية، من وزارات وجامعات ومدارس وهيئات للمجتمع المدني، اللغة العربية في معاملاتها، وتصبح لغةً لتداول وإنتاج المعارف بشتى فروعها، مثلما كانت - في عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية - لغةً لإنتاج المعارف بشتى أمطاطها»، تقرير المعرفة العربي 2009، الفصل 4، ص. 135.

وإذا كنا نؤمن بالدور البالغ الأهمية الذي تمارسه اللغة في مجتمع المعرفة وفي مجال التواصل، ونؤمن بدورها في مستوى إنتاج الرموز وتداولها داخل المجتمع، أدركنا القيمة الكبرى التي تتمتع بها اللغة، والانتكاسة الكبرى التي تترتب عن لغة فقدت إمكانية تطوير أدواتها، وانزوت مكتفية باستعادة مفردات، يزداد فقرها أمام الغنى الكبير، الذي تتيحه المفردات المعبرة اليوم عن فنون الإبداع وطموحات التقنية اللامتناهية، في عالم سَمَّته الأساس التغيير..

تضمنت الفقرات السابقة إشارات دالة على كثير من نواحي القصور الحاصل في اللغة العربية²⁶، كما بلورت توجهات في باب الإصلاح. ويمكننا أن نؤكد التدني الكبير في الكفاءة اللغوية (كفاءة التحرير والتعبير والتواصل) لدى متمرسينا وجامعيينا، وذلك بالاستناد إلى ما كشفت عنه البحوث والتقارير الجديدة المنجزة في هذا المجال بكثير من الوضوح والقوة²⁷.

ويمكننا أن نفسر العلل والأعطاب العديدة، التي ما تزال تهيمن على بنية اللغة العربية بجملة من العوامل أبرزها:

- انعدام سياسة لغوية في مختلف البلدان العربية، وفيما بينها.
- ضмор سلطات المجامع اللغوية، وضعف التنسيق فيما بينها.
- تعثر عمليات التعريب والقصور القائم في مجال الترجمة.
- جمود التنظير والتقييد اللغوي، والاستكانة إلى جهود الأقدمين في هذا الباب.
- عدم الاهتمام بالأسئلة الفلسفية، والمدارس الفلسفية المعاصرة ومنجزاتها في ميدان فلسفات اللغة، على وجه الخصوص، بحكم ما تتيحه هذه الفلسفات من إنعاش للتفكير في موضوع اللغة.
- عدم معالجة الآثار المترتبة عن ثنائية الفصحى والعامية.
- ضعف علاقاتنا بآليات مجتمع المعلومات وكذا ضعف النشر الإلكتروني.
- غياب رؤية استراتيجية واضحة للإصلاح اللغوي²⁸.

²⁶ نقرأ في تقرير المعرفة العربي 2009 «وعلى الرغم من النمو المتسارع للغة العربية على شبكة الإنترنت في السنوات القليلة الماضية، فإن تواجد لغة الضاد على شبكة الإنترنت ما يزال دون المستوى المتوقع بالنظر إلى تعداد الناطقين بالعربية. كما أن الجهد المبذول في بناء المحتوى الرقمي باللغة العربية يقتصر على مجالات محدودة، لا يتصل معظمها بواقع المجتمعات العربية والفرص والتحديات التي تجابهها، ولا يثري المعارف المتصلة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية من قريب أو بعيد»، الفصل 4، ص. 133-134.

²⁷ انظر على سبيل المثال، تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003، نحو إقامة مجتمع المعرفة، 2003، ص. 121-122.

²⁸ المرجع نفسه، ص. 123، وكذلك نبيل علي، نادبة حجازي، الفجوة الرقمية، رؤية عربية لمجتمع المعرفة، س. المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع. 318، غشت 2005.

مواصلة إصلاحنا السياسي²⁰، بحكم أنه يعد عامل تحفيز لبناء خيارات محددة في موضوع أدائنا اللغوي. ولن يتم ذلك بصورة مناسبة إلا بفضل عملية استيعاب عميقة لدروس الطفرة التكنولوجية الهائلة، وما ترتب عنها من تركيب للأدوات والبرامج الفاعلة في النظام اللغوي العالمي، في علاقته القوية اليوم بمكاسب ومشاريع مجتمع المعرفة²¹.

وقد وضع تقرير المعرفة الأول الصادر سنة 2009 في فصله الرابع المخصص لتقانات المعلومات والاتصالات في الدول العربية²²، أن إنتاج ونشر المحتوى المعرفي العربي بمواصفات العصر الرقمي تعترضه عقبات عديدة، وهي تزداد تنوعاً باتساع الفجوة اللغوية، نتبين ذلك عندما نروم النفاذ مثلاً إلى الأنترنت، بهدف بناء مواقع لنشر المحتوى الرقمي العربي، إن الأمر الذي يستدعي عمليات في تطوير وترويض عدد من التقنيات، لجعلها ملائمة لبنية اللغة العربية²³. كما أن البرمجيات اللازمة تتطلب كثيراً من التدقيق النحوي الآلي، من أجل منح اللغة العربية درجة من المرونة، تسمح لها بصرامة أكبر في موضوع تسلسل الكلمات في سياق الجمل. أما إعداد النصوص العربية للمعالجة الآلية، فإنه يتطلب، بناء على معطيات التقرير المذكور، القيام بتطوير برمجيات تسمح بالتحليل الصرفي، والتشكيل الإلقائي، وتحليل الإعراب الآلي²⁴.

إن استيعاب العربية لمستجدات ترميز قواعد ولوج عوالم التقنيات الجديدة في المعلومات والمعرفة، يمثل الطريق المناسب²⁵، والخطوة الأساس لتقليص حجم الفجوة اللغوية والمعرفية في العالم العربي. ولا يمكن ركوب درب هذا الطريق، عندما نكتفي بالنظر إلى لغتنا نظرة سكونية، أو نقوم بتضييقها وتحويل قواعدها في لحظة من سلم الضبط المعرفي التاريخي إلى قواعد مطلقة.

²⁰ كمال عبد اللطيف، العرب في مواجهة حرب الصور، دمشق، دار الحوار، 2007، ص. 17-22.

²¹ كمال عبد اللطيف، أسئلة النهضة العربية، التاريخ، الحداثة، التواصل، بيروت، م.د.و.ع، 2003، ص. 213-227.

²² يمكن الاطلاع على واقع استعمال تقنيات المعلومات في البلدان العربية في تقرير المعرفة العربي الأول، 2009، ص. 127.

²³ نقرأ في تقرير المعرفة العربي، 2009 ما يلي: «ارتفع عدد الصفحات التي تتضمن المحتوى العربي على الإنترنت، بما في ذلك الصفحات التي كتبت باللغتين العربية والإنجليزية، من 114 مليون صفحة عام 2005 إلى 189 مليون صفحة عام 2006 بينما بلغت الزيادة المقابلة في تعداد الصفحات التي وضعت بالإنجليزية خلال الفترة ذاتها 63 بالمائة ومن المتوقع أن يصل عدد الصفحات العربية عام 2012 إلى نحو 5.1 مليار صفحة، إذ يتوقع أن يرتفع معدل إنشاء الصفحات العربية إلى 80 بالمائة حتى العام 2010 و60 في المائة في السنوات التي تليها»، ص. 135.

²⁴ «وبعد نظام الإعراب الآلي للجمال العربية من المتطلبات الرئيسة للحاق اللغة العربية بالجيل الثاني من تطبيقات معالجة اللغات الإنسانية، التي تتضمن نظم الفهم الآلي وتحليل بنية السرد المستمر للغات. وتقوم بعض مؤسسات الأعمال العربية والأجنبية بأنشطة ملموسة في هذه المجالات، إلا أن وتيرة العمل والنتائج التي تم الوصول إليها ما زالت غير كافية». تقرير المعرفة العربي 2009، ص. 140.

²⁵ «مستقبل الثورة الرقمية، العرب، والتحدي القائم»، كتاب العرب (جماعي)، ع. 55 يناير، صفحات 42-61.

فكيف نمارس تأهيل نسقنا اللغوي، لمنحه المرونة الكافية للتعبير عن مخاضات المجتمع، ومشاريعه في الإبداع والمعرفة؟

نعتبر أن الخطوة الأولى في هذا الباب، تتعلق بما يمكن أن نطلق عليه التهيئة اللغوية، وهي تشمل مسألة مراجعة رصيدنا اللغوي في مختلف أبعاده ومستوياته ونظمه، كخطوة مكملية وضرورية في درب الإصلاح. كما تنطلق من مبدأ معاينة الواقع اللغوي الفعلي، في علاقاته المعقدة بمحيطه الاجتماعي والاقتصادي، وبمحيط المعرفة. إضافة إلى محيط التحولات الجارية في العالم، وخاصة في المجالات المرتبطة بالتواصل والعلم والتقنية.

إننا ننطلق هنا، من اعتبار أن اللغة تشكل عاملاً من العوامل المركزية في عملية الانخراط في الإبداع، وسط رصيد القيم والسجلات المعرفية التي ركبها اللغات الأكثر تقدماً في العالم. ويمكننا أن نشير في السياق نفسه، إلى أن تطوير النظام المعجمي والنحوي، وتيسير سبل الاستعمال بإصلاح مناهج التدريس، وكذا توحيد المصطلحات، وإقامة قواعد للمعطيات وبنوك للنصوص، وحفز الباحثين على الإنتاج المتطور، كل ذلك يعد من صميم الآلية المؤسسية المساعدة في عملية إصلاح اللغة العربية وتأهيلها¹⁹.

تزداد أهمية الخطوات المشار إليها في الفقرة السابقة باختزال في زمن تطور تقنيات التواصل، حيث يقتضي الأمر ليس فقط تنميتها وتطويرها، بل بناء لغات جديدة داخل اللغة، للتمكن من استيعاب مستجدات الترميز التي تصنع شبكات التواصل المنظم والسريع، بوسائط جديدة ورموز جديدة. وهنا الأمر الذي لا يمكن حصوله عندما ننظر إلى اللغة نظرة سكونية، أو نقوم بتصنيفها وتحويل قواعدها كما أشرنا، من لحظة في سلم الضبط المعرفي إلى قواعد مطلقة، رغم أننا نعرف أن هذه القواعد نشأت في الزمن الذي نشأت فيه، لم تكن كما وضعنا ونؤكد أكثر من قواعد مطابقةٍ لدرجات تطور المعرفة، وتطور أساليب التعقيد والتدوين في زمن حصولها.

ومن المؤكد اليوم، أن ضغوط العولمة المتمثلة في الإكراهات الناتجة بفعل الصراعات القائمة في المجال الدولي، تدعونا إلى إصلاح شامل، إصلاح ينطلق كما بينا من تشخيص دقيق لمظاهر أعطابنا، ويسمح لنا بإعادة النظر في نظامنا الاقتصادي وكفاءتنا التنافسية، كما تدعونا إلى

¹⁹ نقرأ لأحد الباحثين ما يلي «إن النحو العربي ظل تقليدياً، وكل المحاولات التجديدية ظلت مهنأى عن التفعيل والانتقال إلى الميدان لجعل النحو العربي متيسراً وقواعده بسيطة وواضحة. كما أن اللسانيات ظلت، وكأنها تدرس اللغة العربية في ضوء التيارات اللسانية الحديثة فقط من أجل إثبات صحة وأهمية هذا التيار أو ذاك». سعيد بقطين، اللغة العربية ومجتمع المعرفة، 2008، ورقة خلفية قدمت ضمن أعمال تقرير برنامج الأمم المتحدة 2009 (مرجع مذكور).

لغوية واضحة في مجال إصلاح الأداء اللغوي. ولن تسترد العربية مكانتها، إلا عندما تتبلور سياسة في الإصلاح اللغوي، تتيح لها ممارسة الأدوار التي يفترض أن تقوم بها في مختلف جوانب مجتمعنا، في الإدارة والاقتصاد، في التجارة والمقاولات، ومختلف مظاهر الحياة العصرية التي ننخرط فيه، ونصنع في قلبها شروط وجودنا في عالم متغير.

وتفرض رياح التعلّم الجارية منذ ثلاثة عقود على الأقل، تيارات قوية وعاصفة، تستدعي من بين ما تستدعيه إصلاح اللسان، بحكم أن غيابه يضاعف أزمة لغتنا، الأمر الذي ينعكس سلباً على مجتمعنا¹⁶. ففي واقعنا اللغوي خلل كبير، يتخذ مظاهر عدة في الأسرة والمدرسة والمعمل وفي وسائل الإعلام. وفي غياب المبادرات والبرامج المتواصلة من أجل إصلاح منظومتنا اللغوية، وأمام التحولات السريعة الجارية في مجالات المعرفة وتقنياتها، تزداد لغتنا كما وضحنا ونؤكد هشاشة وهامشيّة، وتُحاصرُ بأسئلة زائفة وقضايا مفتعلة وعارضة. ولعلنا نمارس في لحظات مواجهتنا لكل ما سبق، سياسات تروم تحقيق هدنة لغوية وسلام مؤقت، لتظل النار مشتعلة تحت الرماد، تتحرّج فرص العودة الصانعة لمعارك تُهدّر فيها كثير من الطاقات والأدوات، وذلك على حساب الأسئلة العميقة، والبرامج الإصلاحية الشاملة والبعيدة المدى، وهي في الأغلب الأعم، أسئلة مسكوت عنها، تحت ضغط إشكالات تتجاوز اللغة¹⁷.

2. نحو لغة عربية مرنة، أفق في التأهيل اللغوي

إن مشاكل اللغة كما نتصور لا تقبل الارتجال ولا الاستعجال، إنها تقتضي أولاً وقبل كل شيء، بناء خيارات معرفية بمعايير الاجتهاد والإبداع، لينتقل بعد ذلك إلى مرحلة بناء المؤسسات وبلورة البرامج، ثم مراكمة التجارب والخبرات. الأمر الذي يتيح لنا عند تحقيقه، بناء ما يعزز آمالنا في تنمية اللغة العربية وتطويرها، خاصة ونحن نعيش في زمن لن يتردد، ولن يجد أي حرج في نسيان اللغات، التي لا تستجيب لآليات الإبداع والإنتاج والتطوير، وهي الآليات التي تعد اليوم عنواناً بارزاً في المشهد اللغوي الكوني، حيث تتبارى أربعة آلاف لغة سائدة في العالم، لنتمتع منها أربع عشرة لغة فقط بالحضور الفاعل والمنتج داخل شبكة اللغات العالمية. وتتمتع الانجليزية بالذات داخل هذا الكم الصغير بدور استثنائي، مُحَقِّقَة الريادة على اللغات المتداولة في العالم¹⁸.

¹⁶ يحيى البجاوي، كونية الاتصال، عوامة الثقافة شبكات الارتباط والممانعة، الرباط، منشورات عكاظ، 2004.

¹⁷ يقدم هشام جعيط، في كتابه: أزمة الثقافة الإسلامية، تأملات قوية في موضوع أزمة الفكر العربي المعاصر، وهو يستوعب في بعض تحليلاته جوانب لها صلة بواقعنا اللغوي وواقعنا التاريخي العام من منظور مقارن، بيروت، دار الطليعة، 2009.

¹⁸ تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام (2003)، نحو إقامة مجتمع المعرفة، ص. 123-124.

صورة نسق مغلق ومكتمل، يخلطون بين قواعد مرحلة محددة من مراحل استواء نظام معين في لغة بعينها، وبين صيرورة اللغة المترتبة عن نظام استعمالها المنتج والمولّد للمعرفة، والمبدع للقواعد المطابقة لمسارها المتطور، ونظامها المتحول، وأرصدتها الرمزية المتجددة.

ولا شك في وجود عوامل معينة تدفع إلى النظر إلى اللغة بمقياس الكمال، من بينها النظرة العاطفية والنظرة السكونية اللاتاريخية، ومن هنا أهمية محاصرة النظريتين معاً لأنهما تساهمان في إفقارها وتحنيطها.

يتضمن الموقف العاطفي من اللغة، مجموعةً من القيم المعرفية التي ينبغي مراجعتها، من قبيل كمالها المطلق وتقعيدها المغلق. كما يتضمن أحكاماً إيديولوجية تستدعي بدورها المراجعة، مثل تناسي الوضع الراهن للغة، وهو وضع يعكس في نظرنا محدودية جهود الناطقين بها، حيث يتجه النقاش في الأغلب الأعم، لإبراز الجهات المتربسة باللغة القومية بمنطق المؤامرة والاختراق الثقافي المعلوماتي. وفي مجمل هذا الموقف، يتم إغفال أن اللغة العربية مثلها مثل باقي اللغات في العالم، تتطور وتلتحقها أعراض التحول، التي تصيب مختلف ظواهر الحياة الثقافية داخل المجتمع¹³، إذا لم تُرتَّب آليات وقواعد في إصلاح نظمها، بالمرونة اللازمة، التي تمكّنها من الانخراط في مثل وإبداع مكاسب العصر الرقمي، بكل منتوجاته ومنجزاته¹⁴.

ويمكن الإشارة هنا، إلى عينة من المشاكل المشخّصة لجوانب من العلل الصانعة لمأزقنا اللغوي الراهن، ويتعلق الأمر بثلاث أمارات كبرى كاشفة عن أهم ملامح عطبنا اللغوي:

- جمود التنظير والتقييد، والاستكانة إلى جهود الأقدمين في هذا الباب.
- عدم معالجة الآثار المترتبة عن ثنائية الفصحى والعامية.
- ضعف النشر الإلكتروني¹⁵.

ينفتح كل محور على موضوع مركزي، وتكشف جميعها خطورة التحديات التي تواجه اللسان العربي.

إن علل لغتنا ناتجة عن نوعية الحضور الذي أصبحت تمارسه اليوم في واقعنا، والمتمثل في صور الإهمال الذي لحقها في العقود الأخيرة، في أغلب الدول العربية، وذلك بسبب غياب سياسة

¹³ عدّد فاروق شوشة، في مصنفه: جمال العربية، الأساليب الجديدة في اللسان العربي، وهي تعبر في نظره عن تأثير الترجمة واللغات الأجنبية، راجع نماذج منها في المصنف المذكور، ضمن س. كتاب العربي، ع. 52، 2003، ص. 238-242.

¹⁴ تقرير المعرفة العربي 2009، مرجع سابق، الفصل الأول، ص. 25-50.

¹⁵ سعيد يقطين، اللغة العربية ومجتمع المعرفة، مرجع سابق.

والتركيب. وقد لعبت الكتب المدرسية والسينما والرواية العربية ووسائل الاتصال المعاصرة، أدواراً هامة في باب توسيع الحساسيات اللغوية (مدونات الفضاء الافتراضي وتغريداته)، وجعلها قادرة على ترجمة الانفعالات والعواطف والنزوعات النفسية والاجتماعية، إضافة إلى أنها أصبحت قادرة على بلورة المعارف الجديدة، في عالم ما يفتأ يتطور بإيقاع سريع.

أمر آخر حصل في مستوى تطوير بعض مجالات العناية باللغة العربية في مجال الإعلاميات بالذات، حيث يمكن العثور على برمجيات تُقدّم المكتبة الإلكترونية العربية، وضمنها موسوعات وكتب محققة، إلى جانب دروس في تعليم العربية لمختلف الفئات العمرية¹⁰.

إن الإشارات التي ذكرنا، لا تعفينا من الإقرار بالتردي الذي ما فتئت تعرفه اللغة العربية، وهي تراقب التحديات العديدة، التي تولّدها تقنيات المعلومات وثورة المعرفة في عالمنا. فكيف تواجه اللغة العربية تحديات العولمة المعلوماتية؟

أبرز التقرير الثاني الذي أصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، أهمية تأهيل اللغة العربية لتصبح لغة العصر الرقمي، ويبيّن أن مطلب التحديث اللغوي يستدعي القيام بما يلي :

- تحديث الجامعة والبحث العلمي، والنظر إلى اللغة العربية باعتبارها الحجر الأساس في عملية التحديث.
- إقامة جسور بين مختلف التخصصات المعرفية.
- إدخال المعرفة المعلوماتية والتأهيل المعلوماتي إلى مختلف مؤسسات التعليم والبحث العلمي.
- المساهمة في إنتاج برمجيات عربية، تراعي خصوصية المكونات المحلية واللغوية¹¹. وقد كشف التقرير المذكور، أنه لا سبيل للنهوض بكل ما سبق إلا بالانفتاح على مكاسب ومنجزات العصر الرقمي¹².

يتربّ عما سبق، لزوم إصلاح اللسان العربي، وذلك بالانطلاق في مشاريع تضع مسألة تحديث اللغة العربية ضمن أولوياتها الكبرى. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن الذين يتصورون اللغة في

¹⁰ «يحتاج نشر البرمجيات مفتوحة المصدر واستثمارها على الوجه الأمثل، إلى استراتيجيات تضعها المؤسسات الحكومية والجامعات ومؤسسات القطاع الخاص وجمعيات المعلوماتية الوطنية وشبكات مبرمجي النظم مفتوحة المصدر. وينبغي أن تسمح هذه الاستراتيجيات بتشكيل مجموعات للعمل وإرساء قواعد وأخلاقيات للتعامل ضمنها وبينها، مستنيرة بما وضع من وثائق بهذا الخصوص على الصعيد العالمي»، تقرير المعرفة العربي، 2009، نحو تواصل معرفي منتج، الفصل الرابع، ص. 143.

¹¹ تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003، نحو إقامة مجتمع المعرفة، ص. 120-125.

¹² سعيد يقطين، "اللغة العربية ومجتمع المعرفة"، ورقة خلفية أعدت ل، تقرير المعرفة العربي، 2009 (مرقونة).

محصلة موضوعية لتاريخ من الانفصام اللغوي، القائم في مجتمعنا ومؤسساتنا التربوية⁷. نحن إذن أمام فصْحى في الجامعات والمحافل العلمية، وعامية في الأسواق والأعراس والمواسم، حيث يتخذ معجمنا الدارج مواصفات تختلف عن مضامين ومعاني الفصح، المقروء والمكتوب في مؤسساتنا التكوينية والعلمية.

نؤكد هنا أمراً يتعلق ببعض صور تدفق العامية في التداول العام، ونعَي في الوقت نفسه نسبتيته، وذلك انطلاقاً من التطور الكبير الذي عرفه الإنتاج السردى في أدبنا المعاصر، حيث تقدم كثير من الروايات في أدبنا اليوم، ما يعبر عن أشكال رفيعة من الجمال الفائن، في باب التداعي الرامى إلى الإمساك بذبذبات الوجدان العربى. إن تأكيدنا السابق يبرز مرونة بعض اللهجات، عند مقارنة بعض صور تعبيرها مع نماذج من نصوص الفصحى.

1. نحو سياسة لغوية متصلة بمجتمع المعرفة⁸: في تشخيص بعض علامات الانكماش اللغوي

توضح الأوليات التي سطرنا في الفقرات السابقة، التوجه الذي اخترنا لمقاربة واقع اللغة العربية في مواجهتها لتحديات تقانة المعلومات. ونتج في المحور الأول من هذا العمل، نحو تشخيص بعض مظاهر قصور أدائنا اللغوي، وذلك بالاعتماد على الأبحاث والتقارير التي ركبت نتائج تسمح بالتفكير في كيفية تجاوز مآزقنا اللغوي.

أشرنا آنفاً إلى التطور الذي عرفته اللغة العربية في القرن الماضي، وذلك قياساً لما كانت عليه في أزمنة سابقة، وساهم تطورها الملموس، في مجالي الإعلام المكتوب والمرئي، في بناء صيغ جديدة لم تكن معهودة في نظامنا اللغوي القديم⁹. إن حاضِر الكتابة العربية اليوم يكشف بوضوح، أن لغتنا لم تعد لا مسجوعة ولا محكومة في أنسجتها النصية بمفردات قديمة، بل إن الجملة العربية تستوعب مئات المفردات والصيغ التعبيرية الجديدة، الأمر الذي يعكس مظاهر التطور الحاصلة. كما أن تزايد حجم الكتب والمطبوعات، وتزايد القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية، وغير ذلك من الوسائط الجديدة في التثقيف والترفيه، يعد من المكاسب التي منحت العبارة العربية كفاءات جديدة في مجال الإمساك بالموضوعات، ومقاربتها بآليات جديدة في التعبير

⁷ نحن نشير هنا إلى ازدواجية الفصحى والعامية، وازدواجية التقليد والحداثة، وباقي الثنائيات المشكّلة لنسيج مجتمعنا في مختلف مكوناته وأبعاده المادية والرمزية. راجع الفصل الأول من كتابنا، أسئلة الحداثة في الفكر العربى، من إدراك الفارق إلى وعى الذات، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009، ص. 13-50.

⁸ تقرير المعرفة العربى 2009، الفصل الأول، ص. 26-32.

⁹ سعيد يقطين، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية، بيروت، م. الثقافى العربى، 2005.

واللغة الإنجليزية، وخاصة في مجال الإعلاميات والاتصال والمعارف العلمية، فنتبين أن كفاءة اللغتين معاً في مجال توحيد كثير من الرموز، يساهم في تقليص حدة الصراع، وذلك رغم كل المواقف التي تُنمّط اللغتين في أنظمة مغلقة، من قبيل القول بأن الفرنسية لغة تجريدية، والإنجليزية لغة تجريبية. إضافة إلى المبادرات التي يقوم بها الفاعل الفرنكفوني، الذي لا يتردد في تمثيل بعض رموز الإنجليزية، من أجل مرونة أكبر في أدائه اللغوي، بحكم التفوق الهائل الذي تمارسه اللغة الإنجليزية في مجال ابتكار البرامج الاصطناعية ومجال الاختزال. وما يتيح هذا الأخير، من تواصل أسرع، وتركيبات ورموز أسهل، وذلك بفضل جدلية الابتكار الفاعلة في الأنساق اللغوية. ودون نسيان، المنجزات الفعلية التي ركبها كل منهما في مجال تطوير الأدوات والرموز المساعدة، في عمليات توحيد آلية البرمجة الاصطناعية، المختزلة للنسق اللغوي في رموز محدودة وفعالة.

- نفترض أنه لا يمكن أن تتحول قواعد اللغة في اللغات المبدعة إلى كوابح، بل إن الموقف الأكثر سلامة في نظرنا، هو أن تسمح القواعد في لحظات معينة من تاريخها، ولأسباب متعددة بإمكانية إنشاء قواعد بديلة للقوالب التي يضيق بها الاستعمال، بحكم ما يستدعيه الإبداع من عمليات في تجديد الأنساق، وإعادة تركيب الأبنية والنظم. وهذا الأمر لم يحصل في تاريخ لغتنا وإلى يومنا هذا، رغم التحويلات الجزئية، التي حصلت في مجال تداول وكتابة اللغة العربية منذ ما يعرف بعصر النهضة العربية.

ساهمت وتيرة التقدم العلمي والتقني، كما ساهم تطور وسائط الإعلام وتطور منتوجاتها، في إعادة النظر في كثير من الصيغ التعبيرية الموروثة. ومع ذلك ظلت لغتنا مكتفية بصورة عامة بكثير من القيم والمفردات المحفوظة من أزمنة عصورنا الوسطى، وكأن كل هذا الذي حصل ويحصل في مجال تطور المعرفة والعالم لا يعنيننا، ولا يعني الوسائط التواصلية التي أصبحنا نتعامل بها مع العالم ومنتوجاته المعرفية الجديدة.

- أصبح من المعروف اليوم، أن ما يمنح اللغة القدرة على مواصلة حضورها في المجتمعات المعاصرة، هو مرونة التواصل الذي يسمح به نظامها النسقي، ونظام اشتغالها الأداتي والوظيفي. ونحن لا نعتقد أن لغتنا العربية طورت الآليات التي تمنحها المرونة المطلوبة في تحقيق درجات عليا من التواصل الحي والخلق. فكثير من وجدانياتنا تجد أحياناً سلاسة منقطعة النظر في العامية، وهي تمارس الإفصاح المبين. وهذا الأمر عبارة عن معطى موضوعي، ولا علاقة له بأحكام القيمة التي يصدرها البعض في مثل هذه المواقف، بحكم أن الوضع المشار إليه، يعد

والانخراط في عملية الاستجابة، التي يقتضيها مبدأ الحضور العربي في شبكات الثقافة الرقمية المعاصرة:

- نشير في منطلق حديثنا عن الإصلاح اللغوي إلى أمرين اثنين: أولهما الموقف العدمي من اللغة، وهو الموقف الذي يتحدث عن موت اللغات والثقافات المحلية، بحكم أن العالم يتعولم، ولم تعد هناك حاجة إلى الدفاع عن لغات وثقافات لم تطور عدتها في الأداء التواصل، ولا في بناء المعرفة المعاصرة. وهذا الموقف في نظرنا، لا ينتبه لأهمية التنوع اللغوي والثقافي، في عالم مركب ومتناقض المصالح والأهداف. بل إنه لا يستوعب أن الدفاع عن الكونية المفترضة أو المأمولة، مرهون بأدوار الجميع في عمليات البناء والتركيب⁴. والأمر الثاني، يتمثل في النقاش السياسي والإيديولوجي في موضوع واقع اللغة العربية واللغات الأخرى، التي تتمتع اليوم بحضور مُبدع وفاعل في العالم. وهذا النقاش يغفل في الأغلب الأعم جوهر الموضوع، المتصل من جهة بواقع المؤسسات التعليمية، وما يتصل بها من وضع تدريس اللغات، وكفاءات المدرسين والمُدرسين في ميادين التواصل والتعبير والكتابة. ولهذا السبب، يتجه لتركيب مواقف سياسية، مسنودة بدعامات عاطفية عاجزة عن رؤية المآل الذي آل إليه اللسان العربي، وذلك بسبب غياب استراتيجية لغوية واضحة ومعلنة في أغلب البلاد العربية⁵.

- إذا كنا نعتقد أن واقع التعدد اللغوي (الفصحى والعاميات واللهجات) يستوعب داخل مجتمعاتنا موروثات متصلة بتاريخنا وصيدنا، في معالجة إشكاليات اللغة العربية، فإن إغفال الكلفة التي نؤديها مقابل ذلك، يعني أننا نضاعف تقصيرنا في مجال المبادرة المتعلقة بإطلاق مشروع متكامل في موضوع إصلاح اللغة العربية، وتحويلها إلى أداة مؤهلة لولوج مجتمع المعرفة⁶.

وفي هذا السياق، يمكن أن نستعين بتجارب الدول التي سبقتنا في مجال تطوير أدواتها وأدائها اللغوي. كما يمكن أن نتابع على سبيل المثال، طبيعة الصراع القائم اليوم بين اللغة الفرنسية

⁴ يدافع تقرير اليونسكو، نحو مجتمعات المعرفة، الفصل 9 «التعددية اللغوية»، ويعتبر أنها تساهم في تعزيز التنوع الثقافي وتقاسم المعرفة، انظر: Rapport UNESCO, Vers les sociétés du savoir, chapitre 9, Paris, Éditions UNESCO, 2005, p. 155-165.

⁵ انظر بعض عناصر هذه الاستراتيجية في: تقرير المعرفة العرب، 2009، الفصل السادس، ص. 199-214.
⁶ تبنى تقرير اليونسكو الصادر سنة 2005 مفهوم مجتمع المعرفة، واستعمله بصيغة الجمع «مجتمعات المعرفة»، معتبرا أن هذه الصيغة أكثر مطابقة للتحويلات الجارية في عالم يشكل البعد التكنولوجي فيه حجر الزاوية. تقرير المعرفة العربي 2009، الفصل الأول، ص. 32. هذا ونشير إلى أننا كنا ضمن الفريق المركزي المحرر لهذا التقرير.

نستطيع إدراك ذلك، في الملامح العامة للثقافة العلمية، التي انخرط العرب في نقلها والتعريف ببعض نتائجها وآفاقها، في فكر النهضة العربية¹.

ساهم الانفتاح المذكور، في تلوين مفردات اللغة بألوان جديدة، عكست درجات استجابتها لتمثل معطيات هذه المستجدات. كما أن بداية ظهور الصحافة المكتوبة، عمل بدوره على منح قوام آخر للجملة العربية وأشكال إيقاعها. والذين قرأوا نصوص الطهطاوي (1801-1874) وخير الدين التونسي (1822-1889) على سبيل المثال، يدركون نوعيات التحول التي طرأت على الكتابة الإصلاحية العربية الحديثة، مقارنة مع أنماط الكتابة في عصورنا الوسطى².

وقد عرف نمط الكتابة العربية نقلة نوعية في مطلع القرن العشرين، وتجلّى ذلك في كتابات فرح أنطون (1847-1922) ولطفي السيد (1872-1963) وسلامة موسى (1887-1958)، وقبلهما في نصوص عبد الله النديم (1845-1898) والكواكبي (1848-1918). وتنبئ الأمثلة التي ذكرنا بعلامات التحول الصانعة لتطور اللغة، في لحظات مواجهتها لتحديات كبرى في تطور مجتمعاتها وكيفيات تفاعل نخبه مع مكاسب المعرفة والعلوم. كما تكشف من جهة أخرى، نوعية استجابتها للمتغيرات التي تشكل الحاضنة والمؤطرة لأفعالها ووظائفها.

عكست مظاهر التحول التي لحقت العربية في القرن العشرين، قدرة المتحدثين بها على تهيئتها للتجاوب مع التحولات المعرفية والتاريخية في مجتمعاتنا. كما أظهرت محدودية المرونة التي يتمتع بها نظامها النسقي. وقد تزايدت صور انكماشها اليوم، أمام التقدم العلمي والكشف المتلاحقة لتقانة المعلومات.

انطلقت فتوحات وكشوف تقانة المعلومات والاتصال، كما يعرف الجميع في نهاية القرن الماضي، صانعة طفرة معرفية كبرى في مطلع الألفية الثالثة³. وهي تساهم اليوم في عمليات عزل وتنحية مختلف الوسائط اللغوية، العاجزة عن تطوير أدواتها في العمل والإنتاج والمعرفة. ومن هنا تضاعفت حاجتنا إلى إصلاح واقع الأداء اللغوي العربي.

نريد أن نشير إلى بعض الأولويات، التي نستوعب بعض أبعادها في ورقتنا، إما بصورة واضحة أو مضمرة، وذلك قبل مواجهة موضوع السياسة اللغوية، القادرة على نقلنا إلى مجتمع المعرفة،

¹ عبد اللطيف كمال، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، بيروت، دار الطليعة، 1992، ص. 18.

² عبد اللطيف كمال، التأويل والمفارقة، نحو تأصيل فلسفي في النظر السياسي العربي، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1987، ص. 50-7.

³ تقرير المعرفة العربي 2009، نحو تواصل معرفي منتج، الفصل الأول، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ص. 25-50. نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، س. عالم المعرفة، ع. 370، 2009، الفصل التاسع، ص. 175 و237.

نحو تطوير الأداء اللغوي العربي

عبد اللطيف كمال

جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب

ملخص: ركبنا في هذه الدراسة تصورنا لجوانب من قصور اللغة العربية، أمام التحديات المعرفية الكبرى الحاصلة بفعل التطور المتسارع في مجال تقنية المعلومات، وما ولّده من تضخم معلوماتي واقتصادات معرفية. إن سجلات الثورة المتواصلة في موضوع تقنية المعلومات وما يرتبط بها، دفعنا إلى طرح سؤال الإصلاح اللغوي، وهو سؤال يتصل بالسياسة اللغوية في مجتمعاتنا، وتتقاطع فيه اهتمامات متعددة ذات صلة بالتربية والمجتمع والتراث والتواصل.

الكلمات المفتاحية: أداء لغوي؛ إصلاح لغوي؛ سياسة لغوية؛ مجتمع معرفة؛ مرونة لغوية؛ تواصل؛ نظرة لا تاريخية للغة العربية

Résumé : Notre article développe une vision concernant la déficience de la langue arabe face aux défis de la connaissance, vu l'évolution rapide des technologies de l'information et ce qu'elle a provoqué comme inflation de l'information et de l'économie du savoir. La révolution recrudescence des technologies de l'information et des domaines qui en dépendent nous poussent à poser la question de la réforme de la langue; question qui est liée aux politiques linguistiques dans nos sociétés et qui est à la croisée de nombreux centres d'intérêts, en relation avec l'éducation, le savoir, le patrimoine et la communication.

Mots-clés : performance linguistique; réforme de la langue; politique linguistique; société de la connaissance; souplesse linguistique; communication

أنا لغتي.. محمود درويش

تقديم

يعرف المهتمون بالفكر العربي المعاصر، أن موضوع إصلاح اللغة كان وما يزال من الموضوعات الأساسية في مشروعات الإصلاح، التي تبلورت منذ منتصف القرن 19. ونستطيع أن نتبين بعض جوانب وأبعاد هذا المشروع في مجالات الترجمة، ومجالات الإبداع المتصلة بتطور الحساسيات الفنية في الثقافة العربية، بحكم انفتاح هذه المجالات على عوالم جديدة وثقافة وافدة. كما

من جهته، يعيد صلاح مجري فحص مفاهيم التعاقب والثبات والاستمرارية/ الانقطاع لتحديد أدوارها في ميكانيزمات اشتغال اللغة؛ وكذا تأثيرها على دراسة الجامد من المتتاليات المتعاقبة مع استخلاص نتائج نظرية لها أهميتها في هذا المجال.

وأخيرا ينكب علي الرقيقي على سؤال المعالجة الصوتية والتطريزية للاقتراض التام الذي يحدثه الأنثريون الناطقون بالفرنسية على الانجليزية. إذ يظهر الباحث، وبفضل التحليلات الطيفية لكلام الأنثريين الناطقين بالفرنسية، أن عصب اللغة، وبعيدا عن التركيب، يقع تحديدا في قلب البنية التطريزية للكلام .

نأمل في أن تجلي هذه المنتخبات التعدد الذي بصم صديقتنا وزميلتنا ليلي المسعودي، وأن تفني بتكريم يليق بمسارها وكرمها المعرفي والإنساني.

في سياق آخر، تنكب حفيظة العمراني على مجال يحظى بمنزلة خاصة عند المحتفى بها وهو اللغية التقنية. فانطلاقاً من بحث ميداني وعلى أساس متن تم جمعه ومقارنته بمداخل معجم كولان، كما تم إغناؤه بإسهامات مختلفة، تروم مشاركتها إحصاء تسميات الألوان بالعربية المغربية بهدف اكتشاف خصائص الحقل اللوني في العربية المغربية وكذا الانعكاس الذي تقدمه هذه التركيبة لثقافة المجتمع المغربي.

في نفس المجال تبرز هبة لوكونك الأهمية التي يوليها المترجم لمجموع اللغية التقنية المرتبطة بالميدان الذي يشتغل فيه. ومن ثمة انصبت مساهمتها على ثلاثة حقول أساسية: المصطلحية واللغية التقنية والترجمة المتخصصة. بتركيز هذه الحقول الثلاث على اللغة الخاصة وبالتالي على المصطلح والعلامات اللسانية التي يتوسل بها، فإنها لا تنفك عن استدعاء بعضها البعض.

بالنسبة للإسهامات باللغة الفرنسية التي تنصب على قضايا ومتون غربية، يعرض برطرون دوناي دراسة حول سؤال التداخل المعرفي على مستوى ديداكتيك الفرنسية وديداكتيك التخصصات، حيث تسعى دراسته إلى محاولة التعقيد لمد الجسور بينهما .

بعد ذلك يطرح ببيير لورا، من جهته، سؤال تكامل المعرفة، وكذا الإحالة على مفهوم التخصص، ليسجل تأرجحاً مفاهيمياً ومتغيراً على مستوى التخصص. ومن ثم يسائل المحتوى والحدود بين التخصصات. كما يحاول أن يدرك تشعباتها واختلاف القنوات النظرية والتجريبية، في محاولة لإقامة نموذج لتكامل المعرفة.

في سياق آخر يتساءل عبد اللطيف مكان حول التوازي بين النص والصورة. فكلاهما يقدم طريقة تعبير مختلفة تتشابه وتتباين في نفس الآن. يتساءل الباحث، إذن، عن التحويل المفاهيمي والمنهجي من مجال اللسانيات إلى مجال الصورة بطرحه لمجموعة من الأسئلة مع محاولة الإجابة عنها.

فضلاً عن ذلك، يقدم منير أوسيكوم دراسة تنكب على مفاهيم «الحدائث» و«الكونية» بفرنسا خلال القرن 17 ميلادي. يستدعي هذا البحث مفهوم «البربرية»، حيث يحاول الكاتب مساءلته وتحليله وكذا فهمه عبر مسرح كورني.

وعلى مستوى آخر تتضمن دراسة جاك/ جوهر فينيني زونز تموقعا نظرياً في نقاش من خلاله نعرض، شئنا أم لا، ثنائية وازدواجية الخطاب الإنساني تبعاً لتصنيفه كخطاب عالم أو شعبي، نظري أو تطبيقي، إلخ، حيث ينتصر الكاتب بوضوح للنفي. ويفضل تموقعا جديلاً أكثر منه تصنيفياً، مع إبراز خصائص المعرفة الشعبية.

من جهته، يقدم فرانسيسكو موسكوسو كارسيا تحليلا ضافيا للجذاذات التي خلفها كارلوس بيريدا رواج. تضم هذه الجذاذات 651 من الرباعيات التي تنتمي إلى الشعر الشعبي المغنى. بعد تحليل هذه النصوص، يلاحظ الباحث أن جزءا كبيرا من المقاطع ينتمي إلى نوع العبوع وأن جزءا آخر، أقل إحصائيا، يمثل العيطة الجبلية. كما يقدم المظاهر الأكثر أهمية وهي العروض والقافية.

أما زليخة مريد، فتذكر أن التحليلات اللسانية التي انصبت على نص محمد ديب تظل قليلة وتختار مفاهيم النحو العربي القديم مثل ثنائية الأصل والفرع لاكتشاف المعنى والجمالية. هذا الاختيار كان مصدره الشاعر ومساره في الكتابة؛ كما يجد تفسيره في الرغبة في مخالفة التيارات النقدية القائمة التي «تخضع [نصه] لسرير بروكوست، ولنسقه المرجعي- دون معرفة أكيدة، بل دون رؤية الألم والعنف الذي يلحقه ب [النص]». «شجرة القول»، إنها شجرة النقاشات المتواصلة، «الشجرة في إفريقيا التي ناقش تحت ظلها مواضيع جد مختلفة، التي تزج كاز وأجوبا».

وفي سياق نظري، يحاول ادريس مسكين إعادة النظر في المنظورات التشومسكية، وفي مفهوم الفاعل في العربية المعيار، وذلك على ضوء النظرية الباطنية التي طورها كورودا (1986) وكوهمان وسبورتش (1991). يتساءل الباحث عن تضمينات الفرضية التي على أساسها يأخذ الفاعل وضعيته المناسبة في العربية المعيار وهي «مخصص» المركب الفعلي. كما يتساءل عن وضع المخصصين: مخصص المركب الفعلي ومخصص المركب التصريفي بالنسبة للنظرية الموضوعاتية وتلك الخاصة بالإعراب.

وانطلاقا من متن يتضمن مقالات نشرت في منابر صحفية فرنسية، تمت ترجمتها إلى العربية وصدرت في الصحافة الحزبية المغربية، يهتم نور الدين حنيني بأشكال متعددة بل مختلفة، حيث يظل التعديل إجراء على مستوى الترجمة، يحدد تغييرا في وجهة النظر حول سيرورة نؤثرها.

ومن بين الإسهامات بالفرنسية التي تنصب على الأمازيغية، بالاعتماد على استدالات لسانية، تنتصر نجات أوسيكوم لفرضية وجود الصفة في الأمازيغية في لهجة آيت ويرا. علما أن وجود مفهوم الصفة في الأمازيغية لا يشكل إجماعا لدى اللسانيين المشتغلين على هذه اللغة. ذلك أن البعض يؤكد وجود هذه الصيغة كوحدة تركيبية ومعجمية مستقلة، في حين أن البعض الآخر ينفيه لصالح اسم البدل. وهذا ما يقدم، كذلك خصائص تطريزية وصرفية وتركيبية تسمح بتمييزها عن الاسم وعن التركيبات البديلة.

البؤرة اللغوية في صياغته الحقيقية أو المجازية. وهذا ما يبرز أن الدرس المعجمي لا ينعزل عن الدرس الأدبي .

وفي سياق تجويد تدريس اللغة العربية وتعليمها تؤكد دراسة صحرا دحمان على أهمية الاستماع ودوره في تعليم اللغة العربية لتلاميذ سلك ما قبل التمدرس بالجزائر وإمكانات الاضطلاع بتحسين مردوديته داخل المدرسة أو من خلال المحيط العام. وفي نفس المنحى تبين دراسة محمد الهاشمي إمكانية النهوض بتعليم اللغات واللغة العربية خاصة، باستثمار حصيلة البحث اللساني المعاصر في بيداغوجيا تعليم اللغات.

من جهة أخرى وفي علاقة بالنقد الأدبي، ترصد دراسة محسن اعمار نظرية التلقي والنظريات التي تمتح منها لبناء نسقها القرائي. كما تبرز أنه لا وجود لحدود عازلة في بناء المناهج والنظريات.

ومن ثمة نؤكد أن بناء المعرفة يتأسس على تكاملها وتفاعلها وأن الحدود بينها تظل شفافة تمنح دائما قابلية العبور. وقد عملت ليلى المسعودي عبر مسارها العلمي على ترسيخ أفق معرفي منفتح على الإنسان ومتفاعل بين العلوم واللغات.

تغطي الإسهامات باللغة الفرنسية، والتي تنصب على العربية والأمازيغية، تخصصات متعددة. فبالنسبة للديداكتيك، تعالج ملكة باحما إشكالية السياق والتركيب الملازمة لإعداد برنامج التكوين الذي يسعى إلى تمكين طلبة اللغة لغبر المتخصصين فيها من كفايات لغوية في سياق متعدد اللغات. ومن خلاله تناقش الباحثة ملاءمة إدماج تعليم/ تعلم اللغية التقنية في إطار مقارنة ديداكتيكية مدمجة تسمح للطلبة، ومن خلال وسائل معلوماتية، بالتفاعل وبناء المعنى، على مستويات مختلفة وبلغات متعددة. وبذلك يصير المتعلمون فاعلين في بناء تعلمهم ووعيمهم الخارج- اللساني باستدعاء استراتيجيات تتصل باللغة الأولى لاكتساب اللغة الثانية.

وفي نفس السياق، تقترح نبيلة بنحو وضع قاعدة بيانات موحدة للتقويم خاصة بشعب اللغة الفرنسية داخل الجامعات المغاربية. ومن ثمة يغطي مشروعها وظيفة مزدوجة: أ- اعتماد، على المستوى العلمي، مرجع موحد للتقويم، ب- تجانس الممارسات التقويمية على المستوى المغاربي. وبذلك أصبح سؤال دور التقويم في ترسيخ القيم وطرق الولوج وتوصيل ونشر المعارف يطرح بشكل لافت.

وفي مجال الأدب، يقترح مصطفى العداق، قراءة شمولية للرهان الهوياتي في فن وأدب الهجرة الريفية في أوربا من خلال مختلف الأنواع الأدبية والفنية (الرواية- الشعر- المسرح- الأغنية). يسعى الباحث إلى إبراز كيف أن بناء الهوية في إبداع الفنانين والكتاب الريفيين يوحى بديناميكية متواصلة لإرسائها في الثقافة الأصل والانفتاح على الحوار الثقافي المتبادل.

حيث اعتبر دراسات المسعودي رائدة في هذا السياق مع الإشارة إلى مدى اهتمامها، كذلك، بالجانب التخيلي من خلال اشتغالها على الحكاية.

في حين عمل عبد النور الحضري على تقديم قراءة لكتاب المسعودي حول اللسانيات الاجتماعية، رغبة منه في تقريب مضامينه وكذا أسسه النظرية والمفاهيمية للباحث العربي وللطلبة. وتهتم مساهمة إبراهيم الكعاك بجانب آخر من اهتمامات المسعودي المرتبط بالدراسة اللهجاتية. ومن ثم قدم كتاب أحمد مختار عمر حول اللهجة المصرية وما يطرحه من قضايا، مع مقارنتها باللهجة المغربية ومحاولة استكشاف مظاهر تأثير اللغات المجاورة، كالقبطية بالنسبة إلى المصرية، والأمازيغية بالنسبة إلى المغربية.

وتسجل هذه الإسهامات أن اهتمام ليلي المسعودي باللهجاتية العربية لم يقف عند حدود شقه اللغوي، بل امتد إلى المتخيل الإبداعي الذي تبلور من خلال دراساتها حول الحكاية كجنس شفهي وكذا في تأسيسها لمجموعة البحث حول الأدب الشفهي **CLIO** ثم الشبكة الوطنية للثقافة والأدب الشفهي. **RENACLO** ومن ثم كان إسهام عبد العزيز اعمار حول الحكاية وهجرة المحكي وتلاقح الثقافة الشفهية بين الأمم والحضارات والذي يعكس وجود بنية كلية للحكايات. فضلا عن ذلك تبرز دراسة فاطمة كدو نوعا من التداخل الثقافي والفكري بين أشعار عبد الرحمن المجذوب وأمط التفكير الأوربي التي وقف عندها دو كاسترو عند جمعه وقراءته لديوان المجذوب، الذي عمل على جمعه من الجزائر. وهذا ما يطرح على الباحثة وعلى المهتم بالأدب الشفهي العديد من التساؤلات حول الاهتمام الاستشراقي بثقافتنا الشعبية الشفهية.

في سياق آخر تعالج دراسة عبد العزيز المطاود مسألة اللغات الخاصة وتمفصلاتها التي تماثلها وتطرح معها التباسا نظريا ومفاهيميا. إذ يخلص إلى ما يتسم به مفهوم اللغية التقنية من شمولية لانفتاحه على لغة الكتابة وعلى اللغة الشفهية. ومن هنا كان منجز حنان بندقمان حول اللغية التقنية وتفصيلها بين اللغية العالمية والعادية الذي قعدت له المسعودي عند طرحها للنسق الفكري والمفاهيمي الذي يضبط اشتغال اللغية التقنية. فقد أبرزت الدراسة أن اللغية التقنية آلية مقارباتية لحقول معرفية متعددة، تتحقق معها إمكانات التكامل المعرفي الذي طبع فكر ومسار الأستاذة المسعودي.

وتنكب مساهمة عبد الغني أبو العزم حول بناء المعاجم الذي يعتبر ذاكرة مشتركة بينه وبين المحتفى بها. إذ تعتبر المعجماتية محورا تأسيسيا في مسار الباحثة العلمي والأكاديمي. يؤكد المؤلف من خلال بحثه على دور الشاهد (الشعري- المثل...) في البناء المعجمي والبعد الذي يؤديه في توضيح المعاني. إذ يشكل الشاهد أداة لغوية معرفية إبداعية، يسهم في حصر دلالة

في تكريم تمكن المسعودي من هاتين اللغتين وقناعتها بدورهما في إغناء البحث العلمي وإسهامهما في المعرفة. فقد قدمت دروسها الجامعية الأولى باللغة العربية بالقسم العربي بكلية الآداب بالرباط. كما أن أولى إصداراتها كانت بهذه اللغة بمجلة اللسان العربي، عندما كانت تشغل موقع المسؤولية بمكتب التعريب بالرباط. فضلا عن ذلك يصنفها أرشيف مكتبة ميران باريس ضمن المؤلفين الذين يكتبون بالعربية بالإضافة إلى الفرنسية. هذا وقد شغلت منصب رئيسة شعبة اللغة العربية بكلية الآداب- جامعة ابن طفيل بالقنيطرة قبل أن تلتحق بهيئة التدريس بشعبة اللغة الفرنسية بنفس الكلية.

يتبلور اهتمام المسعودي باللغة العربية من خلال أبحاثها واشتغالها على متون عربية، وكذا اعتمادها على المرجعية العربية فيما يخص الدرس اللغوي والمعجمي. كما يبرز، إلى جانب ذلك، في اقتناعها الدائم بضرورة إتقان العربية باعتبارها لغة وطنية وتجويد طرق تدريسها مع ضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية، مما جعلها تسهر في تأسيسها لفرق البحث ثم مختبر اللغة والمجتمع على الانفتاح على كل الشعب والتخصصات وبالتالي كل اللغات (فرنسية- عربية- إنجليزية...). إضافة إلى أن إصدارات المختبر تشهد بمدى إيمان المسعودي بأن البحث العلمي تفاعل دائم بين المعارف والعلوم والمناهج، ترسيخا للسؤال المعرفي الذي تنتظم معه الإنتاجات المعرفية والأكاديمية. فمجموع هذه الدراسات التي تمتد على أجيال معرفية متعددة تليق بهذا الاعتراف الذي نعبر لها عنه في هذا الكتاب¹.

يتضمن هذا الكتاب أربعة عشر دراسة باللغة العربية. بداية يناقش الأستاذ عبد اللطيف كمال قضايا اللغة العربية وضرورة تطوير إمكانياتها لتستجيب للتطور المعلوماتي ومتطلبات المعرفة. من جانبه ينكب محمد ياقين على تتبع تطور مفهوم المجتمع المركب ضمن نظريات علم الاجتماع، ليصل إلى تبلوره كنسق معرفي لتحليل التشكيلة الاجتماعية المغربية وما يرتبط بها من ظواهر وبنيات ومؤسسات. فيما يطرح سعيد البوزيدي السؤال حول التراكم المعرفي والدور الذي لعبته اللغة واكتشاف الحرف والكتابة للخروج بالمجتمعات وبالإنسان من زمن ما قبل التاريخ إلى مرحلة جديدة في تاريخ التطور البشري القائم على اكتساب المعارف وتوظيفها لضمان الحفاظ على الجنس البشري. قد تبدو هذه الدراسات بعيدة عن اللسانيات الاجتماعية، ولكنها في العمق قد تسهم في بلورة أسئلة ثقافية ولغوية تطرح حول اللغة في علاقتها بالمجتمع، وتفتح بلا ريب أفقا أعمق للسؤال المعرفي حول اللغة.

يقدم عبد القادر كنكاي مسحا لتاريخ اللسانيات العربية خلال القرن العشرين، مع بسط لأعمال بعض اللسانيين العرب والمغاربة الذين أسهموا في النهوض بالدرس اللساني الجامعي،

¹ أنظر منشورات ليلي المسعودي في ختام هذا المؤلف.

مقدمة

علي الرقيقي	حفيظة العمراني	حنان بندحمان
جامعة لورانتيان	جامعة ابن طفيل	جامعة ابن طفيل
كندا	المغرب	المغرب

إن تنوع المواضيع المعالجة في هذا الإصدار الجماعي، وتعدد الميادين ومستويات التحليل، بل تخصصات المؤلفين؛ إذا كانت تعكس، بالفعل، تنوع استعمالات اللغة والتواصل، فإنها، كذلك، انعكاس للتقدير الكبير ولعمق الصداقة التي يكنها المشاركون للبلى المسعودي.

بدأ عشقها للمعرفة ولعلوم اللغة يعرف طريقه المؤسسي خلال سنوات 1980 عندما احتكت، وهي طالبة باحثة شابة، بمختلف التيارات الفكرية اللسانية المنتظمة في إطار مؤسسات دولية للسانيات (ILI) في مختلف الدول العربية، منها المغرب وتونس ومصر، وبدعم من المجلس الدولي للبحث والدراسات في اللسانيات الأساسية والتطبيقية (CIRELFA)، وكذا جمعية الجامعات الجزئية أو الكلية للغة الفرنسية (AUPELF).

والحال أن الزميلة المحترفة بها في هذا المؤلف أدركت، مبكرا، العلاقات المتواشحة بين مجموع العناصر المكونة للتواصل الإنساني؛ واستدعت كذلك، عبر مسارها العلمي، مساهمة باحثين من آفاق وتخصصات متعددة. قد تبدو للوهلة الأولى متباينة، لكنها في العمق تبلور مجموعة سمات ومعان دالة، ألم يكن هذا عنصرا محركا لخلق مختبر اللغة والمجتمع.

لهذا لم تفاجئنا الإسهامات التي انخرطت في هذا التكريم والتي تعالج قضايا اللغة، بطبيعة الحال، من وجهة نظر لسانية (قضايا نظرية أو لهجائية، إلخ)، وكذلك سيميائية ومعجمائية وأيضاً أدبية، مخلصة في ذلك لتصور أساسه إذا كانت اللغة وسيلة تواصل ذات تمفصل مزدوج، فإن تضمينات هذا التواصل بكل تجلياته يمكن أن تكون قائمة على عدد من المرجعيات و/أو التضمينات التي تضيء الواحدة الأخرى.

هذا الكتاب الذي يسم أوج المسار العلمي والأكاديمي للأستاذة لبلى المسعودي، يعرض إسهامات بالفرنسية وبالعربية تعكس واجهات متعددة للمحتفى بها. يتغذى هذا الاهتمام بالرغبة

كل هذا من تنظيم وتحول مجتمعي. كما أن اهتمام ليلى المسعودي بالرهانات التربوية في ارتباطها بالرهانات اللسانية، وإن كان يبدو أقل حضوراً، فإنه يظل عرضانياً في كل أعمالها. بالإضافة إلى أن مسألة التعريب ومكانة التنوعات اللسانية في التعليم (العربية- الأمازيغية- الفرنسية)، وفي الفرنسية المتخصصة، تحضر في أعمالها حول المعجمية منذ بداية مسارها، وتبلور كذلك في دراساتها، وفي أعمالنا المشتركة خلال سنوات 2010، التي انصبت على الشرح اللساني عند ولوج الجامعة. وتشهد كرونولوجيا إصداراتها العلمية خاصة بالعربية والفرنسية على ذلك. يأتي مجموع الإسهامات التي جمعت في هذا المؤلف التكريمي صدى وتشريفاً لهذا التعدد في الاهتمامات والتعاون والأبعاد التي تتصل بأعمال ليلى المسعودي.

هذا الانفتاح الفكري على الأسئلة المجتمعية، وعلى اللغات المتعددة يأخذ، كذلك، بعداً إنسانياً عميقاً عند ليلى المسعودي. مسارها موسوم بطاقة من العطاء والكرم لخلق شروط البحث ونشر المعرفة من خلال شراكات، وخلق فضاءات مؤسساتية للتكوين والبحث بجامعة ابن طفيل، وكذا فضاءات للنشر داخل المغرب أو خارجه، وبالمشاركة في مختلف الشبكات الوطنية والدولية (المغربية على وجه الخصوص). بالإضافة إلى هيآت وطنية ودولية للتفكير والتقرير من أجل تطوير التعليم والمجتمع، على الأقل، من مدخلهما اللساني. كل هذه الأنشطة المتعددة يصعب حصرها في هذا الحيز. وقد أتيت لي فرصة مشاركة ليلى المسعودي في بعض من هذه الأنشطة، مما سمح لي بالوقوف على إسهاماتها، وعلى تسييرها الحازم واللبق في نفس الآن وعلى الحرية التي تمنحها لكل مشارك(ة)، وخاصة للباحثين الشباب (بات) لإثبات حضورهم وتجديد طاقاتهم وأخذ المبادرة. هكذا ندرك كيف صارت ليلى المسعودي شخصية مهمة ومعروفة ومحترمة على المستوى الوطني- المغرب وكذا الدولي مثل الشبكات الفرنكفونية. ومن هنا أيضاً قدمت غنى معارفها وقدرتها على الفعل لتساهم في الصالح العام من خلال مهام ذات مستوى عال مثل الوكالة الجامعية للفرنكفونية واليونيسكو، وكذا وزارة التربية الوطنية المغربية، ثم المركز الوطني للبحث العلمي والتقني (CNRST) المغربي.

أن تكون في رفقة ليلى المسعودي وأن تصير صديقة مميّزة على المستوى الإنساني، وزميلة محترمة على المستوى العلمي والبيداغوجي، كان بالنسبة لي حظاً مازلت أعتر به عند كل لقاء سواء عن بعد أو بالقرب منها في حيزها المغربي الذي تعرف جيداً كيف تسلط عليه الضوء. إذا كان لي أن أبلور مسار ليلى المسعودي في كلمة أو عبارة، أقول بأنها بصمت مسارها باهتمام دائم بنوعية العلاقات الإنسانية ودور الباحثين (ثات)، في القطاع العام، للمساهمة في ترسيخها كقيمة أساسية.

يعتبر المسار العلمي لليلى المسعودي مميزا وتمثيلا في الآن نفسه، مقارنة مع الذين أسهموا بشكل قوي في انطلاقة الدراسات السوسيو لسانية الفرنكفونية منذ 1990 إلى يومنا هذا. تتجلى نقطة انطلاق هذا المسار في تكوينها اللساني، بداية في جامعة الرباط (إجازة في «الأدب الفرنسي» كما يطلق عليه آنذاك)، ثم دكتوراه السلك الثالث (1979) بموبليي، وأخيرا أطروحة الدولة في اللسانيات حول صيغة الزمن في العربية المكتوبة، في الإطار النظري للسانيات الوظيفية التي أسسها أندري مارتيني. وكانت مناقشة هذه الأطروحة سنة 1990 بباريس 5، حيث يعمل مارتيني وفريقه. في هذه المرحلة من سنوات 1980، كانت اللسانيات «الداخلية»، المستلهمة من سوسير، بنوية أو ما يشابهها (بما فيها التوليدية)، تهيمن بقوة على علوم اللغة. في حين كانت اللسانيات الاجتماعية ما تزال في مراحل ظهورها الأول بفرنسا وفي المجالات الفرنكفونية. والحال أن اللسانيات الداخلية التي يطلق عليها «الوظيفية»، كانت الوحيدة المفتوحة على التنوع في الاستعمال، والممارسات الاجتماعية للغات، وكذا تنوع اللغة الواحدة، كما تؤكد على أهمية العمل الميداني، دون إعطاء الأولوية لهذه العوامل، وبالتالي دون الذهاب بعيدا كما هو الأمر في اللسانيات الاجتماعية. على أن هذا التكوين، الشبيه بتكويني (ناقشت رسالة السلك الثالث في 1986)، يسر أو بالأحرى حتم توجيهها نحو اللسانيات الاجتماعية. توجه اتبعه عدد منا بما فيهم ليلى المسعودي.

استطاعت ليلى بعد ذلك أن تشكل لنفسها تدريجيا مراكز اهتمامات علمية متعددة اللغات، حيث كانت تحذوها دائما الرغبة في التجديد والتوسيع، فأضافت محاور ولغات دون التخلي عن أخرى في سياق تكاملي. وهكذا ركزت، بداية، على المعجمية الثنائية فرنسية-عربية. ويتعلق الأمر بالمساهمة في تعريب المؤسسات المغربية. تسجل هذه المرحلة بداية تطور أعمالها حول اللغات التقنية، وتوالت مجموعة من أعمالها حول هذا السؤال إلى اليوم في المغرب وفرنسا. كما أسهمت بفاعلية في إنجاز معجم لساني وآخر حول الدبلوماسية مع إدراج اللغة العربية. وكانت وراء تأسيس الشبكة المغربية للغات التقنية (REMATE) سنة 2012، والتي تشتغل بهمة حول اللغات التقنية من منظور متعدد اللغات.

قادها اهتمامها، كذلك، بمجموع الأبعاد الاجتماعية للممارسات اللسانية إلى الانشغال بالشفهي، وباللغات المحلية والثقافات التي يطلق عليها «تقليدية» وكذا الرهانات التربوية. من هنا كانت أعمالها حول العربية العامية المحلية الخاصة بمنطقة جبال في الشمال الشرقي للمغرب، وحول المحكيات الشفهية بالعامية العربية المحلية، ومن خلاله كل التعبيرات عن صور المرأة في الثقافة الشفهية. من هنا يظهر جليا كيف ينخرط هذا المسار في العبور إلى إطار عام للسانيات الاجتماعية، حيث أن المحرك الأساس هو أبحاثها في اللسانيات الاجتماعية الحضرية، وحول لهجات المدن المغربية وكذا ظواهر التماثل الاجتماعي المرتبطة بها، وحول ما يبرزه

تقديم

فيليب بلانشي

جامعة رين 2- فرنسا

يعود لقاائي الأول بليلي المسعودي إلى 2001، حين نظمنا بجامعة رين 2 اليوم الدولي الثاني للسانيات الاجتماعية الحضرية (JIUS) بمعية الفقيه زميلي وصديقي تيري بيلو الذي التحق بهذه الجامعة، بعد انتقاله من جامعة روان. في هذا الإطار، قدمت ليلي المسعودي لعرض أعمالها حول اللغة الحضرية بالرباط. وقد دفعها اهتمامها باللسانيات الاجتماعية الحضرية، التي عرفت نجاحا خلال سنوات 2000 مع تيري بولو، إلى تنظيم اليوم الدولي الثالث للسانيات الاجتماعية الحضرية (JIUS) بالقنيطرة سنة 2003. والحال أن ليلي المسعودي طورت أعمالها في إطار التمييز بين لغة حضرية/ لغة مدينية داخل المدن التاريخية المغربية، مبرزة بهذا خصوصية وبالتالي سياقية إشكالية اللسانيات الاجتماعية الحضرية بالمغرب، كما هي مأثورة عند الباحثة. وقد نشرت هذه الأعمال في سلسلة Sciences du langage، حيث كلفتني منشورات Modulaires Européennes لجوي جوكوا بإدارتها .

خلال شهر دجنبر 2004، وجهت لي ليلي المسعودي دعوة، سمحت لي بالتعرف على جامعة ابن طفيل بالقنيطرة. في إطار هذه الزيارة، وبطلب من ليلي، قدمت مداخلة لسلك الدكتوراه في اللسانيات الاجتماعية، حيث التقيت مجموعة من الطلبة/ الطالبات، مفعمين بالحيوية، يعملون على الارتقاء بوحدة التكوين والبحث UFR التي أنشئت سنة 1997 وتولت ليلي مسؤوليتها، حيث عملت بعد ذلك على إحداث وحدة الدكتوراه في سنة 2001. كما انخرط هؤلاء الطلبة في مختبر اللغة والمجتمع عند تأسيسه سنة 2005، عوضا عن وحدة التكوين والبحث، وطبقا للهيكل الجديدة للبحث العلمي من قبل الوزارة الوصية، والذي حصل على اعتراف المركز الوطني للبحث العلمي والتقني المغربي (CNRST-URAC56). تحت إشراف ليلي المسعودي، أصبح هذا المختبر أحد المراكز الأكثر إشعاعا في المغرب، في إطار موضوع حيوي بالنسبة للمجتمع المغربي وهو التعدد اللغوي.

اللغة التقنية ملتقى العلوم والمعارف

- 207..... حنان بندحمان
موقع الشاهد في المعجم اللغوي
- 221..... عبد الغني أبو العزم
عوائق تعلّم مهارة الاستماع في مرحلة ما قبل التمدرس: المحيط الجزائري أنموذجا
- 227..... صحرة دحمان
مفهوم القدرة التواصلية في اللسانيات التعليمية
- 249..... محمد الهاشمي
نظريات واتجاهات القراءة : من المعرفة إلى التأويل
- 259..... محسن اعمار
منشورات ليلى المسعودي..... أنظر الجانب الفرنسي، ص. 309

قائمة المحتويات

تقديم	
9.....	فيليب بلانشي
	مقدمة
13.....	علي الرقيقي، حفيظة العمراني وحنان بندحمان
	نحو تطوير الأداء اللغوي العربي
21.....	عبد اللطيف كمال
	مفهوم المجتمع المركب لدى بول باسكون:
	أسئلة الأصالة والإجرائية والصلاحية والراهنية
35.....	محمد ياقين
	دور التراكمات المعرفية في تطور حضارة إنسان ما قبل التاريخ:
	من العدانة إلى نقش الموروث ثم ابتكار الحرف لتدوين المعرفة
59.....	سعيد البوزيدي
	اللسانيات في العالم العربي
85.....	عبد القادر كنكاي
	اللسانيات الاجتماعية في المغرب من خلال كتاب ليلي المسعودي:
	دراسة في النظرية والمنهج
97.....	عبد النور الحضري
	العربية اللهجية والعامية النموذجية: ميدانيات برديات أقباط مصر
131.....	إبراهيم الكعك
	خطاب الحكاية: هجرة المحكي وامتداد المتخيل
169.....	عبد العزيز اعمار
	عبد الرحمان المجذوب في الدراسات الاستشراقية من خلال كتاب
	كونت هنري دو كاستري
181.....	فاطمة كدو
	فصل المقال في ما بين اللغة الخاصة وشبهاتها من اتصال
191.....	عبد العزيز المطاد

يَتَمَلَّحُ إِلَى بَيْتِهِ

تكامـل المعرفة والعـلوم الإنـسانية



تكریم لیلى المسعودی

تحت إشراف

علی الرقیقی

وحفیظة العمرانی وحنان بندحمان